طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الملك محمد السادس نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الشيخ أحمد بن عجيبة
ومنهجه في التفسير

تأليف
الدكتور حسن عزوزي

الجزء الثاني

1422هـ / 2001م

طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الملك محمد السادس نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الشيخ أحمد بن عجيبة
ومنهجه في التفسير

تأليف
الدكتور حسن عزوزي

الجزء الثاني

1422هـ/2001م

القسم الثالث :

منهج ابن عجيبة في التفسير

القسم الثالث :

منهج ابن عجيبة في التفسير

يمثل هذا القسم الشطر الثاني من البحث، ويتضمن الحديث عن عملية التفسيرعند ابن عجيبة وذكر أبرز مصادره من كتب التفسير وغيرها ثم الحديث عن منهجه في التفسير بالمأثور وما يتعلق به وكذا الحديث عن منهجه بالتفسير بالرأي وما يرتبط به.ويشتمل هذا الأخير على عرض وبيان لأسس التفسير الإشاري في البحر المديد. ثم ينتهي بالإشارة إلى القيمة العلمية لتفسير ابن عجيبة.

وقد جاء هذا القسم على الشكل التالي :

- مبحث تمهيدي
- الباب الأول : مصادر ابن عجيبة في التفسير
- الباب الثاني : منهجه في التفسير بالمأثور، ما يتعلق به
- الباب الثالث : منهجه في التفسير بالرأي وما يتعلق به
- فصل ختامي : القيمة العلمية لتفسير ابن عجيبة.

مبحث تمهيدي :

عملية التفسير عند ابن عجيبة

ترتكز عملية التفسير عند ابن عجيبة في أساسها على المزاوجة بين التفسير بالظاهر والتفسير بالإشارة. وهي مزاوجة تتميز عما عهد لدى كثير من المفسرين الصوفية بكونها اعطت للتفسير بالظاهر المكانة الكاملة وأولته الاستيفاء التام بحيث لم يهيمن جانب التفسير الإشاري علي غيره. فعمل ابن عجيبة في (البحر المديد) فيه تدعيم وتعزيز لعملية التفسير كماهي سائدة معروفة في شكلها (الظاهر) بعملية أخرى لاحقة تهتم باستنباط و استخلاص الإشارات الدقيقة و المعاني الصوفية اللطيفة، وهذا ما يعتبر في حد ذاته اجتهادا فريدا مؤسسا على قواعد وضوابط معينة ينفرد بها عن كثير من المفسرين، ولذلك يمكن القول بأن صوفينا قد أسس فعلا نظرية في التفسير تجمع بين التفسير بالظاهر و التفسير بالإشارة، وهو وإن لم يكن قد ترك لنا تقعيدا واضحا لمعالم هذه النظرية فإن حصر بعض جوانبها و ملامحها ممكن من خلال ما تم تجميعه من آراء للمؤلف في عملية المزاوجة و المراوحة بين التفسيرات الظاهرة و الإشارات الباطنة كما طبقها في تفسيره ومن خلال ثنائية [العبارة - الإشارة] والتي قعد لها في ثنايا كتاباته الأخرى مما يشكل عنصرا بارزا في مذهبه الصوفي. لذلك فإن الفصل الأول من الباب الثالث المخصص للحديث عن التفسير الإشاري عند ابن عجيبة يمكن اعتباره امتدادا لهذا الفصل وجانبا من أهم جوانب عملية التفسير عند ابن عجيبة، لكن نظرا لطوله وتشعب مباحثه جعلته في فصل مستقل.

المطلب الأول :

حول التفسير و المفسر

أولا : التفسير و التأويل و الإشارة

التفسير مشتق من الفسر وهو الإبانة[1]، وفسر الشيء يفسره إذا أبانه، قال تعالى : ﴿ولا ياتونك بمثل إلا جئناك بالحق و أحسن تفسيرا﴾[2] ولم ترد لفظة التفسير في القرآن في غير هذا الموضع.

ويقول ابن عجيبة في بيان معنى التفسير : «التفسير مصدر فسر الشيء أوضحه وبينه وقيل هو مشتق من سفر بمعنى وضح يقال أسفر القمر إذا أضاء نوره و أظهر الأشياء، أما في الاصطلاح فهو العلم الباحث عن معاني القرآن الظاهرة إفرادا وتركيبا وما يتوقف عليه خاصا به وقيل غير ذلك».[3]

وأورد ابن عجيبة تعريفين لكل من أبي حيان و الزركشي فقال : «وحد أبو حيان[4] علم التفسير فقال : هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبة ومعانيها التي يحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك. وقال الزركشي[5]: التفسير علم يعرف به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه

---

1) القاموس المحيط 110/2.

2) الفرقان : 33.

3) تفسير الفاتحة الكبير ص : 62.

4) البحر المحيط 13/1.

5) البرهان في علوم القرآن 13/1.

واستخراج أحكامه وحكمه و استمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان و أصول الفقه والقراءات ويحتاج لمعرفة أحكام النزول والناسخ والمنسوخ».

فابن عجيبة إذن باختياره لهذه التعريفات يقر بأن التفسير في معناه العام والسائد يقتضي الوقوف على عدة علوم يستمد منها، وهذا هو التفسير بالظاهر الذي يأخذ به صوفينا ويعتبره ركنا أساسيا في التفسير عكس بعض المفسرين الصوفية الذي لا يقيمون للتفسير بالظاهر وزنا ولا يرتضون إلا ما حمل منه على محمل الإشارة والنظرية الصوفية.

أما التأويل الذي غالبا ما يقارن بالتفسير فأصله من الأول وهو الرجوع، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : «التأويل : التفسير و المرجع والمصير» وهو ما قرره ابن جرير الطبري حيث قال : (وأما معنى التأويل في كلام العرب فإنه التفسير و المرجع و المصير)[1] ويرى صاحب القاموس المحيط [2] أنه من آل إليه أولا و مآلا : رجع، وأول الكلام تأويلا وتأوله : دبره وقدره وفسره»، وبذلك يفهم من هذا التفسير أنه لافرق بين التفسير والتأويل فهما مترادفان.

أما ابن عجيبة فقد فرق بين التأويل و التفسير حسب ما يقتضيه اللفظ من معان : «فالتأويل هو حمل اللفظ على بعض معانيه إن كان له معان يحتملها لفظه، فإن لم يكن للفظ إلا معنى واحد فيقال فيه : التفسير. وقيل : التأويل إخراج اللفظ عن ظاهرة لغرض أو لمانع، و التفسير هو حمل اللفظ على ما يعطيه ظاهره في عرف تخاطب العرب»[3] فابن عجيبة لا يرى إذن أن التفسير و التأويل بمعنى واحد كما ذهب إليه الطبري و أبو عبيدة، بيد

---

1) ابن جرير : جامع البيان : 77/1 و وانظر : محمد أديب صالح : تفسير النصوص، المكتب الإسلامي، ط 193/4. 356/1 وراجع : التفسير و المفسرون 2213/1.

2) القاموس المحيط 110/2.

3) تفسير الفاتحة الكبير ص : 62.

أنه في ذهابه إلى أن التأويل هو حمل اللفظ على بعض معانيه إن كان له معان يحتملها لفظه يكون قد تمسك بمفهوم التأويل عند الإمام الشافعي وغيره ممن أتى بعده، فالشافعي أخذا من معنى الإرجاع و التصيير سمى حمل اللفظ على معنى من المعاني التي يحتملها تأويلا، فالتأويل في هذه الحالة إرجاع اللفظ وتصييره إلى واحد من هذه المعاني المحتملة، وقد سمى الشافعي في رسالته الذهاب إلى أحد المعنيين في اللفظ المحتمل « تأولا »[1].

وذهب بعض العلماء إلى أن ما وقع مبينا في كتاب الله ومعينا في صحيح السنة سمي تفسيرا لأن معناه قد ظهر ووضح، وليس لإحد أن يتعرض إليه باجتهاد ولا غيره، بل يحمله على المعنى الذي ورد، لا يتعداه، و التأويل ما استنبطه العلماء العاملون لمعاني الخطاب، الماهرون في آلات العلوم».[2]

وقد ذهب ابن عجيبة في بيان معنى التأويل مذهبا مما ثلا لما سبق أن ارتآه بعض المفسرين أمثال البغوي و الكواشي حيث قالوا : «التأويل صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية غير مخالف للكتاب و السنة من طريق الاستنباط »[3] ويفهم من هذا التعريف أن التأويل ينصب على الآية كلها، لا على مفرداتها فحسب، كما أنه يتضمن شروطا ليكون التأويل مقبولا.

أما التعريف الثاني الذي أورده ابن عجيبة للتأويل فقد قال به كثير من المفسرين كما قرره الأصوليون الذين قالوا : « أنه حمل الكلام على معنى غير المعنى الذي يقتضيه الظاهر، بموجب اقتضى أن يحمل على ذلك ويخرج على ظاهره»[4] أما تعريف التأويل بمعنى الباطن الذي ذهب إليه

---

1) الرسالة للإمام الشافعي ص : 458 وانظر كتاب : تفسير النصوص 3621.

2) السيوطي : الإتقان 4 169.

3) البرهان في علوم القرآن : 152/2.

4) انظر : الأمدي : الأحكام 3 73 و الإتقان للسيوطي1924.

بعض الصوفية فلم يقل به ابن عجيبة، بالرغم من أنه نقل بهذا الصدد عن السهروردي في عوارفه قوله : «فالظاهر لفظ القرآن والباطن تأويله»[1]. ولذلك فهو لا يستعمل سوى مصطلح «التفسير» فيما تعلق بالتفسير بالظاهر، غير أنه من خلال استعماله لمصطلح «التأويل» - في حالات نادرة جدا - يبدو أن التأويل عنده إنما يحتاج إليه بعد تفسير الألفاظ الواردة في النص وتبين معانيها الظاهرة، فالتأويل خطوة تالية لخطوة التفسير، لكنها لا تعني قط استنباط الإشارة الصوفية فهو - أي ابن عجيبة - يقصر استعمال مصطلح «التأويل » - على ندرته - في تفسيره على جانب التفسير بالظاهر، وهو ما يتبين بجلاء من خلال استعماله لهذا المصطلح في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**ما أريد منهم من رزق...**﴾[2] وقوله تعالى : ﴿**لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يوتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم**﴾[3] فهو يفترض أن يكون استعمال «التأويل» أحيانا ناتجا عن قصور في اللغة، وبذلك يظهر أن ابن عجيبة يعتبر الفهم الصوفي الذي تنتج عنه الإشارة مستقلا عن التأويل، لأن التأويل لا يوظف إلا لغرض خاص لا يستقيم خطاب القرآن للمؤول بدونه.

أما الإشارة فهي في اللغة بمعنى الإيماء والإيحاء، وهي عند الصوفية عبارة عن لطائف لا حت في قلوبهم من أنوار إلهية بها بينوا بعض معاني آيات القرآن الكريم.

ولهذا سموا أهل الإشارة، وهو مصطلح يكثر وروده في تفسير ابن عجيبة، أما إطلاق كلمة «تفسير» على كلام الصوفية في تأويل آيات القرآن الكريم فهي على سبيل التجوز فقط، لأن علم التفسيرالذي اصطلح عليه جل

---

1) تفسير الفاتحة الكبير ص : 53.

2) الذرايات : 57. وانظر البحر المديد 754.

3) الحديد : 29. وانظر البحر المديد 1094.

المفسرين إنما يراد به البحث عن مراد الله على عكس الإشارة، ولذلك عرفوا التفسير الإشاري - كما سوف يأتي - بأنه : «تأويل آيات القرآن على غير ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأهل العلم و السلوك تقوم على التطابق بينها وبين الظواهر المراد من الآيات القرآنية بوجه من الوجوه الشرعية»[1].

أما ابن عجيبة فيميز بدوره بين التفسير والإشارة تمييزا واضحا فيقول : «التفسير في اللغة هو الكشف و الإيضاح، وفي الاصطلاح هو العلم الباحث عن معاني القرآن الظاهرة إفرادا وتركيبا وما يتوقف عليه خاصا به أو كالخاص، وقيدناه بالمعاني الظاهرة احترازا عن فهوم أهل الإشارات فإنها ليست بالتفسير المتعارف بل هي خارجة عما تؤديه العبارة »[2]. ويأتي هذا التمييز بين المصطلحين بصورة أوضح عند قوله في معرض تفسيره لآية قرآنية على طريق أرباب السلوك : «وهو تفسير إشارة لا تفسير معنى اللفظ »[3].

ويرى ابن عجيبة أن جانب الإشارة مرتبط بحقل التفسير ارتباطا وثيقا، فالتفسير الكامل هو الذي يجمع فيه صاحبه بين المجالين بتناسق ومراوحة تجعل الإشارة توضح العبارة وتبينها أجلى بيان، وتبرز معاني النظم الكريم إبرازا محكما، وقد تحدث صوفينا عن شروط المفسر وآدابه وأكد على أنه ينبغي على المفسر أن يكون من أهل التنوير جامعا بين حقيقة وشريعة، فالمعاني الباطنية لا يمكن أن يغوص عليها إلا من أشرقت على قلبه أنوار الشموس العرفانية، ولكي يبلغ هذا المفسر هذه المرتبة عليه أن يكون ورعا زاهدا ذا همة عالية وبصيرة نافذة، إذ كما يقول : «من لم يكن

---

1) أصول التفسير وقواعده للعك ص : 205، وانظر : التفسير و المفسرون 381/2.

2) تفسير الفاتحة الكبير ص : 6.

3) إيقاظ الهمم 220/2.

هكذا كان حظه من التفسير القشر الظاهر، أما لب القرآن فلا يشم له رائحة لأن معاني القرآن لا تنكشف إلا لقلب صفت مرآته من الصدإ»[1].

وكثيرا ما يشير ابن عجيبة إلى هذا الصدإ الذي يطال قلوب بعض الناس المحجوبين عن فهم وتدبر آيات الكتاب العزيز ويؤدي إلى جمود الأفهام، وهو الجمود الذي تتظافر على تكريسه عدة عوامل عبر عنها الإمام الغزالي بالحجب التي تمنع القلب من التدبر و التفهم، وقد أحال ابن عجيبة في هذا الصدد على كلام الغزالي حول هذه الحجب المانعة من التدبر. وفيما يلي نص الكلام ننقله لأهميته وفائدته، يقول الغزالي : «والحجب التي تمنع من التدبر والتفهم أربعة :

أولها : أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن معاني كلام الله، فلا يزال يحملهم على ترديد الحروف ويخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه، فهذا يكون تأمله مقصورا على مخارج الحروف فأنى تكشف له المعاني.

ثانيها : أن يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه من غير وصول إليه ببصيرة، فلا يمكن أن يخطر بباله غير معتقده، فصار نظره مقصورا على مسموعه، ثم قال : وجمود الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى الغور على الباطن.

ثالثها : أن يكون مصرا على ذنب أو متصفا بكبر أو مبتلى بهوى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصداه، وهو كالخبث على المرآة فيمنع حلية الحق من أن يتجلى فيه، وهو أعظم حجاب للقلب وبه حجب الأكثرون، وكلما كانت الشهوات أكثر تراكما كانت معاني القرآن أشد احتجابا، وكلما خفت عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلي المعنى فيه. فالقلب مثل المرآة،

---

1) تفسير الفاتحة الكبير ص : 58

والشهوات مثل الصدإ ومعاني القرآن مثل الصور التي تقرر في المرآة... ولذلك قال ﷺ : «**إذا عظمت أمتي الدنيا و الدرهم نزع منها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر حرموا بركة الوحي...**»[1] وقد شرط الله الإنابة في فهم القرآن فقال تعالى : ﴿**تبصرة وذكرى لكل عبد منيب**﴾[2].

وقال تعالى : ﴿**وما يتذكر إلا من ينيب**﴾[3] وقال تعالى : ﴿**إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾[4] والذي آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة ليس من ذوي الألباب فلذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب.

رابعها : أن يكون قد قرأ تفسيرا ظاهرا واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيره وإن ما وراء ذلك تفسير بالرأي، ومن فسر القرآن بالرأي فقد تبوأ مقعده من النار. فهذا أيضا من الحجب العظيمة.

وهكذا نجد أن الفهم الإشاري الذي اختاره ابن عجيبة وسيلة لتذوق القرآن والاندماج في أعماقه يتميز عن التفسير والتأويل، إذ الإشارة لا يتوصل إليها بعلوم اللغة والنحو و لا بالرواية و النقل، فهي إلهامات وإيحاءات تلوح لمن ترقى في معراج التصوف وتوجه إلى الله تعالى بكليته.

والذي يمكن استنتاجه من خلال ما سبق أن ابن عجيبة يرى :

أن التفسير و التأويل مرحلتان تسبقان مرحلة الفهم الإشاري.

إن مستوى الفهم الإشاري لا يبلغه إلا من كان ورعا زاهدا ذا بصيرة نافذة، قد صفا قلبه من الحجب التي تمنع من التدبر عكس المستويات الأخرى.

---

1) لم أعثر على من أخرجه من أصحاب كتاب السنة.

2) ق : 8.

3) غافر : 13.

4) لزمر : 9.

إن الإشارة ليست بتفسير بقدر ما هي لطائف صوفية دقيقة، وإطلاق كلمة «تفسير» على الإشارات إنما هو على سبيل التجوز فحسب.

ثانيا : العبارة والإشارة والرمز

بعد أن شرحنا الفروق بين التفسير والتأويل والإشارة، نبقى مع القسم الثالث الذي هو «الإشارة» لنقابله بما يعرف ب «العبارة» كمصطلح خاص بالصوفية، بيد أن العلاقة بين العبارة والإشارة هي العلاقة نفسها بين الظاهر والباطن، إذ ظاهر العبارة هو ما تدل عليه من حيث وضعية اللغة، وإذا كانت لغة العبارة محددة المعنى قائمة على قواعد وأسس متعارف عليها، ويجب أن تكون كذلك حتى تستجيب لمتطلبات الحياة العملية فإن لغة الإشارة تبقى دائما «حبلى» بالمعاني والدلالات الروحية التي تستجيب لأكثر من تجربة صوفية وتحتمل بالتالي أكثر من إشارة، ولذلك كان شيخ ابن عجيبة محمد البوزيدي لا يقيم في أشعاره وزنا للقواعد والقوالب الشعرية المعروفة بل كان يوصي بالإبقاء عليها مضطربة الأوزان كما هي، ويقول : من طلب المعاني وجدها، ومن طلب الحروف والأوزان يبقى معها»[1].

وتستمد الإشارة أهميتها وقيمتها من اعتبار علماء الأصول لدلالتها، فإنهم لما تكلموا على ألفاظ الكتاب والسنة وقسموا دلالتها إلى نوعين : منطوق ومفهوم، قسموا دلالة المنطوق إلى دلالة اقتضاء ودلالة إشارة :[2]

---

1) المعسكري : كنز الأسرار. خ خ ع بالرباط رقم 2841 ك ص : 123.

2) هناك من يقسم دلالة المنطوق إلى ثلاثة أقسام : دلالة اقتضاء و دلالة إيماء ودلالة إشارة. أما دلالة الإشارة فقد عرفوها بأنها: (دلالة اللفظ على لازم غير مقصود للمتكلم لا يتوقف عليه صدق الكلام و لا صحته) محمد أديب صالح : تفسير النصوص 605/1. وقال الغزالي في مستصفاه : (فكما أن المتكلم قد يفهم بإشارته وحركته في أثناء كلامه ما لا يدل عليه نفس اللفظ فيسمى إشارة فكذلك قد يتبع اللفظ ما لم يقصد به ويبني عليه) المستصفى 188/2

ومثلوا للأخيرة بقوله تعالى ﴿أحِل لَكُمْ لَيلَة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾[1] وقالوا دلت الآية بطريق المنطوق على إحلال الجماع طول ليلة الصيام. ويؤخذ منها بطريق الإشارة صحة صوم من أصبح جنبا.... فكما استخرج علماء الأصول والفقه من ألفاظ القرآن والسنة بطريق الإشارة، أحكاما تشريعية، كذلك استخرج الصوفية بطريقها علوما ربانية».[2]

فالإشارة إذن - كما سبق أن بينا - مجرد إيحاء بالمعنى دون تحديد مقصود متعين عكس العبارة التي وإن لم تكن محددة للمعنى القرآني تحديدا قطعيا إلا أنها أقرب ما تكون إلى ذلك من الإشارة، غير أن مستعمل العبارة يبقى سجين اللغة الموظفة و الذات المستعملة لتلك اللغة عكس مستعمل الإشارة، فهو من خلال تجربته الصوفية الحية لا يرى في العبارة سوى مجموعة من الإشارات والإيحاءات الدالة عليها، يجب عليه أن يستخرجها ويكشف عنها بطريق التفاعل مع صورها والتعاطف مع معانيها، لذلك نجد ابن عجيبة كثيرا ما يشكو بطريقة غير صريحة من ضيق العبارة وعدم قابلية قوالبها اللغوية لاستيعاب المعاني والإشارات المراد التعبيرعنها، لذلك فهو يرى أن التجربة الصوفية كلما ازدادت عمقا وتجريدا كلما ازدادت شفافية ورقة، ولذلك قالوا : «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة» ويقول ابن عجيبة في بعض التفسيرات الإشارية التي أوردها في تفسيره : «وهذا يسلم في طريق الإشارة لأنها خارجة عن سياق العبارة».[3]

ويصنف صوفينا الناس حسب مستوى إدراكهم للإشارات الصوفية وفهمهم لمعانيها إلى ثلاثة أصناف :

---

1) البقرة 187.

2) أبو الفضل عبد الله محمد الصديق الغماري : كتاب بدع التفاسير، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط 1986/2 ص 151.

3) انظر على سبيل المثال : البحر المديد 33/4.

«فمنهم من لا يفهم منها شيئا ولا يعرف إلا ظاهر العبارة وهم الجهال من عموم الناس، ومنهم من يفهم المقصود ويجد الحق بعد سماع الإشارة وهم أهل البداية من السائرين.

ومنهم من يفهم الإشارة ويجد المشار إليه وهو الحق أقرب إليه من إشارته وهم أهل الفناء في الذات قبل التمكين».[1]

لذلك نرى ابن عجيبة يوصي دوما بضرورة حماية الإشارة الصوفية من العامة ومن فهمهم السطحي، فللحقيقة الصوفية سر لا يجب كشفه لغير أربابه ومجربيه، وإذا ما تم الإفصاح عن ذلك فالمطلوب من عامة الناس التسليم بذلك والتفويض لقائليه دون توجيه الانتقاد إليهم أو لومهم في شيء، يقول ابن عجيبة : «وهذه الأمور كلها ألغاز وإشارات لا يسلمها أهل الظاهر وإنما يتذوقها أهل الباطن[2] ويلغزون بينهم بها، وقد قالوا[3] علمنا كله إشارة فإذا صار عبارة خفي»[4] ويقول بعد تفسيره لآية النور من سورة النور تفسيرا إشاريا لطيفا : «و لا يفهم هذا إلا أهل الفناء من العارفين بالله وحسب من لم يبلغ مقامهم التسليم لما رمزوا إليه وتحققوه ذوقا وكشفا».[5]

إن استخدام ابن عجيبة لكلمة «الإشارة» في تفسير النص القرآني، وبالتالي توظيفه لباب «الإشارة عقب كل تفسير بالظاهر لآيات القرآن الكريم لا يعني أدنى تعارض بين العبارةوالاشارة أو بين الظاهر والباطن، ولكنها تعني استخدام مصطلح يتوافق مع رمزية النص من جهة ويتحاشى

---

1) إيقاظ الهمم 119/1.

2) يستعمل ابن عجيبة مصطلح «أهل الباطن» مرادفا لأهل الإشارة، انظر الإيقاظ 29/2. وراجع قوله : «وأما تفسير أهل الباطن فهو إشارة لا تفسير معنى» الإيقاظ 112/2.

3) من كلام الروذياري الصوفي.

4) الفتوحات الإلهية 114/1 ويلاحظ من خلال هذا النص استعمال ابن عجيبة للفظة «ألغاز» مرادفة للإشارات.

5) البحر المديد : 67/3.

هجوم الفقهاء - الذين جمدوا على ظواهر النصوص - من جهة أخرى، على اعتبار أنهم - أي الفقهاء- يقبلون مصطلح «الإشارة» كمدلول للتفسير الصوفي الذي لا يتعلق بتفسير ظواهر النصوص .

ولهذا الأمر فالنص القرآني عند ابن عجيبة تكمن أهمية تفسيره في كونه يحمل دلالة مزدوجة، دلالة العبارة ودلالة الإشارة أو بالأحرى دلالته على المعرفة الكونية الظاهرة ودلالته على المعرفة الصوفية الباطنة، يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَى يتبين لهم أنه الحق**﴾[1] «قد اشتملت الآية على مقام الاستدلال في مقام الإيمان، وعلى مقام العيان في مقام الإحسان»[2] فدلالته على الكون الظاهر – مقام الاستدلال في مقام الإيمان «سنريهم آياتنا في الآفاق» ودلالته على المعرفة الباطنة – مقام العيان في مقام الإحسان «وفي انفسهم» فالمعنى الظاهر الذي يفهمه عامة الفقهاء هو دلالة النص القرآني على الكون الظاهر والإشارة هي المعاني التي يفهمها المتصوفة.

أما مصطلح «الرمز» فيوظفه ابن عجيبة توظيفا مماثلا، فالرمز عنده بمعناه العام يعطي نفس مدلول «الإشارة» فأهل الإشارة هم أهل الرموز[3]، وتفسير القرآن بالإشارة أو بالرمز بمعنى واحد[4]، بيد أن ثمة فروقا دقيقة بين الإشارة والرمز يلحظها ابن عجيبة بعناية مؤكدا على أن الرمز يستعمل فيما هو أدق من الإشارة فيقول : «الإشارة أرق وأدق من العبارة والرمز أدق من الإشارة، فالأمور ثلاثة : عبارات وإشارات ورموز، وكل واحدة أدق مما قبلها، فالعبارة توضح والإشارة تلوح والرمز يفرح، أي يفرح القلوب بإقبال المحبوب» فالرموز إيماء وأسرار بين المحبوب وحبيبه لا يفهمها

---

1) فصلت : 53.

2) البحر المديد : 244/3.

3) انظر مثلا تفسيره لقوله تعالى : ﴿**أرباب متفرقون**﴾ حيث يعبر عن أهل الإشارة والرموز (البحر المديد 1062).

4) انظر تفسير الفاتحة الكبير ص : 57.

غيرهم، ومنها في القرآن فواتح السور ... قال الشيخ زروق (ض) في شرح الحزب الكبير : «وقد حارت العقول في رموز الحكماء فكيف بالعلماء فكيف بالأنبياء فكيف بالمرسلين، فكيف يطمع في حقائق رب العالمين[1].

فابن عجيبة من خلال هذا النص يعطي لمصطلح الرمز مستوى أدق وأعلى من مستوى الإشارة التي يدركها أربابها من أهل الفن، غير أننا لا نكاد نعثر في تفسيره على هذا النوع من التمييز بين المصطلحين، وكل ما أمكن ملاحظته بهذا الصدد هو استعماله أحيانا لعبارة «أهل الرموز» مرادفة لأهل الإشارة. كما أنه يستعمل لفظة «الرمز» و«الرموز» فيما تعلق بالحروف المقطعة من فواتح السور التي هي : «رموز رمز الله تعالى بها بينه وبين حبيبه»[2].

وكثيرا ما يفرق الصوفية بين الإشارة والرمز بأن الرمز يكون استعماله خاصا بتلك الشطحات التي يعبر عنها أرباب التصوف النظري الفلسفي، ينفسون من خلاله عن معاناتهم الباطنية حيث يمكنهم الرمز من بعض التعبير خوفا من أن يجر عليهم وبالا من الانتقادات، بل ربما كفر الصوفي أو فسق من أجل ذلك، كما هو الشأن بالنسبة للحلاج (ت 309) وابن سبعين (ت 667) وابن عربي (ت 638) والسهروردي المقتول (ت 587) وغيرهم.

ويوجه أحمد زروق معاني «الرمز» ويحصرها في أربعة مقاصد :

أ) قوة الحال التي توجب التنفيس بالكلام .

ب) إرشاد سالك وتقريب المعنى له.

ج) مراعاة الاختصار بحيث إن الرمز الوجيز يستطيع أن يحمل دلالات واسعة.

---

1) إيقاظ الهمم 118/1.

2) انظر مثلا : البحر المديد 6/1 (الم من البقرة) و1/2 (المص من الأعراف).

د) الحيلولة دون بلوغ حقائقهم إلى من ليس هو من طائفتهم على الحقيقة[1].

ويرى ابن عربي «أن الرموز ليست مرادفة لأنفسها وإنما لما رمزت له، ولما ألغز فيها، ومواضعها من القرآن آيات الاعتبار كلها والتنبيه على ذلك قوله تعالى : ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس** ...﴾[2].

وكذلك الإشارة والإيماء قال تعالى : لنبيه زكريا : ﴿**أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا**﴾[3]. أي بالإشارة، وكذلك ﴿**فأشارت إليه**﴾[4] في قصة مريم لما نذرت للرحمان أن تمسك عن الكلام.[5]

إن الفارق بين الظاهر والباطن وبين العبارة والإشارة والرمز فارق كيفي لا كمي، فالإشارة أفصح من العبارة والرمز أدق من الإشارة، لذلك يصر ابن عجيبة على ضرورة الجمع بين الظاهر والباطن في فهم النص القرآني، لأن الظاهر يمثل الرمز الذي لا يمكن النفاذ إلى المرموز إليه الباطن إلا من خلاله.

ثالثا : عدة المفسر

ورد النهي عن القول في القرآن بغير علم، واختلف الناس في تفسيرالقرآن هل يجوز لكل أحد الخوض فيه أم لا ؟ وقد ذهب جمهور العلماء إلى أنه لايجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن إلا بعد أن يكون جامعا وملما بالعلوم التي يحتاج المفسر إليها.

---

1) انظر قواعد التصوف لزروق (القاعدة 196).

2) العنكبوت : 43.

3) آل عمران : 41.

4) مريم : 29.

5) ابن عربي الفتوحات المكية، طبعة دار صادر، بيروت، بدون تاريخ 189/1.

وقد عقد ابن عجيبة في تفسيره الكبير للفاتحة مبحثا مهما حول العلوم التي يجب على المفسر أن يتوفر عليها قبل إقدامه على تفسير كلام الله تعالى، فنقل عن السيوطي ما جاء في إتقانه من ذكره لخمسة عشر علما يجب على كل مفسر استيعابها وهي باختصار : اللغة، النحو، التصريف، الاشتقاق، المعاني، البيان، البديع، القراءات القرآنية، أصول الدين، أصول الفقه، أسباب النزول، الناسخ والمنسوخ، الفقه، علم الحديث ثم أخيرا علم الموهبة[1]. غير أن ابن عجيبة لم يرتض هذا الحصر الذي أو رده السيوطي نقلا عن بعض العلماء فأضاف علوما أخرى مهمة استنبطها من خلال بعض الآيات القرآنية التي تشير وتومئ إليها ونبه إلى أن المفسر إنما يتوقف عليها كمالا أو شرطا، إذ هي في مجملها علوم ثانوية لا يتوقف إدراكها على ضبط لقواعد معينة أو استيعاب لحقول معرفية معلومة، وقد ميز المؤلف بين علوم يكثر ورودها في القرآن مثل : القصص والأخبار وعلم المنطق وعلم التنجيم والهيئة وبين علوم أخرى وقعت بعض الإشارات إلى بعضها.

1 – فمن الصنف الأول علم القصص والأخبار، فلما كان القرآن قد اشتمل على قصص الأولين كان لا بد من مطالعتها لتحرير معاني القرآن غير أن «منها ما يتوقف عليه البيان فهو المحتاج إليه وما سواه إمتاع وتطويل، وقد يذكر منها ما يعلم بالنقل أو بالعقل أنه كذب فلا يجوز التعرض له». وقد استطاع ابن عجيبة أن يلتزم بهذا الشرط في تفسيره حيث يمكن تبين براعته وقدرته الفائقة في الربط بين مختلف القصص القرآني واستقصاء النظائر والمقارنة بين السياقات المختلفة التي يكثر ورود القصة القرآنية الواحدة ضمن عدد كثير منها : كما أنه تقيد إلى حد ما

---

1) تفسير الفاتحة الكبير : المقدمة الخامسة ص : 58 60 وراجع : الإتقان للسيوطي 185/4 - 188.

- على سبيل الحيطة والحذر - بعدم التعرض لكثير من القصص والروايات التي ثبت كذبها.

2 – ومنها علم المنطق[1]. فقد وقع في القرآن الإشارة إلى الأقيسة الاستثنائية والاقترانية، فالاستثنائية كقوله تعالى ﴿**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾[2] وقوله : ﴿**لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها**﴾[3] والاقترانية، كقوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام في الاحتجاج على نمرود أن الله يأتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب[4] أي هو تعالى قادر على ذلك وأنت لا تقدر ومن لايقدر فليس بإلاه، وكقوله أيضا في شأن القمر ﴿**لا أحب الأفلين**﴾[5] أي فالقمر آفل والرب تعالى ليس بآفل وكل آفل ليس برب».

3 – ومنها علم التنجيم والهيئة «فإن في القرآن العظيم كثيرا من الإشارة إليه كقوله تعالى : ﴿**هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب**﴾[6] وقوله تعالى : ﴿**والشمس والقمر كل في فلك يسبحون**﴾[7] وقوله تعالى : ﴿**تبارك الذي جعل في السماء بروجا**﴾[8] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على علم الفلك.

---

1) من بين الكتب التي حصلها في مرحلة الطلب والمتعلقة بعلم المنطق : كتاب المختصر للسنوسي والسلم للأخضري، انظر الفهرسة ص :30.

2) الأنبياء 22 وانظر ذلك في البحر المديد27/3.

3) الأنبياء 99 وانظر تفصيل في البحر المديد 36/3.

4) البقرة 258 والآية هي قوله تعالى : ﴿**قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب**﴾ انظر البحر المديد 59/1.

5) الأنعام 76 وانظر تفصيل ذلك في البحر المديد 167/1.

6) يونس 5 وانظر البحر المديد 59/2.

7) الأنبياء 33 وانظر البحر المديد 28/3 حيث أو رد بعض أقوال أهل الهيئة وأسماء الأفلاك التسعة.

8) الفرقان 61 وانظر البحر المديد 84/3 حيث أو رد أسماء البروج الاثني عشر التي هي منازل الكواكب السبعة السيارة.

أما العلوم التي يرى ابن عجيبة أن القرآن قد أشار إليها إشارات عابرة فمنها : الطب، والحساب وغيرهما، فضلا عن كثير من عجائب الصنائع والعلوم مما نقله المؤلف عن السيوطي الذي ساقه بدوره من تفسير ابن أبي الفضل المرسي، مع إضافات وتفسيرات مهمة لابن عجيبة[1] وهذا يدل ولا شك على أن صوفينا كان يذهب مذهب القائلين بالتفسير العلمي للقرآن واشتماله على كل شيء من أنواع العلوم مصداقا لقوله تعالى ﴿**ما فرطنا في الكتاب من شيء**﴾[2] وقوله عز وجل : ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء**﴾[3] وهو المذهب الذي ذهب إليه كل من الغزالي (ت 505) والرازي (ت 606) والسيوطي (ت911) وعارضه الإمام الشاطبي (ت 790) وغيره[4]، فقد وجدت فكرة التوفيق بين بعض مضامين القرآن الكريم وما جد من العلوم في عصر ابن عجيبة (ق13ه/18م) الذي هو عصر النهضة في أو ربا قبولا حسنا لدى المؤلف. ويبقى أن الذي يهمنا ونحن نحاول معرفة العلوم التي يرى ابن عجيبة أنها ضرورية لكل مفسر هو ما نقله عن السيوطي من العلوم الخمسة عشر فضلا عن العلوم الأخرى التي أضافها.

بيد أن أبرز ما يميز حديث ابن عجيبة عن هذه العلوم هو ذهابه إلى أن علم الموهبة هو العلم الخامس عشر المذكور في الإتقان إنما يقصد به علم التصوف، وذلك لاشتمال القرآن على أنواع المعارف ومقامات اليقين، وهو علم يورثه الله لمن عمل بما علم وإليه الإشارة بحديث : « **من عمل بما علم أو رثه الله علم ما لم يعلم** »[5].

---

1) تفسير الفاتحة الكبير ص : 61 وراجع الإتقان للسيوطي 187/4.

2) الأنعام : 38.

3) النحل : 89.

4) التفسير والمفسرون 530/2.

5) أو رده الغزالي في الإحياء 99/1. وقال العراقي في تخريجه : أخرجه أبو نعيم في الحلية.

ويؤكد المؤلف - وهوالمفسر الصوفي - على هذا العلم كشرط ضروري للمفسر الذي ينبغي من علمه الاحاطة بالمعاني الظاهرة والإشارات الباطنة على السواء، فينبغي للمفسر أن يكون جامعا بين الحقيقة والشريعة مادام القرآن يضم الظاهر والباطن، كما أنه لا بد أن يكون من أهل الورع والزهد ونفاذ البصيرة ولذلك يؤكد ابن عجيبة على ما ذهب إليه سفيان بن عينة في تفسيره لقوله تعالى : ﴿**سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق**﴾ بقوله : ﴿**سأنزع عنهم فهم القرآن**﴾ فكل من كان مبتلى بحب الدنيا أو حب الجاه أو الرياسة أو غير ذلك من العيوب لا يطمع أن يفهم دقائق أسرار القرآن[1]. وإذا كان ابن عجيبة قد فسر علم الموهبة بعلم التصوف فإن واحدا من شيوخ أشياخه وهو أحمد بن عبد العزيز الهلالي (ت 1175) الذي نقل في مقدمة تفسيره[2] العلوم الخمسة عشر الواردة في الإتقان قد فسر علم الموهبة بأنه «لا يحصل علمها إلا بارتكاب سببه الموجب له وهو العمل والزهد ....»[3]. إلا أنه عقب على ذلك بكلام يشعر أنه لا مجال للقول بأن علم الموهبة هو علم التصوف وأمعن في الاستدلال لهذا الكلام بسوقه لأقوال ابن الصلاح والتفتازاني وبعض السلف في رفض التفسير الصوفي وعدم شرعيته. فهل يمكن اعتبار تأكيد ابن عجيبة على أن علم الموهبة هو علم التصوف ردا على سلفه فيما نحا إليه ؟

---

1) تفسير الفاتحة الكبير ص 58.

2) توجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة الحسنية بالرباط تحمل رقم 5345 نسخت عام 1211. وقد وضع المؤلف مقدمة للتفسير على غرار مقدمة ابن عطية .

3) تفسير الهلالي : ورقة 4 ظ.

المطلب الثاني :

البحر المديد بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي

اشتهرت بعض التفاسير بكونها داخلة في عداد التفسير بالمأثور كتفسير الطبري وتفسير ابن كثير وغيرهما كما اشتهرت أخرى بأنها تفاسير بالرأي وهي كثيرة. ويبدو أن هذا التمييز نسبي إلى حد ما خاصة فيما يتعلق بالتفاسير المتأخرة، ذلك أنه قلما نجد كتابا من كتب التفسير بالمأثور خاليا تماما من التفسير بالرأي والاجتهاد، إلا ما كان من تفاسير التابعين وتابعيهم إلى حدود القرن الثالث ممن اهتموا بالرواية فحسب[1] وإذا دققنا النظر فإننا نجد كذلك من الصعوبة بمكان تجريد التفسير بالرأي عن التفسير بالمأثور، إذ أن التفسير بالرأي قائم على التفسير بالمأثور، وما سميت بعض التفاسير بأنها من قبيل التفسير بالرأي إلا لغلبة الرأي والاجتهاد فيها، إذ أنها تعنى في غالب الأحيان بتفسير القرآن بالقرآن وبالأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين وآثار السلف .

وقد نقل د .محمد حسين الذهبي عن الراغب الاصفهاني قوله : «فمن اقتصر على المنقول إليه فقد ترك كثيرا مما يحتاج إليه، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط، ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى ﴿**ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب**﴾.[2] وعقب الذهبي على هذا قائلا : «إذ أن

---

1) مثل تفاسير شعبة وعبد الرزاق والنسائي وابن أبي حاتم وبقي بن مخلد. الاتقان 242/4.

2) سورة ص : 29.

الجمود على المنقول تقصير وتفريط بلا نزاع، والخوض في التفسير لكل إنسان غلو وإفراط بلا جدال).[1]

وقد اعتمد التفسير بالمأثور في بداياته في عصر الصحابة والتابعين ومن بعدهم على طريق التلقي والرواية دون مزجه بشيء من الرأي، وبقي الاتجاه النقلي محتفظا بسماته العامة من حيث الاعتماد على نقل المأثور إلى أن أخذت الرواية بالاسناد تتراجع شيئا فشيئا فكانت عملية اختصار الأسانيد أول الأمر ثم بعد ذلك أضاف المفسرون ما سنح لهم من آراء واجتهادات، وأقحموا في تفاسيرهم كثيرا من الأقوال التي لا تمت إلى المأثور والمنقول بصلة وهكذا أصبح التفسير المدون مزيجا من التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي .

وقد ظهرت مع بعض التابعين البذور الأولى للتفسير بالرأي، يأتي على رأسهم مجاهد ابن جبر تلميذ ابن عباس (ضما)، وقد كان يولي للجانب العقلي في التفسير أهمية كبرى فيتوسع في فهم نصوص القرآن التي يبدو ظاهرها بعيدا خاصة عندما يتعلق الأمر بمصطلح «المثل» الذي يرادف مفهوم التشبيه[2].

بيد أن تفسيرات مجاهد وغيره من التابعين وتابعيهم النزاعة إلى شيء من الرأي والاجتهاد لا تعدو أن تمثل طابعا متحررا من التقليد في الرواية والنقل، واجتهادا في التثبت والتمحيص، كل ذلك في إطار محدود، وإلا فإن تاريخ التفسير قد أثبت التجاء ورجوع خصوم أهل الرأي إلى مجاهد في كثير من الروايات على أساس كونه حجة في التفسير بالمأثور.

---

1) الذهبي : التفسير والمفسرون 264/1.

2) انظر مثلا تفسير مجاهد لقوله تعالى : ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ (البقرة 65) حيث قال «مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفارا» وقد عقب الطبري على تفسير مجاهد هذا بالتقييد (انظر تفسير الطبري 235/1) غير أن ابن عجيبة لم يتوان في الأخذ بتفسير مجاهد وإن لم يشر إلى ذلك (انظر البحر المديد 18/1).

ولقد كان لابد من انتظار بروز عالم موسوعي كابن جرير الطبري (ت 311) ليقوم باستعمال شيء من النظر والتحقيق مع الاعتماد بالأساس على الأخبار والمرويات المأثورة ولذلك جاء كتابه «جامع البيان في تأويل آي القرآن» غاية في جمع المأثورات لكن مع توظيف نوع من المقارنة والترجيح والتحقيق والنظر معتمدا على عنصر بيان الأحكام استنادا إلى فتاوي الفقهاء وأرائهم. يقول الدكتور أحمد الشرباصي : «والكثيرون على أن أعظم كتاب يضم المأثور من التفسير هو تفسير محمد بن جرير الطبري وهو يعد حجر الأساس في أدب التفسير القرآني وفيه بذور لإبداء النظر في التفسير وفتح للباب أمام إعمال الرأي في التفسير».[1]

فابن جرير إذن لم يقف عند عرض المرويات المأثورة فحسب، بل إنه - وهو الفقيه المؤرخ النظار المتكلم - قد ناقش وجادل ونفى وأثبت. وبالتالي فقد اعتمد الاثر النقلي ومزجه بالرأي والنظر وهو ما يبدو جليا من خلال اختياراته وترجيحاته ويظهر كذلك من خلال نقله لاختلافات النحويين من بصريين وكوفيين ورده لكثير من الأقوال والأراء.

ولا نرى داعيا لنقل حجج القائلين بالتفسير بالرأي وحجج غيرهم من القائلين بالتفسير بالمأثور مما ساقه كثير ممن ألف في موضوع «التفسير بالرأي بين الجواز والمنع» غير أن الذي يتضح من كل ذلك أن لا حرج على التفسير بالرأي المستكمل لشروطه وضوابطه، بل إننا نستطيع أن نتجاوز مرحلة التوفيق بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي إلى تقرير حقيقة موضوعية وهي أن كلا النوعين مرتبط بالآخر ارتباطا وثيقا تدرج بعد عصر الصحابة حتى دخل بعد عصر التابعين في مرحلة التداخل والامتزاج، وبرز تفسير الدارية العقلي إلى جانب تفسير الرواية النقلي،

---

1) الشرباصي : قصة التفسير . دار الجيل . بيروت. ط 1978/2 ص : 54.

والتحم به حتى في أمهات كتب التفسير بالمأثور، فقام التفسير بالرأي بالدور المساعد على فهم المأثور.

فهذا ابن خلدون (ت 808) يعرض للصلة الوثيقة بين الرواية والدراية فيقول : «وهذا الصنف من التفسير - أي التفسير بالرأي - قل أن ينفرد عن الأول، إذ الأول هو المقصود بالذات وإنما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة، نعم قد يكون في بعض التفاسير غالبا.....»[1]

أما ابن عجيبة فيبين لنا موقفه من التفسير بالرأي من خلال نقله لكلام للإمام الغزالي عن الحجب التي تمنع القلب من التدبر والتفهم معتبرا أن التفسير بالرأي ما وافق الهوى الفاسد[2] حيث يحمل القرآن على ما يوافق الهوى للاحتجاج به على تصحيح غرض ما. أما استنباط الأحكام واستخراج الفوائد والعلوم منه فليس منه، ويشهد لذلك قول علي كرم الله وجهه : «إلا أن يوتي الله العبد فهما في القرآن».

وقد التزم ابن عجيبة في تفسيره الجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي فضلا عن تقرير التفسيرات الإشارية التي يرى المؤلف أنه لا يصح ذكرها إلا بعد تقرير التفسير الظاهر[3] الذي يشمل التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، وهكذا نجده قد ضم المأثور إلى الرأي وراوح بينهما بشكل متسق، فيبتدئ في غالب الأحيان بذكر ما تتضمنه الآيات المراد تفسيرها من معان تدل عليه الأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والتابعين وغيرهم

---

1) المقدمة ص : 405 وانظر كتاب : الواحدي ومنهجه في التفسير للدكتور جودة محمد المهدي ص : 157.

2) وهو نفس الرأي الذي ذهب إليه ابن جزي في مقدمة التسهيل حيث اعتبر الذي يفسر القرآن بما تقتضيه قواعد اللغة وقوانين العلوم خارجا عن دائرة التفسير بالرأي الذي يقصد منه الرأي المذموم (التسهيل 91) وقسم ابن القيم الرأي إلى قسمين :

- الرأي الصحيح المحمود وهو الرأي الذي يستند إلى استدلال أو استنباط من النص وحده أو من نص آخر معه.
- الرأي الباطن المذموم : وهو الرأي الذي يستند إلى استدلال أو استنباط بما يخالف النص مخالفة صريحة (إعلام الموقعين 1/67-66).

3) البحر المديد 1/1.

من السلف، ثم بعد ذلك يأتي على ذكر أقوال وأراء المفسرين وعلماء النحو واللغة والبلاغة، فينتظم بذلك التفسير بالمأثور إلى جانب التفسير بالرأي، وفيما يلي بعض الأمثلة والنماذج التي يظهر من خلالها جمعه بين المأثور والرأي في تفسيره :

أ) عند تفسير قوله تعالى ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾[1] قال : «والصراط لغة الطريق مشتق من سرط الطعام أي ابتلعه فكأنه يبتلع السيارة أي المارة به وقلبت السين صادا ليطابق الطاء في الإطباق، والمستقيم الذي لا عوج فيه والمراد به طريق الحق الموصلة إلى حضرة النعيم، والطريق المستقيم هو السير على الشريعة المحمدية في الظاهر والتبري من الحول والقوة في الباطن .... وقال سيدنا علي كرم الله وجهه : الصراط المستقيم هو القرآن وقال جابر رضي الله عنه هو الإسلام يعني الحنفية السمحاء، وقال سهل بن عبد الله هو طريق محمد ﷺ يعني اتباع ما جاء به، وحاصله ما تقدم من إصلاح الظاهر بالشريعة والباطن بالحقيقة، فهذا هو الصراط المستقيم الذي من سلكه كان من الواصلين المقربين مع النبيين والصديقين..... وقال الشيخ أبو العباس المرسي (ض) : إهدنا الصراط المستقيم بالتثبت فيما هو حاصل والإرشاد فيما ليس بحاصل»[2].

من خلال هذا النص يتبين لنا أن ابن عجيبة قد فسر لفظة «الصراط» لغة، وبين المعنى الذي تدل عليه ثم أورد تفسيرات علي (ض) وجابر (ض) وقفى كل ذلك بأقوال سهل بن عبد الله وأبي العباس المرسي مؤكدا في كل ذلك على معنى الجمع بين الشريعة والحقيقة اللذين هما أساس الصراط المستقيم.

---

1) الفاتحة 6.

2) البحر المديد 4/1 وانظر تفسير القشيري 49/1.

ب) ويتجلى جمع ابن عجيبة بين المأثور والرأي من خلال تفسيره للفظة (الفحشاء) من قوله تعالى : ﴿**إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعملون**﴾[1] حيث قال : «والفحشاء ما قبح من القول والفعل مصدر فحش كالبأساء والضراء، قال ابن عباس : «الفحشاء ما فيه حد والسوء ما لا حد فيه» وقال مقاتل : «كل ما في القرآن من ذكر الفحشاء فإنه الزنى إلا قوله ﴿**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء**﴾[2] فإنه البخل، البيضاوي[3] : السوء والفحشاء ما أنكره العقل واستقبحه الشرع، والعطف لاختلاف الوصفين فإنه سوء لاغتمام العاقل به وفحش باستقباحه إياه، وقيل : السوء يعم القبائح والفحش ما تجاوز الحد في القبح[4].

ج) وفي معرض تفسيره لقوله تعالى ﴿**وما أرسلنا من من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته و الله عليم حكيم**﴾[5] تعرض ابن عجيبة لما يعرف بقصة الغرانيق فحاول أن يوفق بين ما جاء في المأثور عن السلف من تفسير لها وما يقتضيه الرأي و النظر في الواقعة، فقال : قال ابن عباس وغيره من المفسرين الأولين رضي الله عنهم : لما رأى النبي ﷺ مباعدة قومه وتوليهم وشق عليه ذلك تمنى أن ياتيه من الله تعالى ما يقارب بينه وبين قومه فجلس يوما في جمع لهم فنزلت سورة النجم فقرأها عليهم فلما بلغ ﴿**أفرايتم اللات و العزى ومناة الثالثة الأخرى**﴾[6] ألقى الشيطان على

---

1) البقرة : 169.

2) البقرة 268.

3) تفسير البيضاوي 209/1.

4) البحر المديد 38/1.

5) الحج 52.

6) النجم 2019.

لسانه : «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى»[1]، قلت بل ألقى ذلك في مسامعهم فقط، ولم ينطق بذلك عليه السلام، فلما سمعت بذلك قريش فرحوا ثم سجد النبي ﷺ في آخر السورة وسجد المسلمون والمشركون إلا الوليد بن المغيرة رفع حفنة من التراب وسجد عليها، فقالت قريش : ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، وقالوا قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده فإذا جعل محمد لها نصيب فنحن معه، فلما أمسى آتاه جبريل فقال : يا محمد ماذا صنعت، فقد تلوت على الناس ما لم آتك به يعني على ما ظهر في الخارج من نسبة ذلك إلى النبيﷺ، فحزن النبي ﷺ حزنا شديدا فنزلت هذه الآية تسلية له عليه السلام .....القشيري[2] : كانت لنبينا عليه الصلاة والسلام سكتات في خلال قراءة القرآن عند انقضاء كل آية فتلفظ الشيطان ببعض الألفاظ فمن لم يكن له تحصيل توهم أنه من ألفاظ الرسول». ابن البنا : التمني هو التلاوة التي يتمنى فيها فيتلو النبي وهو يريد أن يفهم عنه معناها فيلقي الشيطان في فهوم السامعين غير المعنى المراد، وما قاله الزمخشري : قرأ تلك الغرانيق العلى على جهة السهو والغلط فباطل[3] لقول الله العظيم : ﴿**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**﴾[4] فهو معصوم من السهو و الغلط في تبليغ الوحي ا.هـ قلت : فتحصل أنه عليه السلام لم ينطق بتلك الكلمات قط لا سهواً ولا عمداً وإنما ألقيت في مسامع الكفار ليحصل ما تمناه عليه السلام من المقاربة، ويدل على هذا أن من حضر من المسلمين لم يسمعوا من ذلك شيئا، فإذا تقرر هذا علمت أن ما حكاه السلف الصالح من المفسرين وأهل السير من أصل القصة في سبب نزول الآية صحيح لكنه

---

1) تفسير الطبري 7723.

2) القشيري : لطائف الإشارات 5542.

3) الكشاف 204.

4) النجم : 43.

محتاج إلى نظر دقيق وتأويل قريب فلا تحسن المبادرة بالإنكار و الرد عليهم وهم عدول لا سيما وهم أحبار هذه الأمة، وإنما يحتاج اللبيب إلى التطبيق بين المنقول والمعقول فإن لم يمكن قدم المنقول إن ثبتت صحته وحكم على العقل بالعجز، هذا مذهب المحققين من الصوفية رضي الله عنهم»[1].

لقد سقنا هذا النص بطوله لأنه يتضمن لمحات منهجية وإشارات ثاقبة تبين موقف ابن عجيبة الصائب في التوفيق بين ما أثر عن السلف الصالح من الرواية وما يقتضيه الرأي و النظر السديد، فابن عجيبة بعد أن نقل قول ابن عباس (ضما) وغيره من المفسرين الأولين، وهو القول الذي ورد بروايات مختلفة كلها معلولة وباطلة سندا ومتنا كما فصل ذلك الشيخ محمد ناصر الدين الالباني في كتابه : «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق»[2] أورد تفصيل القصة مؤكدا على تنزيه الرسول ﷺ من أن يكون قد تلفظ بشيء من ذلك حيث قال «بل ألقي ذلك في مسامعهم فقط ولم ينطق بذلك عليه السلام».

فاعتماد قول ابن عباس (ضما) دون الإشارة إلى بطلانه وضعفه لم يمنع من تأويل الكلام بما يوافق الحق، وقد عزز ذلك برأيين لعالمين جليلين: الأول للإمام القشيري والثاني للإمام ابن البنا الذي رد على الزمخشري قوله بأن قراءة تلك الجملة كان على سبيل السهو والغلط.

وفي الأخير حاول ابن عجيبة أن يقرر قاعدة أساسية في التوفيق بين المأثور و الرأي مبينا أن الإنكار على السلف الصالح من المفسرين وأهل السير لا يمكن، فكان لا بد من محاولة التطبيق والتوفيق بين المنقول

---

1) البحر المديد 443.

2) الألباني : نصب المجانيق، المكتب الإسلامي ط 1989/2. وقد أورد نصوص تلك الروايات كل من الطبري في تفسيره 121/17 و السيوطي في الدر المنثور 267/4 وغيرهما، وقد ضعف ابن حجر بعض تلك الروايات في فتحه 355/8.

والمعقول إذا أمكن ذلك وإذا لم يمكن قدم المأثور والمنقول إن ثبتت صحته، ولاشك أن هذا التأكيد من ابن عجيبة يترجم لنا مبلغ اهتمامه واعتنائه وتقديره للتفسير المأثور الذي لا يمكن أن يقدَّم عليه – حالة ثبوته[1] – أي مظهر من مظاهر التفسير العقلي القائم على الرأي و النظر و الاجتهاد .

هكذا إذن يكون ابن عجيبة من القائلين بضرورة الجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، ومن الذين لا يرون أي تعارض بين الاتجاهين اللذين يهدفان إلى التكامل و التفاعل حتى تؤدي عملية التفسير ثمرتها ودورها .

1) يلاحظ أن ابن عجيبة لم يلمح إلى ضعف تلك الروايات المأثورة في شأن قصة الغرانيق التي نسفها كثير من علماء الأمة أمثال المامين ابن العربي و القاضي عياض . انظر تفصيل ذلك في « نصب المجاليق » ص : 3326.

المطلب الثالث :

طريقة ابن عجيبة في تفسيره

درج ابن عجيبة من أول تفسيره إلى آخره على تفصيل القول في الآية القرآنية أو مجموعة الآيات التي يتناولها بالتفسير جملة - كمقطع أو وحدة تفسيرية - وفقا لمجموعة من النقط الأساسية الثابتة وهي : سبب النزول - اللغة - الإعراب، القراءة القرآنية فالمعنى ثم التفسير بالإشارة، يضاف أحيانا النظر في بعض الأحكام الفقهية وتناسب الآي والسور وغير ذلك مما يحتاج إلى بيان حسب الضرورة.

بيد أن المؤلف لم يلتزم ترتيبا موحدا في ذلك، ولم يجر في طريقته في التفسير على نسق معين، ولذلك فإن «خطته» في تبيان معاني الآي وترتيب فقرات التفسير تتباين من موضع لآخر غير أنه يمكن القول بأنه اتبع في تفسيره تقسيما ثلاثيا في شكل فقرات : الفقرة الأولى يستهلها بقوله : «قلت»، يضمنها الجانب اللغوي و النحوي وأحيانا سبب النزول. أما الفقرة الثانية فيستهلها بقوله : «يقول الحق جل جلاله»، ويضمنها معاني الآيات ومختلف النقول و التفسيرات الواردة عمن سلف. أما الفقرة الثالثة ويبدأها بقوله : «الإشارة» فهي تشمل ما لاح له من خلال الآيات من إشارات دقيقة ولطائف صوفية رقيقة.

لذلك يمكن إجمال طريقة ابن عجيبة في تفسيره حسب النقاط التالية:

1 – يفسر المؤلف مجموعة من الآيات جملة واحدة يتراوح عددها بين الآية الواحدة و الخمس آيات أو أكثر قليلا حسب طولها من جهة وحسب ما تكونه وتمثله من مقطع متكامل أو وحدة تفسيرية تامة، بخلاف كثير من المفسرين الذين قد يتخذون الآية الواحدة أو الجزء منها مقطعا تفسيريا

مستقلا مهما كان متصلا بما قبله أو ما بعده، وهو ما يؤدي إلى تشتيت ذهن القارئ وهو يحاول استيعاب المعاني والقضايا التي تتضمنها الآيات. وابن عجيبة يأتي على تفسير جميع مقاطع الآيات المراد تفسيرها، فهو لا يهمل منها شيئا عكس سلفه ابن جزي الذي لا يورد تمام الآية في بعض الأحيان، ولا يفسر منها إلا ما يحتاج في نظره إلى تفسير.

2 – على عادة معظم المفسرين يقدم ابن عجيبة لتفسير السورة بحديث مختصر يبين فيه عدد آيات السورة وما ورد في فضلها وهل هي مكية أو مدنية وأسماءها إن كانت لها أسماء متعددة، ثم يقفي كل ذلك بالحديث عن وجه مناسبة آخر السورة السابقة لمطلع السورة ثم ينتقل إلى تفسير الآيات الأولى منها.

مثال ذلك قوله عند مطلع سورة الإسراء : «سورة الإسراء مكية» إلا قوله تعالى : ﴿**وإن كادوا ليفتنونك**.....﴾ الآيات الثمان، وهي مائة وعشر آيات، وكان وجه المناسبة لما قبلها قوله : ﴿**إن الله مع الذين اتقوا**﴾[1] إشارة إلى أن من اتقى وحصل مقام الإحسان أسري من الوجود إلى عالم الملكوت وأسرار الجبروت، وافتتح السورة بالتنزيه لئلا يتوهم الجهال أنه عليه السلام عرج به للقاء الحق تعالى في جهة مخصوصة فنزه الحق تعالى نفسه في افتتاح سورة الإسراء دفعا لهذا الإيهام فقال : بسم الله الرحمان الرحيم : ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى**.....﴾[2]

3 – غالبا ما يبدأ ابن عجيبة تفسيره للآي بذكر الجانب اللغوي والنحوي و الإعرابي، وهو ما يميزه بقوله : «قلت» التي ترد مباشرة بعد انتهائه من كتابة الآيات المراد تفسيرها. ثم بعد ذلك ينتقل إلى تفصيل

---

1) ﴿إن الله مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون﴾ الآية الأخيرة (128) من سورة النحل .
2) البحر المديد 144/2.

وتقرير المعنى الإجمالي للآيات مجزئا إياها منذ البداية حسب جملها أو مقاطعها المتعددة، ويميز ذلك عما سبقه بقوله : «يقول الحق جل جلاله»، وفيما يلي أمثلة وشواهد مختصرة، ومتنوعة تبين ذلك.

- عند تفسير قوله تعالى : ﴿**ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يومنون والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم**... إلى قوله : **وأكثرهم الكافرون**﴾[1] قال : «قلت : مسخرات حال من الطير وسكنا مصدر وصف به أي شيئا سكنا أو فعل بمعنى مفعول، وأثاثا مفعول بمحذوف أي وجعل من أوبارها أثاثا. يقول الحق جل جلاله.....»[2] وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق**﴾[3] قال: «قلت : أصل الغلو مجاوزة الحد في كل شيء، يقال : غلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرعت الشباب فجاوزت لذاتها أي أقرانها تغلو غلوا، يقول الحق جل جلاله في عتاب النصارى .....»[4]

وقد لا يذكر ابن عجيبة جانب اللغة و النحو فينتقل مباشرة إلى تبيان معاني الآيات كما جاء في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**والله فضل بعضكم على بعض في الرزق، فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون**﴾[5] حيث قال : «يقول الحق جل جلاله : والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فمنكم غني ومنكم فقير »[6]

---

1) النحل 79-83.

2) البحر المديد 138/2.

3) النساء 171.

4) البحر المديد : 133/1.

5) النحل 70 .

6) البحر المديد : 136/2.

4 – يضمن ابن عجيبة في الفقرة الثانية من العملية التفسيرية المتبعة في كل مجموعة من الآيات ذكر المعنى الإجمالي الذي يتخلله سوق بعض القراءات القرآنية باختصار شديد والتنبيه إلى بعض اللطائف البلاغية التي قد يتضمنها النظم الكريم دون استيفاء لمباحثها، وقد يشير - وهو أمر نادر - إلى بعض الأحكام الفقهية، إلا أنه لا يستطرد في ذكر تفصيلات فروعها. وهو في كل ذلك مستأنس بأقوال وآراء المفسرين المختلفة، يرجح بينها تارة ويقابل بينها تارة أخرى. وقد يعقب على تلك الأقوال في بعض الأحيان موافقا و مؤكدا أو مفندا، داحضا.

5 – لم يجر ابن عجيبة في تفسيره للآيات القرآنية على نسق واحد أو وتيرة محددة، فسبب النزول مثلا يورده تارة بعد شرحه للمفردات وغريب القرآن وإعراب بعض الكلمات، وتارة أخرى يورده في الفقرة الثانية في معرض تفسيره لمعاني الآيات.

فلدى تفسيره لقوله تعالى : ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم و لا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ...﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿**وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾[1] قال : «قلت : التهلكة مصدر هلك بشد اللام قاله ابن عطية، وضمن تلقوا معنى تُفْضوا او تنتهوا فعداه بإلى أي ولا تفضوا بأنفسكم إلى التهلكة، ولا يحتاج إلى زيادة الباء، وسبب نزول الآية أن المشركين صدوا رسول الله ﷺ عن البيت عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيحلوا له ثلاثة أيام البيت فرجع لعمرة القضاء ...فنزلت الآية، يقول الحق جل جلاله ...»[2] وفي معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**ياأيها الذين ءامنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا**

---

1) البقرة 190 -195 .

2) البحر المديد 43/1.

تيمموا الخبيث منه تنفقون ...﴾ إلى قوله : **﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾**[1] أورد ابن عجيبة سبب نزول الآية أثناء بيانه لمعاني الآيات خلال الفقرة الثانية : « يقول الحق جل جلاله : يا أيها الذين ءامنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم من الأموال في التجارة وغيرها (ثم ذكر حديثين) وقال : ونزلت في قوم كانوا يتصدقون بخبيث التمر وشراره فنهوا عنه وأدبهم بقوله : «واعلموا أن الله غني عن إنفاقكم»[2].

وقد يورد المؤلف سبب النزول عند آخر تفسيره للآيات[3] كما يورد أحيانا - وهو أمر نادر - قبل شروعه في تفسير الآية بل قبل كتابته لها جاعلا من ذلك مدخلا لتفسير الآية.

مثال ذلك قوله : «ولما قدم نصارى نجران على النبي ﷺ سمعت بهم اليهود فجاؤوا إليهم وتناظروا حتى تسافهوا وكفر اليهود بعيسى وبملة الإنجيل وكفر النصارى بموسى و التوراة فأنزل الله في شأنهم : **﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾**[4].

6 – إن الطابع العام الذي يطبع تفسير ابن عجيبة هو الجنوح إلى الاختصار و التلخيص و الإحالة على بعض الكتب، وهو في بعض الأحيان لا يعيد تفسير الآية التي سبق تفسيرها في موضع آخر من سورة أخرى، مثال ذلك ما جاء في معرض تفسيره لقوله تعالى : **﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا**

---

1) البقرة 267.

2) البحر المديد : 61/1

3) انظر على سبيل المثال : البحر المديد : 85/3 - 120/3.

4) البقرة 113. و البحر المديد 27/1.

عاد فإن الله غفور رحيم﴾[1] حيث اعتذر عن إعادة تفسير الآية قائلا : «تقدم تفسيرها في البقرة[2] والمائدة[3]»[4].

وقد يحيل في باب الإشارة على مبحث سابق في موضع آخر، مثال ذلك قوله في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾[5] «الإشارة : قد تقدم الكلام على الشكر في سورة سبأ»[6]

7 – بعد انفضاضه من الفقرة الثانية ينتقل ابن عجيبة بصورة دائمة ومستمرة إلى الفقرة الثالثة المتعلقة بباب الإشارة، وهو يولي هذه الفقرة اهتماما بالغا يدل على ذلك ذكره لها بموازاة مع التفسير بالظاهر دون إخلال بحيث لوجرد التفسير الإشاري من «البحر المديد» لجاء كاملا ومستوعبا لجميع آيات القرآن الكريم. بيد أن المؤلف لا يفسر الآيات المراد الإفصاح عما لاح له منها من إشارات ولطائف صوفية جملة جملة أو مقطعا مقطعا، وإنما يحاول أن يقدم معنى عاما تومئ إليه الآيات وتوحي به بواطنها. وكثيرا ما يخصص فقرة الإشارة للحديث عن مقام محدد من مقامات الصوفية تشير إليه الآية، أو الترغيب في أمر محمود أو الترهيب من أمر مذموم، أو التأكيد والإلحاح على ضرورة الاعتبار والتفكر والتدبر فيما جرى للأمم السابقة إذا تعلق الأمر بقصص الأولين[7].

---

1) النحل 115.

2) البحر المديد 38/1 (البقرة 173)

3) البحر المديد 135/1 (المائدة 3).

4) البحر المديد 142/2.

5) الزمر 7

6) عند قوله تعالى : ﴿**اعلموا آل داود وقليل من عبادي الشكور**﴾ سبأ 13 وانظر البحر المديد 1683.

7) يقول ابن عجيبة : «كل ما قصه الحق تعالى علينا من مساوئ غيرنا فالمقصود به التنفير والتحذير من مثل ما ارتكبوه، والتخلق بضدما فعلوه» (البحر المديد 27/1).

ويحاول ابن عجيبة الالتزام بتخصيص هذه الفقرة للإشارات الصوفية، وتجميع بعض أقوال أرباب التصوف وعلم السلوك المشهورين والنقل عن أبرز المفسرين الصوفية أمثال سهل التستري والقشيري وغيرهما. ولذلك نجده أحيانا أثناء تفسيره للآيات على ظاهرها يستطرد في الحديث إلى أن يكاد يقارب ويلامس الجانب الإشاري من التفسير فينتبه لذلك محيلا على باب الإشارة بقوله مثلا : «وسيأتي في الإشارة تحقيقه إن شاء الله»[1] أو ستأتي في الإشارة بقيتها»[2] .

1) البحر المديد 142/3-183/4....

2) البحر المديد 145/3...

الباب الأول

مصادر ابن عجيبة في تفسيره

تمهيد

مما لاشك فيه أن التعرف على مصادر المفسر يمثل الركيزة الأساسية و المنطلق الرئيسي لدراسة منهجه في التفسير، ذلك أنه لا يمكن دراسة عمل المفسر و إضافته وإبداعه في التفسير دون الوقوف على الروافد و المصادر التي استمد منها، ولا يمكن للباحث أن يتقصى كل هذه الروافد، لكني سأحاول في هذا الفصل أن أكشف عن معظم المصادر التي تأثر بها ابن عجيبة سواء من كتب التفسير أو من كتب القراءات القرآنية أو من كتب السنة أو من كتب الفقه أو من كتل اللغة و النحو أو من كتب التصوف.

و إذا كان للمصادر دور رئسي في تشكيل منهج المفسر وتكوينه على نحو ما فإن في اكتشاف سبل استفادة المؤلف من تلك المصادر وطرق اقتباسه منها ما يعين أكثر على تلمس معالم منهجه في التفسير مما يتوقف على مدى توفره على ملكة فطرية واستكماله للأدوات العلمية الكفيلة باستيعاب معطيات ما يتناوله من المصادر.

وقد تبين لي وأنا أخوض غمار هذه الدراسة أن مصادر ابن عجيبة قد بلغت من الشمول و الكثرة حدا كبيرا، ويرجع ذلك إلى المنهج الذي ارتضاه ابن عجيبة لنفسه و الذي يقوم بالأساس على الجمع بين مختلف الأقوال والأراء مازجا في كل ذلك بين المأثور و الرأي.

وهكذا سأتناول من خلال هذا الفصل الحديث عن المباحث التالية :

المبحث الأول : مصادره من كتب التفسير.

المبحث الثاني : مصادره من كتب أخرى.

المبحث الثالث : منهج ابن عجيبة في الاستفادة من مصادره.

المبحث الأول :

مصادره من كتب التفسير

تفسير سهل التستري (ت 283)[1]

لما كان هذا التفسير صغير الحجم[2] لم يتعرض فيه صاحبه إلا لتفسير آيات محدودة ومتفرقة من كل سورة. فإن ابن عجيبة لم ينقل عنه كثيرا، غير أنه استفاد منه في باب الإشارة من التفسير خاصة وأن تفسيرات سهل تنحو في معظمها منحى تزكية النفوس وتهذيب علم السلوك، وكثيرا ما يطبعها طابع الترغيب والترهيب والدعوة إلى التحلية بالفضائل والتخلية من الرذائل كما أن المؤلف كثيرا ما يسوق حكايات الصالحين وأخبارهم لتعزيز ما يسوقه من كلام صوفي، ويعتبر تفسير سهل التستري من التفاسير الصوفية المستقيمة و المبنية على أسس قويمة من الكتاب والسنة. وقد اعتبر ماسنيون L. Massignon أن من أبرز خصائص مدرسة سهل التستري رجوعها باستمرار إلى النصوص القرآنية.[3]

وإذا كان سهل يذكر أحيانا المعنى الظاهر للآية فإن ابن عجيبة قد التزم أن لا ينقل عنه غير ما كان متصلا بالمعاني الإشارية، وهي وإن كانت في معظمها موجزة ومقتضبة فإنها تحمل للقارئ معان دقيقة وإشارات

---

1) هو أبو محمد سهل بن عبد الله التستري، ولد بتستر عام 200 وظهرت عليه منذ الصبا أمارات الزهد و الورع والتقوى ثم بلغ نضجا روحيا ساميا بعد مجاهدة، ومكايدة، رحل إلى كثير من البلدان ثم عاد إلى تستر، له مواعظ وأحوال من حكمه قوله : «ما عبد الله بشيئ أفضل من مخالفة الهوى». ترجمته في وفيات الأعيان 389/1 وتذكرة الحفاظ 685/2.

2) عدد صفحاته 204. وقد طبع بالقاهرة عام 1326. وهو يمثل أبرز وأقدم تفسير صوفي وصل إلينا .

3) L. Massignon : La Passion de hallag 1/110.

لطيفة يعز نظيرها، وفيما يلي نماذج توضح ذلك : في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله و الله هو الغني الحميد**﴾[1] قال ابن عجيبة : «وقال سهل (ض) لما خلق الله الخلق حكم لنفسه بالغنى ولهم بالفقر فمن ادعى الغنى حجب عن الله ومن أظهر فقره أوصله فقره إليه فينبغي للعبد أن يكون مفتقرا بالسر إليه ومنقطعا عن الغير إليه حتى تكون عبوديته لله محضة، فالعبودية هي الذل والخضوع»[2].

وكما سبق أن قلنا فإن نصوص سهل مقتضبة موجزة، من أمثلة ذلك ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿**لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم**﴾[3] حيث أورد ابن عجيبة قول سهل : «ولكن يناله التقوى : هو التبري و الإخلاص»[4] والذي يمكن ملاحظته هو أن ابن عجيبة غالبا ما يقرن أقوال سهل بأقوال غيره من متقدمي الصوفية المشهورين أمثال الجنيد وذي النون وابن عطاء وغيرهم، وهو في ذلك يؤكد على قيمة ومكانة النصوص الصوفية الأولى و التي تشكل مصدرا أساسيا لمتأخري الصوفية.

فعند تفسير قوله تعالى : ﴿**والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون**﴾[5] قال في البحر المديد : « قال سهل بن عبد الله (ض) نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها، فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم أخذوا. وقال ابن عطاء (ض) : كلما أحدثوا خطيئة جددناهم نعمة ونسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة».[6]

---

1) فاطر : 15.

2) البحر المديد 180/3.

3) الحج : 37.

4) البحر المديد 43/3.

5) الأعراف : 182.

6) البحر المديد 22/2.

تفسير ابن جرير الطبري (ت 310) :

يقول عنه ابن عجيبة في تفسير الفاتحة الكبير : «ثم جاء ابن جرير الطبري فجمع أقوال المفسرين وأحسن النظر فيها»[1] غير أننا لا نكاد نعثر على اسم الطبري في «البحر المديد» إلا نادرا. ويبدو أن صاحبنا لم يعتمد على «جامع البيان» مباشرة، فهو ينقل عنه بواسطة بعض المفسرين وخاصة منهم ابن عطية وابن جزي وعبد الرحمان الفاسي. ويشهد لهذا تنصيصه على النقل عنه بواسطة ابن عطية عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين**..﴾[2] حيث قال : «ونقل ابن عطية عن الطبري أن المراد بهم ثمود قوم صالح»[3] ومن أمثلة ما نقله عن الطبري بواسطة المحشي الفاسي[4] ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿**يا معشر الجن والإنس ألم ياتيكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي**﴾[5] حيث قال «وروى الطبري من طريق الضحاك : بن مزاحم إثبات ذلك واحتج بأن الله تعالى أخبر بأن من الجن و الإنس رسلا أرسلوا إليهم».[6]

وقد ينقل ابن عجيبة عن الطبري سبب نزول الآية كما عند قوله تعالى: ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**﴾[7]، قال : «وحكى الطبري أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر وطلحة

---

1) تفسير الفاتحة الكبير لابن عجيبة ص : 65. وهي عبارة نقلها عن ابن جزي في مقدمة تفسيره ص: 10.

2) المومنون : 32.

3) البحر المديد 49/3 وراجع تفسير الطبري 14/18.

4) سوف تأتي ترجمته عند الحديث عن حاشيته على الجلالين.

5) الأنعام : 130

6) البحر المديد 175/1، وقارن بحاشية الفاسي على الجلالين (مخطوط) 60/1 وانظر تفسير الطبري 27/8. وبعد هذا النقل بقليل نجد نقلا آخر عن الطبري بواسطة حاشية الفاسي، ففي معرض الحديث عن الخلاف في الجن هل يدخلون الجنة قال ابن عجيبة : «فروى الطبري وابن أبي حاتم من طريق أبي الدرداء موقوفا أنهم يكونون ترابا كسائر الحيوانات» البحر المديد 176/1. وهذا اختصار للأثر المروي عن أبي الدرداء وقد أورده الفاسي بكامله (60/1) وقارن أيضا ما نقله ابن عجيبة عن الطبري في 84/4 بما جاء في حاشية الفاسي 263/2.

7) الأنفال : 25.

والزبير وأن الفتنة ما جرى لهم يوم الجمل»[1] بهذا يتبين لنا أن ما نقله ابن عجيبة عن الطبري إنما كان بواسطة نقله عن بعض المفسرين، وهذا لا يمنع من الاستفادة - ونحن بصدد الحديث عن مصادر ابن عجيبة من كتب التفسير - من طبيعة نقوله عن الطبري و المتمثلة في غالب الأحيان في نقول أثرية في غاية الأهمية يعتبر «جامع البيان» المصدر الأساسي في إيرادها مسندة.

الكشف و البيان للثعلبي (ت 427)[2]

يعتبر هذا التفسير من أهم كتب التفسير بالمأثور وقد ذكر الثعلبي أسانيده إلى الصحابة والتابعين في أول كتابه فأغناه ذلك عن ذكرها خلال التفسير، وتحدث ابن عجيبة عن هذا التفسير في معرض كلامه عن أبرز تفاسير المشارقة فقال : «ومن أجل تفاسير المشارقة تفسير الإمام الحافظ الكبير المفسر الجليل أبو العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي قد أمتع فيه غاية الإمتاع وحرر فيه أقوال السلف واستوفى فيه علم القصص والأخبار غير أنه يحتاج إلى تنقيح وتخليص لأنه دخل فيه من الأخبار ما وقع فيها بعض الإنكار، و بالجملة فهو تفسير جامع وقع الانتفاع به في البلدان واشتهر غاية الاشتهار حتى حبس الناس على من يسرده أحباسا كثيرة فدل ذلك على حسن نيته نفعه الله به».[3]

ونقل عنه عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون**...﴾[4] فقال[5] : «فلا أنساب بينهم يومئذ تنفعهم

---

1) البحر المديد 30/2 وقارن بالتسهيل لابن جزي 64/2 وانظر جامع البيان للطبري 144/9.

2) انظر ترجمته في : وفيات الأعيان لابن خلكان 37/1-38. وطبقات المفسرين للسيوطي ص : 28 وطبقات المفسرين للداودي 65/1.

3) تفسير الفاتحة الكبير ص : 67.

4) المؤمنون 101.

5) البحر المديد : 54/3.

لزوال التراحم والتعاطف بينهم من فرط الحيرة و استيلاء الدهشة. ابن عباس : لا يفتخرون بالأنساب و الأحساب في الآخرة كما كانوا يفتخرون في الدنيا، ولا يتساءلون لا يسأل بعضهم بعضا لاشتغال كل منهم بنفسه ولا يناقضه قوله تعالى : ﴿**وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون**﴾ لأن هذا أي سكوتهم عند ابتداء النفخة الثانية وذلك بعدها....، وقال ابن عباس : إنما عنى النفخة الأولى حين يصعق الناس فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون نقله الثعلبي ».[1]

وقد كان الثعلبي مولعا بذكر القصص والأخبار متوسعا في نقلها حيث كان قد ألف كتابا ذكر فيه قصص الأنبياء، إلا أنه لم يتحر الصحيح في ما ينقل ولم يمحص الروايات بتمييز المقبول منها من المردود حتى قال فيه ابن تيمية : «والتعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين وكان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع».[2]

وإذا كان ابن عجيبة قد حكم نفس الحكم على تفسير الثعلبي وذكر بأنه يحتاج إلى تنقيح وتخليص كما سبق أن نقلنا فإنه أثناء تفسيره قد راعى ذلك وانتبه جيدا لهذا الأمر فنجده لا ينقل عنه سوى القصص والأخبار المقبولة و الروايات الصحيحة، ولا بأس أن نذكر هنا ما ذكره ابن عجيبة في معرض حديثه عن العلوم التي يحتاج إليها المفسر من ضرورة الاحتياط من نقل ما يظهر كذبه من القصص و الأخبار حيث قال: «ومنها القصص و الأخبار لاشتمال القرآن على قصص الأولين فلا بد من مطالعتها لتحرير معاني القرآن غير أن منها ما يتوقف عليه البيان فهو

---

1) انظر تفسير الخازن الذي يعتبر اختصارا لتفسير الثعلبي 311/3. (طبعة دار الفكر بدون تاريخ).

2) ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ص : 76.

المحتاج وما سواه تطويل وقد يذكر منها ما يعلم بالنقل أو بالعقل أنه كذب فلا يجوز التعرض له».[1]

ولدى تفسيره لقصة أصحاب الأخدود من قوله تعالى : ﴿**والسماء ذات البروج واليوم الموعود....**﴾ الآية[2] قال : روي في الصحيح عن النبيﷺ أنه قال : كان لبعض الملوك ساحر فلما كبر قال للملك قد كبرت فابعث إلي غلاما أعلمه السحر فضم إليه غلاما... ثم أورد تمام القصة المعروفة في شأن أصحاب الأخدود، وقال بعد ذلك : انظر الثعلبي[3]، والحديث أخرجه بطوله الإمام مسلم في صحيحه.[4]

ومن أمثلة ما نقله ابن عجيبة عن الثعلبي من أقوال الحكماء ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**لتركبن طبقا عن طبق**﴾[5] حيث قال : «وقال بعض الحكماء : يشتمل الإنسان من كونه نطفة إلى أن يهرم على نيف وثلاثين اسما، نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما ثم خلقا آخر ثم جنينا ثم وليدا ثم رضيعا ثم فطيما يافعا ثم ناشئا ثم مترعرعا... ثم هرما ثم ميتا، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿**لتركبن طبقا عن طبق**﴾ من الثعلبي».[6]

ومما يدل على شدة احتياط ابن عجيبة في نقله عن الثعلبي واحتراسه من رواية ما هو مكذوب أو موضوع رده ونقده لقصة عوج بن عنق[7] الذي

---

1) تفسير الفاتحة الكبير ص : 60.

2) البروج 41.

3) البحر المديد 195/4.

4) صحيح مسلم 2299/4 باب قصة أصحاب الأخدود من كتاب الزهد والرقائق، والحديث طويل جدا، أوله كما في صحيح مسلم : «كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال الملك : إني كبرت فابعث إلي غلاما أعلمه السحر... الحديث.

5) الانشقاق : 19.

6) البحر المديد 194/4.

7) منهم من يقول عوج بن عنق ومنهم من يقول عوج بن عوق، وفي القاموس : «وعوج بن عوق بضمهما – أي العينين – رجل ولد في منزل آدم فعاش إلى زمن موسى وذكر من عظم خلقه شناعة.

نجا من الغرق ويقال بأن سبب نجاته ان نوحا احتاج إلى خشب الشام للسفينة فلم يمكنه نقلها فحمل عوج تلك الخشب إليه من الشام فشكر الله له ذلك ونجاه من الغرق، حيث قال ابن عجيبة بعد ذلك : «وأما ما ذكره الثعلبي هنا وغيره من قصة عوج بن عنق فقال القسطلاني هي باطلة من وضع الزنادقة فلا يجوز ذكرها في كتاب الله الصادق المصدوق»[1]

تفسير القشيري (ت 465)

اصطحب ابن عجيبة تفسير القشيري من أوله إلى آخره واعتمد عليه اعتمادا كبيرا في باب الإشارة حتى إنه لا تكاد تخلو صفحة من صفحات البحر المديد من اقتباس من هذا التفسير الجليل بما يجلي لطائف الإشارات التي تشير إليها الآيات القرآنية، ويمكن القول بأن تفسير القشيري كان المصدر الأساسي و الأهم الذي رجع إليه صوفينا مباشرة ونقل منه. النقول العديدة التي تعزز مذهبه الصوفي في تفسير الفرآن الكريم، فإذا كان ابن عجيبة - وكما سبق أن بينا - قد احتفى ببضع إشارات صدرت من بعض المفسرين بالظاهر ونقلها عنهم فكيف يكون موقفه إذن من تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم صاحبه سني حريص على سنيته بقدر ما هو حريص على صوفيته.

يتبين من خلال نقول ابن عجيبة عن القشيري أن الرجل معجب بطريقة سلفه في استنباط الإشارات والإشارة إلى لطائف الاستنباطات محققا أسمى غايات التفسير الإشاري للقرآن، لذلك لم يتوان ابن عجيبة في أن يقتبس من تفسير القشيري المرة تلو الأخرى وهو بصدد تفسير مجموعة

---

1) البحر المديد 138/1 و 86/4. وقال ابن قتيبة في كتابه : تأويل مختلف الحديث ص : 362 وهو يتحدث عن الأحاديث المروية في قصة عوج «أحاديث خرافة كانت مشهورة في الجاهلية ألصقت بالحديث بقصد الإفساد» وانظر نقد ابن كثير للقصة في تفسيره 115/3.

من الآيات في موضع واحد، لذلك لا يستغرب ورود اسم القشيري ثلاث مرات في الصفحة الواحدة أحيانا.

لم يتحدث ابن عجيبة عن تفسير القشيري ضمن كتب التفسير التي وصلت إليه، لكنه تحدث عنه قبل ذلك في المقدمة الرابعة من شرحه الكبير على الفاتحة في معرض حديثه عن علوم القرآن الظاهرة و الباطنة حيث قال[1] : «قال البرزالي ومثله (أي في التفسير الإشاري) تفسير القشيري المسمى بالإشارات لأن جله رمز فهو إمام الطريقة، وذكر ابن خلكان أن أبا القاسم القشيري صنف التفسير الكبير وسماه التيسير في علم التفسير وهو أجود التفاسير، فهو تفسير آخر له غير المسمى بالإشارات وقد وقفت عليهما.....»

أما كتاب «التيسير» الذي أشار إليه ابن عجيبة فهو تفسير كامل للقرآن ألفه القشيري قبل اللطائف وسار فيه على نحو تقليدي من حيث العناية باللغة والاشتقاق والنحو وأسباب النزول والأخبار والقصص وذلك قبيل أن يلج طريق التصوف[2].

إلا أن ابن عجيبة ينقل عن القشيري قائلا : «قال القشيري في مختصر الإشارات» ولم يذكر أحد من المترجمين كتابا مختصرا للطائف الإشارات لنفس المؤلف.

ولا نظن أنه يقصد كتاب «التيسير في التفسير» لأنه هو نفسه ينقل في النص السابق عن ابن خلكان أن التيسير تفسير كبير لذا لا يمكن أن يكون مختصرا لكتاب آخر علاوة على أنه باستقراء النصوص التي نقلها من مختصر الإشارات[3] اتضح أنها تتصل بالتفسير الإشاري في حين أن

---

1) شرح الفاتحة الكبير ص : 57.

2) انظر لطائف الإشارات للقشيري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1981/2، تح د. إبراهيم بسيوني 26/1.

3) انظر البحر المديد 51/1 –64/4 – 78/4 و 116/4.

التيسير تفسير بالظاهر ألفه صاحبه قبل عام 410 هـ، أي قبل دخوله طريق القوم، وما دمنا لا نتوفر على نسخة مخطوطة من كتاب «التيسير» فإننا لا نستطيع الجزم في هذه المسألة.

إن نقول ابن عجيبة عن تفسير القشيري تنحصر أساسا في مجال التصوف، وهو كما أسلفنا يعتبر مصدره الرئسي في باب الإشارة من التفسير، إلا أنه مع ذلك قد ينقل عنه أحيانا تفسيرا بالعبارة وأحيانا أخرى ينقل عنه مزيجا من التفسير بالعبارة والإشارة معا، وفيما يلي أمثلة توضح ذلك. فمما نقله عنه من الإشارات الدقيقة ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين**﴾[1]، حيث قال : «قال القشيري نفس العابد وطن العبادة وقلب العارف وطن المعرفة وروح الواجد وطن المحبة وسر الموحد ركن المشاهدة، ولا أظلم ممن سعى في خراب وطن العابد بالشهوات، وفي وطن المعرفة بالمنن والعلاقات وفي وطن المحبة بالحظوظ والمساكنات، وفي وطن الموحد بالالتفات إلى القربات»[2] فهذه المعاني و الإشارات التي أوردها القشيري كلها مقبولة يمكن إرجاعها إلى اللفظ القرآني بدون أدنى تكلف ما دامت لا تعارض أصلا شرعيا أو عقليا، وما دام قائلها لايقول بأنها المراد من الآية القرآنية، بل هو كلام يشهد لمعنى من معاني الآية ويشير إليه.

ومن أمثلة ما اقتبسه ابن عجيبة من تفسير القشيري وكان متعلقا بالظاهر ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب**﴾[3] حيث أورد ابن عجيبة نصا للقشيري يرمي إلى توضيح استحالة

---

1) البقرة : 114.

2) البحر المديد 27/1 وانظر لطائف الإشارات 115/1. وقد تصرف ابن عجيبة في نص القشيري.

3) ص : 5

وجود إلهين اثنين بله آلهة متعددة بطريقة عقلية استدلالية. يقول ابن عجيبة : «القشيري : لم تباشر خلاصة التوحيد قلوبهم وبعدوا عن ذلك تجويزا فضلا عن أن يكون إثباتا وحكما، فلا عرفوا الإله ولا معنى الإلاهية، فإن الإلهية هي القدرة على الاختراع وتقدير قادرين على ذلك غير صحيح لما يجب من وجود التمانع بينهما وجوازه، ثم إن ذلك يمنع من كمالهما ولو لم يكونا كاملي الوصف لم يكونا إلهين، وكل أمر جرى ثبوت سقوطه فهو مطروح باطل»[1].

وقد يجمع ابن عجيبة في نقله عن تفسير القشيري بين التفسير بالعبارة والتفسير بالإشارة فيأتي بهما معا مميزا بينهما بوضع كل نص في موضعه، وهذا يدل بدون ريب على شدة إعجاب بكلام القشيري اللطيف سواء تعلق بظاهر الآية أو بباطنها، فمن أمثلة ذلك ما أورده عند تفسير قوله تعالى : ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب**﴾[2] حيث ساق في معنى الآية قول القشيري : «احذروا أن تركبوا زلة توجب لكم عقوبة لا تخص مرتكبها بل يعم شؤمها من تعاطاها ومن لم يتعاطاها. وغير المجرم لا يؤخذ بجرم من أذنب ولكن قد ينفرد أحد بجرم فيحمل أقوام من المختصين بفاعل هذا الجرم كأن يتعصبوا له إذا أخذ بحكم ذلك الجرم، فبعد أن لم يكونوا ظالمين يصيرون ظالمين بمعاونتهم وتعصبهم لهذا الظالم، فتكون فتنة لا تختص بمن كان ظالما في الحال بل إنها تصيب أيضا ظالما في المستقبل بسبب تعصبه لهذا الظالم ومطابقته معه ورضاه به، وسيأتي تمامه في الإشارة».[3]

وفي باب الإشارة يأتي ابن عجيبة بتتمة كلام القشيري : «قال القشيري : وأما من حيث الإشارة فإن العبد إذا باشر زلة بنفسه عادت إلى

---

1) البحر المديد 203/3 وانظر لطائف الإشارات 246/3.

2) الأنفال : 25.

3) البحر المديد 30/2.

القلب منها الفتنة، وهي العقوبة المعجلة وتصيب النفس منها العقوبة المؤجلة، والقلب إذا حصلت منه فتنة الزلة - عندما يهم بما لا يجوز - تعدت فتنته إلى السر وهي الحجبة... إلى آخر ما ذكره من كلام القشيري، وقد آثر ابن عجيبة نقله بالرغم من طوله الشديد[1]. وقد يختصر ابن عجيبة كلام القشيري وينبه على ذلك[2]. كما أنه قد لا يقتنع بجدوى كلامه في إصابة الغاية من التفسير الإشاري للآية، فيشير إلى أن النص المقتبس لا يمثل أكثر من تفسير بالظاهر معهود لدى معظم المفسرين.[3]

تفسير الزمخشري (ت 538هـ) :

يعتبر تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) من أشهر تفاسير المعتزلة التي كان لها صيتها الذائع وشهرتها الواسعة في مجال التفسير بالرأي، وإذا كان أبرز جانب امتاز به الكشاف هو الكشف عن جمال النظم القرآني وإبراز وجوه الإعجاز المتعددة فإن صاحبه قد بناه على أصول المعتزلة محاولا بكل تعسف حمل الفاظ كتاب الله العزيز على تلك المبادئ. و الأصول التي يؤمن بها ومؤولا الآيات التي لا تتفق ومذهبه الاعتقادي و بالرغم من كل ذلك فقد أثار كتاب الزمخشري هذا إعجاب كثير ممن أتوا بعده من العلماء و المفسرين فاعتمدوا على الجانب الإيجابي منه واقتبسوا كثيرا من مباحثه واستشهدوا بأمثاله وشواهده في حين تصدى له آخرون بالنقد والتقريع وحملوا عليه مبينين الجوانب السلبية فيه فتتبعوها كلها وألفوا في ذلك كتبا كثيرة

---

1) البحر المديد 302 وانظر لطائف الإشارات 616/1-617. و النص المنقول قد جاء في أزيد من صفحة واحدة من كتاب اللطائف، وهو أطول نص ينقله ابن عجيبة عن القشيري.

2) كما في البحر المديد 168/3. وقارن باللطائف 177/3-178.

3) انظر على سبيل المثال : البحر المديد 116/3 عند قوله تعالى : ﴿فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن...﴾ (القصص 30) حيث قال بعد نقله لكلام القشيري : «قلت وسيأتي في الإشارة ما لأهل التوحيد الخاص ما قاله هو مذهب أهل الظاهر».

أشهرها كتاب ابن المنير الاسكندري (ت 683) الانتصاف من الكشاف[1] كتاب السكوني[2] (ت 717) : التمييز لما أودعه الزمخشري من الاعتزال في كتاب الله العزيز[3]. يقول ابن تيمية وهو يتحدث عن بعض التفاسير المذمومة : (والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأيا ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه وليس لهم سلف من الصحابة و التابعين لهم بإحسان، ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحا ويدس البدع في كلامه وأكثر الناس لا يعلمون كصاحب الكشاف ونحوه).[4]

وتعرض ابن عجيبة لتفسير الزمحشري في معرض حديثه عن طبقات المفسرين فقال : «فأما الزمحشري فمسدد النظر بارع الإعراب متقن في علم البيان إلا أنه ملأ كتابه من مذاهب المعتزلة ونصرهم وحمل آيات القرآن على طريقهم فتكدر صفوه وتمرر حلوه فخذ ما صفا منه ودع ما كدر، وقد حذر كثير من العلماء من مطالعة كتابه الكشاف وأكثرهم تحذير العارف ابن أبي جمرة»[5] وقد أفاد ابن عجيبة من تفسير الزمخشري واعتمد عليه في مجالات اللغة و الإعراب و البلاغة وكذا في طريقة عرض السؤال والجواب عليه و التي اشتهر بها صاحب الكشاف. إلا أن ابن عجيبة لم يكن في موقف المتأثر فقط تجاه ما ينقله عن الزمخشري بل كثيرا ما كان يتعقبه، وقد يرد عليه بعنف وقوة كما سوف نرى. وفيما يلي بعض الأمثلة التوضيحية التي تبرز لنا بجلاء المجالات التي اقتبس فيها صاحبنا من الزمخشري.

---

1) طبع بهامش الكشاف في أربعة مجلدات.

2) هو عمر بن محمد بن أحمد بن خليل السكوني المغربي المالكي، مقرئ، متكلم، مفسر، وأصولي من أهل إشبيلية، نزل بتونس واستقر بها، من تصانيفه : عيون المحاضرات (تحقيق د. سعد غراب، تونس 1976). انظر ترجمته في : نيل الابتهاج ص : 195 وكفاية المحتاج ص : 254.

3) يوجد مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط رقم 327 ق، ويقع في 649 صفحة.

4) ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ص : 86.

5) انظر تفسير الفاتحة الكبير ص 66 وقارن بمقدمة التسهيل ص : 10.

- عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وآخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى**...﴾[1] ينقل ابن عجيبة عن الزمخشري بتصرف موقع الجملة الشرطية فيقول : «وقال الزمحشري هو استئناف كلام إن أنتم شرطية وجوابها محذوف دل عليه يقسمان، ولا نشتري هو المقسم عليه وجملة الشرط معترضة بين القسم والمقسم عليه، والتقدير إن ارتبتم في صدقهما اقسما بالله لا نشتري به أي القسم ثمنا قليلا من الدنيا....[2]

- وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين**﴾[3] قال : وقال في الكشاف : «إنما قال ما ولم يقل من لأن الإناث تجري مجرى غير العقلاء».[4]

والذي يلاحظ من خلال مقارنة هذين النصين بما هو مبثوث في الكشاف تصرف ابن عجيبة في نقل نصوص الزمخشري على غير عادته، فهو ينقل لنا بالمعنى ولا يصرح بذلك، فإذا رجعنا إلى أصل النص الثاني مثلا وجدناه في الكشاف على طريقة السؤال والجواب كالتالي : «فإن قلت: هلا قيل من ملكت ؟ قلت : لأنه أريد من جنس العقلاء ما يجري مجرى غير العقلاء وهو الإناث».[5]

وقد ينص ابن عجيبة على نقل كلام الزمخشري بالمعنى أو مختصرا كما في المثال التالي، عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم**﴾[6]

---

1) المائدة : 106.

2) البحر المديد 1551 وقارن بالكشاف 6501.

3) المومنون 6.

4) البحر المديد 47/4.

5) الكشاف 26/3.

6) الأنفال : 32.

حيث قال ابن عجيبة : «وقال الزمخشري : ليس بدعاء وإنما هو جحود أي وإن كان هذا هو الحق فأمطر علينا لكنه ليس بحق فلا تستوجب عقابا بالمعنى»[1] أما نص الزمخشري فهو كما يلي : «وهذا أسلوب من الجحود بليغ، يعني ان كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل أو بعذاب آخر، ومراده نفي كونه حقا وإذا انتفى كونه حقا لم يستوجب منكره عذابا.[2]

هكذا إذن يتبين أن منهج ابن عجيبة في النقل عن الزمحشري يتلخص في اختصار كلامه ما أمكن ونقل المعنى دون الإشارة إلى ذلك إلا نادرا.

ومما نقله ابن عجيبة عن الزمخشري تلك اللطائف التفسيرية التي اشتهر بها في كشافه والتي صاغها على طريقة السؤال والجواب (فإن قلت كذا..... قلت...) وقد جارى ابن عجيبة سلفه في إيراد تلك اللطائف مع تصرف طفيف كما سبق أن ألمحنا إلى ذلك.

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿**ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون**﴾[3] قال : «قال الزمخشري : فإن قلت أي فرق بين قوله فانظروا وقوله ثم انظروا قلت كأنه قال سيروا لأجل النظر، وأما قوله : قل سيروا في الأرض ثم انظروا فمعناه إباحة السير لأجل التجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في الهالكين»[4].

وإذا كان ابن عجيبة معجبا بآراء الزمخشري ودقائق تفسيره فإنه لم يقف إزاءها موقف المتأثر الناقل المقلد، بل كان حريصا على تمحيص نقوله عنه و التأكد من صوابها، لذا كثيرا ما نجده يتعقب بعض أقواله

---

1) البحر المديد .31/2.

2) الكشاف : 155/2.

3) الأنعام : 10.

4) البحر المديد 159/1 وقارن بالكشاف 7/2. وانظر التسهيل لابن جزي 4/2. وقد يأتي ابن عجيبة بطريقة أخرى يصرح فيها باسم الزمخشري (فإن قلت... أجاب الزمخشري...) انظر على سبيل المثال ما ذكره عند قوله تعالى ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ 204/4.

بالتوجيه و التسديد بلطف ولباقة، إلا أنه أحيانا أخرى لا ينفك يتهجم عليه ويرد عليه بعنف. فمن المواضع التي وجه فيها أقوال ونصوص الزمخشري ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا**﴾[1] حيث قال : «ومعنى التأكيد في لفظ المولود أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه لم تقبل منه فضلا عن أن يشفع لأجداده لأن الولد يقع على الولد وولد الولد بخلاف المولود فإنه لمن ولد منه... كذا في الكشاف. قلت : وهذا في حق الكفار، وأما المومنون فينفع الولد والده و الوالد ولده بالشفاعة كما ورد في قارئ القرآن والعالم وكل من له جاه عند الله».[2]

وفي معرض تفسير قوله تعالى في قصة شعيب عليه السلام : ﴿**وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره**...﴾[3] قال: «وقال في الكشاف : ومن معجزات شعيب ما روي من محاربة عصا موسى التنين حين دفع إليه غنمه. وولادة الغنم الدرع خاصة حين وعده أن تكون له الدرع من أولادها، ووقع عصا آدم على يده في المرات السبع وغير ذلك من الآيات. وفيه نظر أن هذه وقعت بعد مقالته لقومه وإنما كانت إرهاصات لموسى عليه السلام. وفي حديث البخاري : «ما بعث الله نبيا إلا وآتاه ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا وأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة[4] وهو صريح في أنه لابد من الآيات لكل رسول ولعل الله تعالى لم يذكر معجزة شعيب وهود في القرآن مع وجودها لظاهر الحديث»[5].

---

1) لقمان : 33.

2) البحر المديد 147/3 وانظر الكشاف 238/3.

3) الأعراف 85.

4) أخرجه البخاري في صحيحه 165/9. باب قول النبي : «بعثت بجوامع الكلم».

5) البحر المديد 10/2 وقارن بالكشاف 93/2.

وقد يكون كلام الزمخشري أحيانا محط مناقشات وتعقيبات من طرف المفسرين الذين أتوا بعده، فيستأنس ابن عجيبة بذكرها لما تتضمنه من الفوائد ولطائف التفسير، ومن المعلوم أن الكشاف كان ابتداء من القرن السابع مثار نشاط فكري واسع المدى وهي ميزة اختص بها قد لا نجدها في غيره من كتب التفسير، وفي هذا الإطار يورد ابن عجيبة أحيانا نماذج من مناقشات العلماء و المفسرين لكلام الزمخشري كما يدلنا عليه ما أورده لدى تفسير قوله عز وجل : ﴿**ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير**﴾[1] حيث قال : «ذلك بأن الله هو الحق أي ذلك الذي ذكرنا من خلق بني آدم وإحياء الأرض مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحكم حاصل بهذا (وهو السبب في حصوله)[2] وهو أن الله هو الحق أي الثابت الموجود هكذا للزمخشري ومن تبعه، ابن جزي[3] : والظاهر أن الباء ليست سببية كما قال الزمخشري وهو أيضا مقتضى تفسير ابن عطية[4] وإنما يقدر لها فعل تتعلق به ويقتضيه المعنى وذلك أن يكون التقدير ذلك الذي تقدم من خلقة الإنسان والنبات شاهد بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وبأن الساعة آتية فيصح عطف وأن الساعة على ما قبله بهذا التقدير وتكون هذه الأشياء المذكورة بعد :

قوله ذلك مما استدل عليها بخلقة الإنسان و النبات ه. قال المحشي الفاسي[5] : ويرد عليه أن تقديره عاملا خاصا يمنع حذفه وإنما يحذف إذا كان كونا مطلقا فلا يقال زيد في الدار وتريد «ضاحك» مثلا إلا أن يقال في

---

1) الحج : 6

2) والجملة محذوفة من النسخة المعتمدة، أضفتها من الكشاف لأهميتها في فهم السياق.

3) التسهيل 36/3.

4) المحرر الوجيز 180/11.

5) انظر حاشية الفاسي على الجلالين (مخطوط الخزانة الحسنية) 141/1.

الآية دل عليه السياق فكأنه مذكور، وعند الكواشي : لتعلموا بأن الله هو الحق...[1]

أما ردود ابن عجيبة على الزمخشري و التي اتسمت بنوع من الحدة والقوة، والتي يتعلق معظمها بمسائل العقيدة التي جنح فيها صاحب الكشاف إلى معتقده الاعتزالي الفاسد فسأرجئ الحديث عنها إلى مبحث لا حق.

تفسير ابن عطية (ت 541) :

يعتبر تفسير ابن عطية من أهم التفاسير الأندلسية التي اعتمد عليها ابن عجيبة كمصدر لكتابة «البحر المديد» وقد قال عنه ناقلا لكلام ابن جزي : «وأما ابن عطية فكتابه في التفسير أحسن التأليف وأعد لها فإنه اطلع على تأليف من كان قبله فهذبها ولخصها وهو مع ذلك حسن العبارة مسدد النظر محافظ على السنة »[2]. ومن خلال استقراء نقول ابن عجيبة عن ابن عطية في «البحر المديد» يتبين اعتماده عليه بكثرة في النصف الثاني من التفسير أي في الجزءين الثالث و الرابع في حين يلاحظ إقلاله من النقل عنه في الجزءين الأول و الثاني، وهذه النقول غالبا ما تكون موجزة مختصرة يتعلق معظمها بإبراز المعنى الإجمالي للآية، وقد يخص النقل تفسير لفظة قرآنية أو إجلاء نكتة نحوية أو إعرابية أو استنباط دقيق.

ومن أمثلة ما يتعلق بإبراز المعنى الإجمالي ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين ءامنوا لا تتخذوا اليهود و النصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم**﴾[3] حيث قال : «ابن عطية : ومن

---

1) البحر المديد 38/3. وانظر الكشاف 6/3.

2) تفسير الفاتحة الكبير ص : 66. وانظر مقدمة التسهيل لابن جزي ص : 10.

3) المائدة 51.

تولاهم بمعتقده ودينه فهو منهم في الكفر واستحقاق النقمة و الخلود في النار ومن تولهم بأفعاله من العضد ونحوه دون معتقد ولا إخلال بإيمان فهو منهم في المقت و المذمة الواقعة عليهم وعليه».[1]

وإذا ما كان النص المراد نقله عن ابن عطية مطولا، أورده ابن عجيبة في تفسيره مختصرا كما هو الشأن مثلا عند تفسير قوله تعالى : ﴿**إن الذين فتنوا المومنين والمومنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق**﴾[2] حيث نقل باختصار عن ابن عطية قوله : الأشبه أن المراد بهؤلاء قريش حيث كانوا يعذبون من أسلم، ويقوه بعض التقوية قوله تعالى : ﴿**ثم لم يتوبوا**﴾ لأنه روي أن أصحاب الأخدود ماتوا على كفرهم. وأما قريش فكان منهم من تاب بعد نزول الآية».[3]

وقد يرجع ابن عجيبة إلى تفسير ابن عطية لينقل عنه تفسير لفظة قرآنية كما هو الحال في معنى لفظ «فطرة» من قوله تعالى : ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها**﴾[4] حيث نقل عن ابن عطية قوله : «الذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة في نفس الطفل التي هي مهيأة لمعرفة الله والإيمان به الذي على الإعداد له فطر البشر»[5] وكما عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وبشر الذين ءامنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم**...﴾[6] حيث قال : «ابن عطية : والصدق في هذه الآية بمعنى الصلاح كما تقول : رجل صدق ورجل سوء»[7] ومما استأنس به ابن عجيبة من تفسير ابن عطية ما يذكره من لطائف تفسيرية واستنباطات دقيقة كما

---

1) البحر المديد 146/1 وقارن بالمحرر الوجيز 127/5.

2) البروج 10.

3) البحر المديد 195/4 وقارن بأصل كلام ابن عطية في المحرر الوجيز 271/16.

4) الروم : 30.

5) البحر المديد 137/3 وقارن بالمحرر الوجيز 258/12.

6) يونس : 2.

7) البحر المديد 582 وقارن بالمحرر الوجيز 6/9.

يدل عليه المثال التالي عند تفسير قوله تعالى : ﴿**ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه**..﴾[1] حيث قال : «وقال ابن عطية : يظهر من الآية بجملتها أنها نفي لأشياء كانت العرب تعتقدها في ذلك الوقت وإعلام بحقيقة الأمر فمنها أن العرب كانت تقول : الإنسان له قلب يأمره وقلب ينهاه وكان تضاد الخواطر يحملها على ذلك..إلخ كلامه».[2]

ولما كان ابن عطية مفسرا سنيا سليم العقيدة فإن ابن عجيبة لم يتردد في النقل عنه في مجال العقيدة والصفات، فعند تفسير قوله تعالى : ﴿**وكلم الله موسى تكليما**﴾[3] قال : «وقال ابن عطية : كلامه تعالى لموسى دون تكليف ولا تحديد وكما أن الله موجود لا كالموجودات معلوم لا كالمعلومات فكذلك كلامه لا كالكلام».[4]

بقيت الإشارة إلى أن ابن عجيبة لا يكتفي بنقل أخبار ابن عطية لأحد الأقوال دون إبداء رأيه في ذلك، بل إنه كثيرا ما يتعقبه مرجحا قولا غير الذي ذهب إليه، بل إنه أحيانا يرد عليه فيما قد يذهب إليه ولا يوافقه عليه، ولكلا الحالين نورد المثالين التاليين :

فعند تفسير قوله تعالى : ﴿**و الذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئهم في الدنيا حسنة**...﴾[5] أورد ما ذكره ابن عطية في سبب نزول الآية: «الجمهور أنها نزلت في الذين هاجروا إلى أرض الحبشة لأن الآية مكية وهجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية[6]. اهـ، ثم تعقبه ابن عجيبة بقوله : «قلت : والمختار العموم ويكون من جملة الإخبار بما سيقع أو هم

---

1) الأحزاب : 4.

2) البحر المديد 152/3 وقارن بالمحرر الوجيز 47/13.

3) النساء : 164.

4) البحر المديد 132/1. وهو نقل مختصر لما جاء في المحرر الوجيز 312/4.

5) النحل 41.

6) المحرر الوجيز 186/10.

المحبوسون بمكة المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله ﷺ وهم بلال وصهيب وعمار وخباب وأبو جندل وسهيل وعباس أو كل من هاجر لبلده لإقامة دينه».[1]

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني أفعصيت أمري....**﴾[2] قال : «ابن عطية : و التحقيق أن «لا» غير مزيدة ويقدر فعل أي ما منعك مجانبتهم وسولك ألا تتبعني هـ قلت وفيه نظر، لأن مجانبة هارون للقوم كانت حاصلة وإنما أنكر عليهم عدم مقاتلتهم أو عدم لحوقه بهم»[3] وقد يخطئه تماما كما في قوله : «وأما قول ابن عطية : أجمع المفسرون أن هذه الآية أي قوله تعالى ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما**﴾[4] في قتل بعضهم بعضا فليس بصحيح و الله تعالى أعلم[5].

ومما يجدر الوقوف عنده في هذا الصدد توضيح موقف ابن عجيبة من ابن عطية كواحد من المفسرين الذين عارضوا التفسير الصوفي وتصدوا له، يقول هذا الأخير في مقدمة «المحرر الوجيز» وهو يقدم طريقته في التفسير: «وأثبت أقوال العلماء في المعاني منسوبة إليهم على ما تلقى السلف الصالح رضوان الله عليهم كتاب الله من مقاصده العربية السليمة من إلحاد أهل القول بالرموز وأهل القلوب بعلم الباطن وغيرهم فمتى وقع لأحد من العلماء الذين قد حازوا حسن الظن بهم لفظ ينحو إلى شيء من أغراض الملحدين نبهت عليه».[6]

---

1) البحر المديد 132/2.

2) طه :93.

3) البحر المديد 20/3 وقارن بالمحرر الوجيز 100/11

4) النساء : 29.

5) البحرالمديد 109/1 وانظر المحرر الوجيز 94/4 وعبارة ابن عطية : «أجمع المتأولون أن المقصود بهذه الآية النهي عن أن يقتل بعض الناس بعضهم ثم لفظها أن يقتل الرجل نفسه بقصد منه للقتل»

6) انظر المحرر الوجيز 5/1. ومقدمتان في علوم القرآن لأرثر جفري ص : 255.

هذا الجانب وجعله من أولويات اهتمامه ضمن منهجه العام في التفسير كما تشير إليه عبارته في مقدمة التفسير والتي سقناها من قبل، وبالمقابل قد نجد ابن عجيبة في بعض الأحيان ينقل عن ابن عطية كلاما يرتاح إليه من حيث كونه قريبا من كلام القوم وفيه مسحة صوفية لم تصدر عن ابن عطية عن قصد. ينقل عنه وهو في صدد تفسير قوله تعالى : ﴿**ورفعنا لك ذكرك**﴾[1] قوله : «رفع الذكر نعمة على الرسول وكذلك هو جميل حسن للقائمين بأمور الناس وخمول الذكر و الاسم حسن للمنفردين للعبادة ».[2]

ومما يدل على أن مقالة ابن عطية هاته لها وقعها ووزنها في نفس ابن عجيبة إيراد هذا الأخير لكلام أبي العباس المرسي تلميذ أبي الحسن الشاذلي مباشرة بعد كلام ابن عطية : «قلت و الأحسن ما قاله الشيخ المرسي رضي الله عنه : من أحب الظهور فهو عبد الظهور ومن أحب الخفا فهو عبد الخفا ومن أحب الله فلا عليه أخفاه أم أظهره».[3]

تفسير الرازي (ت 606هـ) :

لم يكثر ابن عجيبة من النقل عن الفخر الرازي، وما نقله عنه كان بواسطة حاشية الفاسي. إذ لدى المقارنة تبين مرة أخرى أن كل نقوله عنه موجودة في الحاشية كما هي، ولم يذكر صاحب البحر المديد كتاب «التفسير الكبير» في مقدمته، مما يدل على أنه لم يعتمده، وقد عرف عن الرازي اهتمامه بذكر المناسبات بين الآيات بعضها مع بعض، وبين السور بعضها مع بعض، كما اشتهر بالإكثار من الاستدلالات العقلية الدقيقة، لذلك فإن نقول ابن عجيبة عن تفسير الرازي بالرغم من قلتها تكاد تنحصر

---

1) الانشراح 4.

2) المحرر الوجيز 327/16.

3) البحر المديد 208/4.

في تلك المجالات[1]. لأنه على ما يبدو كان حريصا على أن لا ينقل عن المفسرين السابقين سوى ما برز فيه كل واحد منهم وظهر باعه فيه.

فمن أمثلة ما نقله عن الرازي في مجال علم المناسبات ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**يا أيها النبي حرض المومنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين**.....﴾[2] «قال الفخر الرازي[3] حسن هذا التكليف لما كان مسبوقا بقوله : حسبك الله ومن اتبعك من المومنين، فلما وعد المومنين بالكفاية والنصر كان هذا التكليف سهلا لأن من تكفل الله بنصره فإن أهل العالم لايقدرون على إذايته».[4]

وقال عند تفسير قوله تعالى : ﴿**فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى**.... الآية﴾[5] «وقال الإمام[6] أي الفخر الرازي كل ما أدت عاقبته إلى الراحة و الأمور المحمودة فذلك اليسرى وهو وصف كل الطاعات، وكل ما أدت عاقبته إلى التعب والردى فذلك العسرى وهو وصف كل المعاصي».[7]

---

1) انظر على سبيل المثال : البحر المديد 106/3 – 41/4 – 113/4 و 212/4 وتقارن تباعا بالحاشية الفاسية : 175/2 – 245/2 – 276/2.

2) الأنفال : 65.

3) انظر تفسير الرازي : 199/15 (مج 8).

4) البحر المديد 36/2 وقارن بالحاشية الفاسية 73/1.

5) الليل : 6.

6) انظر تفسير الرازي ج 200/31 (مج 16) وعبارة الرازي : «فكل ما آدت عاقبته إلى يسر وراحة وأمور محمودة فإن ذلك من اليسرى، وذلك وصف كل الطاعات، وكل ما أدت عاقبته إلى عسر وتعب فهو من العسرى وذلك وصف كل المعاصي».

7) البحر المديد 205/4 وقارن بالحاشية الفاشية 321/2.

تفسير الكواشي (ت 680 هـ)[1] :

كل نقول ابن عجيبة من هذا التفسير مأخودة من حاشية الفاسي وذلك بالرغم من ذكره لتفسير الكواشي ضمن التفاسير المشرقية التي كانت بحوزته، فهويقول في شرحه الكبير على الفاتحة وفي المقدمة السابعة : «ومنها (أي من التفاسير) تفسير موفق الدين أحمد بن يوسف الكواشي نزيل مصر وكواشة حصن من أعمال الموصل وكان من أولياء الله ينفق من الغيب وله كرامات»[2] إلا أن ابن عجيبة لم يبين لنا التفسير المعتمد، فمعلوم أن للكواشي تفسيرين أحدهما كبير وسماه بتبصرة المتذكر وتذكرة المتبصر، والثاني وقد لخصه من الأول سماه التلخيص.[3]

ومن خلال نسخة مخطوطة من التلخيص تبتدئ من سورة ص وتنتهي عند سورة الناس محفوظة بالخزانة الحسنية[4] بالرباط تبين لنا أن ابن عجيبة وبالتالي سلفه المحشي الفاسي الذي نقل عنه إنما اقتبسا من التبصرة وليس من التلخيص. إذ لا أثر لتلك النقول في الجزء الذي نتوفر عليه من التلخيص.

وقد ينقل ابن عجيبة من تفسير الكواشي ما يوظفه في باب الإشارة[5] إلا أن معظم نقوله عنه كانت في التفسير بالظاهر، وهي تشمل مختلف المجالات، ومن أمثلة ذلك ما نقله عنه عند تفسير قوله تعالى : ﴿**قال يا قوم**

---

1) هو أحمد بن يوسف أبو العباس الكواشي ولد بكواشة من أعمال الموصل سنة 590، برع في القراءات و الفضائل. ترجمته في تذكرة الحفاظ 1465/4 وغاية النهاية لابن الجزري 151/1 وطبقات المفسرين للداودي 100/1.

2) شرح الفاتحة الكبير ص : 67.

3) انظر كتف الظنون 457/1 و 480/1 وذيل كشف الظنون 222/3.

4) مخطوط الخزانة االحسنية رقم 6954 أوراقه 197. وهو يمثل أقل من ربع الكتاب، ويمتاز التلخيص بالوقوف التي ذكرها الكواشي عند مناسبات الوقف فرمز إلى الوقف التام ب (ت) وحسن إلى الحسن و (كا) إلى الكافي، وقد فرغ من تأليفه عام 649.

5) انظر مثلا 62/4.

﴿اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسئلكم أجرا وهم مهتدون﴾[1] حيث قال : الكواشي : تمنى أن يعلم قومه أن الله قد غفر له وأكرمه ليرغب قومه في اتباع الرسل فيسلموا فنصح قومه حيا وميتا وكذلك ينبغي أن يكون كل داع إلى الله تعالى في المجاهدة و النصيحة لعباد الله وأن لا يحقد عليهم إن أذوه وأن يكظم كل غيظ يناله بسببهم».[2]

ومما نقل عنه في مجال الفقه ما ذكر عند تفسير قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين ءامنوا إذا جاءكم المومنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن... إلى قوله تعالى والله عليم حكيم﴾[3]، حيث قال : «الكواشي : أباح تعالى نكاحهن وإن كان لهن أزواج في دار الحرب لأن الإسلام فرق بينهن وبين أزواجهن بعد انقضاء العدة فإن أسلم الزوج قبل انقضاء العدة فهي امرأته عند مالك والشافعي وأحمد خلافا لأبي حنيفة في غير الحامل».[4]

تفسير القرطبي (ت 672 هـ) :

بالرغم من أن تفسير القرطبي يعتبر من أحفل التفاسير بمادة الفقه و الأحكام، فإن ابن عجيبة - ونظرا لقلة اهتمامه بهذا الجانب في تفسيره - لم يعول كثيرا على تفسير القرطبي، فأورد نقولا معدودة نقلها الفاسي في حاشيته، فتفسير القرطبي لم يكن بين يديه وقت تأليفه للبحر المديد كما يقول[5]. لذا فهو ليس من مصادره الرئيسية.

---

1) يس : 20.

2) البحر المديد 181/4 وانظر حاشية الفاسي 309/2.

3) الممتحنة :10

4) البحر المديد 123/4 وحاشية الفاسي 281/2.

5) انظر شرح الفاتحة الكبير ص : 65.

ولدى تفحص تلك النقول يتبين لنا أنها لا تتعلق بالاحكام الفقهية كما قد يتبادر إلى الأذهان إلا نادرا بل تتعلق بإجلاء معاني الآيات أو إيراد سبب النزول، مثال ذلك ما أورده عند تفسير قوله تعالى : ﴿**ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شي قدير**﴾[1] حيث قال القرطبي: قوله ذلك بأن الله هو الحق، لما ذكر افتقار الموجودات إليه وتسخيرها على وفق اقتداره واختياره قال بعد ذلك ذلك بأن الله هو الحق نبه بهذا على أن كل ما سواه و إن كان موجودا فإنه لا حقيقة له من نفسه لأنه مسخر ومصرف، و الحق الحقيقي هو الموجود المطلق الغني المطلق. وإن وجود كل موجود عن وجوب وجوده، ولهذا قال في آخر السورة : ﴿**وأن ما يدعون من دونه هو الباطل**﴾ و الحق هوالوجود الثابت الذي لا يزول ولا يتغير وهو الله تعالى»[2]. ومما نقله عن القرطبي وتعلق بالأحكام الفقهية وهو نادر جدا، ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون فأخذتهم الصيحة مشرقين**﴾[3] حيث قال : «قال القرطبي : وإذا أقسم الله بحياة نبيه فإنما أراد التصريح لنا أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته وقد قال الإمام أحمد فيمن أقسم بالنبي ﷺ أنه تنعقد به يمينه، وتجب الكفارة بالحنث، واحتج بكون النبي ﷺ أحد ركني الشهادة، وقال ابن خويز منداد استدل من جوز الحلف به عليه السلام بأن أيمان المسلمين جرت من عهده ﷺ حتى إن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا جاء صاحبه قال له احلف لي بما جاء في هذا القبر أو بحق ساكن هذا القبر يعني النبي ﷺ»[4] ويعقب ابن عجيبة الفقيه المالكي على هذا بقوله : «قلت: ومذهب مالك أنه لا ينعقد يمين بغير الله وصفاته وأسمائه».

---

1) الحج : 6.

2) البحر المديد 383. وانظر حاشية الفاسي على الجلالين 141/1 وراجع تفسير القرطبي 14/12.

3) الحجر : 72.

4) البحر المديد 124/2 وانظر حاشية الفاسي 140/1 وراجع تفسير القرطبي 40/10.

تفسير **البيضاوي** (ت 691 هـ) :

يعتبر تفسير البيضاوي من أجل التفاسير المختصرة، اختصر فيه صاحبه كتاب الكشاف للزمخشري واستمد من تفاسير أخرى كمفاتيح الغيب للرازي وتفسير الراغب الأصفهاني وغيرهما. وقد رزق تفسير البيضاوي والمسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» حسن القبول فذاع صيته واشتهر أمره بين العلماء فعكفوا عليه بالدرس وتناولوه بالتحشية والتبسيط حتى بلغت عدد الحواشي الموضوعة عليه العشرات ذكر حاجي خليفة الكثير منها[1].

وقد أولع ابن عجيبة بهذا التفسير وأعجب به أيما إعجاب، يدل على ذلك كثرة نقوله عنه، فقد استعرض هذا التفسير من أوله إلى آخره واصطحبه طيلة مدة تأليفه للتفسير يقول صوفينا عن تفسير البيضاوي : «وممن نسج على منواله (أي على منوال الكشاف) القاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي فقد أتقن في تفسيره غاية الإتقان وأحسن غاية الإحسان، حرر فيه المعاني بعبارة مختصرة وإشارة حسنة غير أنه سرق كلام الكشاف في مواضع حررها السيوطي في حاشيته عليه، وقد اشتهر كتابه غاية الاشتهار وطار في البلاد كل مطير فدل على حسن نيته»[2].

وقد اعتمد ابن عجيبة على تفسير البيضاوي لينقل منه في مجالات مختلفة من لغة ونحو وفقه وحديث وسبب النزول وغير ذلك[3] فمن ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما**

---

1) انظر كشف الظنون 127/1-128.

2) شرح الفاتحة الكبير ص : 66.

3) انظر على سبيل المثال : البحر المديد 6/1-123/2.

في السماوات و الأرض كل له قانتون﴾[1]. قال : «قال البيضاوي[2] وأعلم أن السبب في هذه الضلالة أن أرباب الشرائع المتقدمة كانوا يطلقون الأب على الله تعالى باعتبار أنه السبب الأول حتى قالوا إن الأب هو الرب الاصغر و الله تعالى هو الرب الأكبر، ثم ظنت الجهلة منهم أن المراد به معنى الولادة فاعتقدوا ذلك تقليدا ولذلك كفر قائله ومنع منه مطلقا حسما لمادة الفساد»[3].

وقد ينقل عنه متصرفا في كلامه دون الإشارة إلى ذلك، وقد يشير أحيانا إلى ذلك بالاختصار، فمثال ما نقله عنه ولم يشر إلى تصرفه في كلامه ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين ءامنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم**...﴾[4] حيث أورد الخلاف الفقهي الحاصل في مسح الرأس فقال : «قال مالك : واجب كله (أي مسح الرأس) وقال الشافعي أقل ما يقع عليه اسم الرأس ولو قل وقال أبو حنيفة الربع..... وفائدته التنبيه على قلة صب الماء حتى يكون غسلا يقرب من المسح قاله البيضاوي».[5]

وحينما ينص ابن عجيبة على تصرفه واختصاره لكلام البيضاوي فإنه يشير إلى ذلك بقوله غالبا : «وأصله للبيضاوي».[6]

أما طريقة اختصاره فتتجلى في كون ابن عجيبة يستأنس بفكرة أو مقالة البيضاوي فيقوم بتحريرها والتصرف فيها بأسلوبه وعلى طريقته. وفيما يلي مثال على ذلك :

---

1) البقرة : 116.

2) تفسير البيضاوي 184/1.

3) البحر المديد 28/1.

4) المائدة : 6.

5) البحر المديد 136/1 وقارن بتفسير البيضاوي 138/2.

6) انظر مثلا : 49/1 وقارنه بتفسير البيضاوي 136/1 وكذا 134/2 وقارنه بتفسير البيضاوي 184/3.

فعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا**﴾[1] قال : «ولأن أحكام جهالتها (أي الأنعام) وضلالتها مقصورة عليها لا تتعدى إلى أحد وجهالة هؤلاء مؤدية إلى ثوران الفساد وصد الناس عن سنن السداد وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد. ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال لعدم القوى العقلية فلا تقصير من قبلها ولا ذم، وهؤلاء متمكنون من القوى العقلية مضيعون للفطرة الأصلية مستحقون لذلك أعظم العقاب وأشد النكال هـ وأصله للبيضاوي»[2]. وإذا رجعنا إلى تفسير البيضاوي وجدناه يقول : «ولأن جهالتها لا تضر بأحد وجهالة هؤلاء تؤدي إلى هيج الفتن وصد الناس عن الحق، ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال فلا تقصير منها ولا ذم وهؤلاء مقصرون ومستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم»[3] وإذا كان ابن عجيبة قد تأثر كثيرا بتفسير البيضاوي فإنه بالمقابل قد يتعقبه بالرد والتفنيد كما عند تفسيره قوله تعالى[4] : ﴿**إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مومنين**﴾، حيث قال: وفي البيضاوي هنا تخليط فلا يغتر به»[5] وقد يكتفي بإيراد اعتراضات المفسرين اللاحقين دون إبداء رأيه كما عند تفسير العرش من آية الكرسي من سورة البقرة حيث قال بعد كلام البيضاوي : «قلت : اعترضه السيوطي في حاشيته[6] عليه والله تعالى أعلم».[7]

---

1) الفرقان : 44.

2) البحر المديد : 82/3.

3) تفسير البيضاوي 95/4.

4) آل عمران : 175.

5) البحر المديد 95/1 وانظر تفسير البيضاوي 54/2.

6) وهي المعروفة ب «نواهد الإبكار وشوارد الأفكار»

7) انظر موقف حاجي خليفة من كلام البيضاوي في هذه المسألة وفي تفسيره لحمل الملائكة للعرش (غافر 7) (تفسير البيضاوي 34/5)، وقد تطرق لها في معرض حديثه عن تفسير البيضاوي في كشف الظنون 127/1 حيث قال : «وأما الوجه الذي تفرد فيه وظن بعضهم أنه مما لا ينبغي أن يكون من الوجوه التفسيرية السنية =

واعترض عليه لدى تفسيره لقوله تعالى : ﴿**ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه...**﴾[1] فقال : «قال البيضاوي[2] : والمراد بهمه ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري وذلك مما لا يدخل تحت التكليف، بل الحقيق بالمدح و الأجر الجزيل من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم... قلت : أما تفسير الهم بالميل فلا يليق بالنفس المطمئنة وأما تفسيره بالخاطر فيتصور في المطمئنة وغيرها، وإنما سماه الله تعالى هما في حق يوسف عليه السلام لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعلو، منصبهم، وشدة قربهم من الحضرة يشدد عليهم في مطالبة الأدب فيجعل الخاطر في حقهم هما وظنا كما قال تعالى ﴿**حتى إذا استيأس الرسل وظنا، أنهم قد كذبوا**﴾ في من خفف الذال، كما قال تعالى في حق يونس عليه السلام : ﴿**فظن أن لن نقدر عليه**﴾[3] على أحد التفاسير والله تعالى أعلم».[4]

وقد بلغ تأثر ابن عجيبة بتفسير البيضاوي أن نقل عنه الأحاديث الواردة في فضائل سورة البقرة وخواتيمها ومعظمها غير صحيح. وأظن أنه سهو من ابن عجيبة لم يفطن به وذلك لأمرين : أحدهما أن ابن عجيبة لم ينقل في باقي السور شيئا من ذلك وهو أمر ملحوظ يدل على شدة إحتياطه، وثاني الأمرين أنه نص في آخر سورة النور من تفسيره على عدم صحة ما جاء من الأحاديث في فضائل السور، وعبارته في ذلك : «وأما ما ورد من فضل السور فموضوع، وقد غلط من ذكره من المفسرين»[5] ومما يجدر

= كقوله : وحمل الملائكة العرش وحفيفهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له ونحوه فهو ظن من لعله يقصر فهمه عن تصور مبانيه..إلخ.

1) يوسف : 24.

2) تفسير البيضاوي 130/3.

3) الأنبياء 87.

4) البحر المديد 90/2 ولاحظ كيف قاس ابن عجيبة الهم على الظن مستشهدا بآيات الظن في حق الرسل.

5) البحر المديد 74/3 إلا أنه مما يلاحظ أن ابن عجيبة قد أورد بعض فضائل آية الكرسي نقلا عن البيضاوي وأبي السعود. قال بعدها (البحر المديد 58/1) : «وتكلم السيوطي في بعض هذه الأحاديث والفضائل يعمل فيها بالضعيف والله تعالى أعلم» ونرجئ الحديث عن موقف ابن عجيبة من أحاديث الفضائل إلى مبحث لاحق.

الوقوف عنده ونحن بصدد الحديث تفسير البيضاوي كمصدر أساسي من مصادر ابن عجيبة في التفسير موقف هذا الأخير من بعض اللطائف التفسيرية المتعلقة بعلم السلوك، وبعض الإشارات الدقيقة التي كان البيضاوي يلمح إليها من حين لآخر بطريقة رائعة ولطيفة، حيث كانت لتلك الإشارات الوقع الحسن في نفس ابن عجيبة فكان يتصيدها - على قلتها - من مواضع مختلفة من تفسير البيضاوي فيستأنس بها في تفسيره تدعيما لرأيه وتعزيزا لمذهبه في التفسير الإشاري.

ومن أمثلة ذلك ما أورده عند تفسير قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين ءامنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون**﴾[1] حيث قال : «البيضاوي : وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله وأن يلتجئ إليه عند الشدائد ويقبل عليه فارغ البال واثقا بأن لطفه لا ينفك عنه في شيء من الأحوال».[2]

وكذا عند تفسير قوله تعالى من أول سورة النازعات : ﴿**والنازعات غرقا والناشطات نشطا...**﴾ الآية، حيث قال : «وقال البيضاوي : وهذه صفات النفوس وحال سلوكها فإنها تنزع من الشهوات وتنشط إلى عالم القدس فتسبح في مراتب الارتقاء فتسبق إلى الكمالات حتى تصير من المكملات».[3]

وقد بلغ إعجاب ابن عجيبة بإشارات البيضاوي حدا جعله يوظف إحداها في باب الإشارة من التفسير و الذي يكاد لا ينقل فيه سوى عن كبار الصوفية المفسرين كالقشيري وسهل التستري والورتجبي.

فعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر**﴾[4] قال : «الإشارة:

---

1) الأنفال : 45.

2) البحر المديد 33/2 وانظر تفسير البيضاوي 52/3.

3) البحر المديد 181/4. وهذا النص قد اختصر فيه ابن عجيبة كلام البيضاوي كثيرا، انظر تفسير البيضاوي 171/5.

4) يونس : 3

تقدم عن البيضاوي بعض إشارة هذه الآية» وعبارة البيضاوي المتقدمة هي قوله : «يدبر الأمر من الكائنات على ما تقتضيه حكمته وسبقت به كلمته بتحريك أفلاكها وتهييئ أسبابها، والتدبير : النظر في أدبار الأمور لتجيء محمودة العاقبة».[1]

والذي يمكن استخلاصه من هذه النصوص أن ابن عجيبة وهو المفسر الصوفي الميال بذوقه وحدسه إلى اللغة الرمزية والإشارية للنص قد اكتشف لنا صاحب «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» كمفسر أوتي من أسرار التأويل و الإشارات ما يجعله محل تقدير وإجلال من طرف متأخري الصوفية الذين اعتبروا تفسيره من أجل التفاسير وأرقاها.[2]

تفسير ابن جزي (ت 742 هـ) :

يعتبر هذا التفسير إلى جانب تفسير البيضاوي من أهم مصادر ابن عجيبة في التفسير بالظاهر، فقد استند إليه كثيرا واعتمد عليه من أوله إلى آخره ناقلا ومعقبا، أما النقل منه فقد تنوع حسب المجالات من نحو وفقه وسبب نزول وغير ذلك، أما التعقيب عليه فقد كان ابن عجيبة متربصا بأقوال سلفه لا يفتأ يصوبها ويرد على الكثير منها. وبالرغم من ذلك فإن كثرة اعتماد ابن عجيبة على التسهيل تدل على شدة إعجابه بشكل الكتاب من حيث الاختصار ووضوح الأسلوب، يقول صوفينا عن تفسير ابن جزي : «وممن ألف في التفسير أبو القاسم محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي من أهل غرناطة ألف كتابا في التفسير سماه «التسهيل لعلوم التنزيل» فهو مقتطف من ابن عطية غير أنه أوضح فيه العبارة وأجاد الإشارة وحرر فيه المقال وأكمل غاية الإكمال إلا أنه لم يستوعب القرآن بالكلام وإنما تكلم على

---

1) البحر المديد 58/2 وانظر تفسير البيضاوي 86/3

2) انظر على سبيل المثال مدى اعتماد العارف عبد الرحمان الفاسي عليه في حاشيته على الجلالين.

الموضع الذي يحتاج إلى الكلام وقد تلقى الناس كتابه بالقبول فبلغ به غاية المامول».[1]

ولعل ما زاد من اهتمام ابن عجيبة بكتاب ابن جزي ما لاحظه عليه من اعتناء تام بإيراد إشارات الصوفية للاستئناس بها وتوظيفها في خدمة معنى النص القرآني وهو ما عبر عنه في كلامه السابق بقوله : «وأجاد الإشارة» وسنعرض فيما بعد أمثلة دالة على ذلك.

أكثر ابن عجيبة من النقل عن تفسير ابن جزي فيما يتعلق بمسائل النحو، ومباحث اللغة[2]، فمن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني**﴾[3] قال: «ابن جزي : الضمير المؤنث يعني في (فيها) يعود على الكاف لأنه صفة للهيئة وكذلك الضمير المذكور في آل عمران (فأنفخ فيه)[4] يعود على الكاف لأنها بمعنى مثل وإن شئت قلت هو في الموضعين يعود على الموصوف المحذوف الذي وصف بقوله كهيئة فتقديره في التأنيث صورة وفي التذكير شخصا أو خلقا أو شبه ذلك».[5]

وقد ينقل عنه بعض الأحكام الفقهية ومباحث الخلاف العالي[6] خاصة ما تعلق منه بالفقه المالكي الذي يعتبر ابن جزي أحد مقرري مسائله في كتاب له بعنوان : «القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية» ففي سياق الحديث عن النكاح في سورة النساء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المومنات فمن**

---

1) شرح الفاتحة الكبير ص : 66.

2) إلا أنه يلاحظ قلة اعتماده عليه في الربع الأخير من التفسير (ج 4).

3) المائدة : 110.

4) هو قوله تعالى : ﴿فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله﴾ آل عمران 49.

5) البحر المديد 156/1 وانظر : التسهيل لابن جزي 193/1.

6) انظر مثلا : البحر المديد 143/1 – 135/4 – 137/4.

ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المومنات﴾[1] قال ابن عجيبة أثناء ذلك : «ابن جزي : مذهب مالك وأكثر أصحابه أنه لا يجوز للحر نكاح الأمة إلا بشرطين أحدهما عدم الطول وهو الا يجد ما يتزوج به حرة، والآخر خوف العنت وهو الزنى لقوله بعد ذلك لمن خشي العنت منكم، وأجاز ابن القاسم نكاحهن دون الشرطين على القول بأن دليل الخطاب لا يعتبر واتفقوا على اشتراط الإسلام في الأمة لقوله تعالى : ﴿**من فتياتكم المومنات**﴾ إلا أهل العراق فلم يشترطوه[2] وموقف ابن عجيبة من تفسير ابن جزي لم يكن دائما موقف المتأثر المقلد، بل كان كثيرا ما يتعقب كلامه بالتصويب تارة وبالرد والتفنيد تارة أخرى، وتختلف عباراته في ذلك، وفيما يلي مثالان يوضحان ذلك :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**..﴾[3] قال : «ابن جزي : أي سموه بأسمائه وهذا إباحة لإطلاق الأسماء على الله تعالى. فأما ما ورد منها في القرآن و الحديث فيجوز إطلاقه على الله إجماعا وأما ما لم يرد وفيه مدح ولا تتعلق به شبهة فأجاز أبو بكر ابن الطيب إطلاقه على الله ومنع ذلك أبو الحسن الآشعري وغيره ورأوا أن أسماء الله تعالى موقوفة على ما ورد في القرآن و الحديث.. واختلف أهل الحديث هل هي مرفوعة أو موقوفة على أبي هريرة، والذي في الصحيح أن لله تسعة وتسعين إسما من أحصاها دخل الجنة هـ، قلت : كونها موقوفة بعيد جدا، إذ ليس هذا مما يقال بالرأي».[4]

أما المثال الثاني فيتعلق بالضمير في (ينصره) من قوله تعالى : ﴿**من كان يظن أن لا ينصره الله في الدنيا والأخرة فليمدد بسبب إلى**

---

1) النساء : 25.

2) البحر المديد 1071 وانظر التسهيل 136/1-137 وراجع كتاب «القوانين الفقهية» لابن جزي ص : 170.

3) الأعراف : 180.

4) البحر المديد 22/2 وانظر: التسهيل 55/2.

السماء﴾[1] هل يعود على النبي ﷺ أو على من ظن بسبب ضيق صدره وكثرة غمه أن لن ينصره الله، وقد أورد ابن عجيبة ترجيح ابن جزي للقول الثاني وتعزيزه لذلك بوجوه ترجيحية ضمنها كلاما طويلا آثرنا عدم نقله من اجل الاختصار[2]، وبعد نقل ابن عجيبة لكلامه هذا قال : «وانظر ابن عطية[3] و الكواشي ففيهما ما يدفع درك ابن جزي ورده للأول بما في سبب الآية ونزولها من المناسبة».[4]

وننتقل الآن للحديث عن أهم جانب آثار إعجاب ابن عجيبة في تفسير ابن جزي إلا وهو ذكره ونقله لبعض اللطائف التفسيرية والإشارات الصوفية الدقيقة. وقد قرر ابن جزي في مقدمته للتفسير صلة التصوف بالقرآن قائلا : «وأما التصوف فله تعلق بالقرآن لما ورد في القرآن من المعارف الإلاهية ورياضة النفوس وتنوير القلوب وتطهيرها باكتساب الأخلاق الحميدة واجتناب الأخلاق الذميمة» ثم قال بعد ذلك : «وقد ذكرنا في هذا الكتاب ما يستحسن من الإشارات الصوفية دون ما يعترض أو يقدح فيه، وتكلمنا أيضا على اثنى عشر مقاما من مقامات التصوف في مواضعها من القرآن».[5] ومما نقله عنه في هذا المجال ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء**﴾[6] حيث قال : «وتكلم ابن جزي هنا على الإخلاص فقال : اعلم أن الأعمال على ثلاثة أنواع : مأمورات ومنهيات ومباحات، فأما المأمورات فالإخلاص فيها : عبارة عن خلوص النية لوجه الله بحيث لا يشوبها بنية أخرى، فإن

---

1) الحج : 15.

2) انظر كلام ابن جزي في التسهيل 55/2.

3) ابن عطية : المحرر الوجيز 183/11.

4) البحر المديد 40/3.

5) مقدمة التسهيل 8/1.

6) البينة : 5.

كانت كذلك فالعمل خالص، وإن كانت لغير وجه الله من طلب منفعة دنيوية أو مدح أو غير ذلك فالعمل رياء محض مردود، وإن كانت النية مشتركة ففي ذلك تفصيل فيه نظر واحتمال.[1]

وإذا كان ابن جزي قد نص في مقدمة كتابه على أنه تكلم على اثني عشر مقاما[2] في مواضع مختلفة من التفسير فإن ابن عجيبة قد نقل عنه بعض كلامه في تلك المقامات كالتوكل[3] والمراقبة والإحسان[4] والصبر[5]، فعند تفسير قوله تعالى : ﴿**واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا**﴾[6] قال : «وقد تكلم ابن جزي هنا على أحكام المراقبة فقال : «إذا تحقق العبد بهذه الآية وأمثالها استفاد مقام المراقبة وهو مقام شريف أصله علم وحال ثم يثمر حالين. أما العلم فهو معرفة العبد بأن الله مطلع عليه ناظر إليه في جميع أعماله ويسمع جميع أقواله ويعلم كل ما يخطر على باله وأما الحال فهو ملازمة هذا العلم بالقلب بحيث يغلب عليه ولا يغفل عنه ولا يكفيه العلم دون هذه الحال فإذا حصل العلم والحال كانت ثمرتهما عند أصحاب اليقين الحياء من الله وهو يوجب بالضرورة ترك المعاصي... إلى آخر كلامه».[7]

---

1) البحر المديد 212/4 وانظر التسهيل 212/4 (اتفاق أرقام الأجزاء و الصفحات إنما هو مجرد صدفة) ففيه تتمة كلام ابن جزي عن المنهيات والمباحات، وقد أورده ابن عجيبة كذلك بعدما فصل ذلك بكلام للغزالي.

2) ابن عجيبة نفسه يذهب إلى حصر المقامات الصوفية في اثني عشر مقاما و انظر مثلا : البحر المديد 121/2 و 171/3 و 84/3. وانظر الفصل الرابع من القسم الأول من الدراسة.

3) انظر كلاما له مطولا عن التوكل في البحر المديد 93/1 عند تفسير قوله تعالى : ﴿**فإذا عزمت فتوكل على الله**﴾ (آل عمران 159) وقارن بالتسهيل 122/1.

4) انظر البحر المديد 94/4 عند تفسير قوله تعالى : ﴿**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**﴾ (الرحمان 60) وقارن بالتسهيل 86/4.

5) انظر البحر المديد 35/1 عند قوله تعالى ﴿**إن الله مع الصابرين**﴾ وقارن بالتسهيل 65/1.

6) االنساء : 1.

7) البحر المديد 100/1 وانظر التسهيل 128/1.

والذي يلاحظ أن معظم كلام ابن جزي في التصوف والمقامات والأحوال إنما هو مقتبس من الإحياء للإمام الغزالي وهو ما ينص عليه ابن عجيبة أحيانا لدى انتهائه من نقل كلام ابن جزي.[1]

تفسير أبي حيان (ت 745 هـ) :

ركز ابن عجيبة في تفسيره على مسائل النحو والإعراب كثيرا فأولاها عناية فائقة واهتماما بالغا، وكان يسعى من أجل ذلك إلى النقل عن المصادر الأساسية في الموضوع فكان تفسير أبي حيان مصدرا مهما يستعين به في إجلاء غوامض اللغة والنحو والإعراب، وقد نقل ابن عجيبة في كتابه عن أبي حيان، وجل تلك النقول تتعلق بالنحو والإعراب، إلا أن الذي يتبين بعد الاستقراء و المقارنة بين ما نقله وما جاء في حاشية الفاسي أن ابن عجيبة لم يعتمد على «البحر المحيط» بصفة مباشرة، فكل النقول عن أبي حيان الواردة في «البحر المديد» مأخودة بعينها كما هي في الحاشية الفاسية إلا أن ابن عجيبة لا يعزو دوما إلى الواسطة، ومما يعزز هذا الرأي أمران.

أولا : أن ابن عجيبة قد أحال في موضعين اثنين على حاشية الفاسي (الأول بالإحالة والثاني بالتصريح بالنقل).[2]

ثانيا : لدى المقارنة يتبين لنا أن ابن عجيبة لا يكتفي بنقل ما جاء عن أبي حيان فحسب بل يستطرد إلى اقتباس نقول أخرى وردت في الحاشية الفاسية كما هي، فعلى سبيل المثال أورد عند تفسير قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين ءامنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة...**﴾[3] نقلا عن

---

1) كقوله مثلا : «وأصله في الإحياء» 93/1. أو قوله «وكلامه مقتبس من الإحياء» 100/1.

2) انظر البحر المديد 174/1 و 105/2 وقارن بالحاشية (59/1 و 98/1).

3) الجمعة : 9.

الطيبي مباشرة بعد النقل عن أبي حيان[1] وهذا التسلسل في النقل عن الاثنين هو نفسه مبثوث في حاشية الفاسي.[2]

ومما يؤكد لنا يقينا أن ابن عجيبة لم يرجع مباشرة إلى تفسير أبي حيان عدم ذكره له ضمن التفاسير التي وقف عليها و المذكورة في المقدمة الثامنة من شرحه الكبير على الفاتحة.[3]

ومن أمثلة ما نقله عن أبي حيان بواسطة الحاشية ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو و الأصال**﴾[4] حيث قال[5] : «وقال أبو حيان عن الفراء : الظل في الاصل مصدر ثم أطلق على الخيال الذي يظهر للجرم وطوله بسبب انحطاط الشمس وقصره بسبب ارتفاعها فهو منقاد لله تعالى في طوله وقصره وميله من جانب إلى جانب، ثم قال : و الحاصل أنها جارية على مقتضى إرادته تعالى ومشيئته من الامتداد والنقص و الفيء و الزوال هـ»[6]

ومن أمثلة ما أورده في مجال الإعراب قوله عند تفسير الآية الكريمة : ﴿**أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم**﴾[7] قال قتادة : لو لم يكن له إلا بيت، واحد أسكنها في بعض جوانبه، من وجدكم أي وسعكم أي ما يطيقونه فهو عطف بيان أو بدل، قال أبو حيان : لا يعرف عطف بيان يعاد فيه العامل إنما هذا طريقة البدل مع حرف الجر ولذلك أعربه أبو البقاء[8] بدلا».[9]

---

1) البحر المديد 127/4.

2) حاشية الفاسي على الجلالين 283/2.

3) شرح الفاتحة الكبير ص : 68.

4) الرعد : 15.

5) البحر المديد 105/2.

6) البحر المحيط 378/5 وقارن بالحاشية الفاسية 98/1 حيث يظهر أن الكلام من قوله : و الحاصل أنها جارية ... ليس لأبي حيان وإنما للمحشي الفاسي.

7) الطلاق : 6.

8) أبو البقاء العكبري : إملاء ما من به الرحمان ط 1979/1. دار الكتب العلمية بيروت 263/2 وعبارته : «و الوجد الغنى ويجوز فتحها وكسرها ومن وجدكم بدل من «من حيث» .

9) البحر المديد 135/4.

ومما يلاحظ من خلال هذا النص أن اقتباس ابن عجيبة له ناقص قد يؤدي بالقارئ إلى فهم سياق كلام أبي حيان على غير حقيقته، فأبو حيان يبدو معقبا على الكلام الذي قبله إلا أنه لا يظهر قائله من خلال نقل ابن عجيبة، ولدى رجوعنا إلى البحر المحيط يتجلى لنا أن الزمخشري هو صاحب القول : «قال الزمخشري[1] : (فإن قلت) فقوله من وجدكم (قلت) هو عطف بيان لقوله من حيث سكنتم وتفسير له كأنه قيل : أسكنوهن مكانا من مسكنكم مما تطيقونه، و الوجد الوسع والطاقة انتهى، ولا نعرف عطف بيان يعاد فيه العامل».[2]

تفسير أبي السعود (ت 982 هـ) :

يعتبر تفسير أبي السعود المسمى«إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» من أجود كتب التفسير عناية بأسرار البلاغة القرآنية وإعجاز القرآن، فقد كشف فيه صاحبه عن مباحث بلاغية رائعة وفوائد علمية دقيقة صاغها بأسلوب بلاغي مسبوك يدل على مدى ولع صاحبه بالناحية البلاغية وخاصة في القرآن الكريم، كما يتعرض أحيانا لذكر الجانب النحوي إذا كانت له علاقة ببلاغة النظم الكريم وكانت الآية محتملة لأوجه إعرابية متعددة.

يقول ابن عجيبة عن هذا التفسير : «ومما اتصل بأيدينا أيضا من تفاسير المشارقة تفسير الفقيه الجليل العالم الكبير أبو السعود الحنفي من أهل اصطنبول فهو تفسير جليل لخص فيه ما في الكشاف و البيضاوي وبعبارة رائقة وإشارة راشقة وأسلوب عجيب مع زيادة نكت وبدائع قل أن

---

1) الكشاف 121/4.

2) البحر المحيط 285/8.

توجد في غيره، وقد كان شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي[1] يقول فيه: لو كتب بحدق العين لكان قليلا في حقه».[2]

ولما كان أبو السعود قد اشتهر باهتمامه بالناحية البلاغية في القرآن الكريم فإن ابن عجيبة قد التزم أن لا ينقل من تفسيره إلا ما كان متصلا بذلك الجانب[3] مبديا إعجابه بتلك الأسرار البلاغية المتضمنة في نظم القرآن والتي استطاع أبو السعود إجلاءها وإبرازها بشكل لطيف.

ومن أمثلة ما نقله عنه ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة والسابقون السابقون أولئك المقربون**﴾[4] حيث قال : «وقال أبو السعود : والذي تقتضيه جزالة النظم[5] أن قوله تعالى فأصحاب الميمنة خبر مبتدأ محذوف وكذا قوله تعالى : وأصحاب المشئمة وقوله تعالى : والسابقون، فإن المترقب عند بيان انقسام الناس إلى الأقسام الثلاثة بيان أنفس الأقسام الثلاثة، وأما أوصافها وأحوالها فحقها أن تبين بعد ذلك بإسنادها إليها و التقدير فأحدها أصحاب الميمنة و الآخر أصحاب المشئمة و الثالث السابقون».[6]

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**كمثل الذين من قبلكم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم** ....﴾[7] قال : «أبو السعود : وقد أجمل في النظم الكريم حيث أسند كلا من الخبرين إلى المقدر المضاف إلى ضمير الفريقين

---

1) هو أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي، صاحب المؤلفات الشهيرة في مختلف العلوم و الفنون أشهرها تفسيره للقرآن الكريم (ت 1175 هـ). ترجمته في فهرس الفهارس 421/2 و الفكر السامي 123/4.

2) شرح الفاتحة الكبير ص : 67.

3) انظر على سبيل المثال : البحر المديد 58/3 و 45/4 و 70/4 ....إلخ

4) الواقعة : 11.

5) في الأصل : التنزيل .

6) البحر المديد 96/4. وانظر تفسير أبي السعود 129/5.

7) الحشر : 15.

من غير تعيين ما أسند إليه بخصوصه ثقة بأن السامع يرد كلا من المثلين إلى ما يماثله كأنه قيل : مثل اليهود في حلول العذاب بهم كمثل الذين من قبلهم إلخ، ومثل المنافقين في إغرائهم إياهم على القتال حسبما نقل كمثل الشيطان ...إلخ»[1] والذي يمكن استنتاجه من طريقة نقل ابن عجيبة من تفسير أبي السعود أنه يلتزم بنقل عبارته كما هي دون تصرف فيها أو اختصار لها، كما أنه يحرص على اقتباس كلامه مهما كان طويلا، وذلك من أجل الوقوف على الأسرار البلاغية التي يجليها أبو السعود بتمامها وهذا عكس ما سار عليه ابن عجيبة في نقله عن كثير من المفسرين السابقين من اختصار وتصرف.

حاشية الفاسي[2] (ت 1036) على الجلالين :

تأتي حاشية الفاسي[3] على الجلالين كحلقة أخيرة من مصادر ابن عجيبة في التفسير، وكان اعتماده عليها بشكل قوي ومتواصل يمثل مدى أهمية هذه الحاشية في سياق مصادر ابن عجيبة التفسيرية، فهي تمثل الركيزة الأساسية التي عول عليها لاقتباس النقول عن كثير من المفسرين الذين لم تتح له فرصة الاطلاع على تفاسيرهم، ولقد تواصل نقله عنه من أول التفسير إلى آخره دون الإشارة إلى اعتماده الحاشية كمصدر لتلك

---

1) البحر المديد 119/4 وانظر تفسير أبي السعود 15-5/.

2) هو عبد الرحمان بن محمد القصري الفاسي العارف بالله، كان جده يوسف بن عبد الرحمان يتردد من فاس إلى القصر الكبير للتجارة فلقب عند أهل القصر بالفاسي. ولد مترجمنا بالقصر الكبير عام 972 هـ، درس بفاس عن أبي زكريا السراج وأبي العباس المنجور وغيرهما، له تآليف مفيدة كحاشية البخاري وحاشية المختصر وشرح الحزب الكبير للشاذلي، وله تفسير للفاتحة عن طريق الإشارة، وغيرها، توفي عام 1036.

انظر ترجمته في : سلوة الأنفاس للكتاني 306-302/2 ومرآة المحاسن لمحمد العربي الفاسي ص : 34.

3) توجد منها عدة نسخ مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحمل الأرقام 1837د – 261ك – 1982ك – 2105ك وغيرها، وقد اعتمدت على نسخة من الحاشية محفوظة بالخزانة الحسنية تحت رقم 1033. وتحتوي على 332 ورقة.

النقول، فمنهج ابن عجيبة في الإصدار عن الحاشية أن لا يعزُوَ إلى المحشي الفاسي إلا ما كان من كلامه الخاص[1]. وقد يشير إليه أحيانا قليلة في غير ذلك.

والجدير بالملاحظة أن ابن عجيبة لم يسق تلك النقول في تفسيره بشكل تقليدي بل كان يتخير منها المناسب والأصلح، ويعزز ذلك بما يقتبسه من تفاسير أخرى أغفلها صاحب الحاشية مثل تفسيري النسقي وأبي السعود الذين اعتمد عليهما ابن عجيبة دون الفاسي.

ولعل من أبرز الدوافع التي جعلت ابن عجيبة يكثر من الاعتماد على حاشية الفاسي كون هذا الأخير أحد كبار صوفية عصره، وقد عرف بالعارف. ونتيجة لذلك كانت حاشيته مصدرا هاما لبعض الاشارات الصوفية التي كان يبثها من حين لآخر في ثنايا تلك النقول العارمة التي جمعها من شتى التفاسير، يقول المؤلف مختتما الحديث عن سلسلة التفاسير التي كانت بين يديه وقت تأليفه للتفسير : «وقد علق عليه (أي على تفسير الجلالين) شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمان الفاسي طررا حسنة مفيدة، فيها نكت صوفية جمعها بعض أولاد سيدي عبد القادر الفاسي، رحم الله الجميع بمنه وكرمه»[2] وتختلف عبارة ابن عجيبة في العزو إلى صاحب الحاشية، فتارة يقول : «قاله المحشي[3]» وتارة «قال في الحاشية»[4] أو «قال في الحاشية الفاسية»[5] أو «قال المحشي الفاسي[6]» أو

---

1) انظر على سبيل المثال : البحر المديد 16/2-102/4.

2) تفسير الفاتحة الكبير ص : 68.

3) انظر مثلا البحر المديد : 149/3 – 200/4.

4) انظر مثلا البحر المديد : 49/3 – 208/4.

5) انظر مثلا البحر المديد : 134/3.

6) انظر مثلا البحر المديد : 38/3 – 128/3.

«قال سيدي عبد الرحمان الفاسي[1]» أو «قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمان العارف».[2]

ومما يلاحظ أن ابن عجيبة قد نقل عن الفاسي نقولا كثيرة عن بعض المفسرين لم نشر إلى تفاسيرهم ضمن الحديث عن مصادر المؤلف في التفسير وذلك لكونها لا تشكل سوى نسبة قليلة ونادرة، مثل نقوله عن تفاسير الإقليشي[3] وابن عزيز[4] وابن عرفة[5] والثعالبي[6] ومكي بن أبي طالب[7] ومن أمثلة ما نقله ابن عجيبة من كلام الفاسي ما ذكره معقبا على كلام للقشيري في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**قال إن فيها لوطا، قالوا نحن أعلم بمن فيها**﴾.[8]

حيث قال : «قال شيخ شيوخنا الفاسي في حاشيته : وما ذكره واضح من حيث العقيدة، وإن كانت الآية وقول إبراهيم يحتمل أن يكون من نوع. قوله تعالى : ﴿**وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم**﴾[9] والمعنى الأول معلوم من قوله تعالى: ﴿**قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ... الآية**﴾.[10]

---

1) انظر مثلا البحر المديد : 186/3.

2) انظر مثلا البحر المديد : 98/1 –84/3 ومن المعلوم أن عبد الرحمان الفاسي يعتبر من شيوخ أشياخ ابن عجيبة وأحد الذين يتصل سنده بهم في الرواية، انظر أسانيده في رواية الحديث في فهرسته ص : 33.

3) البحر المديد : 171/1 – 148/3 و الإقليشي هو أبو العباس أحمد التجيبي (ت 549)، له «تفسير العلوم والمعاني المستودعة في السبع المثاني» مخ المكتبة الأزهرية رقم 4253/255. انظر : معجم مصنفات القرآن الكريم لعلي شواخ 21/3.

4) انظر على سبيل المثال : البحر المديد 162/3 – 184/3 وهو ينقل عنه من تفسيره وليس من كتابه «نزهة القلوب».

5) انظر على سبيل المثال : البحر المديد 119/3 – 200/4.

6) انظر على سبيل المثال : البحر المديد 68/3 – 42/4.

7) انظر على سبيل المثال : البحر المديد 4/3.

8) العنكبوت 32.

9) الأنفال :33.

10) البحر المديد 1283 وقارن بحاشية الفاسي 186 ب .

ومما يلاحظ أيضا أن ابن عجيبة قد ينقل أحيانا كلاما للفاسي ثم لا يعزوه إليه وهذا يجعلنا نتساءل إن كانت كثرة نقوله واعتماده عليه جعلته يسهو في بعض المواضع فلا يحيل عليه، لأن المؤلف كما سبق أن بينا حريص على عز والأقوال إلى أصحابها إذا ما نقل عنهم بصفة مباشرة. ومن أمثلة ذلك ما نقله في معرض تفسيره للفاتحة من تتمات جعلها خاصة بذكر فضائل سورة أم القرآن ومزاياها، قال ابن عجيبة : «تتمات : الأولى : هذه السورة جمعت معاني القرآن كلها فكأنها نسخة مختصرة منه ولذلك سميت أم القرآن، فالإلهيات حاصلة من قوله : ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾، والدار الآخرة من قوله : ﴿**ملك يوم الدين**﴾، والعبادات كلها من الاعتقادات والأحكام الظاهرة التي تقتضيها الأوامر والنواهي من قوله : ﴿**إياك نعبد**﴾، والمقامات وأسرار المعاملات الباطنة تخلية وتحلية من قوله : ﴿**وإياك نستعين**﴾.[1]

وهذا الشطر من التتمة الأولى نجده في حاشية الفاسي بعبارة أخرى هي كالتالي : «وقد قيل أن هذه السورة جمعت معاني القرآن كله، فكأنها نسخة مختصرة منه، فالإلهيات حاصلة في قوله : ﴿**الحمد لله رب العالمين الرحمان الرحيم**﴾ والدار الآخرة في قوله : ﴿**ملك يوم الدين**﴾ والشرائع الظاهرة من أمر ونهي في قوله : ﴿**إياك نعبد**﴾ والباطنة في قوله: ﴿**إياك نستعين**﴾.[2]

وقد ينقل ابن عجيبة من أقوال الفاسي ما لا يوافقه عليها، فنجده يتعقب أراءه مبديا نظره في المسألة كما في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى**﴾.[3] حيث قال : «فالاستسلام قد يكون بغير إخلاص فلذلك قال : هو محسن،

---

1) البحر المديد 51.

2) الحاشية الفاسية ورقة 7 أ.

3) لقمان :22.

قاله المحشي[1]. قلت : وفيه نظر فإن الحق تعالى إنما عبر بالإسلام لا بالاستسلام وإنما المعنى أسلم وجهه في الباطن وهو محسن بالعمل في الظاهر».[2]

وقد يورد المؤلف كلا ما للمحشي الفاسي لا يرتضيه ولايرى فيه تحقيقا ملائما لتفسير الآية، فيأتي بما يراه أنسب وأليق كما عند تفسيره لقوله تعالى من أول سورة الفتح : ﴿**إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ...﴾ فبعد أن أورد كلام الفاسي[3] قال عقبه : والأليق أن المعنى إنا فتحنا لك وقضينا لك بأمر عاقبته أن جمع الله لك بين سعادة الدنيا والأخرة بأن غفر لك وأتم نعمته عليك وهداك ونصرك، فاللام لام العاقبة، لا لام العلة، فإن أفضال الله على رسوله لا يعلل ولا يوازى بعمل هـ».[4]

---

1) الحاشية الفاسية ورقة 192 ب .

2) البحر المديد 145/3.

3) الحاشية الفاسية و 248 ب.

4) البحر المديد 50/4.

المبحث الثاني :

مصادره من كتب أخرى

أولا : مصادره في القراءات القرآنية :

لا يمكن للمفسر أن يخوض في محيط التفسيردون أن يكون ملما بالقراءات القرآنية التي تعتبر من أبرز العلوم المساعدة على التفسير، إذ عليها يتوقف كيفية النطق بآيات القرآن الكريم وتوجيهها وترجيح بعض الوجوه على البعض الأخر، وإذا كان ابن عجيبة عالما متمكنا من القراءات القرآنية، محيطا بوجوه اختلافها فإنه لم يسعفنا بذكر مصادره في ذلك . فلا نكاد نعثر على أدنى إشارة إلى كتاب من كتب القراءات القرآنية . بيد أنه بالرجوع إلى تفسيره المطول للفاتحة نجده قد عقد في المقدمة الثالثة من مقدمات علوم القرآن التي مهد بها لكتابه والتي خصصها للحديث عن القراءات القرآنية الكلام عن بعض أمهات الكتب في موضوع القراءات استنادا إلى ما أورده ابن الجزري في كتابه النشر[1]، على أنه يبقى احتمال أن يكون قد وضع كتابه المفقود «الدرر المتناثرة في توجيه القراءات المتواترة» المصدر الأساسي والمعتمد في الموضوع أثناء تحريره للتفسير مما يعلل عدم تحدث ابن عجيبة على أي مصدر من مصادر القراءات في ثنايا تفسيره.

وإذا ما رجعنا إلى حديث ابن عجيبة عن شيوخه وما أخده عنهم من علوم لا نجد أثرا لأية إشارة إلى كتب القراءات بالرغم من أنه لابد وأن يكون

---

1) النشر في القراءات العشر 41/1.

قد أخذها عن كبار علماء وقته وخاصة بفاس، ولعل السبب في كل ذلك يعود إلى أن فترة كتابته للتفسير وكذا فترة تحريره لفصول الفهرسة كانت في السنوات العشر الأخيرة من عمره التي كان قد نبذ خلالها علوم الظاهر، وبالتالي لم يكن يولي أهمية كبرى للتأكيد على مصادره في القراءات القرآنية أو حتى في علوم أخرى مثل الفقه والأصول والحديث، وغيرها كما سوف نرى[1]، بل إنه أثناء عرضه لاختلاف القراءات كان يوجز ذلك أشد ما يكون الإيجاز متفاديا كل تبسيط أو توسع.

بقيت الإشارة كذلك إلى أن كثيرا من كتب التفسير التي اعتمدها ابن عجيبة بصفة أساسية كانت تشكل أبرز روافد ومصادر القراءات القرآنية لديه مثل تفسير ابن عطية (ت 542) وتفسير أبي حيان (ت 745) وغيرهما .

وبالمقابل نجد ابن عجيبة يذكر بعض مصاحف الصحابة في بعض المواضع من تفسيره كمصادر للقراءة، كقوله في البحر المديد عند قوله تعالى : ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه و بالوالدين إحسانا**﴾[2] قال : وفي مصحف ابن مسعود : «ووصى ربك ألا تعبدوا ....»[3] وعند قوله تعالى : ﴿**إنا جعلنا في اعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون**﴾[4] قال : «وفي مصحف أبي إنا جعلنا في أيمانهم أغلالا ....»[5] ونجده أحيانا يصدر في القراءات عن الرواة من الصحابة رضوان الله عليهم كابن مسعود وعلي بن أبي طالب وغيرهم، فيورد القراءة منسوبة إلى الصحابي كقوله عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون**﴾[6] «وفي قراءة

---

1) لذلك نجده أحيانا يحيل القارئ على كتب القراءات بصفة إجمالية دون تفصيل لأسماء بعضها. انظر مثلا : البحر المديد 191/3.

2) الإسراء : 23.

3) البحر المديد 147/2.

4) يس : 8.

5) البحر المديد 186/3.

6) الواقعة 82.

علي رضي الله عنه وهي مروية عن رسول الله ﷺ : وتجعلون شكركم أنكم تكذبون»[1] وفي قوله تعالى : ﴿تجري لمستقر لها﴾[2] قال : «وقرأ ابن عباس وابن مسعود تجري لا مستقر لها ومعناها أنها جارية أبدا لا تثبت في مكان وقراءة الجماعة أوفق بالحديث».[3]

ثانيا : مصادره من كتب السنة :

يزخر تفسير ابن عجيبة بالكثير من الأحاديث النبوية وآثار الصحابة، غير أن الإشارة إلى مصادرها كانت تأتي على قلة، وإذا كانت معظم تلك الأحاديث مأخودة من كتب الصحاح و السنن فإن بعضها مما هو ضعيف أو موضوع كان ينقله من كتب التصوف و الرقاق وخاصة كتاب الإحياء للغزالي، واعتماد الصوفية على الأحاديث الضعيفة أمر معروف وطبيعي في كتاباتهم، إذ يحرصون على تبرير نظرياتهم وأفكارهم الصوفية بكل ما قد يعزز ذلك ولو كان ضعيفا، بيد أن ابن عجيبة كما يلاحظ من خلال تفسيره لم يكثر من رواية الأحاديث الضعيفة.

فهو لم يكن ككثير من الصوفية الذين لم ينهلوا الحديث من أهله وشيوخه، بل إنه تمكن منه واستوعب مباحثه أثناء دراسته بفاس على كبار شيوخ الحديث بها من أمثال : التاودي بن سودة والطيب بن كيران ومحمد بنيس، غير أنه لما ولج طريق التصوف لم يكن همه التركيز على الصناعة الحديثية في كتاباته، بل كان يستشهد بالحديث استئناسا وتوضيحا لأفكاره وتفسيراته دون الوقوف عند الصناعة الحديثية التي تتضمنها تلك

---

1) البحر المديد 100/4. وفي معاني القرآن للفراء 130/3 : جاء في الأثر تجعلون رزقكم : شكركم، وراجع معاني القرآن للزجاج 116/5.

2) يس 38.

3) البحر المديد 189/3.

الأحاديث أو مناقشة مدى صحتها أو ضعفها، غير أن ميول ابن عجيبة إلى الجانب الصوفي الذي يغطي غالبا على باقي العلوم النقلية ويهمشها لم يمنعه في كثير من الأحيان من التنصيص على صحة الحديث أو ضعفه، وبالتالي فقد كان حريصا على تبيان مصادره من كتب السنة المعروفة، فيشير كثيرا إلى صحيحي البخاري ومسلم كما يشير إلى كتب السنن الأربعة والموطأ ومسند أحمد وسنن البيهقي والجامع الصغير للسيوطي الذي وضع عليه حاشية .

وفيما يلي نماذج توضح ذلك :

صحيح البخاري :

يعتبر صحيح البخاري أبرز كتب الحديث التي تشبع ابن عجيبة بقراءتها وروايتها أثناء مرحلة الطلب إن في فاس أو في تطوان، فقد قرأه كما ذكره في فهرسته[1] على الشيخ عبد الكريم بن قريش مرارا كما قرأه مرتين على الشيخ محمد الجنوي الحسني بتطوان[2] ولما رحل إلى فاس أخذ صحيح البخاري مرة أخرى عن شيخ الجماعة بها محمد التاودي بن سودة، فسمعه منه سردا مع نكت جيدة وتدقيقات حسنة، ويعتبر هذا الأخير من أبرز شيوخه في قراءة صحيح البخاري ولذلك أورد في فهرسته سنده في ذلك قائلا : «حدثنا الفقيه العلامة شيخ الجماعة بالمغرب سيدي التاودي بن سودة سماعا وإجازة صحيح البخاري من أوله إلى آخره، إلا ما شذ عن شيخه البركة سيدي محمد جسوس عن عمه أبي محمد عبد السلام جسوس عن شيخه سيدي عبد القادر الفاسي عن شيخه سيدي عبد الرحمان العارف عن شيخه القصار عن ولي الله رضوان بن عبد الله الجنوي عن سقين

---

1) الفهرسة ص : 31.

2) المصدر السابق ص : 32.

العاصمي عن ابن غازي عن أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم عن محمد بن عيسى بن أحمد السراج عن أبيه عن جده عن أبي البركات البلقيني عن أبي جعفر بن الزبير عن أبي الخطاب ابن خليل عن أبيه عن أبي عبد الله بن سعادة وفي أول نسخته : بعد البسملة وبعد قوله : «باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، وقول الله تعالى : ﴿**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده**﴾.[1]

أخبرنا الحافظ أبو علي حسين بن محمد بن فيارة الصدفي أخبرنا أبو الوليد سليمان ابن خلف الباجي : أخبرنا الشيخ أبو ذر الهروي أخبرنا السرخسي والمستملي والكشميهني قالوا : أخبرنا أبو عبد الله محمد بن مطر الفريري قال : حدثنا ابو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري قال حدثنا الحميدي عن سفيان : قال: حدثنا يحيى بن سعيد الانصاري قال : أخبرنا محمد بن ابراهيم التميمي عن علقمة عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ حديث : «إنما الأعمال بالنيات» ويقاس عليه غيره.[2]

ولما كان الأمر كذلك فقد كان من الطبيعي أن يكون اعتماد ابن عجيبة على صحيح البخاري في استشهاداته الحديثية قويا[3] فمن ذلك : ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون**﴾[4] حيث أكد على أن هذه الآية عامة لكل من اشتغل بما لا يعنيه وكان فيه شعبة من النفاق، وأورد في معرض ذلك الحديث التالي : قائلا : «وفي صحيح البخاري ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان».[5]

---

1) النساء : 163

2) الفهرسة ص : 33.

3) انظر مثلا : البحر المديد : 10/2 – 73/1 – 42/1 – 99/1 – 39/3 ....إلخ .

4) البقرة : 12

5) البحر المديد 9/1 .

وفي معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين ءامنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾[1] ذكر أن توحيد الضمير في قوله «إذا دعاكم» إنما هو على اعتبار أن دعوة الله تسمع من الرسول «ففي البخاري أن رسول الله ﷺ دعا أبي بن كعب وهو في الصلاة فلم يجب فلما فرغ أجاب فقال له ﷺ : ما منعك أن تجيبني فقال : كنت أصلي فقال له : ألم تسمع قوله تعالى : ﴿استجيبوا لله .....﴾.[2]

صحيح مسلم :

أخذ ابن عجيبة صحيح مسلم على شيخه عبد الكريم بن قريش قراءة وبحثا وجزءا منه على محمد الجنوي بتطوان، كما أخذه بفاس على شيخه محمد التاودي بن سودة عن شيخه محمد ابن عبد السلام البناني المكنى بالمحجوب عن ابن الحاج عن عبد القادر الفاسي عن عبد الرحمان العارف عن الإمام القصار عن سيدي رضوان عن سقين عن زكريا عن الزركشي عن البياني عن العسكري عن المؤيد عن الفراوي عن عبد الغافر عن الجلودي عن إبراهيم بن سفيان عن الإمام مسلم.[3]

ومن نماذج نقوله عن صحيح مسلم قوله في سياق تفسيره لآية الكرسي : «وأخرج مسلم عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات : قال إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يحفظ القسط ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور، وفي رواية النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه من أدركه وأبصره. هـ.[4]

---

1) الأنفال : 24.

2) البحر المديد 29/2.

3) الفهرسة ص : 34.

4) البحر المديد 57/1.

وفي معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك و الملك صفا صفا**﴾[1] أورد قوله : «وفي الحديث : يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها حتى تنتصب على يسار العرش، لها لغيط وزفير» رواه مسلم».[2]

سنن الترمذي :

نقل منه عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**ما كان لي من علم بالملإ الأعلى إذ يختصمون إن يوحى إلي إلا إنما أنا نذير مبين**﴾[3] حيث قال : «وروي في هذا الحديث وهو أنه عليه السلام قال له ربه عز وجل في النوم أتدري فيما يختصم الملأ الأعلى قلت لا قال : اختصموا في الكفارات والدرجات، فأما الكفارات فإسباغ الوضوء على المكاره ونقل الأقدام إلى الجماعات وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وأما الدرجات فإفشاء السلام وإطعام الطعام و الصلاة بالليل والناس نيام» رواه الترمذي».[4]

سنن أبي داود :

نقل منه عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات و الأرض وعشيا وحين تظهرون**﴾[5] حيث قال ابن عجيبة :

---

1) الفجر : 22.

2) البحر المديد 203/4.

3) ص:69.

4) البحر المديد : 211/3 وانظر أيضا 22/2 /–45 –120/4. واعتمد ابن عجيبة أيضا على كتاب : عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي لابن العربي، انظر مثلا : 3/3.

5) الروم : 17.

«وعنه عليه السلام : من قال حين يصبح فسبحان الله حين تمسون إلى قوله : كذلك تخرجون أدرك ما فاته في يومه، ومن قال حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته، رواه أبو داود».[1]

– ومن أحاديث النسائي التي استشهد بها ابن عجيبة في تفسيره ما جاء عند تفسير آية الكرسي حيث قال : «وقال عليه السلام لفاطمة رضي الله عنها : ما منعك أن تسمعي ما أوصيك به تقولين : إذا أصبحت وإذا أمسيت : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، رواه النسائي».[2]

– ومن أحاديث ابن ماجة التي استشهد بها ابن عجيبة في تفسيره ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما**﴾[3] حيث أكد على أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة، واستأنس بقول عمر بن الخطاب (ض) : كفى بالمرء سرفا ألا يشتهي شيئا إلا اشتراه وأكله، ثم قال ابن عجيبة : ومثله في سنن ابن ماجة[4] مرفوعا».[5]

– وبالإضافة إلى الكتب الستة استشهد ابن عجيبة بأحاديث من موطأ مالك[6] ومسند أحمد[7] وسنن البيهقي[8] والجامع الصغير للسيوطي[9] وغيرها.

---

1) البحر المديد 135/3.

2) البحر المديد : 57/1.

3) الفرقان : 67.

4) سنن ابن ماجة 1112/2. باب : من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت، لكن الحديث ضعيف.

5) البحر المديد : 85/3.

6) انظر مثلا : البحر المديد 147/2.

7) انظر مثلا البحر المديد 48/4 عند قوله تعالى : ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ..﴾

8) انظر مثلا : البحر المديد 114/2.

9) البحر المديد 122/4.

ولما كان المؤلف نزاعا إلى الاستئناس والاستشهاد بأحاديث الزهد والرقائق وما يقرب إلى الله بالترغيب في العبادة والتبتل والترهيب من أمور الدنيا وشواغلها اعتمد على كتاب «الترغيب والترهيب» للإمام المنذري.[1]

وقد يصرح ابن عجيبة في تفسيره أحيانا بالإصدار عن شيوخه في الحديث مما يمكن اعتباره مصدرا مباشرا من مصادره في الحديث، ومثال ذلك ما أورده في آخر تفسير سورة الحشر حيث ساق حديثا في فضل قراءة ثلاث آيات من سورة الحشر، ثم قال بعد ذلك : وسمعت من شيخنا الفقيه الجنوي أنه حديث ضعيف يعمل به الإنسان وحده فإذا كان مع الناس تركه لئلا تعتقد العامة أنه مندوب أو واجب.[2]

ثالثا : مصادره في الفقه و الأصول

يبدو أن ابن عجيبة لم يكن يولي اهتماما كبيرا للقضايا الفقهية والأصولية التي يثيرها تفسير كثير من الآيات القرآنية، فهو كعالم مربي يميل إلى المباحث الصوفية على حساب مباحث الفقه – وهو وإن كان مالكي المذهب شأنه في ذلك شأن غالبية علماء المغرب إلا أنه كان يدعو إلى عدم التقليد، وحسب ما أورده في فهرسته.[3]

فإن ابن عجيبة قد ألم بأمهات كتب فقه المالكية على أيدي شيوخه بتطوان وفاس، فأخذ عنهم مختصر خليل مرات عديدة كما قرأ عليهم الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، وتحفة الحكام لابن عاصم وأخذ علم الفرائض عن فرضي وقته الشيخ محمد بنيس وغير ذلك. أما في الأصول

---

1) انظر مثلا : 6/1 –78/3. وانظر : إيقاظ الهمم 215/2.

2) البحر المديد 120/4.

3) الفهرسة ص: 30-32.

فقد أخذ عنهم مختصر الإمام السبكي و الورقات للجويني وغير ذلك، ولعل ما يدفعنا إلى القول بأن صوفينا كان متمكنا من الفقه وأصوله وبخاصة الفقه المالكي وضعه لحاشية على مختصر خليل قبل ولوجه طريق التصوف، وهي الحاشية التي لم يكملها ولم يصلنا منها شيء.

وبالنسبة لتنصيص ابن عجيبة على مصادره في الفقه و الأصول في ثنايا التفسير نجد أن الأمر كان على قلة قليلة[1]، إذ أنه بالرغم من بعض المباحث الفقهية التي كان يقف عندها أحيانا إلا أنه لم يكن يشير إلى مصادره في ذلك ، وهو في بعض الآحيان ينقل عن بعض التفاسير السابقة مثل تفسير ابن عطية أو تفسير ابن جزي، ولذلك نجده يحيل القارئ أحيانا على كتب الفقه بصفة مجملة دون ذكر لأسمائها.[2]

أما عن مصادره المباشرة التي تتمثل في شيوخه وأساتذته في الفقه وأصوله فقد تحدث عن ذلك في ترجمته الذاتية (الفهرسة)، ويعتبر مختصر خليل من أبرز الكتب التي أخذها عن معظم شيوخه (أحمد الرشاي – عبد الكريم بن قريش – محمد الورزازي – محمد الجنوي – محمد بنيس)، كما أخذ الرسالة بتطوان عن شيخيه عبد الكريم بن قريش ومحمد الجنوي، كما تلقى علم الفرائض عن شيخه محمد بنيس.[3]

وينقل لنا ابن عجيبة سلسلة سنده في الفقه إلى النبي ﷺ فيقول : «وأما سلسلتنا في الفقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأرويه عن سيدي محمد الجنوي المذكور وسيدي عبد الكريم بن قريش وهما عن شيخ الجماعة سيدي التاودي عن سيدي محمد جسوس عن العلامة أبي عبد الله المسناوي

---

1) انظر مثلا نقوله من الرسالة في البحر المديد : 106/1 ومن المختصر في : 107/1.

2) انظر مثلا عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم**﴾ حيث قال : «وفي السرقة أحكام مبسوطة في كتب الفقه» وقوله في موضع آخر : «وأحكام الإيلاء مقررة في كتب الفقه».

3) الفهرسة : ص : 30-32.

عن ابن الحاج عن سيدي عبد القادر الفاسي عن عمه أبي زيد العارف عن القصار عن سيدي رضوان عن سقين عن ابن غازي عن القدري عن أبي موسى عمران الجاناتي عن أبي عمران العبدوسي عن عبد العزيز القروي عن شيخه أبي الحسن الصغير وأبي الوليد راشد عن أبي محمد صالح الهسكوري عن أبي موسى اليوناني عن أبي القاسم بن بشكوال وأبي محمد بن عتاب عن أبي محمد بن أبي طالب القيراوي عن أبي محمد ابن أبي زيد عن أبي بكر بن اللباد والأبياني والأبهري عن يحيى بن عمر عن سحنون عن ابن القاسم عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ وشرف وكرم ومجد وعظم».[1]

ومن أبرز كتب الأحكام التي رجع إليها ابن عجيبة أثناء التفسير كتاب أحكام القرآن لابن العربي الذي اعتمد عليه كثير من المفسرين وخاصة منهم الإمام القرطبي. اعتمد عليه ابن عجيبة في بعض المواضع من التفسير، من ذلك :

ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**ومن اليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا**﴾[2]. حيث قال : «وقال ابن العربي المعافري في أحكامه : واختلف في وجه كون قيام اليل سببا للمقام المحمود على قولين : فقيل أن الباري تعالى يجعل ما يشاء من فعله سببا لفضله من غير معرفة منا بوجه الحكمة فيه أو بمعرفة وجه الحكمة، وقيل أن قيام الليل فيه الخلوة مع الباري و المناجاة دون الناس فيعطي الخلوة به ومناجاته في القيامة، فيكون مقاما محمودا، ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم وأجلهم فيه درجة محمد ﷺ فإنه يعطى من المحامد ما لم يعط أحد ويشفع ولا يشفع أحد».[3]

---

1) المصدر السابق ص : 35.

2) الإسراء : 79.

3) البحر المديد 154/2 وانظر نص كلام ابن العربي في أحكامه 214/3.

وفي معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**أو ماملكتم مفاتحه أو صديقكم**﴾[1] قال ابن عجيبة : «قال ابن عباس هو وكيل الرجل وقيمه على ضيعته، والمراد بملك المفاتح كونها في يده وتحت حوزته، وقيده ابن العربي بما إذا لم تكن له أجرة وإن كانت له أجرة على فعله حرم».[2]

رابعا : مصادره من كتب اللغة و النحو

أورد ابن عجيبة في تفسيره مادة لغوية ونحوية غنية ومتنوعة استمدها من مصادر مختلفة لها صلة وثيقة بالنص القرآني مثل كتابي «معاني القرآن» للفراء و الزجاج وكتاب «الغريب» لابن عزيز، ومثل كتاب «الصحاح» للجوهري و المغني لابن هشام وألفية ابن مالك و الكافية وغير ذلك. وقد يشير ابن عجيبة إلى هذه الكتب تارة بأسمائها وتارة أخرى بالإشارة إلى مؤلفيها، ونسبة الأقوال إليهم، غير أنه لا يكتفي دائما بإبراز الأقوال من باب الاستئناس والاستشهاد فقط، وإنما نجده في كثير من الأحيان يظهر دراية قوية واطلاعا واسعا في مجالي النحو واللغة، وهو ما يبدو لنا جليا من خلال استنباطاته الدقيقة ومناقشاته العميقة واختياراته وترجيحاته المهمة، ومما أفاده ابن عجيبة من كتب النحو أيضا مباحث الإعراب المتصلة بالقرآن الكريم وهو جانب ركز عليه كثيرا في تفسيره، ومن أهم المصادر التي اعتمد عليها وأصدر عنها في هذا المجال:

---

1) النور : 61.

2) البحر المديد 72/3-73. وعبارة ابن العربي في أحكامه 424/3 : «ولابد للخازن من أن يأكل مما يخزن إجماعا وهذا إذا لم تكن له أجرة، فإن استأجره على الأجر حرم الأكل». وانظر حاشية الفاسي على الجلالين 169/1. وراجع نقولا أخرى من أحكام القرآن لابن العربي في البحر المديد : 124/1-9/4.. إلخ.

1 - معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت 207 هـ)[1]

وقد اعتمد عليه كثيرا، وإن لم يشر إلى اسم الكتاب، لكن المقابلة أثبتت أن جميع نقول ابن عجيبة عن الفراء مصدرها كتاب «معاني القرآن» ومما نقله منه :

أ) عند تفسير قوله تعالى : ﴿**إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المومنين**﴾[2] قال ابن عجيبة : «فأولئك مع المومنين في الدين، قال الفراء : أي من المومنين ....».[3]

ب) وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون**﴾[4] قال ابن عجيبة: «ولما كان اكتيالهم من الناس اكتيالا يضرهم ويتحامل فيه عليهم أبدل «على» مكان «من» للدلالة على ذلك، ويجوز أن يتعلق «على» بيستوفون، وتقدم المفعول على الفعل لإفادة الاختصاص أي يستوفون على الناس خاصة وقال الفراء : («من» و«على» يتعاقبان في هذا الموضع، لأنه حق عليه فإذا قال اكتلت عليه فكأنه قال : أخذت ما عليك، وإذا قال اكتلت منك فهو كقولك : استوفيت منك).[5]

2 - معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج (ت 311 هـ)[6]

أفاد ابن عجيبة من كتاب «معاني القرآن» للزجاج فيما يتعلق بتوجيه المعاني القرآنية في ضوء اللغة، من ذلك مثلا :

---

1) انظر ترجمته في «بغية الوعاة» للسيوطي 333/2 وطبقات المفسرين للداودي 366/2.

2) النساء 146.

3) البحر المديد 129/1 وانظر معاني القرآن للفراء 293/1.

4) المطففين 1-2.

5) البحر المديد 190/4 وانظر معاني القرآن للفراء 246/3.

6) انظر ترجمته في : تاريخ بغداد 89/6 ووفيلت الأعيان لابن خلكان 311/1 وطبقات المفسرين للداودي 9/1.

أ) في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**﴾[1] قال ابن عجيبة : «ومن رحمته تعالى جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه في الليل ولتبتغوا من فضله بالنهار بأنواع المكاسب وهو من باب اللف والنشر، وقال الزجاج : يجوز أن يكون معناه لتسكنوا فيهما ولتبتغوا من الله فيهما، ويكون المعنى جعل لكم الزمان ليلا ونهارا لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ...».[2]

ب) وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**فأين تذهبون إن هو إلا ذكر للعالمين**﴾[3] قال ابن عجيبة «فأين تذهبون وتتركون الحق الواضح، هو استضلال لهم كما يقال لتارك الجادة وذهب في التيه : أين تذهب .... وقال الزجاج : معناه : فأي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم...».[4]

3 – ألفية ابن مالك (ت 672)[5]

اعتمد ابن عجيبة على ألفية ابن مالك كثيرا، فقد كان مستوعبا لأبياتها، عارفا بمباحثها وقضاياها. ومن نماذج استشهاده بأبيات الألفية ما يلي :

– عند تفسير قوله تعالى : ﴿**عم يتساءلون عن النبأ العظيم**﴾[6] قال ابن عجيبة : يقول الحق جل جلاله : عم يتساءلون وأصله «عما» فحذف الألف كما قال في الألفية[7] :

---

1) القصص : 73.

2) البحر المديد 122/3 وانظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج 153/4.

3) التكوير : 26-27.

4) البحر المديد 188/4 وانظر معاني القرآن للزجاج 293/5.

5) انظر ترجمته في : بغية الوعاة ص 53 وشذرات الذهب 339/5.

6) النبأ : 1-2 وانظر البحر المديد 177/4.

7) انظر : متن ألفية ابن مالك، فصل «الوقف».

وما في الاستفهام إن جرت حذف *** ألفها وأولها الها إن تقف

4 – نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن لابن عزيز السجستاني (ت330هـ)[1]

لا يشير ابن عجيبة إلى اسم الكتاب، بل يكتفي بذكر اسم صاحبه، ولما كان كتاب «نزهة القلوب» يتعلق بتفسير الكلمات القرآنية الغريبة، تبين بعد المقابلة أنه مصدر أساسي لابن عجيبة في بيان غريب القرآن .

ومن أمثلة ذلك ما ساقه عند تفسير قوله تعالى : ﴿**إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين**﴾[2] حيث أورد قول ابن عزيز عند تفسير لفظة «العالمين» «أي على عالم دهرها كما فضلت فاطمة وخديجة على نساء أمة محمد ﷺ».[3]

5 – القاموس المحيط للفيروز أبادي (ت 817 هـ)[4]

اعتمد عليه ابن عجيبة كثيرا ولا يكاد يخلو مبحث من مباحث اللغة التي يقف عندها لبيان تفسير لفظة قرآنية من الاستشهاد بما جاء في القاموس المحيط، ومن أمثلة ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**كلا إن كتاب الفجار لفي سجين، وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم**﴾[5] حيث قال ابن عجيبة : «جمهور المفسرين على أن سجين موضع تحت الأرض السابعة كما أن عليين موضع فوق السماء السابعة، وفي القاموس : عليون جمع عِلي

---

1) انظر ترجمته في : بغية الوعاة ص 72 و الوافي بالوفيات للصفدي 95/4.

2) آل عمران : 42.

3) البحر المديد 74/1 وانظر نزهة القلوب، ط دار الكتب العلمية بدون تاريخ ص : 47.

4) انظر ترجمته في : تذكرة الحفاظ للذهبي 256/1 و الضوء اللامع للسخاوي 79/10 وطبقات المفسرين الداودي 275/2.

5) المطففين : 9

في السماء السابعة تصعد إليه أرواح المومنين، وسجين موضع فيه كتاب الفجار وواد في جهنم أو حجر في الأرض السابعة».[1]

6 – المغني لابن هشام (ت 671)[2]

وقد أشار إليه ابن عجيبة في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم**﴾[3] حيث قال : «واللام متعلقة بعجبا وهو مصدر للدلالة على أنه أعجوبة لهم يتوجهون نحوه بإنكارهم واستهزائهم، قال في المغني[4]: المصدر الذي ليس في تقدير حرف الموصول لا يمنع التقديم عليه».[5]

وعلاوة على هذه الكتب التي ذكرها ابن عجيبة، هناك إشارات إلى كتب أخرى استقى منها في مجالي اللغة والنحو، مثل كتاب : الصحاح[6] للجوهري وكتاب مشارق الأنوار[7] للقاضي عياض (ت 544 هـ) وغيرهما بالإضافة إلى أقوال سيبويه (ت 180).[8] والخليل (ت 170)[9]، والأخفش (ت 315)[10] وغيرهم.

ويذكر ابن عجيبة أحيانا أقوال الكوفيين والبصريين والاختلاف الحاصل بين المذهبين دون إشارة إلى الأسماء.[11]

---

1) البحر المديد 190/4 وانظر القاموس المحيط 233/4.

2) انظر ترجمته في : بغية الوعاة ص 293 وشذرات الذهب 191/6.

3) يونس : 2

4) مغني اللبيب لابن هشام .طبعة دار الفكر الثانية /1969 / بمراجعة سعيد الأفغاني ص 621.

5) البحر المديد 58/2.

6) انظر مثلا : 55/1-138/2-139/3.

7) انظر مثلا : 62/4-162/1.

8) انظر مثلا : 27/1-123/3-189/4.

9) انظر مثلا : 37/1

10) انظر مثلا : 46/4-195/3.

11) انظر على سبيل المثال : 18/1-134/2-210/3.

خامسا : مصادره من كتب التصوف

اعتمد ابن عجيبة في تفسيره على جملة وافرة من كتب التصوف وخاصة في مجال التفسير الإشاري، بيد أن كل مصادره في هذا الشأن لم تكن كلها ذات صلة وثيقة بالتفسير القرآني، إذ أن بعضا منها كان محل اعتماد من المؤلف في مباحث استطرادية تتعلق بقضايا ونظريات التصوف العملي. أما البعض الأخر الذي يهمنا كمصادر أساسية في التصوف ساهمت في تكوين مادة التفسير لدى ابن عجيبة فهي عبارة عن كتب مهمة في مجال التصوف عرف عن مؤلفيها تأسيس نظرياتهم التصوفية على ركيزتي الكتاب والسنة.

ومن هذه المصادر نذكر ما يلي :

1 – كتاب الإحياء للإمام الغزالي (ت 505هـ) :

ويعتبر من أبرز مصادر ابن عجيبة في تفسيره وغيره من كتبه، والغزالي كثيرا ما يستأنس لكل مبحث صوفي تعرض له بالبحث والدراسة بما يشهد له من الآيات القرآنية وتفسيرها، من ذلك ما جاء عند تفسير ابن عجيبة لقوله تعالى : ﴿**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا**﴾[1] حيث قال : «وقد تكلم في الإحياء على هذه الآية فقال : إنما كان المنافقون في الدرك الأسفل لأنهم جحدوا بعد العلم، وإنما تضاعف عذاب العالم لأنه عصى عن علم».[2]

---

1) النساء : 145.

2) البحر المديد 130/1. وانظر إحياء علوم الدين.

2 - كتاب «قوت القلوب» لأبي طالب مكي (ت 386 هـ)[1]

وقد نبه إليه ابن عجيبة عند تفسيره قوله تعالى : ﴿فمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة﴾[2] حيث قال : «وقال في القوت : أفمن كان على بينة من ربه أي من شهد مقام الله عز وجل بالبيان فقام له بشهادة الإيقان فليس هذا كمن زين له سوءعمله واتبع هواه فأثره على طاعة مولاه بل هذا قائم بشهادته متبع لشهيده مستقيم على محبة معبوده».[3]

ومنه أيضا ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿قل جاء الحق وما يبدي الباطل وما يعيد﴾[4] حيث قال : «وفي القوت في تفسير الآية : أي لما جاء الحق أبطل الباطل وأعاده فأظهر حقيقة الأمر بدءا وعودا أي كشف ما يبدئ الباطل للابتداء وما يعيد على العبد من الأحكام، يعني أن نور الحق يكشف حقيقة الباطل وضرر عاقبته وقبحه في ذاته».[5]

ومن كتب التصوف التي أفاد منها ابن عجيبة في التفسير بشكل أساسي كتاب : سراج المريدين لابن العربي (ت 543 هـ)[6] وكتاب منازل السائرين للإمام الهروي (ت 481)[7] وكتاب لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري (ت 709)[8] وغيرها. وقد يكتفي ابن عجيبة بنقل أقوال بعض كبار الصوفية سواء كانوا من المتقدمين أو من شيوخه الذين يعتز بالأخذ عنهم.

---

1) له أيضا كتاب «علم القلوب».

2) هود : 17.

3) البحر المديد 74/2.

4) سبأ : 49.

5) البحر المديد 175/3.

6) انظر مثلا : البحر المديد : 119/2.

7) انظر مثلا : البحر المديد : 16/2.

8) انظر مثلا : البحر المديد : 163/2-209/4.

فمن أمثله ما نقله عن الصوفية المتقدمين ما أورده عند تفسير قوله تعالى : ﴿**ما ننسخ من آية أو ننسها نات بخير منها أو مثلها**﴾[1] حيث قال : «قال أبو العباس المرسي في تفسير الآية : أي ما نذهب من بدل فات بخير منه أو مثله» ثم يعقب ابن عجيبة على هذا الكلام بقوله : «أي ما نذهب بولي إلا ونات بخير منه أو مثله إلى يوم القيامة وبهذا يرد على من زعم أن شيخ التربية انقطع...».[2]

أما نقوله عن شيوخه الصوفية فهي جميعها نقول شفوية وخاصة عن الشيخ العربي الدرقاوي[3] وشيخه محمد البوزدي[4] الذي يقول عنه في تفسيره : «وقد سمعت عن شيخنا البوزيدي رضي الله عنه علوما وأسرارا ما رأيتها في كتاب، وكان يتكلم في تفسير آيات من كتاب الله عن طريق الإشارة قل أن تجدها عند غيره. وسمعته يقول : «والله ما جلست بين يدي عالم قط ولا قرأت شيئا من العلم الظاهر».[5]

ومن شيوخ أشياخه الذين يسوق أقوالهم في التفسير أحيانا دون أن يكون قد أخذ عنهم بصفة مباشرة الشيخ علي الجمل العمراني (ت 1194 هـ)[6] وشيخه العربي بن عبد الله[7].

وهكذا يمكن القول بأنه بالإضافة إلى ما تقدم من المصادر المتنوعة التي استقى منها ابن عجيبة في تفسيره تعتبر أقوال شيوخه وأشياخ شيوخه ذات مكانة بارزة في «البحر المديد» خاصة وأن المؤلف يؤكد دوما على أهمية اتخاذ الشيخ في الطريق الصوفي، مما يقتضي طبعا باهتمام السالك الصوفي بكلام شيوخه وأقوالهم وحكمهم.

---

1) البقرة 107.

2) البحر المديد 26/1 وانظر نفس التفسير في كتاب «الإمام أبو العباس المرسي» لأحمد حسين الدسياوي، ط. دار المعارف بالقاهرة 1955 ص : 89.

3) انظر مثلا البحر المديد : 136/4.

4) انظر مثلا البحر المديد 44/4-96/1.

5) البحر المديد 131/3.

6) انظر مثلا البحر المديد : 40/1-77/3-135/4....

7) انظر مثلا البحر المديد : 40/1-137/1.

المبحث الثالث :

منهج ابن عجيبة
في الاستفادة من مصادره

يبدو أن ابن عجيبة من خلال ما ذكرناه من المصادرالتي اعتمدها في تفسيره رجلا هضم تفاسير السابقين ووعى ما حوته من صنوف التفسيرات والتأويلات والمعاني، وأحاط إحاطة شاملة بأقوالهم ولطائف استنباطاتهم، إلا أنه من خلال تحقيق تلك النصوص ومقارنتها بأصولها يتبين أن طريقة النقل والاقتباس لدى المؤلف تختلف وتتفاوت، فهناك من النصوص ما تم نقله بلفظه وتمامه وهناك ما تم نقله بالمعنى فحسب وهو الغالب، وهو لا ينقل من النصوص إلا ما كان مستحسنا له موافقا لرأيه بيد أنه أحيانا يتعقبها، إما بالتأكيد على ذلك أو التعقيب عليها أو مناقشتها والرد على بعضها، وقد يرجح في بعض الأحيان بين مختلف الأقوال مبينا اختياراته في ذلك.

وإذا كان قد سبق أن أوضحنا أثناء حديثنا عن هذه المصادر مختلف طرق نقل ابن عجيبة عن كل واحد منهم على حدة وتعقيباته على بعض تلك النقول بالموافقة تارة وبالمخالفة تارة أخرى فإن في المباحث التالية ما يقرب أكثر إلى تلك القضايا التي تساعد على تبين سبل إفادة المؤلف من مصادره، وفيما يلي بيان لذلك :

أولا : طرق اقتباسه من هذه المصادر

1 - النقل باللفظ :

تتجلى أمانة ابن عجيبة في النقل عن المفسرين والعلماء السابقين في احتفاظه بحرفية النصوص المقتبسة دون تصرف فيها أو لجوء إلى اختصارها، وهو ما يتبين بجلاء عند ما ينص على إسم المفسر أو غيره مقرونا ب «قال» أو «ذكر»، أو لدى إشارته إلى إسم الكتاب المنقول منه سواء كان تفسيرا أو غيره مثل قوله : «وفي تفسير فلان...» غير أن ابن عجيبة قد يخالف هذه القاعدة فيذكر النص بالمعنى دون أدنى إشارة إلى ذلك.

ومما نقله بلفظه عن مفسرين سابقين ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله**﴾[1] حيث قال[2] : وقال في الكشاف : «ومن معجزات شعيب ما روي من محاربة عصا موسى عليه السلام التنين حين دفع إليه غنمه، وولادة الغنم الدرع خاصة حين وعده أن تكون له الدرع من أولادها ووقوع عصا آدم عليه السلام على يده في المرات السبع وغير ذلك من الآيات» وهذا النص موجود بلفظه وتمامه في الكشاف.[3]

ويبدو النقل باللفظ واضحا عندما يقتبس ابن عجيبة النص أولا ثم يقفيه بقوله : «هـ من تفسير كذا...» مثال ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿**و الذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم**﴾.[4] حيث أورد نصا مطولا عن الإمام الهروي في

---

1) الأعراف : 85.
2) البحر المديد 10/2.
3) الكشاف 93/2.
4) الأعراف : 153.

منازله (منازل السائرين) نقلا عن المحشي الفاسي، وهو نفس النص الذي أورده الإمام البهروي في فصل «المراد» الذي هو مقام يأتي فوق مقام «المريد»[1] وقد جاء في هذا النص : «قال الهروي : وللمراد ثلاث درجات : الدرجة الأولى أن يعصم العبد وهو مستشرف للجفاء اضطرارا بتنغيص الشهوات وتعويق الملاذ وسد مسالك المعاطب عليه إكراها. والدرجة الثانية أن يضع عن العبد عوارض النقص ويعاقبه من سمة اللأئمة ويملكه عواقب الهفوات...ثم ذكر الدرجة الثالثة : فانظره بنقل المحشي»[2] وهذا النص برغم طوله التزم ابن عجيبة بنقله بلفظه عن الفاسي في حاشيته».[3]

2 – النقل بالمعنى :

لم يلتزم معظم المفسرين فيما نقلوه عن سابقيهم حرفية النصوص المقتبسة، فقد كانوا في كثير من الأحيان يتصرفون في النقل ويكتفون بإيراد المعاني، وقد كان ابن عجيبةكغيره ينقل النصوص بالمعنى غير أنه لم يكن يتصرف فيها بشكل كبير بل كان يحافظ بشدة على مراد صاحب النص من كلامه مكتفيا بإعادة صياغة التعبير من جديد، وقد يضطر ابن عجيبة أحيانا إلى اختصار الكلام مما يلجئه إلى عدم الالتزام بأسلوب صاحب النص المنقول.

ينص المؤلف على تصرفه في النص المنقول وإيراده بالمعنى بقوله : «انتهى بالمعنى» وهي عبارة يرمي بها إلى النص الذي ينقله ليس بلفظه كما هو عند صاحبه، مثال ذلك ما جاء في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم**﴾[4] حيث قال : «وقال الزمخشري : ليس بدعاء

---

1) مدارج السالكين شرح منازل السائرين لابن القيم 453/2.

2) البحر المديد 16/2.

3) حاشية الفاسي علي الجلالين و 66 ب.

4) الأنفال 32.

وإنما هو جحود، وإن كان هذا هو الحق فأمطر علينا لكنه ليس بحق فلا نستوجب عقابا، هـ بالمعنى»[1] وبالرجوع إلى الكشاف نجد النص كالتالي: «وهذا أسلوب من الجحود بليغ، يعني إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل أو بعذاب آخر، ومراده نفي كونه حقا، وإذا انتفى كونه حقا لم يستوجب منكره عذابا».[2]

وقد يضطر ابن عجيبة إلى نقل النص المراد الاستئناس به بالمعنى نظرا إلى كونه لا يستحضر لفظه بتمامه بسبب تقادم عهده به، وهو ما نص عليه في نقله لكلام لأبي الحسن الشاذلي حيث قال : «الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : من أخلدت نفسه إلى أرض الشهوات وغلبته عن النهوض إلى الطاعات فدواؤه في حرفين : أحدهما أن يذكر منة الله عليه بنعمه الإيمان والإسلام، ويقيد هذه النعمة بالشكر لئلا تنفلت من يده، والثاني أن يتوجه إلى الله بالتضرع و الاضطرار آناء الليل وأطراف النهار، وفي مظان الإجابة قائلا : اللهم سلم سلم فإن من كان من أهل هاتين الخصلتين فالتقوى لازمة له، هـ بالمعنى لطول العهد به».[3]

ومن منهج ابن عجيبة في النقل بالمعنى إشارته إلى أن أصل الكلام إنما هو لمفسر سابق، مثال ذلك ما جاء في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا**﴾.[4] حيث قال : «بل هم أضل سبيلا لأن البهائم تنقاد لصاحبها الذي يعلفها ويتعاهدها وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدي لمراعيها ومشاربها وتأوي إلى معاطنها، وهؤلاء لا ينقادون لخالقهم ورازقهم ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان الذي هو أعدى عدوهم ولا

---

1) البحر المديد 31/2.

2) الكشاف 155/2.

3) لم أعثر على نص الشاذلي في كتاب «لطائف المنن» لابن عطاء الله الذي جمع فيه أقوال الشاذلي والمرسي.

4) الفرقان 44.

يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أقبح المضار والمعاطب، ولايهتدون إلى الحق... إلى أن قال : وجهالة هؤلاء مؤدية إلى ثوران الفساد وصد الناس عن سنن السداد وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد و لأنها غير متمكنة من طلب الكمال لعدم القوى العقلية، فلا تقصير من قبلها ولاذم، وهؤلاء متمكنون من القوى العقلية مضيعون للفطرة الأصلية مستحقون لذلك أعظم العقاب وأشد النكال، وأصله للبيضاوي».[1]

وبالرجوع إلى تفسير البيضاوي نجد النص كالتالي : «بل هم أضل سبيلا من الأنعام لأنها تنقاد لمن يتعهدها وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفهم إحسانه من إساءة الشيطان ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار... وجهالة هؤلاء تؤدي إلى هيج الفتن وصد الناس عن الحق ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال، فلا تقصير منها ولاذم، وهؤلاء مقصرون ومستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم».[2]

3) الاختصار :

يضطر المفسر أحيانا إلى اختصار نص يريد نقله، وذلك إما لطوله أو لاقتصار الفائدة المرجوة على شطر معين من النص، وابن عجيبة أثناء اختصاره للنصوص المنقولة لا يكاد يشير إلى ذلك إلا نادرا، فهو يهدف إلى إيراد المعاني الكثيرة المتضمنة في النص بألفاظ بقصد الإيجاز، وهو لايلجأ إلى عملية الاختصار إلا في المواضع التي لا يحسن فيها الإسهاب والتطويل، إذ من عادته أن يلتزم بنقل الكلام تاما.

---

1) البحر المديد 81/3.

2) تفسير البيضاوي 95/4 وانظر مثالا آخر في البحر المديد 49/1 وقارنه بتفسير البيضاوي 136/1.

فمما نقله ابن عجيبة مختصرا دون الإشارة إلى ذلك ما جاء في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا**﴾[1] حيث قال : «وقال البيضاوي : وهذه صفات النفوس وحال سلوكها فإنها تنزع من الشهوات وتنشط إلى عالم القدس فتسبح في مراتب الإرتقاء فتسبق إل الكمالات حتى تصير من المكملات....»[2] وقد اختصر ابن عجيبة بهذا الكلام نص البيضاوي الذي جاء في أصله[3] مطولا جدا يطبعه طابع صوفي، ومن المواضع القليلة التي نبه فيها ابن عجيبة على اختصاره للنص المقتبس ما جاء في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**إن الذين فتنوا المومنين والمومنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق**﴾[4] حيث قال : «ابن عطية : الأشبه أن المراد بهؤلاء قريش حيث كانوا يعذبون من أسلم».

ويقويه بعض التقوية قوله تعالى : ﴿**ثم لم يتوبوا**﴾ لأنه روي أن أصحاب الأخدود ماتوا على كفرهم، وأما قريش فكان منهم من تاب بعد نزول الآية، هـ مختصرا».[5]

ونقل في موضع آخر نصا يتعلق بدرجات توحيد الخلق لله تعالى ثم ختمه بقوله : (انتهى، قال بعضه ابن جزي باختصار).[6]

وقد لا يتم ابن عجيبة نقل نص من النصوص فيحيل القارئ على مصدره قائلا مثلا : «انظر بقيته في كتاب فلان» مثال ذلك أنه أثناء حديثه عن أهل مقام الإحسان وبعض ثمرات المعرفة لديهم اشتشهد بنص مطول

---

1) النازعات 1-3.

2) البحر المديد 181/4.

3) تفسير البيضاوي 171/5.

4) البروج 10.

5) البحر المديد 195/4 وقارن بالمحرر الوجيز 271/16.

6) البحر المديد 36/1 وقارن بالتسهيل لابن جزي 67/1 وفيه نص طويل عن درجات محبة العبد لربه.

منقول من بغية السالك إلا أنه لم يكمله فاكتفى بقوله عقب ذلك (انظر بقيتها في بغية السالك).[1]

ثانيا : أراؤه فيما ينقله عن هذه المصادر

لم يكن ابن عجيبة مجرد ناقل للأقوال والآراء، بل نجده في كثير من الأحيان يتعقبها بالنقد والملاحظة، موافقا تارة ومخالفا تارة أخرى ومبينا حججه في رد القول وعدم موافقة صاحبه عليه. وقد يلجأ في بعض الأحيان إلى الترجيح بين الأقوال و اعتماد اختيار معين يرى أنه الأولى بالاعتبار، وقد يقتصر أحيانا في تعقيباته على ذكر القول الذي يترجح عنده ويسكت عن الآخر، وفيما يلي بيان لذلك.

1 – موافقاته :

يبدو أن ابن عجيبة لا ينص على استحسانه وموافقته لرأي ساقه أو لقول استشهد به إلا نادرا، لكن الذي يتبين بالإستقراء أن المؤلف قد نهج في تفسيره على شاكلة منهج ابن جزي في تسهيله، فقد نص هذا الأخير في مقدمة كتابه على أنه إذا ذكر شيئا دون حكايته عن أحد فذلك إشارة إلى أنه يتقلده ويرتضيه ويوافق عليه.[2]

ومن المواضع التي أشار فيها إلى استحسانه وموافقته لقول المفسر المنقول عنه ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وراودته التي هو في بيتها عن نفسه...**﴾ الآية[3]. حيث أورد كلاما لابن جزي جاء فيه : «أكثر الناس الكلام في هذه الآية حتى ألفوا فيها التآليف فمنهم مفرط ومفرِّط، وذلك أن منهم من جعل هم المرأة وهَمَّ يوسف من حيث الفعل الذي أرادته.....

---

1) البحر المديد 89/1.

2) التسهيل 31.

3) يوسف 23.

والصواب إن شاء الله : إنها همت به من حيث مرادها وهم بها كذلك لكنه لم يعزم على ذلك ولم يبلغ إلى ما ذكر من حل التكة وغيرها، بل كان همه خطرة خطرت على قلبه لم يطعها ولم يتابعها، ولكنه بادر بالتوبة والإقلاع عن تلك الخطرة حتى محاها من قلبه لما رأى برهان ربه، ولا يقدح هذا في عصمة الأنبياء لأن الهم بالذنب ليس بذنب ولا نقص عليه في ذلك، فإنه من هم بذنب ثم تركه كتبت له حسنة، قلت : وكلامه حسن لأن الخطرات لا طاقة للبشر على تركها ومجاهدة مخالفتها...».[1]

فابن عجيبة في هذا النص لم يكتف بموافقته لما ذهب إليه ابن جزي وإنما بين موقفه من ذلك وبرر وجه استحسانه للكلام، وهو التبرير الذي يصوغه أحيانا في شكل شرح للكلام المنقول شرحا يفهم من خلاله موافقة المؤلف التامة لصاحب النص، من ذلك مثلا ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وجاهدوا في الله حق جهاده**﴾[2] حيث قال : «القشيري : حق الجهاد ما وافق الأمر في القدر والوقت والنوع فإذا حصلت في شيء منه مخالفة فليس حق جهاده هـ»[3] قلت : موافقة القدر في جهاد النفس أن يكون بغير إفراط ولا تفريط، فالإفراط يمل والتفريط يخل وموافقة القدر أن يكون قبل حصول المشاهدة، إذ لا تجتمع مجاهدة ومشاهدة في وقت واحد، والنوع أن يجاهدها بما يباح في الشرع لا بمحرم ولا مكروه».[4]

2 – مخالفاته وردوده :

ليس المقصود من هذا المبحث الحديث عن مناقشات ابن عجيبة للمفسرين السابقين، فذلك أمر سنتعرض له أثناء الحديث عن مكانة ابن عجيبة في التفسير من خلال شخصيته العلمية، وإنما الذي يهمنا هنا هو

---

1) البحر المديد 90/2 وقارن بالتسهيل 117/2.

2) الحج : 78.

3) لطائف الإشارات 564/2.

4) البحر المديد 47/3.

استعراض مختلف الطرق التي نهجها المؤلف في التعقيب بالرد عل الأقوال و الآراء التي استقاها من مختلف المصادر ولم يرتضها، ولا شك أن من أبرز المفسرين الذين خالفهم ابن عجيبة فيما ذهبوا إليه : ابن عطية والزمخشري والبيضاوي.

فابن عطية كثيرا ما يتعقبه المؤلف بالرد والمخالفة، مثال ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما**﴾.[1]

حيث قال : «وأما قول ابن عطية : أجمع المفسرون أن هذه الآية في قتل بعضهم بعضا فليس بصحيح و الله تعالى أعلم».[2]

ومن ذلك أيضا رده عليه في إنكاره لبعض اللطائف التفسيرية ووصمه إياه بالجمود.[3]

أما الزمخشري فالردود عليه كثيرة ومعظمها يتعلق بمناحي الاعتزال التي دأب صاحب الكشاف على التأكيد عليها في تفسير الآيات بالإضافة إلى بعض المسائل النحوية والبلاغية.[4]

أما البيضاوي فبقدر ما استفاد ابن عجيبة من تفسيره بقدر ما كان ينبه على مخالفته له كلما اقتضى الأمر ذلك، مثال ذلك قوله : «وفي البيضاوي هنا تخليط فلا يغتر به»[5] أو قوله : «وفي البيضاوي خلاف هذا وهو غير جيد»[6] وقد يستدل أحيانا باعتراضات السيوطي عليه في حاشيته على تفسير هـ.[7]

---

1) النساء : 29.

2) البحر المديد 109/1 وقارن بالمحرر الوجيز 94/4.

3) انظر على سبيل المثال : البحر المديد 206/3 – 102/4. وراجع على وجه الخصوص : البحر المديد 106/2 وقارن بالمحرر الوجيز 34/10.

4) انظر على سبيل المثال : البحر المديد 38/3 وقارن بالكشاف 6/3. وانظر أيضا البحر المديد 147/3 وقارن بالكشاف 238/3.

5) البحر المديد 95/1 وقارن بتفسير البيضاوي 54/2.

6) البحر المديد 83/2 وقارن بتفسير البيضاوي 120/3.

7) البحر المديد 58/1.

وقد يتوقف ابن عجيبة أحيانا أمام نص من النصوص المستشهد بها فلا يردها تماما ولكن يبدي رأيه بإزاء رأي صاحب النص ملمحا إلى عدم موافقته على ما ذهب إليه، وطريقة المؤلف في التعبير عن ذلك استعماله للفظة «نظر» كأن يقول : «وفي قول فلان نظر»[1] ثم يستطرد في بيان رأيه ووجه عدم الموافقة.

3 - **ترجيحاته واختياراته** :

يكثر ابن عجيبة من ذكر النصوص والأقوال المنقولة عمن سلف من العلماء و المفسرين، وهو في أثناء ذلك يقابل بينها ويحقق، ويميز ويرجح إذا رأى مقتضى ما يدعو إلى ذلك. وابن عجيبة في عدم إكثاره من ذكر اختياراته وترجيحاته أثناء جمعه بين الأقوال يؤكد على أهمية تعدد التفسيرات و التأويلات للآية الوحدة على اعتبار أن النص القرآني قابل لأن يكون محل مختلف الاجتهادات والتأويلات إذا كانت منسجمة مع قواعد التفسير وشرائطه، فالمؤلف لا يبدي اختياره أو ترجيحه لقول من الأقوال إلا إذا تأكد له رجحانه على غيره إما لدليل قوي يستند إليه أو لما قد يظهر له من مرجحات مختلفة.

وكثيرا ما يستعمل لفظة (والظاهر)[2] للتعبير على ترجيح رأي ظاهر في نظره، مثال ذلك ما جاء في تفسير الآيات الأولى من سورة الإسراء حيث أورد أقوالا مختلفة في الطريقة التي أسري بها عليه الصلاة و السلام ثم قال: «قلت و الظاهر أنه وقع مرتين مرة بجسده من البيت ومرة بروحه من بيت أم هانئ و الله تعالى أعلم».[3]

---

1) انظر على سبيل المثال في البحر المديد 54/4 قوله : «وفي تفسير المحلي المعرة بالإثم نظر»

2) انظر مثلا : 117/2 و 200/4.

3) البحر المديد 144/2.

وقد يعبر ابن عجيبة بلفظ صريح على ترجيحه لقول على آخر، من ذلك مثلا قوله عند تفسير قوله تعالى : ﴿**قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل**﴾.[1]

حيث قال : «وفي بعض الآثار أن النبي ﷺ قال : سام أبو العرب ويافث أبو الروم وحام أبو الحبش. قاله ابن عطية[2] وسيأتي خلافه في سورة الصافات وهو الراجح»[3] أما ما جاء في سورة الصافات فهو قوله : «قال قتادة : الناس كلهم من ذرية نوح وكان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد سام وهو أبو العرب وفارس والروم وحام وهو أبو السودان من المشرق إلى المغرب ويافث وهو أبو الترك وياجوج وماجوج...».[4]

وقد يجنح المؤلف أحيانا إلى التطويل و الاستطراد من أجل تبرير اختياره وبيان تحقيقه في المسألة، من ذلك مثلا ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون**﴾[5] حيث قال : «جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال له أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين قال بلى، قال : أقتلت الآباء بالسيف و الأبناء بالجوع فنزلت هـ. ابن جزي : وفيه نظر فإن الآية مكية باتفاق وإنما دعا النبي ﷺ على قريش بعد الهجرة حسبما ورد في الحديث.[6] هـ قلت والتحقيق أن القحط نزل بهم مرتين أحدهما قبل الهجرة حين دعا عليهم عليه السلام بقوله : اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف فأخذتهم سنة حصدت كل شيء حتى أكلوا الميتة والعظام وكانوا يُرون

---

1) هود 40.

2) المحرر الوجيز 151/9.

3) البحر المديد 77/2.

4) البحر المديد 196/3 عند تفسير قوله تعالى : ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم وجعلنا ذريته هم الباقين﴾.

5) المومنون : 75.

6) التسهيل 54/3.

المبحث الثاني :

موقفه من مباحث علم الكلام

لقد أضاف ابن عجيبة في معالجاته الكلامية بعدا جديدا وجانبا خصبا إلى أبعاد وجوانب شخصيته العلمية حيث استعان بخبرته العظيمة في فهم أسرار القرآن الكريم وإدراك معانيه الروحية والسمو بنظره إلى مدارك الفهم الصوفي، فاستطاع -بحق- حماية معاني التنزيل من التأويلات الفاسدة والآراء الضالة مع إقرار مبادئ أهل السنة والجماعة.

وظهر ابن عجيبة في تفسيره عالما أشعريا، وقد ساق القول بأن أبا الحسن الأشعري هو واضع علم الكلام «ولا شك أنه هو الذي دون هذا العلم وهذب مطالبه ونضخ مشاربه فهو إمام أهل السنة غير مدافع، لكن عده واضعا له فيه بحث فإن هذا العلم كان قبله»[1] وإذا كان المؤلف يرى أن هناك من العلماء من خاض في علم الكلام قبل الإمام الأشعري فإنه يذهب بعيدا للقول بأن الأولى أن يقال بأنه علم قرآني فيكون الواضع له هو الحق تعالى في كتابه، وذلك لأن في القرآن كما يقول : «كل ما يحتاج إليه من إثبات العقائد وسائر السمعيات والإستدلال على ذلك والرد على الخصوم ما يكفي... وإذا كان حاصل علم التوحيد الذي منه علم الكلام ثلاثة أنواع : الإلهيات والنبويات والسمعيات فإنها كلها مذكورة في القرآن بأبلغ وجه[2]».

فالذي يفهم إذن من كلام ابن عجيبة هو أن جميع قضايا علم الكلام التي وقع فيها الخلاف بين مختلف الفرق الكلامية توجد مبسوطة في

---

1) تفسير الفاتحة الكبير 12.

2) نفسه ص 11.

ويستشهد ابن عجيبة بكلام للجنيد يقول فيه : «التوحيد معنى تضمحل فيه الرسوم وتندرج فيه العلوم يكون اللهكما لم يزل» ثم يعقب عليه بقوله : «هذا هو التوحيد الخاص أعني توحيد أهل الشهود والعيان»[1] ولذلك يرى المؤلف أنه لما كانت غاية هذا العلم من أشرف الغايات وموضوعه من أعلى الموضوعات كان لابد من أخذه عن أهل التنوير وأهل الذوق، وإلا فقد حذر منه كثير من الأئمة لا سيما الصوفية فلا يحتاجون إليه أبدا[2]، لأن أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان كما قال الشاذلي».[3]

ويرى ابن عجيبة أن توحيد الخلق الله تعالى على ثلاث درجات :

الأولى : توحيد العامة وهو الذي يعصم النفس والمال وينجي من الخلود في النار وهو نفي الشركاء والأنداد والصاحبة والأولاد والأشباه والأضداد.

الثانية : توحيد الخاصة وهو أن يرى الأفعال كلها صادرة من اللهوحده ويشاهد ذلك بطرق الكشف لا بطريق الإستدلال، فإن ذلك حاصل لكل مومن،[4] وإنما مقام الخاصة يقين في القلب بعلم ضروري لا يحتاج إلى دليل.

الثالثة : ألا يرى في الوجود إلا الله، ولا يشهد معه سواه فيغيب عن النظر إلى الأكوان في شهود المكون».[5]

---

1) البحر المديد 36/1.

2) هذا يناقض ما فسر به قوله تعالى : ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ...﴾ (النحل 25) حيث قال : «فيه دليل على أن الجاهل في العقائد غير معذور إذ كان يجب عليه أن يبحث عن الحق وأهله وينظر في دلائله وحججه (البحر المديد 130/2).

3) تفسير الفاتحة الكبير ص 11.

4) لذلك يرى المؤلف أن مذهب الصوفية الأخذ بالعزائم، والأرجح من كل شيء عقدا وقولا وفعلا، فأخذوا من العقائد مقام العيان، ولم يقنعوا بالدليل والبرهان، (البحر المديد216/3).

5) البحر المديد 36/1. وهذا التقسيم أصله لابن جزي في تفسيره : 66/1.

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**ما اتخذ اللهمن ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان اللهعما يصفون**﴾[1] يؤكد ابن عجيبة على المعاني السابقة فيقول : «يقول الحق جل جلاله ما اتخذ اللهمن ولد خلاف ما يقوله النصارى والعرب التي قالت : الملائكة بنات الله والمسيح ابن الله تعالى اللهعن قولهم علوا كبيرا، وما كان معه من إله يشاركه في ألوهيته كما يقول عبدة الأوثان وغيرهم، إذا لذهب كل إله بما خلق، أي لو كان معه ألهة كما تزعمون لذهب كل واحد منهم بما خلقه واستبد به ليتميز ملكه من ملك غيره ووقع بينهم التغالب والتحارب كما هو الجاري بين الملوك[2] ولعلا بعضهم على بعض وارتفع عليه كما ترون حال ملوك الدنيا، مماليكهم متميزة وهم متغالبون، وحين لم تروا أثرا لتمايز المماليك والتغالب فاعلموا أنما هو إله واحد».[3]

ومما يؤخذ على ابن عجيبة في هذا المجال خلطه بين الأدلة القرآنية الدالة بوضوح على وحدانية اللهوانفراده بالألوهية، وبين المصطلحات الصوفية القائمة على أساس الذوق والوجد والشهود والعيان كما يقول، وليس على أساس الحجة والبرهان الذي يعتبره دون الأساس الأول قوة وسموا. ولعل أبرز ما ذهب إليه في هذا السياق هو تقسيمه للتوحيد إلى عام وخاص، وهو تقسيم لا ينفك يردده كلما تعرض للحديث عن التوحيد، يقول في تفسير الفاتحة الكبير: «وحد علم التوحيد العلم بالعقائد الدينية من الأدلة اليقينية، وهذا هو التوحيد العام، وأما التوحيد الخاص فهو من شأن أهل التصوف».[4]

---

1) المؤمنون 91.

2) نفى ابن جزي في تسهيله 56/3 أن يكون هذا البرهان قد دل على دليل التمانع كما فهم ذلك ابن عطية وغيره بل هو دليل آخر.

3) البحر المديد 53/3.

4) تفسير الفاتحة الكبير ص 11.

يرتفع مع أن الطبع يقتضي أحدهما أو مسخر للرياح تقلبه في جو السماء بمشيئة اللهلآيات لقوم يعقلون، أي تلك المخلوقات آيات دالة على وحدانيته تعالى وباهر قدرته، ولو كان فيهما آلهة إلا اللهلفسدتا، وفي ذلك دلالة على علم التوحيد العام والخاص».[1]

إن ابن عجيبة من خلال هذا التفسير للآية يبرز لنا طريقة النظر في الملكوت كما وردت في القرآن الكريم، فما يشتمل عليه هذا الكون الفسيح من عجائب مخلوقات اللهيدل بوضوح على أن لهذا الكون خالقا أوجده. فالأمور الثمانية التي بسط المؤلف ذكرها انطلاقا من الآية هي واضحة محسوسة إذا تمعن فيها الإنسان وحكم عقله خلص من ذلك إلى أن هذه كائنات لم يكن وجودها ذاتيا ولم يكن لها أن تسير أنفسها بتلك الدقة المتناهية وذلك التناسق العجيب، بل وجودها وفق هذا النظام المحكم دليل واضح على أن لها موجدا خلقها.

فابن عجيبة رحمه اللهيرى ضرورة الإستدلال لإثبات وحدانية اللهبالأدلة الشرعية التي تضمنها القرآن الكريم، وهي -ولاشك- طريقة سليمة خالية من التعقيد الذي اكتنف طرق المتكلمين.

وتعتبر آية الكرسي[2] من أعظم الآيات المتضمنة لتلك الأدلة الباهرة والبراهين القاطعة على توحيد الألوهية وإثبات وجود اللهتعالى، يقول ابن عجيبة في تفسير الآية : «وهذه الآية مشتملة على أمهات مسائل الألوهية فإنها دالة على أنه تعالى موجود واحد في ألوهيته متصف بالحياة الذاتية واجب الوجود لذاته موجب لغيره، إذ القيوم والقائم بنفسه المقيم لغيره، منزه عن التحيز والحلول، مبرأ عن التغير والفتور...».[3]

---

1) البحر المديد 36/1.

2) البقرة 255.

3) البحر المديد 58/1.

أحياء...﴾[1] يقول ابن عجيبة : «أفمن يخلق كل شيء ويقدر على كل شيء كمن لا يخلق شيئا ولا يقدر على شيء، بل هو أعجز من كل شيء، وهو إنكار على من أشرك مع الله غيره بعد إقامة الدلائل المتكاثرة على كمال قدرته وباهر حكمته، فذكر ما تقدم من أنواع المخلوقات وبدائع المصنوعات...ثم قال تعالى : «والذين تدعون أي والأصنام الذين تدعونهم من دون الله لا يخلقون شيئا لظهور عجزهم، كما نفى المشاركة بين من يخلق ومن لا يخلق. بين أنها لا تخلق شيئا ليتحقق نفي الألوهية عنها ضرورة، ثم علل عجزها وعدم استحقاقها للألوهية بقوله : وهم يخلقون أي وهم مخلوقون مفترقون في وجوههم إلى التخليق، والإله لابد أن يكون واجب الوجود...».[2]

– عند تفسير قوله تعالى : ﴿**والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمان الرحيم إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس...لآيات لقوم يعقلون**﴾[3] قال ابن عجيبة: «يقول الحق جل جلاله : «يا معشر العباد، الذي يستحق أن يعبد هو الله واحد لا شريك له ولا نظير ولا ضد له ولا ند، لا إله إلا هو إذ لا يستحق العبادة غيره، إذ هو الرحمان بنعمة الإيجاد الرحيم بنعمة الإمداد، فكل ما سواه مكون مخلوق إما منعم عليه أو نعمة، فلا يستحق العبادة غيره، ثم برهن على وجوده وثبوت وحدانيته بثمانية أمور فقال : إن في خلق السماوات طباقا متفاصلة مرفوعة بغير عمد، وما اشتملت عليه من الكواكب والبروج والمنازل وفي خلق الأرض وما اشتملت عليه من الجبال والبحار والأنهار والأشجار، وفي الفلك التي تجري في البحر بقدرته مع إمكان رسوبها إلى أسفل ملتبسة بما ينفع الناس من التجارة وغيرها... إلى أن قال : وفي السحاب المسخر أي المذلل بين السماء والأرض لا يسقط ولا

---

1) النحل 17-20.

2) البحر المديد 129/2.

3) البقرة : 164.

يصفون﴾[1] حيث قال : «ولما برهن على وحدانيته تعالى في ملكه بأنه خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة وأنهم قاطبة تحت ملكه وقهره وأنهم عباده مذعنون لطاعته ومثابرون على عبادته ومنزهون عن كل ما لا يليق بشأنه أنكر على من أشرك معه بعد هذا البيان فقال : «أم اتخذوا آلهة (يعبدونها) من الأرض...» ثم أبطل الإشتراك في الألوهية فقال : لو كان فيهما آلهة إلا الله، أي لو كان السماوات والأرض آلهة غير الله كما هو اعتقادهم الباطل لفسدتا أي لفسد نظامهما بما فيهما لوجود التمانع كعادة الملوك أو لبطلتا بما فيهما ولم يوجد شيء منهما للزوم العجز بهما، وبيان ذلك أن الألوهية مستلزمة للقدرة على الإستبداد بالتصرف فيهما على الإطلاق تغييرا وتبديلا وإيجادا وإعداما وإحياء وإماتة، فبقاؤهما على ما هما عليه من غير فساد إما بتأثير كل منهما وهو محال لاستحالة وقوع الأثر الواحد بين مؤثرين، وإما بتأثير واحد منهما، فالباقي بمعزل عن الألوهية، والمسألة مقررة في علم الكلام[2]... ثم قال تعالى :«فسبحان الله، أي فسبحوا الله بما يليق به ونزهوه عما لا يليق به من الأمور التي من جملتها أن يكون له شريك في الألوهية وإيراد الجلالة في موضع الإضمار حيث لم يقل : فسبحانه للإشعار بعلية الحكم مناطا لجميع صفات كماله التي من جملتها تنزيهه تعالى عما لا يليق به...».[3]

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون... والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير**

---

1) الأنبياء 19-22.

2) يقول ابن جزي في التسهيل 243 : «وقال كثير من الناس في معنى الآية :إنها دليل التمانع الذي أورده الأصوليون، وذلك أنا لو فرضنا إلهين فأراد أحدهما شيئا وأراد الآخر نقيضه فإما أن تنفذ إرادة كل واحد منهما وذلك محال لأن النقيضين لا يجتمعان، وأما أن لا تنفذ إرادة واحد منهما وذلك أيضا محال لأن النقيضين لا يرتفعان معا ولأن ذلك يؤدي إلى عجزهما وقصورهما فلا يكونان إلهين» وقال الفخر الرازي في تفسيره 150/22 : «لأن المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر. فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك، وبالعكس فلو امتنعا معا لوجدا معا وذلك محال».

3) البحر المديد 27/2.

المبحث الأول :

عرضه للأدلة الربوبية والألوهية

تكلم ابن عجيبة عن الربوبية والألوهية باعتبارهما من مجالات علم أصول الدين الذي عرفه بقوله : «وإن كان (العلم) نظرا في استنباط الأحكام الأصلية الإعتقادية منه فذلك علم أصول الدين وهو علم التوحيد وعلم الكلام، ففي كتاب الله تعالى بحمد الله ما يحتاج إليه من إثبات العقائد وسائر السمعيات، والإستدلال على ذلك والرد على الخصوم ما يكفي ويغني عن نقل العلم الإلهي من الفلسفة إلى الملة، وذلك أن حاصل هذا العلم ثلاثة أنواع : الإلهيات والنبويات والسمعيات، وهي كلها مذكورة بأبلغ وجه مع ما يحتاج إليه الأول من الأدلة كحدوث العالم المشار إليه بخلق السماوات والأرض وخلق النفوس وغير ذلك وهو مبسوط في مواضع كثيرة، وكذلك ما يحتاج إليه من أدلة النبوة كانشقاق القمر والتحدي بالقرآن وغير ذلك...» فكتاب الله تعالى هو الشفاء من كل سقم والنجاة من كل هلاك والهدى من كل ضلال نسأل الله تعالى أن يرزقنا فهمه والتمسك به حتى نلقاه، آمين».[1]

فابن عجيبة من خلال هذا النص يؤكد على أن القرآن الكريم يشتمل على كافة براهين التوحيد ودلائل الإيمان حيث إنها مبسوطة في مواضع كثيرة بيسر ووضوح وبيان شاف، ومما أورده من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿**وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون...إلى قوله : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما**

---

1) تفسير الفاتحة الكبير ص 11.

الفقهية»[1] أن خير الإستدلال ما كان على طريقة السلف الصالح... وهو الإستدلال بكتاب الله وتدبر آياته.

ويعتقد ابن عجيبة أن الصوفية وإن كانوا ينزعون إلى تقرير مذهب الأشاعرة، فهم يتطلعون دوما إلى بلوغ درجة الإطلاع على أسرار الإلهيات عن طريق البصيرة وهو ما يعرف بالمنهج العياني المباشر أو الحدسي الذي يؤدي إلى الموضوع مباشرة. وهو يركز على مناداة البصيرة الصافية التي تؤهل للوصول إلى درجة اليقين والتمكين. يقول ابن عجيبة مستأنفا كلامه السالف : «وقد يطلعهم الله تعالى (أي الصوفية) على أسرار من مكنون علمه فتتسع لهم دائرة العلوم وتنحل عنهم قيود المتشابه فيطلعون على أسرار تنكشف بها غوامض المتشابه»[2] ويقول أيضا : «التوحيد الحقيقي هو ما كان ذوقا وحالا ومقاما لا ما كان علما واعتقادا إذ ذلك من شأن أهل الحجاب أهل الدليل والبرهان».[3]

وسأحاول فيما يلي الوقوف على مدى توظيف المؤلف لهذا المنهج في كثير من مجالات العقيدة وتبين معالم منهجه في تفسير الآيات ذات العلاقة بالعقيدة الإسلامية بصفة عامة. وسأقسم هذا الفصل إلى المباحث التالية :

المبحث الأول : عرضه لأدلة الربوبية والألوهية.
المبحث الثاني : موقفه من مباحث علم الكلام.
المبحث الثالث : رده على الفرق المنحرفة.

---

1) ابن جزي : القوانين الفقهية ص 31.
2) الفتوحات الإلهية 139/1.
3) ابن عجيبة : شرح الصلاة المشيشية ص 25.

الفصل الخامس :

المنهج العقدي في تفسير ابن عجيبة

تعددت السبل وتنوعت المناهج في الاستدلال على مسائل العقيدة، سيما ما تعلق منها بذات الله تعالى من إثبات أسمائه وصفاته وتقرير الألوهية والربوبية.

وإذا كان المعتزلة ومتكلمو الأشاعرة قد اشتهر عنهم تقديم الجانب العقلي على الجانب السمعي، واعتبار العقل هو الأساس الذي يجب أن يكون تصوره منطلقا لإثبات العقيدة فإن الصوفية المغاربة الملتزمين بالكتاب والسنة قد سلكوا منهجا متميزا يتسم بتفضيل الأخذ بالأدلة النقلية الواردة في إثبات مسائل العقيدة، مع الأخذ بمنهج الأشاعرة في التأويل والتفويض. يقول ابن عجيبة : «واعلم أن مذهب الصوفية الأخذ بالأحسن في كل شيء عملا بقوله تعالى : ﴿**فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾، وأحسن المذاهب في الإعتقاد مذهب السلف من اعتقاد التنزيه ونفي التشبيه وتفويض المتشابه والوقوف مع ما ورد كما ورد[1] ما لم يحتج إلى تقييد، فيقيد بما ينفي شبهته من غير زائد، وبهذا تمسكت الصوفية في بدايتهم».[2] وقد ذكر ابن جزي في مقدمة كتابه «القوانين

---

1) هذا هو نفس ما نص عليه أحمد زروق في كتابه (عدة المريد) مخطوط سابق الذكر ورقة 7 ب أثناء حديثه عن مذاهب الصوفية في العقيدة والأحكام فقال : «ولذلك كان مذهبهم في الإعتقاد تابع لمذهب السلف من اعتقاد التنزيه ونفي التشبيه وقبول ما ورد كما ورد من غير تعرض لكيف ولا غير...»

2) ابن عجيبة : الفتوحات الإلهية : 139/1.

سليمان عليه السلام ببنائه أن يبرز لها عظمة الله ويريها ما أعطاه الله من الملك وأسباب العمران.

لقد ساق ابن عجيبة إسرائيليات أخرى لم يعقب عليها لكنه يشير إلى من نقل عنه ذلك من المفسرين مثل الثعلبي[1] وابن عطية[2] والقرطبي[3] وغيرهم. وقد يقتصر أحيانا على ذكر من روى تلك الإسرائيليات ممن تدور عليهم روايتها في أغلب الأحيان مثل كعب الأحبار[4] ووهب بن منبه[5] وابن جريج[6] وابن عباس[7] والسدي[8] ومقاتل.[9]

هكذا إذن نخلص إلى القول بأن ابن عجيبة لم يكن منهجه في رواية الإسرائيليات منهج كثير من المفسرين الذين حشوا تفاسيرهم بها دون تعقيب أو تعليق. فهو لم يركن إليها ركون المستسلم المقلد، بل كان له رأي واضح في كثير منها. غير أنه انساق في بعض الأحيان وراء جمهرة المفسرين في سوق بعض تلك الإسرائيليات. والذي يمكن تسجيله بخصوص موقف ابن عجيبة من الإسرائيليات أن تعقيبه على بعضها إنما كان في حالة ارتباطها بأمور العقيدة وعصمة الأنبياء والملائكة ومسائل التحليل والتحريم حيث كان يرى عدم التساهل في بث مثل تلك الروايات والأخبار فيما تعلق بأحكام الشرع. أما ما سوى ذلك مما ارتبط بمجال القصص والمواعظ وأخبار الأنبياء فكان لا يرى بأسا من الإستئناس بتفاصيل ذلك.

---

1) أنظر على سبيل المثال : البحر المديد 1/141-4/86.

2) أنظر على سبيل المثال : 2/80-3/94.

3) أنظر على سبيل المثال : 2/77.

4) – أنظر على سبيل المثال : 2/80-3/101.

5) أنظر على سبيل المثال :البحر المديد : 1/55-3/115-3/144.

6) أنظر على سبيل المثال : 1/141.

7) أنظر على سبيل المثال : 3/105.

8) أنظر على سبيل المثال : 1/141-3/92.

9) أنظر على سبيل المثال : 3/2.

ملكين». والحديث أورده ابن كثير في تفسيره وقال : «لا يصح وهو منكر جدا»[1] وقال : «رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة وابن منده في تفسيره وقد أورده كذلك السيوطي في تفسيره وجامعه الصغير.[2]

– ومن الإسرائيليات التي أوردها ابن عجيبة في تفسيره دون التعقيب عليها ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين**﴾[3] حيث أورد في تفسيرها ما سبق أن أورده معظم المفسرين مثل ابن جرير الطبري والثعلبي والبغوي والخازن من «أن سليمان أراد أن يتزوج بلقيس فقيل له: إن في عقلها شيئا وهي شعراء الساقين ورجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش واتخذ صرحا ليتعرف ساقيها ورجلها فكشفت عنهما فإذا هي أحسن الناس ساقا وقدما إلا أنها شعراء...وأراد سليمان تزوجها فكره شعرها فعملت له الشياطين النورة[4] فنكحها سليمان وأحبها وأقرها على ملكها وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام وولدت له وانقضى ملكها بانقضاء ملك سليمان عليه السلام».[5]

فهذه الرواية وغيرها مما أورده ابن عجيبة وغيره من المفسرين تعتبر من الإسرائيليات المتلقاة عن أهل الكتاب، وبناء الصرح الممرد لم يكن ليتم بناؤه من أجل سبب تافه ينطوي على تحايل يرمي من ورائه سليمان عليه السلام النظر إلى ساقي بلقيس كما ورد في هذه الإسرائيلية. وإنما أراد

---

1) قال الشيخ ناصر الدين الألباني :«آفته جابر وهو ابن يزيد الجعفي وهو متهم بالكذب، وكان يؤمن برجعة علي ويقول : إنه دابة الأرض المذكورة في القرآن». أنظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة 315/2.

2) السيوطي : الدر المنثور 97/1 الجامع الصغير 269/5 ولم يتعقبه المناوي وهو عنده بلفظ : «لعن الله الزهرة فإنها هي التي فتنت الملكين...».

3) النمل 44.

4) ما يزال به الشعر.

5) البحر المديد 105/3.

فقال[1] : «وقصها (أي الرواية) خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع متصل الإسناد إلى الصادق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى». وحكم بوضع القصة كذلك الإمام ابن الجوزي.[2] وإذا كان بعض أصحاب كتب السنة قد أوردوا نص القصة في كتبهم مثل الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه وإذا كان بعض المحدثين مثل الحافظ ابن حجر قد مالوا إلى ثبوت بعض الروايات الواردة في الموضوع، فإن كل ذلك يعتبر تساهلا منهم في إيراد مثل هذه الروايات وإن ثبتت صحة أسانيد بعضها.

أما ابن حجر فيعتبر هذا تشددا منه في التمسك بالقواعد والضوابط الحديثية في التصحيح دون نظر إلى ما يلزم من الحكم بثبوت ذلك من المحظورات، يقول الشيخ محمد أبو شبهة رحمه الله : «وأنا لا أنكر أن بعض أسانيدها صحيحة أو حسنة إلى بعض الصحابة أو التابعين، ولكن مرجعها ومخرجها من إسرائيليات بني إسرائيل وخرافاتهم، والراوي قد يغلط وبخاصة في رفع الموقوف، وقد حققت هذه في مقدمات البحث وأن كونها صحيحة في نسبتها لا ينافي كونها باطلة[3] في ذاتها...[4]

وإذا كان ابن عجيبة قد اجتنب رفع القصة الإسرائيلية إلى رسول الله ﷺ كما فعل بعضهم فإنه بالمقابل قد تساهل كثيرا عندما نسب في آخر القصة إلى النبي عليه الصلاة والسلام أنه «لعن الزهرة وقال أنها فتنت

---

1) تفسير ابن كثير 203/1 والبداية والنهاية له أيضا : 37/1.

2) السيوطي : الآلئ المصنوعة 82/1. ولم أجده في الموضوعات لابن الجوزي.

3) لا منافاة بين كون الرواية الإسرائيلية صحيحة السند وبين كونها مما يروى عن أهل الكتاب من الخرافات والأكاذيب، فهي تكون صحيحة السند إلى عبد الله بن عباس (ضمنا) أو عكرمة أو مجاهد أو غيرهم ولكنها ليست متلقاة عن النبي ﷺ وإنما أخذت عن أهل الكتاب الذين أسلموا. فثبوتها عمن رويت عنه شيء وكونها باطلة في ذاتها شيء آخر.

4) الإسرائيليات والموضوعات : مرجع سابق ص 164.

المكذوبة والأباطيل الواهية التي تمس أمورا عقدية يجب التنزه عن ذكرها والتنبيه على فسادها وبطلانها.

وإذا كان معظم المفسرين الذين نقلوا القصة قد سلموا بها دون تعقيب أو تعليق فإن ابن عجيبة قد عقب بالمقابل على ذلك بقوله : «قلت : قصة هاروت وماروت ذكرها المنذري في شرب الخمر وقال في حديثها رواه أحمد وابن حبان في صحيحه من طريق زهير بن محمد وقد قيل أن الصحيح وقفه على كعب.[1] وقال ابن حجر[2] : قصة هاروت وماروت جاءت بسند حسن خلافا لمن زعم بطلانها كعياض[3] ومن تبعه».[4]

فهذا التعقيب من ابن عجيبة يدل على تسليمه بالقصة إذ أنه حاول تدعيم ذلك التسليم بأقوال من أثبتها كالإمام أحمد وابن حبان والمنذري وابن حجر، وتأكيده على قول ابن حجر الذي يدفع تفنيد القاضي عياض للقصة دليل على ميله إلى إثباتها. وهذا يعتبر من الأخطاء التي وقع فيها ابن عجيبة إذ أنه قد اطلع بدون ريب على مواقف كثير من العلماء والمفسرين الذين أثبتوا زيف القصة وبطلانها بما لا يدع مجالا للشك في أنها من أقبح ما روي من الإسرائيليات.

يعلق الإمام الرازي على القصة فيقول : «...واعلم أن هذه الرواية فاسدة مردودة غير مقبولة لأنه ليس في كتاب الله ما يدل على ذلك بل فيه ما يبطلها من وجوه». ثم ذكر ثلاثة أوجه في بطلانها،[5] أما ابن كثير

---

1) وهو ما ذهب إليه الحافظ ابن كثير عندما قال : «وأقرب ما يكون في ذلك أنه من رواية عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار كما قال عبد الرزاق في تفسيره عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم بن عبد الله عن ابن عمر عن كعب. ورفع مثل هذه الإسرائيليات إلى النبي كذب واختلاق ألصقه زنادقة أهل الكتاب زورا وبهتانا». أنظر تفسير ابن كثير 139/1.

2) فتح الباري : 387/11 (باب السحر).

3) قال القاضي عياض : «وما ذكره أهل الأخبار ونقله المفسرون في قصة هاروت وماروت لم يرد فيه شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ وليس هو شيئا يؤخذ بالقيلس».

4) البحر المديد 25/1.

5) التفسير الكبير 429/1.

يومهما فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء فاختصمت إليهما ذات يوم امرأة يقال لها الزهرة وكانت من أجمل الناس من أهل فارس فأخذت بقلوبهما فراوداها عن نفسها فأبت ثم عادت في اليوم الثاني ففعلا مثل ذلك فأبت وقالت إلا أن تعبدا ما أعبد وتصليا لهذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر فأبيا هذه الأشياء وقالا إن الله نهانا، فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث فراوداها فعادت عليهما بما قالت بالأمس، فقالا : الصلاة لغير الله أمر عظيم وأهون الثلاثة شرب الخمر، فشربا ووقعا بالمرأة فلما فرغا رآهما الإنسان فخافا أن يظهرا عليهما فقتلاه، وفي رواية عن سيدنا علي كرم الله وجهه أنه قال : قالت لهما لن تدركاني حتى تخبراني بالذي تصعدا به إلى السماء، قالا باسم الله الأعظم فعلماها ذلك فتكلمت به وصعدت به إلى السماء فمسخها الله كوكبا ولذلك كان عليه السلام إذا رأى سهيلا قال لعن الله سهيلا كان عشارا باليمن ولعن الزهرة وقلا إنها فتنت ملكين. هـ».[1]

أوردنا نص هذه القصة بطولها لنتبين تفاصيلها من جهة وطريقة سرد ابن عجيبة لها[2] مقارنة بغيره من المفسرين من جهة أخرى. وأنه من المستغرب حقا أن يتداول ابن عجيبة وغيره مثل هذه القصة الإسرائيلية التي تتضمن القدح في عصمة الملائكة المنزهين عن مثل هذه الكبائر. وقد أخبر الله تعالى عنهم بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ثم كيف ترفع المرأة الفاجرة إلى السماء –حسب الرواية الثانية التي أوردها ابن عجيبة – وكيف تمسخ كوكبا مضيئا وقد كان النجم المسمى (الزهرة) في مكانه من يوم أن خلق الله السماوات والأرض، فمثل هذه الروايات

---

1) البحر المديد 25/1.

2) تعددت الروايات في هذه القصة حتى بلغت طرقها –كما ذكر الألوسي في تفسيره– نيفا وعشرين طريقا. روح المعاني 341/1.

قرآنيتين. وهي محاولة تفسيرية جيدة ناظر فيها وشابه من خلالها بين لفظتي «الهم» و «الظن» لقرب اتحاد معنييهما حسبما ذهب إليه من جعل الخاطر في حق الأنبياء هما وظنا.

وإذا كان ابن عجيبة يقظا وحذرا في رواية كثير من الإسرائيليات معرضا تارة عن ذكرها ومنبها ومبطلا تارة أخرى فإنه قد انساق في بعض الأحايين وراء جمهرة المفسرين الذين ملؤوا تفاسيرهم بتلك الإسرائيليات، ولذلك وجدناه يسوق بعض تلك الأخبار والقصص الإسرائيلية دون أدنى إشارة إلى ضعفها أو بطلانها غير أننا نجده في كثير من الحالات يحيل على من نقل عنه ذلك من المفسرين وكأنه يجعل العهدة عليهم.

من ذلك ما ذكره في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر...**﴾ الآية[1]، حيث قال: «هاروت وماروت كانا ملكين من أعبد الملائكة، ولما رأت الملائكة ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة في زمن إدريس عليه السلام عايروهم بذلك وقالوا : يا ربنا هؤلاء الذين جعلتهم خليفة في الأرض وهم يعصونك فقال الله تعالى : ﴿**لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لارتكبتم ما ارتكبوا، قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك**﴾، فقال الله تعالى : «فاختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض فاختاروا هاروت وماروت وكانوا من أعبد الملائكة فركب الله تعالى فيهما الشهوة وأمرهما أن يحكما في الأرض بين الناس بالحق ونهاهما عن الشرك والقتل بغير الحق والزنى وشرب الخمر. فكانا يقضيان بين الناس

---

(1) البقرة 102.

ومثله أيضا في لطائف المنن[1] : همت به هَمَّ إرادة وهم بها هَمَّ ميل لا هم إرادة...».[2]

ثم عقب ابن عجيبة على كل هذه الأقوال بقوله : «أما تفسير الهم بالميل فلا يليق بالنفس المطمئنة، وأما تفسيره بالخاطر فيتصور في المطمئنة وغيرها، إنما سماه الله تعالى هما في حق يوسف عليه السلام لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعلو منصبهم وشدة قربهم من الحضرة يشدد عليهم في مطالبة الأدب فيجعل الخاطر في حقهم هما وظنا كما قال تعالى :﴿**حتى إذ استيأس الرسل وظنوا أنهم كذبوا**﴾[3] (فيمن خفف الذال)[4] وكما قال تعالى في حق يونس عليه السلام : ﴿**فظن أن لن نقدر عليه**﴾[5] على أحد التفاسير والله تعالى أعلم».

لقد أفصح ابن عجيبة من خلال كلامه هذا عن تنزيهه ليوسف عليه السلام من أن يكون قد هَمَّ بشيء مما يهم بها الناس غير المعصومين. فإذا كان البيضاوي والرازي وغيرهما قد حاولوا دفع كل التفسيرات الواردة بخصوص لفظة «الهم» الواردة في الآية مما لا يليق بجناب الأنبياء عليهم السلام وذلك بتفسير الهم بميل الطبع لا ميل الإرادة فإن ابن عجيبة قد أبى إلا أن يخلق في أجواء ورحاب علم السلوك الذي يوجه أربابه إلى حسن التأدب مع الأنبياء، فلم يقنعه التفسير السابق وإن استحسنه ورأى أن تفسير الهم بالميل لا يليق بالنفوس المطمئنة التي هي نفوس الأنبياء، وأن الأقرب جعل الهم مرادفا للخاطر والظن مستشهدا على ذلك بآيتين

---

1) ابن عطاء الله : لطائف المنن، تح د عبد الحليم محمود دار المعارف –القاهرة 1992 ص 135.

2) البحر المديد 902.

3) يوسف 110.

4) (قد كذبوا) قرأه الكوفيون بالتخفيف وشدد الباقون، وعلى قراءة التخفيف يحمل على معنى أن المرسل إليهم ظنوا أنهم قد كذبوا فيما أتاهم به الرسل، فالظن بمعنى الشك. أنظر : الكشف لمكي بن أبي طالب 15/2 والتيسير للداني ص 130 والحجة ص 174.

5) من سورة الأنبياء 87.

عنق فقال القسطلاني : هي باطلة من وضع الزنادقة فلا يجوز ذكرها في كتاب الله الصادق المصدوق».[1]

وقال ابن القيم (ت 752) في إبطال القصة بعد أن ذكر حديث عوج : «وليس العجب من جرأة من وضع هذا الحديث وكذب على الله وإنما العجب ممن يدخل هذا في كتب العلم من التفسير وغيره، فكل ذلك من وضع زنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا الإستهزاء والسخرية بالرسل وأتباعهم».[2]

– ومن ذلك أيضا ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿**ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه**﴾[3] حيث أورد كلاما مطولا عن إبن جزي في تفسيره[4]، وهو كلام مستحسن رد به صاحب «التسهيل» على من فسر همّ يوسف عليه السلام بما لا يليق به كنبي معصوم[5] فقال : «بل كان همه خطرة خطرت على قلبه ولم يتابعها ولكنه بادر إلى التوبة والإقلاع عن تلك الخطرة حتى محاها من قلبه، ولا يقدح هذا في عصمة الأنبياء لأن الهم بالذنب ليس بذنب» وقد استصوب ابن عجيبة كلام ابن جزي وقال «قلت : كلامه حسن لأن الخطرات لا طاقة للبشر على تركها ومجاهدة مخالفتها، وقال البيضاوي : والمراد بهمه ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الإختياري[6]... ومثله في تفسير الفخر[7] وأنه مال إليها بمقتضى الطبع ومنع منه بصارف الهمة، كالصائم يشتاق الماء البارد ويمنعه منه صومه،

---

1) نفسه 1381.

2) محمد أبو شبهة : (الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص 186.

3) يوسف 24.

4) التسهيل لابن جزي 117/2. وإليه ذهب ابن عطية في تفسيره 278/9 حيث قال :«فلا يجوز عليه عندي إلا الهم الذي هو الخاطر».

5) أنظر على سبيل المثال : تفسير الطبري 108/12 والدر المنثور 13/4.

6) تفسير البيضاوي 103/3.

7) التفسير الكبير للفخر الرازي 117/18.

﴿وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾[1] حيث ذكروا كثيرا من الروايات في صفة هؤلاء القوم وعظم أجسامهم، وما ورد من قصة عوج بن عوق[2] وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع[3] وأن طوفان نوح لم يصل إلى ركبتيه، وأنه امتنع عن ركوب السفينة مع نوح[4] إلى غير ذلك من الأباطيل التي تخالف العقل والنقل.

أشار ابن عجيبة إلى قصة عوج بن عوق في موضعين عند تفسيره الآية السابقة، وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر**﴾.[5] وفي الموضع الأخير أورد ما نصه : «قيل ما نجا من الغرق إلا عوج بن عنق، كان الماء إلى حجرته، وسبب نجاته أن نوحا احتاج إلى خشب الشام للسفينة فلم يمكنه نقلها فحمل عوج تلك الخشب إليه من الشام فشكر الله له ذلك ونجاه من الغرق».

قاله الثعلبي. ثم عقب المؤلف بقوله : «وقد تقدم إبطاله في سورة العقود (أي المائدة) وأنه من وضع الزنادقة، ذكره القسطلاني.[6]

أما عند تفسير آية المائدة فإن ابن عجيبة لم يذكر القصة وما حفتها من روايات باطلة بل اقتصر على تفنيد ذلك بالاستناد إلى إبطال الإمام القسطلاني لها، قال «وأما ما ذكره الثعلبي هنا وغيره من قصة عوج بن

---

1) المائدة 22.

2) عوج بن عوق أو عوج بن عنق. ورد الإسمان معا في التفاسير، وفي القاموس المحيط : «وعوج بن عوق بضمهما – أي العينين– رجل ولد في منزل آدم فعاش إلى زمن موسى وذكر من عظم خلقه شناعة».

3) هذا يخالف ما ورد في الصحيحين من أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن.» صحيح البخاري، كتاب الأنبياء (265/4).

4) وهذا يخالف أيضا قول الله تعالى على لسان نوح (رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا) وقوله عز وجل ﴿**وأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنابعد الباقين**﴾ وقوله سبحانه ﴿**لا عاصم من أمر الله اليوم إلا من رحم**﴾.

5) القمر 13.

6) البحر المديد 86/4.

ابن عجيبة يرجح الرواية الأولى[1] لأنها رواية صحيحة مرفوعة إلى النبيﷺ وهي كما بينا مخرجة في الصحيحين، وهذا ما عبر عنه بقوله : «وأظهر ما قيل في فتنته عليه السلام ما روي مرفوعا...» أما القولان الثاني والثالث فقد استهلهما معا بصيغة التمريض (وقيل)، مما يدل على تضعيفه الضمني لهما.على أن مما يدلنا على اهتمام ابن عجيبة أحيانا بالروايات الإسرائيلية بحثا وتمحيصا تعقيبه على كل تلك الأقوال السالفة بقوله : «وأنكر بعض المحققين هذه القصة، وقال : لا يصح ما نقله الأخباريون وأهل التفسير في هذا الموضع من تشبه الشيطان بنبيه وتسلطه على ملكه وتصرفه في أمته والجور في حكمه. قال القاضي عياض : الشياطين لا يتسلطون على مثل هذا، وقد عصم الله الأنبياء عن مثله، ومثله لابن العربي أيضا وحكى إنكاره عن السمرقندي، وقال الطيبي : أشبه الأقاويل في إلقاء الجسد هو شق الولد كما تقدم، وخالف ابن حجر فقال : قال غير واحد من المفسرين إن المراد بالجسد المذكور شيطان وهو المعتمد[2]، فالله أعلم، غير أن التنزيه أسلم».

فابن عجيبة بعد إيراده لمختلف أقوال العلماء في القصة آثر السلامة في الحكم والتنزيه في الإعتقاد إذ أن عصمة الأنبياء مما ينبغي التسليم بها والإقرار بها.

– ومن الإسرائيليات التي نبه ابن عجيبة على بطلانها ما ذكره المفسرون عند تفسير قوله تعالى : ﴿**قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين**

---

1) العجب من ابن جرير وابن عطية وابن كثير الذين أغفلوا ذكر هذا الحديث في تفاسيرهم، بالمقابل نجد أن هناك من المفسرين من نص على الحديث وضعف ما عداه مثل أبي حيان الغرناطي الذي قال : نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالا يجب براءة الأنبياء منها...ثم عقب قائلا : وأقرب ما قيل فيه أن المراد بالفتنة كونه لم يستثن في الحديث (البحر المحيط 397/7) وراجع : روح المعاني للألوسي 194/8.

2) جاء في فتح الباري 129/7 : «حكى النقاش في تفسيره أن الشق المذكور هو الجسد الذي ألقي على كرسيه. وقد تقدم قول غير واحد من المفسرين أن المراد بالجسد المذكور شيطان، وهو المعتمد. والنقاش صاحب مناكير».

القول الثالث : وهنا أورد ابن عجيبة قصة طويلة مزج فيها بين روايتين مستقلتين :

الأولى : مفادها أن سليمان عليه السلام كانت له امرأة يحبها وكان أبوها ملكا كافرا قد قتله سليمان وكانت لا تفتر عن البكاء على أبيها جزعا، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته فكانت تغدو عليها وتروح وصار صنما معبودا في دار سليمان فأخبر بذلك فكسر الصورة.

أما الرواية الثانية فمفادها أن سليمان عليه السلام كان له خاتم ملكه وكان فيه اسم الله فكان ينزعه إذا دخل الخلاء توقيرا لاسم الله العظيم فنزعه يوما ودفعه إلى جارية فتمثل لها جني في صورة سليمان وطلب منها الخاتم فدفعته له، وراح الناس يظنون أنه سليمان، وخرج سليمان فارا بنفسه فأصابه الجوع فطلب حوتا ففتح بطنه فوجد فيه خاتمه، وكان الجني قد رماه في البحر فلبس سليمان الخاتم وعاد إلى ملكه».[1]

إن ابن عجيبة وهو يسرد مختلف هذه الأقوال المتعلقة بقصة سليمان عليه السلام لم يقف منها موقفا سلبيا كما فعل كثير من المفسرين[2] الذين نقلوا كل ما تعلق بالقصة من أقوال وروايات دون تعليق أو ترجيح، بل إن

---

1) البحر المديد 208/3 وراجع القصة بطولها في تفسير الطبري 100/23-102 حيث أسند عدة روايات إلى مجاهد وقتادة وابن عباس والسدي وغيرهم، وفي الدر المنثور للسيوطي(316/5) ما يفيد أن ابن عباس(ضما) قد أخذ القصة عن كعب الأحبار، وروى النسائي القصة في كتاب التفسير من طريق المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وقد قوى الحافظ ابن حجر هذا الإسناد إلا أن تلقي ابن عباس للقصة عن كعب الأحبار جعلها من الإسرائيليات كما ذكر ذلك الشيخ عبد الله بن الصديق في كتابه: بدع التفاسير ص: 112. وبطلانها يظهر من وجوه منها :

- أن الجني لا يسمى جسدا لأنه كان حيا والجسد الذي يلقى لا يكون إلا ميتا.
- أن الجني لا يمكن أن يتصور في صورة نبي ولا يقدر على ذلك لما يترتب عليه من المفاسد.
- أن هذه القصة خالية من العبرة والله تعالى يقول ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾.

2) أنظر على سبيل المثال تفسير ابن عطية (34/14) حيث مال إلى القول بأن الجسد الذي ألقي على كرسي سليمان هو الجني المذكور، ثم عقب بقوله : وهذا أصح الأقوال وأبينها معنى.

- ومن الإسرائيليات التي ذكرها ابن عجيبة وعقب عليها ما أورده في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب**﴾[1] حيث أورد قصة طويلة في فتنة سليمان عليه السلام عبر عنها في ثلاثة أقوال :

القول الأول : ما روي مرفوعا أنه قال : لأطوفن الليلة على سبعين أو تسع وتسعين[2] امرأة تأتي كل واحدة منهم بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله[3] فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، قال نبينا عليه السلام : والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون.

فالفتنة على هذا -يقول ابن عجيبة- كونه لم يقل إن شاء الله، والجسد هو شق الإنسان الذي ولد له».

وهذا الحديث صحيح وارد في الصحيحين[4] من رواية أبي هريرة.

القول الثاني : وقيل أنه ولد له ابن فأجمعت الشياطين على قتله وقالوا إن عاش له ولد لم ننفك من خدمته فلما علم ذلك حمله في السحاب فما شعر حتى ألقي على كرسيه جسدا ميتا فتنبه لخطئه حيث لم يتوكل على الله.

---

1) سوره ص : 34.

2) وردت روايات متعددة في ذكر عدد النساء : ففي صحيح البخاري وردت مرة عبارة : «لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين» (الفتح 117/6، الحديث رقم 2819) ومرة (لأطوفن الليلة على سبعين امرأة (الفتح 371/13، الحديث رقم 6639)، ورواه مسلم فقال : «سبعين» ومحصل جميع الروايات : ستون، سبعون، تسعون وتسع وتسعون ومائة.

3) حصل مثل هذا للنبي ﷺ فقد سأله أهل مكة عن قصة أهل الكهف فقال : أجيبكم غدا ولم يقل : إن شاء الله، فأبطأ عنه الوحي خمسة عشر يوما ثم نزل قوله تعالى : ﴿**ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله**﴾.

4) صحيح البخاري : كتاب الجهاد 41/2 وصحيح مسلم : كتاب الإيمان، باب الإستثناء 1275/3.

2) مسند الإمام أحمد 11/5.

3) سنن الترمذي 332/4 عند تفسير الآية من كتاب التفسير، وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة. وقد أورد الطبري روايات عن ابن عباس وبعض تلاميذه فيها بعض التفصيلات الواردة في الرواية التي أشار إليها ابن عجيبة (تفسير الطبري 98/9-100).

مستدركه.[1] وهو كما في المسند : عن سمرة عن النبي ﷺ قال : «لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره».

ويلاحظ من خلال القصة التي أوردها ابن عجيبة أنها مركبة من روايتين :

أما الأولى فقد ضمنها نسبة الاشراك الى أولاد آدم وذريته : «فالآية

والذي يجب توضيحه بخصوص مواقف العلماء من هذه القضية هو إجماعهم على أن التحديث عن أهل الكتاب بشيء مما هو مسكوت عنه أمر سائغ بشرط أن لا يتعلق بأمور العقيدة ومسائل التحليل والتحريم مما تعلق بأحكام الشرع، أما ما ارتبط بميدان القصص والأخبار وأحاديث الأنبياء والمواعظ فلا بأس من الإستئناس بتفاصيل ذلك من مرويات أهل الكتاب، وقد ثبت أن ابن عباس (ض) وبعض الصحابة كانوا لا يتحرجون في سؤال أهل الكتاب عن ذلك مما ارتبط بالأخبار وقصص الأولين، لكن مع التحفظ الشديد والتمحيص البالغ.

أما مواقف المفسرين من الإسرائيليات فقد اختلفت من فئة إلى أخرى، إلا أن معظمهم لم يلتزموا الحذر في روايتها والتحفظ في نقلها فبلغتنا تفاسير كثيرة قد تدفقت من خلالها مادة الإسرائيليات وعمت جوانب كثيرة من قضايا التفسير وطالت جميع السور القرآنية. وإذا كان بعض المفسرين قد برئوا من عهدة نقل تلك الإسرائيليات إلى حد ما بسبب سوقهم لأسانيدها إلى قائليها فإن اللوم يقع بالمقابل على طائفة من المفسرين الذين أوردوا الكثير من ذلك دون التأكيد على مدى صحته أو بطلانه.

وقد تنبه لذلك كثير من المفسرين المتأخرين فحذروا من خطورة تشويه معالم تفسير النص القرآني بإقحام تلك الأساطير والقصص والأخبار الواهية، فالإمام ابن عطية(ت 542 هـ) يقول في مقدمة تفسيره[1]: «وقصدت فيه أن يكون جامعا وجيزا محررا لا أذكر من القصص إلا ما لا تنفك الآية إلا به» أما الإمام القرطبي (ت 672 هـ) فيقول في خطبة تفسيره[2]: «وأضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين إلا ما لابد منه ولا غنى عنه للتبيين» ويذهب ابن جزي (ت 741 هـ) ضمن الباب

1) مقدمة المحرر الوجيز 5/1 (طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية).
2) مقدمة تفسير القرطبي 3/1.

على اليهود من كتبهم، وفي هذا القسم ورد قوله ﷺ :«بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».[1]

القسم الثاني : ما علمنا كذبه بمخالفته أمور العقيدة والنصوص القطعية من الكتاب والسنة، ومن ذلك ما ورد من قصص الأنبياء من أخبار تطعن في عصمة بعضهم كقصص يوسف وداود وسليمان عليهم السلام، فلا تجوز إذن رواية هذا القسم إلا مقرونا ببيان كذبه.

القسم الثالث : ما هو مسكوت عنه مما لا يدخل في القسمين السابقين: فهذا لا نؤمن به ولا نكذبه لحديث : «لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»[2] وإنما أمرنا بعدم التصديق أو التكذيب لاحتمال أن يكون الخبر المنقول حقا فنكذبه أو باطلا فنصدقه.

وفي هذا المعنى ورد ما أخرجه الإمام أحمد من حديث جابر (ض) أن عمرا (ض) أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه فغضب وقال : «لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني».[3]

هذا التقسيم إذن هو الذي أخذ به جل العلماء واستقر عليه موقفهم من الإسرائيليات وهو ما دلت عليه أقوال الإمامين مالك والشافعي مما نقله عنهما ابن حجر في فتحه وهو ما ذهب إليه ابن كثير في تفسيره عندما قال: «...وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله : «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» فيما قد يجوزه العقل، فأما ما تحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القبيل».[4]

---

1) سبق تخريجه.

2) سبق تخريجه.

3) مسند الإمام أحمد 387/3 ورجال الحديث موثوقون إلا أن أحد رواته وهو مجالداتهم بالضعف.

4) تفسير ابن كثير 373/7 (أول سورة ق).

وتشددوا في طلب الإسناد فقالوا : «سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم».[1]

وبالرغم مما بذله علماء الإسلام في عصوره الأولى من جهود من أجل صيانة التفسير والحديث من الدس والكذب فقد تسرب إلى ميدان التفسير من ذلك قسط وافر من الإسرائيليات استطاع أعداء الإسلام العمل على نشرها وإفشائها، وزاد من شرها تغافل كثير من الناس عن ذكر السند في أداء الحديث وطلبه في الرواية. فتناقل الرواة ذلك وتساهل المفسرون فحشوا كتبهم بتفسيرات أهل الكتاب وقصصهم وأساطيرهم منها الصحيح وغير الصحيح.

ثانيا : موقف العلماء من الإسرائيليات.

قسم ابن تيمية -وسار على نهجه باقي العلماء- الإسرائيليات إلى ثلاثة أقسام[2] :

القسم الأول : ما علمنا صحته بالنقل الصحيح عن النبي ﷺ أو بما تضمنه القرآن الكريم نفسه باعتباره شاهدا ومهيمنا على ما سبقه من الكتب السماوية، فما وافقه فهو حق وصدق وما خالفه فهو باطل وكذب، قال تعالى : ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق**﴾.[3] وهذا القسم صحيح تجوز روايته للاستشهاد به وإقامة الحجة

---

1) صحيح مسلم : المقدمة، باب بيان أن الإسناد من الدين ص :15.

2) ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير ص: 95 ومقدمة تفسير ابن كثير 14/1 وانظر : محمد بن محمد أبو شبهة : «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير»، مكتبة السنة - القاهرة ط 1408/4 ص : 106.

3) المائدة 48.

فإذا كان الحديث السابق ينبه إلى ضرورة التحفظ في الأخذ عن أهل الكتاب مما كان من الأخبار محتملا كما بينه ابن حجر، فإن حديثا آخر قد نبه من جانب آخر إلى فتح المجال لقبول أحاديثهم بشرط أن تكون متفقة مع شرعنا وذلك يكون بموافقة نص قرآني أو نص حديثي، والحديث الذي رواه البخاري أيضا عن عبد الله بن عمرو(ض) فيه أن النبي ﷺ قال : «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»[1] قال ابن حجر في شرح الحديث : «وقال مالك : المراد جواز التحدث عنهم بما كان من أمر حسن، أما ما علم كذبه فلا، وقيل: المعنى : حدثوا عنهم بمثل ما ورد في القرآن والحديث الصحيح، وقال الشافعي : من المعلوم أن النبي ﷺ لا يجيز التحدث بالكذب فالمعنى، حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم...».[2]

في إطار كل حيثيات التحفظ والإحتياط الشديد السابقة درج الصحابة على حفظ التفسير القرآني والحديث النبوي من الأكاذيب والقصص الإسرائيلية، فكان عصرهم مصونا من احتمال الدس اليهودي ومنزها عنه، غير أنه بانصرام عهدهم ومجيء عصر التابعين وهبوب رياح الفتن السياسية وظهور الوضع والكذب على رسول الله ﷺ وتفاقم أمر الصراعات المذهبية وجد أعداء الإسلام من الشعوبية واليهود والزنادقة الفرصة سانحة لبث الإسرائيليات والموضوعات في التفسير والحديث على السواء، بيد أن علماء التابعين ونقادهم لم يغفلوا عن جسامة وخطورة الوضع الذي آلت إليه الرواية الحديثية فنهضوا للذب عن السنة النبوية، وبذلوا في ذلك جهودا عظيمة حيث أحكموا ضبط قواعد وقوانين الرواية

---

1) صحيح البخاري : كتاب الأنبياء 328/4.

2) فتح الباري 157/7.

إقدام العرب على الأخذ عن أهل الكتاب في نقل هذه الإسرائيليات إلى أسباب اجتماعية فيقول : «...والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولاعلم وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم ...فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها...».[1]

وبالرغم من تلقي الصحابة رضوان الله عليهم لبعض المعارف التي استقوها من اليهود، فقد مضى عصرهم كما تدل عليه كتب السير على النهج الأكمل في الإلتزام بالهدي الرباني متمثلا في القرآن الكريم والسنة النبوية، وكانوا أشد تحوطا وصيانة لسنة النبي المصطفى صلوات الله عليه خاصة بعد التوجيه النبوي السامي الذي رواه البخاري عن أبي هريرة (ض) قال : (كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ «لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا...»)[2] قال ابن حجر في شرح الحديث : « أي إذا كان ما يخبرونكم به محتملا لئلا يكون في نفس الأمر صدقا فتكذبوه، أو كذبا فتصدقوه فتقعوا في الحرج، ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه، نبه على ذلك الشافعي رحمه الله، ويؤخذ من هذا الحديث التوقف عن الخوض في المشكلات والجزم فيها بما يقع في الظن، وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف من ذلك».[3]

---

1) مقدمة ابن خلدون 997/3.

2) صحيح البخاري : كتاب التفسير 25/6.

3) فتح الباري 23/9. باب ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ من كتاب التفسير (البقرة)، طبعة دار الفكر 1414 بتصحيح ابن باز والحديث أورده البخاري كذلك في بابي التوحيد والإعتصام.

وسأتناول في هذا الفصل استعراض الحديث عن النقط التالية :

أولا : كيف تسربت الإسرائيليات إلى كتب التفسير.

ثانيا : موقف العلماء من الإسرائيليات.

ثالثا : موقف ابن عجيبة من الإسرائيليات في تفسيره.

أولا : كيف تسربت الإسرائيليات إلى كتب التفسير.

بادئ ذي بدء لابد من الحديث عن تطرق الثقافة الإسرائيلية بصفة عامة إلى الثقافة العربية والذي حدث في الجاهلية من جراء اتصال اليهود بالعرب بعد نزوحهم إلى شبه الجزيرة العربية بما معهم من معارف وثقافات مستمدة من كتبهم[1] ونتيجة أيضا لاحتكاك العرب بهم بحكم رحلاتهم المختلفة، مثل رحلتي الشتاء والصيف إلى الشام واليمن، وقد كان العرب بحكم طبيعتهم البدوية والأمية الغالبة عليهم متشوقين إلى معرفة أخبار الأولين وقصص السابقين، فكانوا لا يترددون في سؤال أهل الكتاب، خاصة وأن جماعات منهم مقيمة بيثرب كانت أقرب إليهم، بالإضافة إلى أن طائفة منهم كانوا قد دخلوا في الإسلام أمثال : وهب بن منبه[2] وكعب الأحبار[3] وعبد الله بن سلام[4] وعبد الملك بن جريج[5] ويرجع ابن خلدون

---

1) منها التوراة وشروحها والزبور وأسفار الأنبياء والتلمود وشروحه وغيرها.

2) وهب بن منبه اليماني الصنعاني. روى عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وابن عمر وابن عباس، أخرج له البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود(ت 114 هـ)، أنظر وفيات الأعيان لابن خلكان 238/2.

3) هو كعب الأحبار الحميري كان من يهود اليمن قدم المدينة أيام عمر بن الخطاب (ض)، أثنى عليه العلماء.وقال فيه ابن حجر في فتحه (285/13) كان من أخيار الأحبار (ت 32 هـ) ترجمته في الإصابة لابن حجر 315/3.

4) أبو يوسف عبد الله بن سلام، أسلم أول ما دخل النبي ﷺ المدينة، كان من أعلم الصحابة بعد إسلامه، شهد له النبي ﷺ بالجنة (ت 43 هـ) ترجمته في الإصابة 320/2.

5) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي مولاهم المكي، محدث حافظ مفسر رومي الأصل، ولد بمكة وقدم العراق ومات بالبصرة، أنظر تذكرة الحفاظ للذهبي 160/1.

الفصل الرابع :

الإسرائيليات وموقف ابن عجيبة منها

تعتبر قضية «الإسرائيليات في التفسير» من أخطر القضايا المتعلقة بالنصوص الشرعية وخاصة منها النص القرآني، وقد طرحت منذ القرون الأولى في ميدان البحث والمناقشة ولا تزال إلى حد الآن، وارتبطت «الإسرائيليات» بالتفسير ارتباطا وثيقا وامتزجت به وتفاقم خطرها بمرور الزمن حيث تم التهاون في أمر محاربتها وبيان فسادها.

والإسرائيليات جمع «إسرائيلية» والنسبة فيها إلى إسرائيل وهو سيدنا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، والإسرائيلية بمعنى القصة أو الأسطورة أو الأحدوثة التي تروى عن مصدر إسرائيلي ويبدو أنها صفة لموصوف محذوف تقديره القصة أو الأسطورة، فحذف الموصول وحلت الصفة محله في المعنى : «وهذه الكلمة قد غلبت على كل ما نقل من اليهودية إلى الإسلام، وما نقل عن الأديان الأخرى إليه ولكنها خصت بهذا الإسم، لأن أغلب ما نقل عن اليهودية والأديان الأخرى كان طريقه أولئك الإسرائيليون».[1]

ولفظ «الإسرائيليات» في اصطلاح كثير من العلماء يطلق على كل ما تسرب إلى حقلي التفسير والحديث من أساطير وقصص وروايات قديمة يهودية أو نصرانية أو غيرهما. وبذلك يتبين أن إطلاق «الإسرائيليات» إنما هو من جانب التغليب للمصدر اليهودي على ما سواه ولكثرته وهيمنته على غيره.

---

1) نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن الكريم للدكتور السيد أحمد خليل ط 1954/1 ص : 37.

الحديث بالمعنى الإطلاع على مراد قول الرسول ﷺ والعمل بمعناه الذي تتحقق به النتيجة ذاتها التي ترجى من العمل بالحديث الأصلي، فإننا نجد ابن عجيبة يشير أحيانا إلى هذا الغرض الذي هو مبتغى الصوفية وديدنهم، فهم لا يقفون عند نفس التعابير والصيغ الحديثية بقدر ما يقفون عند معانيها ومضامينها وما توحي به من إشارات وتلويحات، من ذلك مثلا قوله : «ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يقول : من أصابه هم أو غم فليقل: (الله الله لا أشرك به شيئا) فإن الله يذهب همه وغمه أو كما قال عليه السلام، والحديث صحيح، فانظر كيف دل عليه الصلاة والسلام المقبوض إلى الدواء وهو شهود التوحيد، والغيبة عن الشرك، فدلنا ﷺ على القول والمراد منه المعنى فكأنه قال : اعرفوا الله ووحدوه ينقلب قبضكم بسطا ونقمتكم نعمة».[1]

---

1) إيقاظ الهمم : 125/1.

الأنبياء، لأن كل قصة تنزل على ما يقتضيه المقام والحال من تذكير واختصار وإطناب...»[1] وفي معرض تفسيره لقصة موسى عليه السلام في سورة النمل قال : «واختلاف الألفاظ في هاتين السورتين (أي طه والنمل) والقصة واحدة دليل على نقل الحديث بالمعنى».[2]

وكثيرا ما يروي ابن عجيبة الحديث ويؤكد على أنه إنما ساقه بالمعنى فقط تنبيها للقارئ على ذلك، والتزاما بأمانة النقل والإقتباس والعزو.

فمن ذلك مثلا سوقه لحديث : «مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمن استأجر عمالا إلى آخر اليوم فعملت اليهود إلى الظهر ثم عجزوا ثم عملت النصارى إلى العصر فعجزوا...الحديث، قال ابن عجيبة بعد ذلك : «والحديث في الصحيح نقلته بالمعنى».[3]

والأحاديث التي ينقلها المؤلف بالمعنى لا تختلف عن صيغها الأصلية إلا في بعض الألفاظ وبشكل طفيف، من ذلك مثلا قوله : «وفي الحديث: لو اجتمع الإنس والجن على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قدره الله عليك، أو كما قال عليه السلام»[4] وهو يستعمل في التعبير عند نقله معنى الحديث صيغ المقاربة والمماثلة مثل : «أو كما قال عليه السلام» - «أو كما قال ﷺ» - «أو كما في الحديث». وإذا كان الغرض من رواية

---

1) البحر المديد : 117/2.

2) البحر المديد : 99/3.

3) البحر المديد : 160/3 والحديث رواه البخاري في صحيحه 232/1 (باب من أدرك ركعة من العصر) ونصه : «عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوما يعملون له عملا إلى الليل فعملوا إلى نصف النهار فقالوالا حاجة لنا إلى أجرك فاستأجر آخرين فقال أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا لك ما عملنا فاستأجر قوما فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين».

4) البحر المديد : 24/2.

كهيئة الدخان من الجوع، فجاء أبو سفيان فقال يا محمد حيث تأمر بصلة الرحم فإن قومك قد هلكوا فادع الله يغثنا فدعا لهم... الحديث، وفيه نزل قوله تعالى : ﴿**فارتقب يوم تاتي السماء بدخان مبين**.. الآية﴾[1] وقوله تعالى : ﴿**ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر**.... الآية﴾[2] ومرة أخرى بالمدينة حين استغاثوا به عليه السلام وهو يخطب ولعله هو الذي ذكره ابن عباس في إسلام ثمامة، ولعل قوله فنزلت الآية سهوا لأنها نزلت قبل الهجرة إلا أن تكون الآية مدنية في السورة المكية، وقول ابن جزي : دعا عليهم بعد الهجرة التحقيق أنه دعا عليهم قبل وبعد، وأن هذه الآية فيما كان بعد و الله أعلم».[3]

وقد يستعين ابن عجيبة في ترجيح قول مفسر على آخر بما يؤيد ذلك من أقوال المفسرين الآخرين من ذلك ما جاء في معرض تفسير قوله تعالى: ﴿**وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا**..﴾[4] حيث قال : «وقد فرق السهيلي بأن النبي ﷺ كان بمكة حين نزول آية إبراهيم لأنها مكية فلذلك قال فيه «البلد» بلام التعريف التي للحضور بخلاف آية البقرة[5] فإنما هي مدنية ولم تكن مكية حاضرة حين نزولها فلم يعرفها بلام تعريف الحضور هـ. قال ابن جزي[6] : وفيه نظر لأن ذلك كان حكاية عن إبراهيم عليه السلام ولا فرق بين كونه بالمدينة أو بمكة ه قلت : لا نظر فيه لأن الحق تعالى لم يحك لنا قصص الأنبياء بألفاظهم وإنما ترجم عنها بلسان عربي، فينزل على رعاية مقتضى الحال، وبذلك اختلفت ألفاظ قصص الأنبياء لأن

---

1) الدخان : 10.

2) المومنون : 75.

3) البحر المديد 53/3.

4) إبراهيم : 35.

5) البقرة 126.

6) التسهيل 60/1 عند تفسير آية البقرة.

كل قصة تنزل على ما يقتضيه المقام و الحال من تعريف وتنكير واختصار وإطناب، وقد ذكر أبو السعود[1] في سورة الأعراف ما يؤيد هذا فأنظره و الله تعالى أعلم».[2]

ولا يقتصر أمر الترجيح بين الأقوال عند ابن عجيبة على ما تعلق بالتفسير بالظاهر فحسب بل قد يختص ذلك بالتفسير بالإشارة أيضا، من ذلك مثلا ما جاء عند تفسير قوله تعلى : ﴿**ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله**﴾[3] من بيان لمعنى الشكر فأورد أقوالا مختلفة منها : «وحقيقة الشكر انفتاح عين القلب لشهود ملاطفة الحق، ويقال الشكر تحققك بعجزك عن شكره، ويقال ما به يحصل كمال استلذاذ النعمة، ويقال هو فضلة تظهر على اللسان من امتلاء القلب من السرور فينطق بمدح المشكور، ويقال الشكر نعت كل فتى كما أن الكفران وصف كل لئيم، ويقال الشكر فرع باب الزيادة هـ قلت : والأحسن أنه فرح القلب بإقبال المنعم فيسري ذلك في الجوارح».[4]

وقد يرجح المؤلف قولا على غيره محتجا له بآية قرآنية أو حديث نبوي، من ذلك مثلا ما جاء عند تفسير«اللواقح» من قوله تعالى : ﴿**وأرسلنا الرياح لواقح**...﴾[5] حيث قال : والمختار في تفسير اللواقح أنها حاملة للماء بدليل قوله : ﴿**فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه**﴾.[6]

---

1) تفسير أبي السعود 171/2.

2) البحر المديد 117/2.

3) لقمان : 12.

4) البحر المديد 143/3.

5) الحجر 22.

6) البحر المديد 121/2.

الباب الثاني :

منهجه في التفسير بالمأثور وما يتعلق به

المراد بالتفسير بالمأثور حسب ما سأتناوله بالبحث في الفصل الأول من هذا الباب هو الحديث عن :

1) تفسير القرآن بالقرآن.
2) تفسير القرآن بالحديث النبوي.
3) تفسير القرآن بأقوال الصحابة.
4) تفسير القرآن بأقوال التابعين.

وهذه المباحث الأربعة تشكل ما يعرف بالإتجاه النقلي في التفسير، وهو يعتمد على أفضل الطرق في التفسير التي تحدث عنها ابن تيمية بقوله: «إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان قد فسر في موضع آخر، و ما اختصر في مكان قد بسط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له... وحينئذ إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعت في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك...».[1]

وبالرغم من انشغال ابن عجيبة بجانب التفسير الإشاري واعتداده به واهتمامه بمباحثه وقضاياه اهتماما بالغا فإنه في جانب التفسير بالظاهر لم يغفل قط الإعتناء بجانب التفسير بالمأثور، غير أن الذي يمكن أن يؤخذ عليه في هذا الصدد هو إقلاله من الإهتمام البليغ بجانب تفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالحديث النبوي، في حين توسع في إيراد مأثورات الصحابة والتابعين في تفسير القرآن الكريم.

وبالرغم من عدم توسع ابن عجيبة في جانب التفسير بالمأثور فإن المادة التي ساقها في هذا الإطار تعتبر كافية للقول بأن صوفينا قد خالف مسار كثير من المفسرين الصوفية الذين تنكبوا عن إيراد التفسير بالمأثور

---

1) ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ص : 92-94.

في تفاسيرهم، مقتصرين على جانب التفسير الصوفي.

إن ابن عجيبة من خلال الفصول التالية قد أبان عن اقتناع تام بضرورة اهتمام كل مقبل على تفسير كتاب الله تعالى بالتفسير بالمأثور أولا وقبل كل شيء آخر، إيمانا منه بأن أحسن طرق التفسير ما ورد منه عن طريق المأثورات الثابتة الصحيحة.

وسأتناول من خلال هذا الباب الفصول التالية:

الفصل الأول : التفسير بالمأثور عند ابن عجيبة.

الفصل الثاني : منهجه في عرض القراءات القرآنية والإحتجاج لها في تفسيره.

الفصل الثالث : منهجه في رواية الأحاديث النبوية الشريفة.

الفصل الرابع : الإسرائيليات و موقف ابن عجيبة منها.

الفصل الخامس : المنهج العقدي في تفسير ابن عجيبة.

الفصل الأول :

التفسير بالمأثور عند ابن عجيبة

المبحث الأول :

تفسير القرآن بالقرآن

ذكر ابن عجيبة في «البحر المديد» تفسير القرآن بالقرآن إيمانا منه بأن ما أجمل في مكان قد فسر في مكان آخر، وما اختصر منه في موضع قد بسط وفصل في موضع ثان. وهذه الطريق ضرورية لكل مفسر أراد أن يعرف المراد الحقيقي من الآية الكريمة لأن الله تعالى الذي أنزل القرآن هو أعلم ببيانه ومراده.

وفيما يلي بيان موجز لتفسير القرآن بالقرآن في البحر المديد.

1 – الإستدلال على معنى كلمة مجملة بما فصل في مكان آخر :

وذلك كما جاء في معرض تفسير قوله تعالى ﴿**فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه**﴾[1] فلفظ «كلمات» مجملة لكنها جاءت مفسرة في سورة الأعراف، وقد وظف ابن عجيبة ذلك في تفسيره للكلمات فقال: «فتلقى أي أخذ آدم من ربه كلمات وهي : ﴿**رَبَّنَاظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ**﴾.[2]

---

1) البقرة 37 وانظر البحر المديد 13/1.

2) الأعراف 23.

ومن ذلك ما جاء عند قوله تعالى : ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وأُمَمٍ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] حيث قال : «أي ناشئة ممن معك فقد تشعبت الأمم ممن معه من ذريته، والمراد المومنون بدليل قوله تعالى : ﴿وأمم سنمتعهم في الدنيا﴾.[2]

وجاء عند تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[3] قوله : «أي إلا لنأمرهم بالعبادة والخضوع لربوبيتي، لا لنستعين بهم على شأن من شؤوني كما هي عادة السادات في كسب العبد ليستعينوا بهم على أمر الرزق والمعاش، ويدل على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿ما أريد منهم من رزق﴾.[4]

وفي معرض تفسير قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾[5] قال : «ثم أنشأنا من بعدهم من بعد قوم نوح قرنا أي قوما آخرين هم عاد قوم هود حسبما روي عن ابن عباس ويشهد له قوله ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[6] ومجيء قصة هود على إثر قصة نوح في الأعراف وهود والشعراء.[7]

2 - تعزيز ما ورد في آية بما نص عليه في آيات أخرى :

وذلك بالإشارة إلى أن الآية المستشهد بها تدل على الآية الأولى، كما جاء عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِفَفَزِعَ مَنْ فِي

---

1) هود : 48. وانظر البحر المديد 78/2.

2) نفس الآية السابقة.

3) الذريات 56، وانظر البحر المديد 75/4.

4) نفس الآية السابقة.

5) المؤمنون 31.

6) الأعراف : 69.

7) البحر المديد 49/3.

السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ﴾[1] أي لا يفزع و هو من ثبت الله قلبه، فإن قلنا المراد بها النفخة الثانية فالمستثنى هم من سبقت لهم الحسنى بدليل قوله : ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾[2] وإن قلنا : هي نفخة الصعق فالمستثنى قيل هم جبريل وميكائيل...

وكما جاء في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم...﴾[3] حيث قال «أي واذكر عادا وثمودا، أو وأهلكنا عادا وثمودا يدل عليه قوله تعالى ﴿فأخذتهم الرجفة﴾[4] لأنه في معنى الإهلاك.[5]

3 – الإحالة على الآية المفسرة دون ذكرها :

ومن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿آيتك أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾[6] حيث قال : «أي ألا تقدر على أن تكلم الناس مع القدرة على الذكر ثلاث ليال بأيامهن للتصريح بها في آل عمران» وهو يشير هنا إلى الآية 41 من آل عمران وهي قوله تعالى : ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾ وقد جاء في تفسير ابن عجيبة لها : «أي لا تقدر على كلام الناس ثلاثا فحبس لسانه عن الكلام دون الذكر والشكر ليخلص المدة للذكر والشكر».[7]

---

1) النمل 87 وانظر البحر المديد110/3.
2) الأنبياء 103.
3) العنكبوت 38.
4) العنكبوت 37.
5) البحر المديد129/3.
6) مريم 10.
7) البحر المديد :37/1.

4 - تفسير القرآن بالقرآن في معرض الإشارة :

كما هو الحال عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الجَنَّةَ أورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون**﴾[1] حيث قال : «ونودوا أي نادتهم الملائكة أو الحق تعالى أن تلكم الجنة أي هذه الجنة أورثتموها أي أعطيتموها بما كنتم تعملون، أي بسبب أعمالكم وهذا باعتبارالشريعة. وأما باعتبار الحقيقة فكل شيء منه وإليه ولذلك قال عليه السلام : لن يدخل أحدكم الجنة عمله، قالوا : ولا أنت يا رسول الله، قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»[2] فالشريعة تنسب العمل للعبد والحقيقة تعزله عنه، وقد آذنت به الآية قبل بقوله : ﴿**وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا الله**﴾ فقد نطقوا بما تحققوا به يوم القيامة».[3]

فاتضح إذن من كلام ابن عجيبة أنه إذا كان ظاهر الآية ينسب عمل ابن آدم له فإن باطنها وما قد تشير إليه يدل على عكس ذلك مستشهدا على هذا بالحديث النبوي وبالآية القرآنية اللذين يفهم منهما أن كل ما يقوم به الإنسان من عمل صالح فهو من عند الله وبهدايته.

- وإذا اقترن تفسير الآية بأقوال كثيرة اختار ابن عجيبة أقربها إلى التفسير القرآني معتبرا إياه أقوى وجوه الترجيح للدلالة على معنى الآية، من ذلك مثلا ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ...**﴾[4] حيث ربط تفسير لفظة «اللواقح» بما جاء بعدها فقال بعد أن ذكر أقوالا في معنى اللواقح : «والمختار في تفسير اللواقح أنها حاملة للماء بدليل قوله : ﴿**فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه**﴾، أي جعلناه لكم سقيا».[5]

---

1) الأعراف : 43.

2) أخرجه البخاري في صحيحه 176/8 باب : القصد والمداومة في العمل وأخرجه الإمام أحمد في مسنده264/2.

3) البحر المديد 6/2.

4) الحجر : 22.

5) البحر المديد 121/2.

المبحث الثاني :

تفسير القرآن بالحديث النبوي

تعتبر السنة النبوية شارحة للقرآن وموضحة له، وقد صدرت عن النبي ﷺ أساسا لخدمة القرآن وتبيينه وتوضيحه، ويؤيده قوله عليه السلام : (ألا أني أوتيت الكتاب ومثله معه).[1]

ويتلخص منهج ابن عجيبة في التفسير بالحديث النبوي فيما يلي :

1) أخذه بالقول الموافق للحديث الصحيح عند تعدد المعاني : مثال ذلك ما أورده عند تفسير قوله تعالى : ﴿**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ**...﴾[2] حيث قال : «فمنهم ظالم لنفسه بالتقصير في العمل به وهو المرجو لأمر الله ومنهم مقتصد وهو الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا، ومنهم سابق بالخيرات بأن جمع بين علمه والعمل به وإرشاد العباد إلى اتباعه، وهذا أوفق بالحديث، فقد روي عن عمر (ض) أنه قال على المنبر بعد قراءة هذه الآية : قال رسول الله ﷺ : سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له، وعنه عليه السلام أنه قال : «السابق يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة والظالم يحبس حتى يظن أنه لن ينجو ثم تناله الرحمة فيدخل الجنة»[3] ثم استطرد ابن عجيبة في ذكر أقوال الصحابة والتابعين في الآية (ابن عباس، الربيع ابن أنس، الحسن البصري، ابن عطاء).[4]

---

1) أخرجه أبو داود في سننه 200/4 باب في لزوم السنة وأخرجه الإمام أحمد في مسنده 131/4.

2) فاطر 32.

3) مسند أحمد 194/5. وقد أورده الطبري في تفسيره إلا أنه قال : «وأما الظالم لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الغم والحزن، فذلك قوله : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن» (تفسير الطبري 90/22).

4) البحر المديد.

هكذا إذن يتبين أنه إذا تعددت الأقوال في تفسير الآية وظهر أن بعضها يوافق الحديث فإن ابن عجيبة لا يتوانى في ترجيح التفسير المعزز بالحديث لأنه أقرب إلى المراد والحقيقة.

وقد يرجح المؤلف التفسير الموافق للحديث دون إيراد نص الحديث مكتفيا بالإشارة إلى وجوده، مثال ذلك ما جاء في معرض تفسيره[1] لقوله تعالى : ﴿**ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين**﴾[2] قال : «متمسكين بما فيه حتى يكونوا من الناجين، وهذا التمني قيل يكون عند الموت وقيل في القيامة وقيل إذا خرج العصاة من النار وهذا أرجح لحديث[3] في ذلك».

2 – تفسيره لما أجمل أو أبهم بالحديث :

وذلك كما جاء عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله**﴾[4] حيث قال : «يقول الحق جل جلاله : واذكر يوم ينفخ في الصور وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، عن أبي هريرة (ض) أن رسول الله ﷺ قال : «لما فرغ الله تعالى من خلق السماوات والأرض، خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر حتى يؤمر[5]... وفي حديث آخر فيه (أي في الصور) ثقب بعدد كل روح مخلوقة فيومر بالنفخ فيه، فنفخ نفخة لا يبقى عندها في الحياة أحد غير من شاء الله تعالى،

---

1) البحر المديد 120/2، وانظر أيضا ماجاء في تفسيره بالإشارة لقوله تعالى : ﴿يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾ (البحر المديد 180/3).

2) الحجر2.

3) وهو حديث ابن مسعود، قال : «هذا في الجهنمين إذا رأوهم يخرجون من النار» وانظر مختلف الأحاديث التي أوردها الطبري في تفسيره 3/14-5.

4) النمل : 87.

5) الحديث أورده الطبري في تفسيره 13/20.

وذلك قوله تعالى : ﴿[1]ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾.[2]

وإذا كان قوله تعالى : ﴿وكان يوما على الكافرين عسيرا﴾[3] يبين مدى طول وعسر يوم القيامة على الكفار فإن ابن عجيبة لم تفته الإشارة إلى ذلك اليوم بالنسبة للمومنين مبينا ذلك بحديث رسول الله ﷺ، يقول ابن عجيبة : «وكان يوما على الكافرين عسيرا أي كان ذلك اليوم صعبا شديدا على النفوس بالنسبة للكافرين، وأما على المومنين فيكون يسيرا بفضل الله تعالى، وقد جاء في الحديث أنه يهون يوم القيامة على المومنين حتى يكون أخف عليهم من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا، ففي حديث أبي سعيد الخدري حيث قال رسول الله ﷺ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، قلت يا رسول الله : ما أطول هذا اليوم، فقال عليه السلام : والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المومن حتى يكون أخف عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا، هـ».[4]

3 – سوقه لمجموعة من الأحاديث قصد تعزيز التفسير :

من ذلك مثلا ما جاء عند تفسير قوله تعالى ﴿**وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليهم**﴾[5] حيث عقد مبحثا مختصرا في موضوع الترغيب في النكاح أورد فيه عددا من الأحاديث مسلسلة كما يلي : «قال ﷺ : تناكحوا تكثروا فإني أباهي بكم الأمم حتى بالسقط»[6] وقال عليه السلام : من أحب

---

1) الزمر : 68.

2) البحر المديد 110/3، وانظر تفسير الطبري 14/20.

3) الفرقان : 26.

4) البحر المديد79/3 وانظر تفسير الطبري 5/18، والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده 75/3.

5) النور : 32. وانظر البحر المديد 65/3 وراجع تفسير الطبري 98/18.

6) رواه ابن مردوية في تفسيره من حديث ابن عمر دون قوله حتى بالسقط، وإسناده ضعيف. انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء 98/4.

فطرتي فليستن بسنتي وهي النكاح فإن الرجل يرفع بدعاء ولده من بعده»[1] وقال سمرة (ض) : «نهى النبي ﷺ عن التبتل»[2] وقال عليه السلام : «من كان له ما يتزوج به فلم يتزوج فليس منا»[3] وقال عليه السلام : «من أدرك له ولد وعنده ما يزوجه به فلم يزوجه فأحدث فالإثم بينهما...».[4]

ومن ذلك أيضا ما جاء عند حديثه عن التأمين بعد قراءة الفاتحة حيث نص على مشروعية التأمين عند ختم الفاتحة استنادا إلى مجموعة من الأحاديث سردها الواحد تلو الآخر.[5]

هكذا يتبين إذن أن استشهاد ابن عجيبة بكل هذه الأحاديث فيه تفسير وتعزيز وتأكيد لما ورد في الآية. ولقد أفاد المؤلف من الحديث النبوي في تفسيره من عدة جوانب سأتناولها بإذن الله عند الحديث عن منهجه في رواية الأحاديث النبوية.

---

1) ذكره أبو يعلى في مسنده من حديث ابن عباس وإسناده حسن.

2) أورده صاحب كنز العمال273/16 بروايتين عن سعد وعن سمرة.

3) ذكره في كنز العمال 280/16 وقال : رواه الطبراني عن أبي تجيح.

4) لم أعثر عليه.

5) البحر المديد 6/1 وانظر مثالا آخر في 84/1 عند تفسير قوله تعالى : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس...الآية﴾.

المبحث الثالث :

تفسير القرآن بأقوال الصحابة

أولى ابن عجيبة عناية خاصة بتفسير الصحابة حيث ذكر كثيرا من أقوالهم في بيان ما أجمل أو أبهم من مفردات وآيات القرآن الكريم، ولا غرو في ذلك فهم أقرب الناس إلى فترة تنزل الوحي وبيان النبي ﷺ، له كما أنهم أقدر الناس على فهم حقائقه وسبر أغواره وكشف تأويلاته.

وقد تضمن «البحر المديد» ثروة حافلة من النقول المأثورة عن صحابة رسول الله ﷺ ممن برزوا في تفسير القرآن وعرفوا تأويله. وقد تحدث ابن عجيبة عن تفسير الصحابة في المقدمة السابعة من تفسيره الكبير للفاتحة فقال : «واعلم أن المفسرين على طبقات، فالطبقة الأولى الصحابة رضي الله عنهم وأكثرهم كلاما في التفسير ابن عباس، وكان علي رضي الله عنه يثني عليه في التفسير ويقول : «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق» قال ابن عباس : «وما عندي من تفسير القرآن فهو عن علي رضي الله عنه» ويليهما عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ثم عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمروبن العاص، وكل ما جاء عن الصحابة فهو حسن مقبول».[1]

وإذا كان ابن عباس (ض) (ت68) يأتي في مقدمة هؤلاء فإن ابن عجيبة قد أكثر من النقل عنه في كل موضع يجد فيه نصا عنه اعتبارا لمكانته في التفسير ونظرا لتعويل معظم المفسرين ممن أتى بعده على مروياته. فمن أمثلة ما رواه المؤلف عنه قوله عند الآية الكريمة : ﴿**وجعلنا**

---

1) تفسير الفاتحة الكبير ص 65.

﴿بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا﴾[1] : «أي جعلت بعضكم بلاء لبعض».[2]

وفي معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين﴾[3] قال : وعن ابن عباس : «أن البهيمة إذا اعتلفت وانطبخ العلف في كرشها كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما».[4]

ويأتي في الدرجة الثانية بعد ابن عباس الإمام عبد الله بن مسعود (ت 32) الذي يعتبر من السابقين الأولين إلى الإسلام، فكان من أعلم الصحابة بتفسير كتاب الله تعالى حتى روي عنه أنه قال : «والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته».[5]

ومن أمثلة ما أصدره ابن عجيبة في تفسيره عن ابن مسعود ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا﴾[6] حيث قال: «قال ابن مسعود : الأمة معلم الناس الخير».[7]

أما الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فهو بلا شك أعلم من ابن عباس وابن مسعود لكن كثرت الرواية والنقل عنهما فانتشر وذاع في حين انشغل علي بأمور الخلافة. ويأتي النقل عن علي (ض) في «البحر المديد» على قلة هو وباقي الصحابة، ومن أمثلة ما نقله ابن عجيبة عنه قوله في

---

1) الفرقان 20.

2) البحر المديد 77/3.

3) النحل 66.

4) البحر المديد135/2.

5) الإتقان للسيوطي204/4.

6) النحل 120.

7) البحر المديد 142/2 وانظر تفسير الطبري 129/14.

«الصراط المستقيم»: «وقال سيدنا علي كرم الله وجهه : «الصراط المستقيم هو القرآن[1]، وقال جابر (ض) هو الإسلام[2]».[3]

ويأتي ترتيب باقي الصحابة بعد هؤلاء بحسب الرواية والنقل عنهم كما يلي : أبي بن كعب - زيد بن ثابت - جابر بن عبد الله[4] عبد الله بن عمر[5] - أنس بن مالك[6] وعبد الله بن عمرو.[7]

ولا يعزو ابن عجيبة نقله لمرويات الصحابة في التفسير إلى الكتب التي ساقها منها، بل يكتفي بذكر الأقوال مجردة من كل عزو أو إسناد جريا على صنيع معظم المفسرين المتأخرين.

وفيما يلي نماذج وشواهد من تفاسير الصحابة التي وردت في تفسير ابن عجيبة حسب تنوع المجالات والمناسبات.

1 – في مجال تفسير المفردات والمعاني :

أورد المؤلف تفسير عائشة وابن عباس رضي الله عنهما لقوله تعالى ﴿**وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى**﴾.[8] فقال : «قالت عائشة (ض) هي اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في مالها وجمالها ويريد أن ينكحها بأدنى صداقها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن في إكمال الصداق.

---

1) في تفسير الطبري 57/1 : «عن الحارث عن علي كرم الله وجهه قال الصراط المستقيم كتاب الله تعالى وهذا القول مروي كذلك عن ابن مسعود.

2) في تفسير الطبري 57/1 : «عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله، اهدنا الصراط المستقيم قال: الإسلام، قال هو أوسع مما بين السماء والأرض».

3) البحر المديد4/1.

4) أنظر على سبيل المثال : 4/1.

5) أنظر على سبيل المثال : 150/3

6) أنظر على سبيل المثال : 150/3.

7) أنظر على سبيل المثال : 21/2.

8) النساء 3.

وأمروا أن ينكحوا ما سواهن من النساء- رواه البخاري،[1] وقال ابن عباس[2] (ضما) : إن الرجل منهم كان يتزوج العشرة فأكثر يعني قبل التحريم فإذا ضاق ماله أخذ من مال يتيمه فقال لهم : «إن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى أي في أموالهن فانكحوا ما طاب لكم من النساء...».[3]

وفي معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون**...﴾[4] قال : «وعن ابن عباس : المراد بهذا الفوج أبو جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدي أهل مكة...».[5]

وقد يذكر ابن عجيبة أحيانا أقوال كثير من الصحابة مرجحا إحداها على غيرها كما هو الحال عند تفسير قوله تعالى : ﴿**هذان خصمان اختصموا في ربهم**...﴾[6] حيث قال : «يقول الحق جل جلاله : «هذان خصمان أي مختصمان اختصموا أي فريق المؤمنين والكافرين». وقال ابن عباس (ضما) : «هذا راجع إلى أهل الأديان المذكورة، فالمؤمنون خصم وسائر الخمسة[7] خصم... وكان أبو ذر يقسم أنها نزلت في ستة نفر من قريش تبارزوا يوم بدر حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث مع عتبة وشيبة بن

---

1) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير من صحيحه 68/6.

2) أنظر تفسير الطبري 157/4.

3) البحر المديد 101/1.

4) النمل 83.

5) البحر المديد109/3

6) الحج 19.

7) هؤلاء الخمسة هم الذين هادوا والنصارى والصابئين والمجوس والذين أشركوا، وفي رواية أخرى أوردها الطبري في تفسيره (99/17) : «عن ابن عباس قوله : هذان الخصمان اختصموا في ربهم قال هم أهل الكتاب، قالوا للمومنين نحن أولى بالله منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم. وقال المومنون :نحن أحق بالله آمنا بمحمد ﷺ وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب...»

وقد ذهب الطبري بعد سوقه لجميع الأقوال والروايات إلى ترجيح القول بأن الخصمين هم جميع الكفار من أي أصناف الكفر كانوا وجميع المومنين.

ربيعة والوليد، وقال علي (ض) : إني لأول من يحثو بين يدي الله للخصومة يوم القيامة.»[1] وهكذا تبين ترجيح ابن عجيبة لتفسير ابن عباس، وهو ما ذهب إليه جل المفسرين.

ويرجع المؤلف أحيانا إلى تفسيرات الصحابة للألفاظ أو الأعلام المبهمة. فيوردها على اختلافها دون ترجيح بعضها على البعض، مثال ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين**﴾[2] حيث قال : «قال عبد الله بن مسعود : هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى عليه السلام إلى ملك مدين داعيا إلى الله فرشاه الملك وأعطاه الملك على أن يترك دين موسى ويتابع الملك على دينه ففعل وأضل الناس على ذلك، وقال ابن عباس : وهو رجل من الكنعانيين اسمه بلعام، كان عنده اسم الله الأعظم فلما أراد موسى قتال الكنعانيين وهم الجبارون سألوه أن يدعوا على موسى باسم الله الأعظم فأبى.. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص هو أمية بن أبي الصلت الثقفي وكان قد أوتي علما وحكمة وأراد أن يسلم قبل غزوة بدر ثم رجع عن ذلك ومات كافرا...».[3]

2 – في مجال القراءات القرآنية :

يستشهد ابن عجيبة في بعض الأحيان بقراءات بعض الصحابة للإستعانة بها على توجيه التفسير، مثال ذلك قراءة ابن مسعود : ﴿**النبي أولى بالمومنين من أنفسهم**﴾[4] بزيادة «وهو أب لهم» يقول ابن عجيبة

---

1) البحر المديد 40/3.

2) الأعراف 175.

3) البحر المديد 21/2. وقد أورد الطبري هذا الأثر في تفسيره (83/82/9) ولم يرتضه ورجح أن يكون المعنى حسب ظاهر اللفظ، ولا فائدة من تعيين اسمه والعبرة إنما تكمن في الخاتمة السيئة لمن اغتر بعلمه. وانظر أقوالا أخرى بهذا الصدد في تفسير ابن كثير507/3.

4) الأحزاب 6.

بصدد تفسير الآية : وفي الصحيح عنه عليه السلام[1] : «ما من مومن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم : «النبي أولى بالمومنين من أنفسهم» فأيما مومن هلك وترك مالا فلورثته من كانوا ومن ترك دينا أو ضياعا فليأتني وأنا مولاه».

وفي قراءة ابن مسعود :«النبي أولى بالمومنين من أنفسهم وهو أب لهم»[2] فزيادة «وهو أب لهم» قراءة تفسيرية شاذة لا يصلى بها وليس لها أحكام القراءات المتواترة، وإنما يستأنس بها من أجل إجلاء معنى الآية، وقد يورد ابن عجيبة من قراءات الصحابة ما لا فائدة منه ولا يثبت أمام قراءة الجمهور وذلك كما عند تفسير قوله تعالى : ﴿**والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم**﴾[3] حيث قال بعدما نقل حديث رسول الله ﷺ: «ما طلعت شمس إلا بين قرني الشيطان ولا غربت إلا بين قرني الشيطان، «وقرأ ابن عباس وابن مسعود : تجري لا مستقر لها، ومعناها أنها جارية أبدا لا تثبت في مكان وقراءة الجماعة أوفق بالحديث.[4] وكثيرا ما يستأنس ابن عجيبة بقراءات ابن مسعود لتوجيه معنى من معاني التفسير. ففي معرض تفسير قوله تعالى: ﴿**وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين**﴾[5] قال :«ومن قرأ بالجر فعطف على ثمود أي وفي قوم نوح آية ويؤيده قراءة عبد الله : وفي قوم نوح من قبل. «أي من قبل هؤلاء المذكورين.[6]

---

1) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير من صحيحه 210/6.

2) البحر المديد 153/3 وانظر تفسير الطبري 77/21.

3) يس 38.

4) البحر المديد 189/3.

5) الذرايات 46.

6) البحر المديد74/4، وفي تفسير الطبري 5/27 بعد ذكره للقراءتين : «فأيتهما قرأ القارئ فمصيب،وتأويل ذلك في قراءة من قرأه خفضا: وفي قوم نوح لهم أيضا عبرة إذ أهلكناهم من قبل ثمود لما كذبوارسولنا نوحا أنهم كانوا قوما فاسقين، يقول إنهم كانوا مخالفين أمر الله خارجين عن طاعته»

ولدى تفسير قوله تعالى : ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت﴾[1] قال : «وإنما قيدنا الأخ والأخت بكونهما للأم، لأن الأخ الشقيق أو للأب سيأتي في آخر السورة[2]، و الأخت تقدم أن لها النصف[3]، وأيضا قد قرأ سعد بن أبي وقاص وابن مسعود وله أخ أو أخت لأم.[4]

3 - في مجال الأحكام الفقهية :

أسهم الصحابة رضوان الله عليهم من خلال أقوالهم ومروياتهم في إثراء الرصيد الفقهي لدى المسلمين. ويمكن القول بأن ما أثر عنهم في الموضوع ذو أهمية بالغة على اعتبار أن المرحلة التأسيسية لكل علم تشكل الأساس الرئيسي في تطور ذلك العلم.

ويمكن بذلك التأكيد على أن مختلف فقهاء الأمة واجتهاداتهم إنما هي مبنية في الأصل على أقوال وآثار الصحابة والتابعين، والمتصفح لتفسير الطبري تتبين له تلك الثروة الفقهية الحافلة المسندة في جلها إلى فقهاء الصحابة ومن تبعهم.

وبالرغم من أن ابن عجيبة لم يحفل في تفسيره بالناحية الفقهية كما سوف نرى فيما بعد فإنه قد أورد أحيانا مجموعة من الآراء الفقهية لبعض الصحابة لدى تفسيره لآيات الأحكام.

وتأتي أقوال وآراء ابن عباس (ضما) في الصدر الأول، وفقه هذا الصحابي الجليل معروف، فهو صاحب مدرسة مستقلة من مدارس الفقه الإسلامي، تكاد تستند إليها معظم الإتجاهات الفقهية، لذا نجد تردد عبارة (مذهب ابن عباس) في تفسير ابن عجيبة. كما في المثال التالي عند تفسير

---

1) النساء 12.

2) هو قوله تعالى : ﴿وإن كانوا إخوة رجالا ونساءا فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ النساء 176 (البحر المديد 134/1).

3) البحر المديد 103/1.

4) البحر المديد 104/1 وانظر تفسير الطبري 194/4.

قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم**﴾[1] حيث يقول : عدد الحق تعالى ما يجب في قتل الصيد فذكر أولا الجزاء من النعم ثم الطعام ثم الصيام. ومذهب مالك والجمهور أنها على التخيير، وهو الذي يقتضيه العطف بأو، ومذهب ابن عباس أنها مرتبة».[2]

وقد يورد ابن عجيبة أقوالا كثيرة للصحابة ثم يرجح بينها بما يظهر له ملائما لسياق الآية وتفسيرها، فعند قوله تعالى : ﴿**ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس**﴾[3] قال في معرض تفسيره ليمين اللغو : هو ما يجري على اللسان من غير قصد كقول الرجل في مجرى كلامه، لاوالله وبلى والله، قاله ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما، وبه قال الشافعي، وقال أبو هريرة والحسن وابن عباس فيأحد قوليه هو أن يحلف على ما يعتقده فيظهر خلافه، وبه قال مالك رضي الله عنه، والأول أليق بقوله تعالى : ﴿**ولكن يواخذكم بما كسبت قلوبكم**﴾.[4]

وقد يستطرد المؤلف في ذكر الخلاف الفقهي مازجا أقوال الصحابة باجتهادات أئمة الفقه المتبوعين، فيقارن بينها مرجحا ومعلقا، فلدى تعرضه لمسألة حكم القصر في صلاة السفر عند قوله تعالى : ﴿**وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم...**﴾[5] قال : «فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة الرباعية إلى ركعتين، ونفي الجناح يقتضي أنها رخصة، وبه قال الشافعي ويؤيده أنه عليه الصلاة والسلام أتم في السفر وأن عائشة رضي الله عنها قالت : يارسول الله

---

1) المائدة 95.

2) البحر المديد 153/1. وأورد الطبري في تفسيره34/7 رواية عن ابن عباس أنه قال : «إذا أصاب المحرم الصيد حكم عليه جزاؤه من النعم فإن وجد جزاءه ذبحه فتصدق به وإن لم يجد جزاءه قوم الجزاء دراهم ثم قومت الدراهم حنطة ثم صام مكان كل صاع يوما قال : إنما أريد بالطعام الصوم فإذا وجد طعاما وجد جزاء»

3) البقرة 224.

4) البحر المديد 51/1 وانظر تفسير الطبري 237/2.

5) النساء 101.

قصرت وأتممت وصمت فأفطرت، فقال : سننت يا عائشة. وأوجبه أبو حنيفة لقول عمر (ض) : صلاة السفر ركعتين تمام غير قصر على لسان نبيكم، ولقول عائشة وعثمان رضي الله عنهما، والجمهور على عدم شرطه، وإنما ذكره الحق تعالى لكونه غالبا في ذلك الوقت... وليس في الآية ما يدل على تحديد المسافة التي تقصر فيها الصلاة... ومذهب مالك والشافعي أن المسافة أربعة برد، واحتجا بآثار عن ابن عمر وابن عباس، وقال ابن عباس: ستة برد...».

المبحث الرابع :

تفسير القرآن بأقوال التابعين

لما كان التابعون رضوان الله عليهم قد تلقوا العلم، وخاصة منه التفسير على جهابذة الصحابة وحملوه عنهم بكل أمانة، كانت لأقوالهم وآرائهم في مجال التفسير - والتي تمثل رصيدا هائلا وثروة حافلة يعتد بها - أثر كبير في اتجاهات التفسير المختلفة التي نهلت بدورها من مدارس التابعين التفسيرية والتي حملت كل واحدة منها طابع رائدهاالصحابي المفسر. فكان بمكة مدرسة ابن عباس (ضما) وبالمدينة مدرسة أبي بن كعب، وبالعراق مدرسة ابن مسعود.

وقد تحدث ابن عجيبة عن مفسري التابعين المنتمين لهذه المدارس فقال : «والطبقة الثانية التابعون، وأحسنهم كلاما في التفسير الحسن البصري وسعيد بن جبير ومجاهد مولى ابن عباس وعلقمة صاحب عبد الله بن مسعود، ويتلوهم عكرمة وقتادة والسدي والضحاك ومزاحم أبو صالح وأبو العالية...».[1]

ومما يلاحظ من خلال «البحر المديد» إيراد ابن عجيبة لكثير من أقوال التابعين دون نسبتها إليهم موردا إياها بعبارة «روي» و«قيل» وغير ذلك مما بينه الطبري في نفسيره وغيره منسوبا إلى التابعين، مثال ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى : ﴿**وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن ياتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم**﴾[2] حيث قال : «فيه سكينة من ربكم أي فيه ما تسكن إليه قلوبكم وتثبت عند الحرب وكانوا يقدمونه أمامهم فلا ينفرون

---

1) تفسير الفاتحة الكبير ص 65.

2) البقرة 248.

وينصرون على عدوهم، وقيل كان فيه صور الأنبياء من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، وقيل كانت فيه طست من ذهب غسلت فيه قلوب الأنبياء عليهم السلام وهي السكينة».[1]

أما قوله «وقيل كانت فيه صور الأنبياء من آدم عليه السلام إلى محمدﷺ فهو مما لم أعثر على نسبته إلى أحد من السلف في تفسير الطبري او تفسير ابن كثير ويبدو أن ابن عجيبة قد نقل هذا القول عن البيضاوي في تفسيره.[2] أما التفسير الثاني : قيل كان فيه طست... فقد أورده ابن جرير الطبري منسوبا إلى السدي،[3] غير أن ابن عجيبة قد رجح قولا ثالثا لم ينسبه إلى أحد. وهو قوله : فيه سكينة من ربكم، أي فيه ما تسكن إليه قلوبكم» وقد رجح الطبري هذا القول في تفسيره ونسبه إلى عطاء بن أبي رباح.[4]

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل**﴾.[5] أورد ابن عجيبة رواية عن ابن عباس (ضما) ثم قفاها بروايتين غير منسوبتين فقال : «روي أن ملكا جاءه على فرس بيده عنزة فانطلق به إلى مدين، وروي أنه خرج بلا زاد ولا درهم ولا ظهر ولا حذاء أي نعل ولم يكن له طعام إلا ورق الشجرفما بلغ مدين حتى وقع خف قدمه...».[6]

وقد أورد الطبري القول الأول منسوبا إلى السدي[7] في حين نقل القول الثاني عن ابن إسحاق ونسب جزءا منه لسعيد بن جبير.[8]

---

1) البحر المديد 55/1.

2) تفسير البيضاوي : 253/2.

3) تفسير الطبري 386/2 والمحرر الوجيز 259/2 وتفسير ابن كثير 301/1.

4) تفسير الطبري 387/2.

5) القصص 22.

6) البحر المديد115/3.

7) تفسير الطبري 34/20.

8) المصدر السابق : نفس الجزء والصفحة.

وإذا كان ابن عجيبة قد ذكر بعض أقوال التابعين غير منسوبة إليهم، فإنه في معظم الأحيان يذكرها منسوبة إليهم. وقد تضمن «البحر المديد» كثيرا من آثار التابعين في مجال التفسير مما يعتبر مصدرا هاما من مصادره التفسيرية إلى جانب أقوال الصحابة. وفيما يلي بعض الأمثلة من آثار التابعين مرتبة حسب المدارس المعروفة.

أولا : مدرسة التفسير بمكة :

1 - مجاهد بن جبر المكي (ت 104) :

ويعتبر من أبرز أئمة التابعين في التفسير، لازم ابن عباس طويلا وعرض عليه القرآن أكثر من ثلاثين مرة، قال فيه الإمام الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به»[1] وقدساهم مجاهد في تفسير كثير من آيات القرآن مما جعل بعض الباحثين المحدثين يجمع كل مروياته في التفسير في كتاب مطبوع. ويعتبر تفسير الطبري أهم مصدر يمكن الرجوع إليه للاطلاع على تلك المرويات وما أثر عن باقي التابعين.

وقد نقل ابن عجيبة كثيرا من أقوال مجاهد في التفسير نذكر منها :

ما جاء في تفسير لهو الحديث من قوله تعالى : ﴿**ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله**﴾[2] حيث أورد قول مجاهد : «يعني شراء القينات والمغنين، أي يشتري ذات لهو أو ذا لهو الحديث».[3]

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم**﴾[4] أورد ابن عجيبة عدة أقوال لبعض

---

1) نفس المصدر 30/1 وانظر التفسير والمفسرون للذهبي 110/1.

2) لقمان 6.

3) البحر المديد 142/3، وانظر تفسير الطبري 40/21 حيث أورد روايات كثيرة عن مجاهد في معنى شراء لهو الحديث وكلها بمعنى الغناء.

4) الفتح 20.

الصحابة والتابعين منهم مجاهد وقد قال في معنى الآية «هي ما فتحوا حتى اليوم»، إلا أن ابن عجيبة عقب على ذلك كله بقوله : «قلت بل إلى يوم القيامة، وهذا أظهر الأقوال، أي لم تقدروا على أخذها الآن وستأخذونها في أوقاتها المقدرة لها»[1]، وهكذا، يتبين أن ابن عجيبة لا يكتفي دوما بسرد أقوال التابعين دون ترجيح أو تضعيف ما دامت مروياتهم لا تعتبر حجة إلا في حالة إجماعهم على تفسير بعينه يخلو من النظر والرأي.[2]

2 – عطاء بن أبي رباح (ت 114) :

يعتبر عطاء من كبار أئمة التابعين وفقهائهم، روى عن ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن الزبير وأبي هريرة وغيرهم، وكان ابن عباس (ضما) يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه : «تجتمعون إلي يا أهل مكة وعندكم عطاء».[3]

ومن أمثلة ما ساقه ابن عجيبة من مرويات عطاء، ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى**﴾،[4] حيث أورد قول عطاء : أن الملك الموكل بالرحم ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه العبد فيذره على النطفة فتخلق من التراب ومن النطفة».[5]

---

1) البحر المديد 53/4.

2) أنظر مقدمة ابن تيمية في التفسير ص 102 ومقدمة تفسير ابن كثير1/15 والإتقان للسيوطي 241/2 أما الطبري في تفسيره 56/25. فقد رجح قول مجاهد ورأى أنه أولى الأقوال بالصواب.

3) تذكرة الحفاظ للذهبي 98/1.

4) طه 55.

5) البحر المديد 16/3.

3 – **عكرمة مولى ابن عباس** (ت 107) :

هو القائل : «كل شيء أحدثكم عنه في القرآن فهو عن ابن عباس» وكيف لا يكون كذلك وقد عاشفي أحضانه ونهل من معينه. وأثر عن الشعبي أنه قال : «ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة».[1]

وفي تفسير ابن عجيبة نقول قليلة عن عكرمة، منها ما أورده في تفسير قوله تعالى : ﴿**ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**﴾[2] من قول عكرمة : «أفلحت نفس زكاها الله وخابت نفس أغواها الله»[3] ومن ذلك أيضا ما ساقه عند تفسير قوله تعالى : ﴿**فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون**﴾[4] حيث قال : «عكرمة : ليس الويل لمن منع هذه الأشياء وإنما الويل لمن جمعها فرياء في صلاته وسهو عنها ومنع هذه الأشياء».[5]

4 – **سعيد بن جبير** (ت 95) :

يعتبر من أعلم التابعين وسادتهم ومن أنجب تلامذة ابن عباس (ضما)، يروى عن قتادة أنه قال : «كان أعلم التابعين أربعة : كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير وكان عكرمة أعلمهم بالسير وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام».[6]

وقد أصدر ابن عجيبة في تفسيره عن سعيد بن جبير وروى بعض أقواله، منها ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى**

---

1) تهذيب التهذيب لابن حجر 263/7 - 273 وانظر التفسير والمفسرون 112/1.

2) الشمس 9.

3) البحر المديد 205/4.

4) الماعون 4-5.

5) البحر المديد139/4.

6) تهذيب التهذيب 13/4 وانظر التفسير والمفسرون 108/1.

الله توبة نصوحا﴾[1] حيث أورد أقوال السلف في معنى التوبة النصوح ومنها قول سعيد بن جبير : «هي التوبة المقبولة ولا تقبل إلا بثلاثة شروط: خوف ألا تقبل منه ورجاء أن تقبل وإدمان الطاعة».[2]

ولدى تفسير قوله تعالى : ﴿**وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين**﴾[3] قال : قال سعيد بن جبير : «لما ذكر ابن عباس هذا الحديث قال له نافع بن الأزرق كيف يبصر الماء تحت الأرض ولا يبصر الفخ فيقع فيه، قال ابن عباس: ويحك إذا جاء القدر حال دون البصر».[4]

ثانيا : مدرسة التفسير بالمدينة :

1 – محمد بن كعب القرظي (ت 108) :

روى عن جلة الصحابة كابن عباس وعلي وابن مسعود وغيرهم، قال عنه عوف بن عبد الله : «ما رأيت أحدا أعلم بتأويل القرآن من القرظي».[5] وقد جاءت مروياته في تفسير ابن عجيبة قليلة جدا، ومن أمثلة ما نقله عنه ما جاء في تفسير الثرى عند قوله تعالى : ﴿**له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى**﴾[6] من قول محمد بن كعب : «إنه ما تحت الأرضين السبع».[7]

---

1) التحريم 8.

2) البحر المديد 139/4.

3) النمل 20.

4) البحر المديد 102/3 وأورد الطبري في تفسيره 89/19 هذه الرواية بطولها، وفي آخرها : «فقال له نافع بن الأزرق، قف يا وقاف أرأيت قولك الهدهد يجيء فينقر الأرض فيصيب الماء كيف يبصر هذا ولا يبصر الفخ يجيء حتى يقع في عنقه، قال فقال له ابن عباس : ويحك إن القدر إذا جاء حال دون البصر.

5) ابن الجزري : غاية النهاية 233/2 .

6) طه 6.

7) البحر المديد 12/3 وانظر الطبري 105/16.

2 - أبو العالية رفيع بن مهران (ت 93) :

قرأ القرآن على أبي بن كعب وسمع من عمرو ابن مسعود وعائشة وعلي رضي الله عنهم كان يقول : «كان ابن عباس يرفعني على سريره وقريش أسفل منه يقول : هكذا العلم يزيد الشريف شرفا ويجلس المملوك على الأسرة».[1]

وتعتبر نقول ابن عجيبة عن أبي العالية جد نادرة، ومما نقله عنه ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾[2] حيث قال : «وقال أبو العالية : إلا ما أريد به وجه الله من علم وعمل فإنه لا يفنى».[3]

ثالثا : مدرسة التفسير بالعراق :

1 - الحسن البصري (ت 110) :

روى عن جمع كبير من الصحابة كابن عباس وعلي وابن عمر وغيرهم، كان زاهدا ورعا اعتبره معظم الصوفية مصدرا أساسيا من مصادر المعرفة الصوفية ولذلك فهو يشكل حلقة أساسية في سلسلة أسانيدهم الصوفية، وهذا ما جعل ابن عجيبة يعتمد عليه كثيرا ويستشهد بأقواله، ويروي كثيرا من مروياته في التفسير والقراءات.

من ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة**﴾[4] حيث قال : «وقال الحسن : الحسنة في الدنيا العلم والعبادة وفي الآخرة الجنة».[5]

---

1) تذكرة الحفاظ للذهبي 62/1.

2) القصص 88.

3) البحر المديد 124/3.

4) البقرة201.

5) البحر المديد 45/1 وانظر تفسير الطبري175/2.

وقد ينقل ابن عجيبة قول الحسن ثم يرجح قول غيره. من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿**لا يواخذكم الله باللغو في إيمانكم**﴾[1] حيث قال: «اللغو هو ما يجري على اللسان من غير قصد كقول الرجل في مجرى كلامه: لا والله وبلى والله، قاله ابن عباس وعائشة (ضما) وبه قال الشافعي، وقال أبو هريرة والحسن وابن عباس في أحد قوليه هو أن يحلف على ما يعتقد فيظهر خلافه وبه قال مالك (ض)، والأول أليق بقوله تعالى: ﴿**ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم**﴾.[2]

2 – قتادة بن دعامة السدوسي (ت 118) :

روى عن أنس بن مالك وأبي الطفيل وغيرهما من صغار الصحابة، كما روى عن ثلة من التابعين كعكرمة وسعيد بن المسيب: كان إماما في التفسير حافظا، واعيا، روي عنه أنه قال : «ما قلت لمحدث قط أعد علي، وما سمعت أذناي قط شيئا إلا وَعاه قلبي.[3]

ومن أمثلة ما نقله عنه ابن عجيبة ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**حتى إذا أتياأهل قرية استطعما أهلها**﴾[4] من قول قتادة «شر القرى التي لا يضاف فيها الضيف ولا يعرف لابن السبيل حقه».[5]

وفي معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني**﴾[6] قال : «قال قتادة : ملاحة كانت في عيني موسي ما رآه أحد إلا عشقه».[7]

---

1) البقرة 225.

2) البحر المديد 51/1 وانظر تفسير الطبري 246/2.

3) الذهبي : تذكرة الحفاظ 123/1.

4) الكهف 77.

5) البحر المديد 167/2 وانظر تفسير الطبري 186/15.

6) طه 39.

7) البحر المديد 14/3.

3 – **الضحاك** (ت 102 هـ) :

مما أصدره عنه ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾[1] حيث قال : «وقال الضحاك : كل شيء هالك إلا الله والجنة والنار والعرش».[2]

ويقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿**يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم**﴾[3]، «وقال الضحاك : يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون»[4] ويقول أيضا في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**لا تبقي ولا تذر**﴾[5] وقال الضحاك : إذا أخذت فيهم لم تبق منهم شيئا وإذا أعيدوا لم تذرهم حتى تفنيهم، ولكل شيء فترة وملالة إلا جهنم».[6]

4 – **سعيد بن المسيب** (ت 94 هـ) :

سيد التابعين وفقيههم، وهو أحد الفقهاء السبعة المشهورين، قال عنه علي بن المديني : «لا أعلم في التابعين أوسع علما منه»[7] وفي تفسير ابن عجيبة نقول يسيرة عنه منها ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا**﴾[8] حيث قال : قال ابن المسيب: لا أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة : واحد من فضة وآخر من ذهب وآخر من لؤلؤ، ويختلف ذلك باختلاف الأعمال، فبعضهم يحلى بالفضة وبعضهم بالذهب وبعضهم باللؤلؤ».[9]

---

1) القصص 88.

2) البحر المديد 124/3.

3) الأحقاف 31.

4) البحر المديد 41/4.

5) المدثر 28.

6) البحر المديد 166/4.

7) تهذيب التهذيب 84/4.

8) الإنسان 21.

9) البحر المديد 173/4.

الفصل الثاني :

منهجه في عرض القراءات القرآنية والإحتجاج لها في تفسيره

تمهيد :

يعتبر علم القراءات من العلوم ذات الإتصال الوثيق بالتفسير، إذ أن اختلاف القراءات يساعد على توضيح المعنى المراد، كما أن بعضها يضيف للآية القرآنية معنى جديدا مستقلا يستنبط منه حكم جديد.

وقد تحدث ابن عجيبة عن علم القرآت القرآنية في المقدمة الثالثة من تفسيره الكبير للفاتحة.[1] واستهل ذلك بعرض أسباب جمع القرآن وما ورد في ذلك من أحاديث، ثم استعرض أهم الخلاف الوارد في سبب اختلاف الروايات انطلاقا من حديث : «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ماتيسر منه» ورتب الكلام عن ذلك في النقاط التالية :

–حكمة ورود القرآن على سبعة أحرف التي هي التخفيف على هذه الأمه وإرادة اليسر بها.

– قيل إن المراد بها سبعة أوجه من المعاني نحو : أقبل وتعال وعجل وأسرع، وقيل إن هذا الحديث من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

– هل اشتملت المصاحف العثمانية على جميع الأحرف السبعة أو على بعضها ؟ وقد أورد ابن عجيبة بعض الخلاف الوارد في المسألة ثم

---

1) تفسير الفاتحة الكبير ص 37-45.

أعقبه بقوله : «ومما يدلك على أن اجتماعهم على حرف واحد وترك الأحرف الباقية مع صحتها وتواترها إنما كان لخوف الإفتراق والتنازع والهرج أن كثيرا من الصحابة لم يرجعوا عن قراءتهم التي سمعوها من رسول الله ﷺ لأنهم علموا أن ذلك الإجتماع إنما كان سببه خوف الهرج والإختلاف والله أعلم.

– هل القراءات التي يقرأ بها اليوم في كل الأمصار جميع الأحرف السبعة أو بعضها، وقد أجاب عن هذا القول بقوله : «التحقيق أنه بعضها وهو ما يحتمله رسم المصاحف العثمانية لأنهم يشترطون في صحة ما يقرأون به اليوم موافقة أحد المصاحف العثمانية وصحة الرواية ووجه العربية...».

– في حقيقة اختلاف القراءات السبع وفائدته، وقد أكد ابن عجيبة في هذا الصدد أنه اختلاف تنوع وتغاير وليس اختلاف تضاد وتناقض، أما فائدة هذا الإختلاف فيذكر منها :

أ) ما في ذلك من نهاية البلاغة وكمال الإعجاز مع غاية الإختصار، إذ كل قراءة بمنزلة آية، وتنوع اللفظ في كلمة يقوم مقام آيات، ولو جعلت مكان دلالة كل لفظ آية على حدة لم يخف ما في ذلك من التطويل.

ب) منها ما في ذلك من عظيم البرهان وواضح الدلالة، إذ مع كثرة هذا الإختلاف لم يتطرق إليه تضاد ولا تناقض، بل كل يصدق بعضه بعضا ويبينه ويشهده.

ج) منها سهولة حفظه وتيسير نقله، فإن حفظ كلمة ذات أوجه أسهل وأقرب من حفظ كلمات تؤدي معاني تلك القراءات لا سيما ما اتفق خطه فإنه أسهل حفظا وأيسر لفظا.

ثم استعرض ابن عجيبة بعد ذلك أسماء أبرز قراء الصحابة والتابعين ومن تبعهم حسب الأمصار التي حلوا بها، ثم أشار إلى أنه لما قل الضبط واتسع الخرق اقتصر الناس على القراء العشرة مع صحة قراءات غيرهم ممن

كانوا في عصرهم فذكر أسماءهم وأسماء راويين لكل قارئ مع الإحالة على كتابه «الدرر المتناثرة في توجيه القراءات المتواترة» الذي استوفى فيه ذكر مختلف الطرق والروايات مع التنصيص على أسانيدها.

أما في تفسيره «البحر المديد» فقد التزم المؤلف إيراد مختلف القراءات العشر المتواترة، لكنه لم يتوسع في ذلك كثيرا، فقد كان هدفه الأساسي هو توظيف القراءة في بيان المعنى وتعزيز الإعراب وكذا في الشرح والإيضاح، وذلك قصد الإستعانة بها من أجل بلوغ مختلف مستويات المعنى في التفسيروالتأويل، وهو كثيرا ما يحتج لها بما يفيد معناها ويعللها من القرآن، ولقد كانت له نظرات موفقة وآراء سديدة في توجيه القراءات المتواترة من جهة والشاذة أحيانا من جهة أخرى.

وفيما يلي إبراز لبعض ملامح الجهد الحقيقي الذي بذله ابن عجيبة في ميدان القراءات عرضا وتوجيها واحتجاجا، وذلك من خلال المباحث التالية :

المبحث الأول : موقف ابن عجيبة من القراءات المتواترة.

المبحث الثاني : موقفه من القراءات العشر.

المبحث الثالث : موقفه من القراءات الشاذة.

المبحث الأول :

موقف ابن عجيبة
من القراءات المتواترة

لقد عمل ابن عجيبة على إبراز ما تستند إليه القراءة الصحيحة من القوة والرجحان معتمدا في التمكين لها على تبيان مرجحات تلك القراءة مع التسليم بصحة القراءة الأخرى الصحيحة إن وجدت. فقد يميل اختياره إلى قراءة معينة لكنه لا يبرز ذلك الإختيار إلا بعد عرضه لمختلف الوجوه الصحيحة.

1 – في معظم الحالات نجد ابن عجيبة لا يوضح لنا تلك المرجحات بتفصيل كما فعل كثير من المفسرين، بل يكتفي غالبا بالإشارة المقتضبة الدالة على وجه الإختيار، وهذا راجع كما أسلفنا إلى أن المؤلف في عرضه لمختلف وجوه القراءات لا يشير لها إلا بقدر ما يعينه على التفسير فقط.

وفيما يلي مثال بارز على ذلك فهو عندما تعرض لقوله تعالى : ﴿**ملك يوم الدين**﴾[1]، اكتفى بذكر الإختلاف الوارد في الآية باقتضاب في حين تعرض لذلك في كتابه «تفسير الفاتحة الكبير» بكثير من التفصيل والتبسيط. يقول المؤلف في «البحر المديد» : «ومالك نعت لما قبله قراءة الجماعة بغير ألف من الملك بالضم وقرأ عاصم والكسائي بالألف من الملك بالكسر. والتقدير على هذا مجيء يوم الدين أو مالك الأمر يوم الدين، وقراءة الجماعة أرجح لثلاثة أوجه :

---

1 الفاتحة 4.

الأول : الملك أعظم من مالك إذ يوصف كل أحد بالمالك لماله وأما الملك فهو سيد الناس.

الثاني قوله : «وله الملك يوم ينفخ في الصور».[1]

الثالث : إنها لا تقتضي حذفا، والحذف خلاف الأصل.

وقد رويت القراءات أي القصر والمد عن النبي ﷺ. وقد قرئ ملك بوجوه كثيرة تركنا ذكرها».[2]

وفي تفسير الفاتحة الكبير أفاض ابن عجيبة في ذكر حجج كلا الفريقين فقال :[3] «اختلف القراء في ملك فقرأ الكسائى وعاصم ويعقوب بالمد، قال الثعلبي : وهي قراءة النبي ﷺ في إحدى الروايات وأبي بكر وعمر وعثمان بن طلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وغيرهم، وقرأ الباقون من القراء العشرة بالقصر وهي قراءة زيد بن ثابت وابن عمر وأبي الدرداء... وغيرهم، فوجه المد أنه من الملك بالكسر وهو التصرف في الأعيان المملوكة كيف شاء...قال الأخفش والأصمعي وأبو الهيثم[4] : مالك أوسع وأجمع وأمدح. ألا ترى أنه يقال : الله مالك الطيور والوحوش والدواب وكل شيء ولا يقال ملك كل شيء ثم استطرد المؤلف متوسعا في ذكر حجج هذا الفريق، بعد ذلك انتقل إلى ذكر حجج الفريق الآخر فقال : «قال أبو عبيد[5] الذي أختاره القصر لأن الإسناد فيها عن النبي ﷺ أثبت ومن قرأها من أهل العلم أكثر وهي مع هذا في المعنى أقوى

---

1) الأنعام 73.

2) البحر المديد 2/1.

3) تفسير الفاتحة الكبير.

4) أنظر : الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب 1983 11/1. والكشف لمكي بن أبي طالب 29/1.

5) هو أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي الحافظ الكبير، صاحب التصانيف المهمة في القراءات والحديث والفقه، له اختيار في القراءة، توفي عام 224. أنظر طبقات القراء 17/2 وميزان الإعتدال317/3.

لقوله تعالى: ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾[1] و﴿الملك القدوس﴾[2] و﴿ملك الناس﴾[3] و﴿لمن الملك اليوم﴾.[4] ولم يقل : لمن الملك بالكسر، ولأن ملكا أمدح من مالك فإن الملك قد يكون مالكا، وهما لغتان فصيحتان مرويتان عنه ﷺ، قلت : ومما يرجح قراءة القصر أن الأولى تحتاج إلى حذف أي مالك الأمر أو مجيء يوم الدين بخلاف الثانية...» ثم استطرد مرة ثانية في ذكر وجوه الإختلاف الأخرى مما لم يذكره في «البحر المديد».

هكذا يورد ابن عجيبة احتجاج العلماء والنحاة لكل من القراءتين المتواترتين (ملك) و(مالك)، فعرض لاحتجاج الأخفش والأصمعي لقراءة (مالك) معززا ذلك بمرجحات من القرآن واللغة ثم تعرض بعد ذلك لمستند الفريق الثاني الذي احتج لقراءة (ملك) موردا حججه.

وقبل أن يختار ابن عجيبة أحد الوجوه ويميل إليه نجده يعتمد موقف عدم جواز تخطئة أية قراءة متواترة يمكن حملها على وجه صحيح في العربية، فنص على أن القراءتين (ملك) و(مالك) لغتان فصيحتان مرويتان عن النبي ﷺ. وهذا ما سار عليه في كثير من الآيات التي ورد اختلاف القراءات في بعض ألفاظها.

وإذا كان ابن عجيبة قد أورد في بحره ثلاثة وجوه لترجيح قراءة «ملك» وهي قراءة نافع التي بنى عليها تفسيره فإن ذلك لا يعني أبدا مجرد ميل لقراءة نافع لأنها قراءة المغاربة، وإنما كان اختياره نابعا من اقتناع بأرجحية القراءة لما سبق أن ذكر من مرجحات مع التسليم بالمقابل بتواتر القراءة الأخرى وصحتها، وقد رجح ابن عجيبة قراءات غير نافع في كثير من الأحيان.

---

1) طه 114 والمومنون 116.

2) الحشر 23.

3) الفاتحة 4.

4) غافر 16.

2 – وإذا كان المؤلف قد انطلق في تفسيره من قراءة نافع متبعا في تفسيره للفظة القرآنية ما تشير إليه تلك القراءة فإننا نجده في معظم الحالات لا ينص على قراءة نافع ومن قرأ معه بها بل يكتفي بذكر القراءات الأخرى والذين قرأوا بها.

فمثلا عند تفسير قوله تعالى : ﴿**قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح**﴾[1] قال : «وقرأ الكسائي ويعقوب عمل بلفظ الماضي أي عمل عملا فاسدا استحق به البعد منك أو أنه أي سؤالك عمل غير صالح، ويقوي هذا قراءة ابن مسعود إنه عمل غير صالح أن تسئلني ما ليس لك به علم، وقراءة الجماعة فلا تسئلن ما ليس لك به علم أصوب».[2]

يلاحظ إذن أن ابن عجيبة لم ينص على قراءة نافع ومن معه للفظة «عمل» بفتح الميم وضم اللام منونة ورفع غير، بل اكتفى بذكر القراءة الأخرى دون الوقوف عند منبع الإختلاف الذي هو الضمير في «إنه» والذي هو عند الجماعة يرجع إلى سؤال نوح عليه السلام الذي يتضمنه الكلام وقد فسر آخر الآية، في حين يرجع الضمير عند من قرأ بكسر الميم إلى ابن نوح فأخبره عنه بفعله، والتقدير كما ذكر ابن عجيبة «إن ابنك عمل عملا فاسدا استحق به البعد منك».[3]

3 – وإذا كان عدم تنصيص مفسرنا على قراءة نافع في معظم الحالات يوحي بأنه يميل إلى تلك القراءة، وقد انطلق منها، فإننا نجده في بعض الأحيان ينص على قراءة نافع ويرجحها على غيرها. مثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بايات الله يجحدون**﴾[4] حيث قال : «وقرأ نافع

---

1) هود 46.

2) البحر المديد 78/2 وراجع الكشف لمكي 531/1 والنشر لابن الجزري 189/2 ومعاني القرآن للفراء 17/2 وتفسير الطبري 351/1 وتفسير القرطبي 113/4 وتفسير ابن عطية 162/9.

3) وهي قراءة شاذة كما سوف نرى فيما بعد.

4) الأنعام33.

ليحزنك بضم الياء حيث وقع إلا قوله «لا يحزنهم الفزع الأكبر»[1]، والباقون بفتح الياء وفيه لغتان حزن يحزن كنصر ينصر وأحزن يحزن والأول أشهر».[2]

ومن ذلك أيضا ما جاء في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل**﴾[3] حيث قال : «وقرأ غير الكوفيين بالبناء للمفعول[4] وهو أبلغ، أي فإن الله لا يهدي من يضله أي لا يهدي غير الله من يريد الله إضلاله».[5] وقد يستعين ابن عجيبة أحيانا بقراءة أخرى للاستعانة بها في التفسير وتوجيه قراءة نافع، فعند تفسير قوله تعالى : ﴿**وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار**﴾[6]، قال : وسيعلم الكافر أي جنس الكافر بدليل قراءة الكفار».[7]

4 – وقد يرجح في بعض الأحيان قراءة قراء آخرين على قراءة نافع مستعملا عبارات تفيد الترجيح والإختيار من ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**لابثين فيها أحقابا**﴾[8] حيث قال: «وقرأ حمزة لبثين وهو أبلغ

---

1) الأنبياء 103.

2) البحر المديد 161/1.

3) النحل 37.

4) أنظر الكشف لمكي 37/2 وقد استحسن قراءة الكوفيين والنشر لابن الجزري 304/2، وفي تفسير ابن عطية183/10. «قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والحسن والأعرج وأبو جعفر وشيبة ومجاهد ومزاحم الخرساني وأبو رجاء العطاردي وابن سيرين «لايهدي» بضم الياء وفتح الدال وقرأ عاصم وحمزة والكسائي «لايهدي» بفتح الياء وكسر الدال».

5) البحر المديد 132/2.

6) الرعد 42.

7) البحر المديد 11/2 والقراءة الأولى (وسيعلم الكافر) هي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر في حين قرأ الباقون الكفار. وانظر تفسير ابن عطية 54/10 والتسهيل لابن جزي 137/2 والكشف لمكي 23/2. ونظير هذا ما ذكره ابن عجيبة عند قوله تعالى : ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ (النحل 16) حيث قال (128/2) : والمراد بالنجم الجنس بدليل قراءة وبالنجم بضمتين على الجمع.

8) النبأ 23.

من لابثين لأن اللابث من يقع منه مطلق اللبث واللبث من شأنه اللبث والمقام».[1]

ومنه أيضا ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تاكل منساته**﴾[2] حيث قال : «تاكل منساته فيها لغتان : الهمز وعدمه فقرأ نافع وأبو عمرو بترك الهمز وعليه قول الشاعر :

إذا دببت على المشاة من كبر فقد تباعد عنك اللهو والغزل

وقرأ غيرهما بالهمز وهو أشهر».[3]

ومنه أيضا ما جاء في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**الله الذي خلقكم من ضعف**﴾، حيث قال : «وفي الضعف لغتان الفتح والضم وهو أقوى سندا في القراءة، كما روى ابن عمر قال : قرأتها على رسول الله ﷺ من ضعف فأقرأني من ضعف».[4] فابن عجيبة يرى هنا أن القراءة بالضم أقوى وهي رواية حفص عن عاصم الذي رأى قوة سند رواية ابن عمر التي جاء فيها إقراء النبي ﷺ للفظة بالضم في المواضع الثلاثة.[5]

ومن ذلك كذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**يكاد السماوات يتفطرن من فوقهن**﴾[6] حيث قال : « يتفطرن من فوقهن تتشققن من عظمة الله تعالى وعلو شأنه يدل عليه مجيئه بعد قوله وهو العلي العظيم[7]، وقيل

---

1) البحر المديد : 178/4 وراجع الكشف 359/2 والتيسير للداني ص 219 والنشر 397/2.

2) سبأ 14.

3) البحر المديد169/3 ، وقراءة من همز أشهر لأنها جاءت على الأصل، فأصل الكلمة الهمز، من نسأه، يقال نسأت الغنم إذا سقتها ، أنظر الكشف203/2 والحجة للفارسي ص 267 وتفسير ابن عطية 121/13.

4) البحر المديد141/3 ، وانظر الكشف لمكي 186/2وتفسير ابن كثير 439/3 وتفسير ابن عطية 271/12 حيث استصوب القراءة بالضم.

5) الحرفان الآخران هما في نفس الاية حيث قوله تعالى : ﴿**الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير**﴾.

6) الشورى 3.

7) الشورى 2.

من دعائهم لله ولدا كقوله : ﴿**يكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمان ولدا**﴾.[1] ويؤيد مجيء قوله «والذين اتخذوا من دونه أولياء...»[2] وقرأ البصري وشعبة ينفطرن والأول أبلغ».[3]

فترجيح ابن عطية لقراءة «يتفطرن» بالتاء والتشديد واضح حيث احتج لها بما يوجهها من سياق الآيات القرآنية ثم إنه بعد ذكره للقراءة الأخرى نص على رجحان الأولى وكونها أبلغ.

وهكذا فإذا كانت المفاضلة بين قراءة متواترة وأخرى مثلها ممتنع عند المحققين لأن القراءات مصدرها واحد فإن ابن عجيبة يرى أن بعض القراءات قد يكون أشهر أو أبلغ أو أصوب أو أقوى سندا من غيرها.

5 – ولما كان ابن عجيبة قد التزم في تفسيره عدم الإكثار في عرض القراءات والتوسع فيها فإنه كان حريصا على ألا يورد منها إلا ما كان فيه فائدة في المعنى أو الإعراب، وإن كان قد أغفل الإشارة إلى كثير من القراءات المهمة في هذا المجال، فهو يستعمل القراءات في الشرح والإيضاح ويستدل بها قصد الإستعانة بها من أجل بلوغ مستويات المعنى في التفسير والتأويل.

أ) فمن القراءات التي يتنوع فيها المعنى والإعراب باختلاف القراءة ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿**وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يات بما غل يوم القيامة...**﴾[4] حيث قال : « فمن قرأه (أي يغل) بفتح الياء وضم الغين[5]

---

1) مريم 92.

2) الشورى 4.

3) البحر المديد 24 وانظر الكشف 2502 و932 وتفسير ابن عطية 203/14.

4) آل عمران 161.

5) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وبها قرأ ابن عباس وجماعة من العلماء. وانظر : الكشف 363/1 وتفسير ابن عطية 283/3 وتفسير ابن كثير 421/1.

فمعناه لا ينبغي له أن يأخذ شيئا من الغنيمةخفية، والمراد تبرئة رسوله عليه السلام من ذلك. ومن قرأ بضم الياء وفتح الغين[1] ففيه وجهان :

– أحدهما أن يكون المعنى ما كان لنبي أن يخاف أن تخونه أمته في المغانم وكذلك الأمر ، وإنما خص النبي عليه السلام بذلك لبشاعة ذلك مع النبي لأن المعاصي تعظم بحضرته.[2]

– والثاني أن يكون المعنى ما كان لنبي أن ينسب إلى الخيانة كقوله «فإنهم لا يكذبونك»[3] أي لا ينسبونك إلى الكذب.[4]

ويلاحظ من خلال هذا المثال أن ابن عجيبة لم يهتم بتعيين من قرأ بكلتا القراءتين بقدر ما اهتم بتوجيه معناهما معا لما يخدم التفسير القرآني[5] غير أنه قد أبان أثناء التفسير عن ميله إلى القراءة الأولى التي هي قراءة غير نافع حيث قال : «يقول الحق جل جلاله ما كان ينبغي لنبي أن يغل ويأخذ شيئا من الغنيمة خفية لأن ذلك خيانة، والنبوة تنافي ذلك. والمراد نزاهة الرسول عليه السلام عن ذلك كقوله : ﴿**ما كان لله أن يتخذ من ولد**﴾[6] ودفع ما توهمه الرماة...

ب) وقد نجده أحيانا في سياق عرض القراءات للتأكيد على ما فيها من فائدة في المعنى لا يعين أسماء من قرأ بمختلف القراءات كما هو الحال عند تفسيره قوله تعالى : ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم**

---

1 قرأ به نافع في السبعة وهي قراءة ابن مسعود وجماعة من العلماء

2 قال أبو علي الفارسي في حجته 3 /178 «ويجوز أن يكون (يغل) أي ليس لأحد أن يغله فيأخذ من الغنيمة التي حازها وإن كان لا يجوز أن يغل غير النبي ﷺ لأن ذلك يجوز أن يعظم بحضرته كثيرا لا يكثر عند غيره لأن المعاصي تعظم بحضرته كما قال ﴿ولا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ الحجرات 2 فالعلو وإن كان كثيرا فهو بحضرته عليه السلام أعظم

3 الأنعام 33

4 البحر المديد 1 /478

5 انظر الكشف 1 /378 وكتاب السبعة لابن مجاهد ص 210

6 مريم 35

بألف من الملائكة مردفين﴾[1] حيث قال : «مردفين يتبع بعضهم بعضا ويتبعوا المومنين فكانوا خلفهم رداء لهم، فمن قرأ بفتح الدال فهو اسم مفعول، ومن قرأه بالكسر فاسم فاعل، وصح معنى القراءتين، لأن الملائكة المنزلين يتبع بعضهم بعضا فهم تابعون ومتبوعون. ومن قرأ بالفتح فالمراد مردفين بالمومنين فكانوا مقدمة الجيش، ومن قرأ بالكسر فالمراد مردفين للمومنين تابعين لهم».[2]

فابن عجيبة يوجه هنا معنى القراءتين بما يفيد معانيهما دون إشارة إلى من قرأ بهما مؤكدا على صحة المعنيين من غير مفاضلة بينهما، ومعلوم أن الذي قرأ بفتح الدال هو نافع في حين قرأ الباقون بكسرها.[3]

ج) وقد لا يورد المؤلف في بعض الأحيان توجيه القراءات التي تكون واضحة المعنى كما عند تفسير قوله تعالى : ﴿**لا تحسبن الذين كفروا معجزين**﴾[4]، حيث اكتفى بقوله : «قرأ حمزة والشامي بالغيب»[5] وفي معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**قال أتحاجوني في الله وقد هدان**﴾[6]، قال: «والأصل تحاجونني، فحذف نافع وابن عامر نون الرفع وأبقيا نون الوقاية، وقيل العكس وادغم الباقون إحدى النونين في الأخرى».[7]

6 – وقد نجد لابن عجيبة في مجال القراءات رأيا سديدا يخالف به مذاهب جل المفسرين الذين يكثر الإعتماد على تفاسيرهم، فإذا كان كثير

---

1) الأنفال9.

2) البحر المديد 27/2.

3) التيسير للداني ص 116 والكشف لمكي 489/1 والحجة للفارسي ص 145 والنشر 285/2 وتفسير ابن عطية 20/8.

4) النور 57.

5) البحر المديد 71/3. ويلاحظ أن المؤلف لم يشر سوى إلى قراءة غير نافع ومن معه. وقد سبق أن أوضحنا أن ذلك من منهجه في عرض اختلاف القراءات. أنظر على سبيل المثال (82/2 : هود : 87). (84/3 : الفرقان 61) (110/4): المجادلة 2.

6) الأنعام 80.

7) البحر المديد 167/1 وراجع التيسير ص 104 والحجة 118 والكشف لمكي 437/1.

من العلماء والمفسرين قد ردوا قراءة حمزة : ﴿واتقوا الله الذي تساءلو به والأرحام﴾[1] بخفض لفظة الأرحام فإن ابن عجيبة بعد أن أورد القراءتين معا انتصر لقراءة حمزة واحتج لها، يقول في تفسيره[2] : «من قرأ الأرحام بالنصب فعطف على اسم الجلالة، أي اتقوا الأرحام أن تقطعوها، وقرأ حمزة بالخفض، عطف على الضمير من به كقول الشاعر: [3]

فاليوم قد بت تهجونا وتشتمنا فاذهب فما بك والأيام من عجب

وجمهور البصريين يمنعون العطف على الضمير إلا بإعادة الجار، فيقولون : مررت به وبزيد، وقال ابن مالك[4] :

وليس عندي لازما إذ قد أتى في النظم والنثر الصحيح مثبتا

والنثر الصحيح ما قرأ به حمزة، وهذا هو التوجيه الصحيح، وأما من جعل الواو للقسم فبعيد.[5]

---

1) المائدة 1.

2) البحر المديد 100/1.

3) البيت من شواهد سيبويه(الكتاب 392/1)، نقله عنه كثير من العلماء ولم ينسبه أحد إلى قائل معين، قال البغدادي في خزانته (338/2) : «والبيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف لها قائل». ومعنى البيت : إن هجاءك للناس وشتمهم لمن عجائبالدهر، وقد كثرت هذه الأعمال منك حتى صارت لا يتعجب منها، والإستشهاد بالبيت في قوله (فما بك والأيام) حيث عطف قوله (الأيام) بالواو على الضمير المتصل المجرور دون إعادة حرف الجر.

أنظر : الإنصاف في مسائل الخلاف للأنباري، دار الفكر بدون تاريخ 464/2

4) ذهب ابن مالك إلى أنه مهما جعل جمهور النحاة إعادة الخافض إذا عطف على ضمير الخفض لازمة فإنه لا يقول به لورود السماع نثرا ونظما بالعطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض فمن النثر قراءة حمزة السالفة الذكر ومن النظم البيت الذي استشهد به ابن عجيبة.

أنظر : حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على الألفية (مطبعة الإستقامة بالقاهرة 1953 (72/2). وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام (مطبعة السعادة بمصر ط 1956/4 (61/3)).

5) هي طائفة ذهبت إلى ذلك محتجة بأن الله تعالى له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته على ما جاء في كثير من الآيات، وقد ذهبوا إلى هذا التخريج فرارا من العطف على الضمير المجرور بغير إعادة الجار. وهذا التخريج مما حسنه الألوسي في تفسيره(185/4)، وانظر البحر المحيط 158/3).

وبهذا يكون ابن عجيبة قد خالف ابن عطية[1] والزمخشري[2] ووافق أبا حيان.[3]

وقد كان توجيه القراءات في هذه الآية محل نقاش كبير بين النحاة والمفسرين، فذهب البصريون إلى أنه لا يجوز العطف على الضمير المخفوض إلا بإعادة الخافض، وعلى هذا الأساس استبشعوا قراءة حمزة لأنها مخالفة للقاعدة النحوية، وأجازه الكوفيون واحتجوا بأن قالوا : الدليل على أنه يجوز أنه قد جاء ذلك في التنزيل وكلام العرب وهو ما ذهب إليه ابن مالك في ألفيته حسب البيت الذي استشهد به ابن عجيبة. ويؤيد ذلك قراءة ابن مسعود : تساءلون به وبالأرحام، والمعنى على هذه القراءة أنها يتساءل بها كما يقول الرجل : أسألك بالله وبالرحم وبذلك فسرها الحسن البصري وإبراهيم النخعي[4] ومجاهد.

وفي معرض تفسيره للآية وظف ابن عجيبة قراءة حمزة دون قراءة الجمهور وهو ما يؤكد لنا ترجيحه لها وإن لم يذهب إلى ذلك معظم المفسرين، فنجده يقول : «واتقوا الله الذي تساءلون به وبالأرحام فيقول بعضكم لبعض أسألك بالرحم التي بيني وبينك أو بالقرابة التي بيني وبينك[5].

1- المحرر الوجيز 4/ 359. وقد ذهب ابن عطية إلى أن قراءة حمزة تردّ من وجهين ذكرهما، إلا أن أبا حيان قد شنع عليه فيما ذهب إليه من ردّ قراءة متواترة خرجت من بين شفتي النبي ﷺ فقال : «وأما قول ابن عطية فخسارة قبيحة منه لا تليق بحاله ولا بطهارة لسانه».

2- الكشاف 1/ 519.

3- يقول أبو حيان في بحره 3/ 159 : «وما ذهب إليه أهل البصرة وتبعهم فيه الزمخشري وابن عطية من امتناع العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار ومن اعتلالهم لذلك غير صحيح، بل الصحيح مذهب الكوفيين في ذلك وأنه يجوز

4- معاني القرآن للفراء 1/ 257.

5- البحر المديد 1/ 444.

وبهذا يكون ابن عجيبة قد سما بمنهجه عن مناهج كثير من المفسرين في رد قراءة متواترة ثبتت عن رسول الله ﷺ ويلاحظ في هذا الصدد أن ابن عجيبة وإن كان بصريا في اختياراته النحوية كما سوف نبين ذلك فيما بعد[1]، إلا أنه لم يمنعه ذلك من مخالفتهم في عدم رد قراءة سبعية ما دام أن هناك توجيها أسلم وفق مذهب الكوفيين، وما دام أن المدار في صحة القراءات على الأصح في الروايةوليس على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية، ونستحضر هنا قول أبي عمرو الداني (ت 444) : «وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل والرواية إذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها».[2]

بيد أن ابن عجيبة قد خالف منهجه هذا في موضع آخر من التفسير حيث نحا منحى آخر من حيث الإعراب وخالف قاعدة الكوفيين السابقة في تجويز العطف على الضمير المخفوض دون إعادة الخافض، فيقول في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله**﴾[3] : «وقد وقع خفض في عطف المسجد الحرام، والصواب ما قاله الزمخشري[4] وابن عطية[5] أنه عطف على السبيل إذ هو المتبادر من

---

1) أنظر فصل «الجانب النحوي في تفسير ابن عجيبة».

2) أنظر مقدمة أستاذنا الدكتور التهامي الراجي الهاشمي لكتاب «التعريف» للداني، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية 1982 ص 72 وراجع النشر لابن الجزري 11/1.

3) البقرة 217.

4) يقول الزمخشري : «والمسجد الحرام عطف على سبيل الله ولا يجوز أن يعطف على الهاء في به» الكشاف 357/1.

5) يقول ابن عطية «والمسجد معطوف على سبيل الله، وهذا هو الصحيح».المحرر الوجيز 161/2.

جهة المعنى، أي وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام أكبر جرما من قتل السرية في الشهر الحرام، والقواعد النحوية إنما هي أغلبية».[1]

فيلاحظ إذن من خلال هذا المثال أن ابن عجيبة قد اختار هذا المذهب في الإعراب لما تبين له من ظهور المعنى ووضوحه في عطف المسجد على سبيل والتقدير فيه، وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام لأن إضافة الصد عنه أكثر في الإستعمال من إضافة الكفر به، ولهذا يقال «صددته عن المسجد ولا يكاد يقال كفرت بالمسجد»[2] وهذا عكس ما ذهب إليه أبو حيان الذي التزم في كلا المثالين قاعدة الكوفيين[3]، أما ابن عجيبة فقد ذكر في شرحه على الأجرومية في باب «عطف النسق» قوله[4] «وليس عود الخافض بلازم لورود السماع نظما ونثرا بالعطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض فمن النثر قراءة حمزة «واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام» بجر الأرحام عطفا على الهاء المجرورة بالياء. قيل ومنه «وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام» فالمسجد الحرام عطف على الهاء المخفوضة بالباء، ولو أعيد لقيل وبالمسجد، إذ ليس العطف على السبيل المخفوض بعن لأنه صلة المصدر وهو«صد» فإنه متعلق به، وقد عطف عليه كفر. والقاعدة أنه لا يعطف على المصدر حتى يكمل معمولاته...».

يتبين من هذا النص إذن أن المؤلف قد ذهب عكس ما ذهب إليه في التفسير وإن كان قد استعمل لفظة «قيل»، إلا أن كونه أتى بهذا المثال في سياق واحد مع المثال الأول ثم تأكيده على أن العطف ليس على «السبيل»

---

1) البحر المديد 48/1.

2) أنظر : الإنصاف للأنباري 247/1 وأوضح المسالك لابن هشام 61/3.

3) يقول أبو حيان : «والذي تختاره أنه (أي المسجد الحرام) عطف على الضمير المجرور، ولم يعد جاره، وقد ثبت ذلك في لسان العرب باختلاف حروف العطف وإن كان ليس مذهب جمهور البصريين، بل أجاز ذلك الكوفيون والأخفش والأستاذ أبو علي النيسابوري ولسنا متعبدين باتباع مذهب جمهور البصريين بل نتبع الدليل». النهر الماد بهامش البحر المحيط 146/2.

4) ابن عجيبة : الفتوحات القدوسية في شرح الأجرومية، مخطوط خاص ص 149.

يجعلنا نتساءل إن كان هذا رجوعا عن رأيه الأول خاصة إذا علمنا أن شرحه على الأجرومية كان لاحقا[1] على فراغه من تحرير الجزء الأول من «البحر المديد».

7 – ومن منهج ابن عجيبة في إيراد القراءات القرآنية في تفسيره رواياته لبعضها مسندة إلى بعض الصحابة رضوان الله عليهم. من ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس**﴾[2] حيث قال[3] : «وإنما قيدنا الأخ والأخت بكونهما للأم لأن الأخ الشقيق أو للأب سيأتي في آخر السورة، والأخت تقدم أن لها النصف، وأيضا قد قرأ سعد بن أبي وقاص وابن مسعود[4] ولد أخت أو أخت لأم».[5]

ومن أمثلة ذلك ما ذكره في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**إلا أن ياتين بفاحشة مبينة**﴾[6] حيث قال : «قيل الزنا فيخرجن لإقامة الحد قاله الليث والثعلبي، وقيل سوء الكلام وإظهار الفحش مع الأصهار فتخرج ويسقط حقها من السكنى وتلزمها الإقامة في مسكن تتخذه حفظا للنسب قاله ابن عباس ويؤيده قراءة ابى : (إلا أن يفحشن عليكم)»[7]، وواضح من هذا النص أن قراءة أبي بن كعب إنما سيقت للدلالة على وجه تفسيري ذهب إليه ابن عباس (ضمنا) حيث قدم لها ابن عجيبة بقوله : ويؤيده.

---

1) ألف ابن عجيبة شرحه على الأجرومية عام 1223، أي سنة واحدة قبل وفاته، في حين كان قد فرغ من تأليف الجزء الأول من التفسير عام 1216.

2) النساء 12.

3) البحر المديد 110/4.

4) قد يشير المؤلف أحيانا إلى مصحفه، كما في 113/1 (الآية 162 من النساء) وكذا في 366.

5) فصل الزمخشري في كشافه 510/1 بين قراءة أبي : «وله أخ وأخت من الأم» وبين قراءة سعد : «وله أخ أو أخت من أم» وراجع البحر المحيط 190/3 والمحرر الوجيز 43/4. وقد رويت روايات أخرى.

6) الطلاق 1.

7) البحر المديد 133/4 وانظر المحرر الوجيز 36/16.

8 – وتبين بالإستقراء أن لابن عجيبة طريقتين في عرض القراءات ونسبتها إلى القراء فهو إما يذكر أسماء كل من قرأ بقراءة معينة وقد سبق عرض الأمثلة المشتملة على ذلك. وإما أنه يبهم ويقول : من قرأ كذا فمن أجل ذلك...وهكذا.ويبدو أن هذه الطريقة الثانية تشبه إلى حد ما هو معروف في ثنايا كثير من التفاسير من استعمال لفظ «قرىء». ومن المواضع[1] التي لم يصرح فيها بذكر أسماء القراء ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وهو الذي يرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته**﴾[2]، حيث قال : «من قرأ بسكون الشين فهو تخفيف منه[3] ومن قرأ بفتح النون فمصدر[4] في موضع الحال بمعنى ناشرات، أو مفعول مطلق، فإن الإرسال والنشر متقاربان، ومن قرأه بالباء وسكون الشين[5] فهو جمع بشير مخفف».[6]

ومن ذلك أيضا ما جاء في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون**﴾[7] حيث قال : «من قرأ[8] يهدي بفتح الهاء فأصله يهتدي نقلت حركة التاء إلى الهاء وأدغمت في الدال، ومن قرأ بكسر[9] الهاء فعلى التقاء الساكنين حيث سكنت

---

1) أنظر نماذج من ذلك في البحر المديد : 27/2 و50/3...إلخ.

2) الأعراف 57.

3) قرأ ابن عامر بنون مضمومة وإسكان الشين تخفيفا كرسول ورسل وكتاب وكتب.

4) قرأ حمزة والكسائي بفتح النون على أساس أنه مصدر في موضع الحال من الرياح كأنه قال : «يرسل الرياح محيية للأرض.

5) قرأ بذلك عاصم على أساس أنه جمع بشير إذ الرياح تبشر بالمطر وشاهده قوله تعالى : ﴿**يرسل الرياح مبشرات**﴾ (الروم 46). وقد أسكنت تخفيفا كرسول ورسل. (أنظر : الكشف لمكي 466/1 والسبعة لابن مجاهد ص 283 والنشر 269/2).

6) البحر المديد 8/2. أما الحرميان وأبو عمرو فقد ضما النون والشين، وهي القراءة التي اعتمدها ابن عجيبة لذلك لم يذكرها.

7) يونس 35.

8) قرأ بذلك ابن كثير وابن عامر وورش.

9) قرأ بذلك حفص.

التاء لتدغم ومن كسر الياء[1] فعلى الإتباع، ومن قرأ بالإختلاس فإشارة إلى عروض الحركة[2]، ومن قرأ يهدي بالسكون[3] فمعناه يهدي غيره[4]».

ج – أ) وقد يحتج ابن عجيبة في بعض الأحيان لقراءات معينة بما يفيد معناها ويعللها من القرآن، من ذلك ما جاء في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا**﴾[5] حيث قال: «وقرأ ابن عامر (يرون) بضم الياء بالبناء للمفعول، والفاعل الحقيقي هو الله تعالى بدليل «يريهم الله»[6]، والباقون بالفتح على البناء للفاعل على حد «وإذ رأى الذين ظلموا العذاب»[7] وأن القوة معمول لجواب المحذوف تعظيما لشأنه والتقدير : ولو ترى يا محمد أويا من يسمع الذين ظلموا حين يرون العذاب أو يريهم الله العذاب لرأيت أمرا فظيعا وخطبا جسيما ولعلمت أن القوة لله جميعا».[8]

فابن عجيبة من خلال هذا النص قد احتج لقراءة ابن عامر (يرون) بالآية الكريمة (كذلك يريهم الله) على أساس أن الفاعل الحقيقي هو الله تعالى، واحتج أيضا لقراءة الجماعة بفتح الياء (يرون) بالآية الكريمة (وإذا رأى الذين ظلموا العذاب) بإضافة الفعل إليهم، وهو أثناء التفسير يورد معاني القراءتين معا دون ترجيح لإحداهما على الأخرى.

ب) ومن أمثلة احتجاجه للقراءة بما يفيد معناها من السنة ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس**﴾[9] حيث

1- قرأ بذلك أبو بكر.

2- بذلك قرأ أبو عمرو وقالون حيث اختلسا فتحة الهاء

3- قرأ بذلك حمزة والكسائي.

4- البحر المديد 2 /63 وانظر تفصيل مختلف القراءات في التيسير ص 122 والكشف 1/518-519 والنشر 2/284. وتفسير ابن عطية 1/411.

5- البقرة 165

6- ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾ البقرة 167

7- النحل 85.

8- البحر المديد 1/371 وانظر الكشف لمكي 1/271 والحجة في القراءات السبع ص 68 والنشر 2/216 وتفسير ابن عطية 1/88.

9- البقرة 219

قال : «وقرأ حمزة والكسائي «كثير» بالمثلثة، أي آثام كثيرة لقوله عليه السلام : «لعن الله الخمر وبائعها ومبتاعها والمشتراة له وعاصرها والمعصورة له وساقيها وشاربها وحاملها والمحمولة له وآكل ثمنها»[1] فهذه آثام كثيرة».[2]

ففي احتجاج ابن عجيبة لقراءة حمزة والكسائي بالحديث النبوي دون القراءة الأخرى ما يفيد اختياره لها نظرا للمعنى الذي تحمله القراءة، إذ الكثرة تستوعب معنى العظم ومعنى الكثرة، في حين لا يستوعب العظم معنى الكثرة لأن الإثم يكون عظيما ولا يكون كثيرا إلا وهو عظيم.

ومن ذلك أيضا ترجيحه لقراءة الجماعة ﴿**تجري لمستقر لها**﴾[3] بقوله : «لأنها أوفق بالحديث».[4]

ج) أما احتجاج ابن عجيبة للقراءة بما يفيد معناها من قراءات الصحابة فمن ذلك ما جاء في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين**﴾[5] حيث قال : «أي وأهلكنا قوم نوح لأن ما قبله يدل عليه[6]، أو واذكر قوم نوح، ومن قرأ بالجر فعطف على ثمود، أي: وفي قوم نوح آية، ويؤيده قراءة عبد الله : «وفي قوم نوح من قبل أي من قبل هؤلاء المذكورين»[7] فابن عجيبة هنا يحتج لقراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي بقراءة عبد الله بن مسعود.

---

1) أخرجه أبو داود في سننه (باب العنب يعصر للخمر) 326/3. وأخرجه أحمد في مسنده 97/2.

2) البحر المديد 49/1 وانظر الكشف 292/1 والنشر 227/2. وتفسير ابن عطية 170/2.

3) يس 38.

4) البحر المديد 189/3 وانظر البحر المحيط 336/7 والتسهيل لابن جزي 163/3.

5) الذاريات 46.

6) لأن قوله تعالى : ﴿**فأخذتهم الصاعقة**﴾ معناه : أهلكناهم فصار التقدير أهلكناهم وأهلكنا قوم نوح.

7) البحر المديد 74/4 وانظر الكشف 289/2 والبحر المحيط 141/8. وقد قرأ بالجر كل من أبي عمرو وحمزة والكسائي. في حين قرأ الباقون بالنصب على العطف على المعنى.

المبحث الثاني :

موقفه من القراءات العشر

يذهب ابن عجيبة مذهب القائلين بتواتر القراءات العشر[1] : السبع المعروفة بالإضافة إلى قراءة يعقوب الحضرمي وأبي جعفر يزيد بن القعقاع المدني وخلف بن هشام. وممن قال بذلك الإمام البغوي وتاج الدين السبكي ووالده أبو الحسن السبكي. قال في جمع الجوامع : «ولا تجوز القراءة بالشاذ ، والصحيح أنه ما وراء العشرة وفاقا للبغوي والشيخ الإمام»[2] وإليه ذهب الحافظ ابن الجزري (ت 833) الذي قال : «فالذي وصل إلينا اليوم متواترا وصحيحا مقطوعا به قراءات الأئمه العشرة ورواتهم المشهورين»[3] وقال أيضا : «والذي جمع في زماننا هذه الأركان الثلاثة هو قراءة الأئمة العشرة التي أجمع الناس على تلقيها بالقبول...».[4]

ويرى ابن عجيبة «أن الذي اشتهر عليه الأمر حصرها في عشرة»[5]، غير أنه يجنح أيضا إلى القول بعدم حصرها في العشرة على اعتبار أن هناك قراءات صحيحة مشهورة ربما كانت أصح مما اقتصر عليه في العشرة. وقد كان ابن الجزري يميل إلى القول بحصر المتواترة في عشر ثم تبين له بعد ذلك عدم إمكانية القطع بذلك.

---

1) ممن قال بحصر المتواتر في السبع ابن عطية (المحرر الوجيز 32/1) وأبو شامة (المرشد الوجيز ص 174) والإمام البلقيني غيرهم. (الإتقان للسيوطي 210/1).

2) حاشية البناني على شرح المحلي على جمع الجوامع 231/1.

3) منجد المقرئين ص 23.

4) المصدر السابق ص 15.

5) تفسير الفاتحة الكبير ص 41.

وقد أكد ابن عجيبة على تواتر العشر في قوله : «فلما قل الضبط واتسع الخرق اقتصر الناس على القراء العشرة مع صحة غيرها ممن كان في عصرهم » ثم استطرد في ذكر أسمائهم جميعا وأسماء رواتهم محيلا على كتابه المفقود : «الدرر المتناثرة في توجيه القراءات المتواترة».[1]

ومن خلال «البحر المديد» يتبين لنا التطبيق العملي لمذهب ابن عجيبة في القول بتواتر العشر، وذلك بعدم اكتفائه بعرض القراءات السبع فحسب، وهكذا نجده يتجاوزها في كثير من الأحيان إلى ذكر الثلاث فوق السبع.

من ذلك مثلا ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**الذين يظهرون منكم من نسائهم**﴾[2] حيث قال : «وقرأ عاصم بضم الياء وتخفيف الظاء مضارع ظاهر لأن كل واحد يباعد صاحبه، وقرأ ابن عامر والأخوان وأبو جعفر وخلف بفتح الياء وشد الظاء بالمد مضارع تظاهر فادغم».[3]

وفي معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم**﴾[4] قال : «قرأ الأخوان وخلف يطوع بلفظ المضارع مجزوم باللفظ وهو مناسب لقوله أن يطوف وأصله يتطوع وأدغمت التاء في الطاء لقرب المخرج والباقون بلفظ الماضي مجزوم المحل وهو مناسب لقوله : «فمن حج البيت».[5]

فابن عجيبة يوظف القراءات العشر دون تمييز السبع عن غيرها انسجاما مع مذهبه في ذلك، بل انه لا يفتأ يدافع عن تواتر الثلاث فوق السبع ويرد على من أنكر ذلك. ومما يوضحه لنا ما ذكره عند تفسير قوله

---

1) المصدر السابق ص 45.

2) المجادلة 2.

3) البحر المديد 110/4 وانظر الكشف لمكي 313/2.

4) البقرة 158.

5) البحر المديد 35/1 وانظر الكشف 269/1 والمحرر الوجيز 29/2.

تعالى : ﴿قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء...﴾[1] حيث قال : «قرأ الجمهور أن تتخذ بالبناء للفاعل وقرأ الحسن وأبو جعفر بالبناء للمفعول، فالقراءة الأولى على تعديته لواحد، والثانية على تعديته لاثنين، فالأول الضمير في «نتخذ» والثاني «من أولياء» ومن للتبعيض، أي ما ينبغي لنا أن تتخذ بعض أولياء من دونك، لأ ن «من» لا تزاد في المفعول الثاني بل في الأول، تقول: ما اتخذت من أحد وليا ولا تقول: ما اتخذت أحدا من ولي، وأنكر القراءة أبو عمرو بن العلاء وغيره، وهو محجوج لأن قراءة أبي جعفر من المتواتر».[2]

المبحث الثالث :

موقفه من القراءات الشاذة

تحدث مكي بن أبي طالب عن القراءة الشاذة بعد ذكره للقسم المقبول الذي يقرأ به وهو ما توفرت فيه الشروط الثلاثة فقال :[3] «والقسم الثاني ما صح نقله عن الآحاد وصح وجهه في العربية وخالف لفظه خط المصحف فهذا يقبل ولا يقرأ به لعلتين...ثم قال : والقسم الثالث هو ما نقله غير ثقة أو نقله ثقة ولا وجه له في العربية، فهذا لا يقبل وإن وافق خط المصحف»،وقد نقل ابن الجزري نفس الكلام في كتابه النشر.[4]

---

1) الفرقان 18.

2) البحر المديد 76/3. وانظر النشر 333/2 ومعاني القرآن للفراء 264/2 والكشاف 87/3 والبحر المحيط 489/6.

3) الإبانة عن معاني القراءات، تح عبد الفتاح شلبي، دطبعة نهضة مصر ص 51.

4) النشر في القراءات العشر 14/1.

ومعظم ما يطلق عليه «شاذ» في القراءات يكون فصيحا من حيث العربية قويا من حيث المعنى ولكنه سمي شاذا لعدم استقامته في النقل لأن القراء يعملون على الأثبت في الأثر والأصح في النقل لا على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية. ولذلك كان ابن جني حريصا على وضع القراءة الشاذة على قدم المساواة مع القراءة السبعية من حيث الإفادة منها في مجالات مختلفة كالتفسير والفقه واللغة وغيرها، لذلك فهو يقول عنها : «إنه نازع بالثقة إلى قرائه محفوف بالرواية أمامه ووراءه ولعله أو كثيرا منه مساو في الفصاحة للمجتمع عليه».[1] ويقول الإمام أبو عبيد : «المقصد من القراءة الشاذة تفسير القراءة المشهورة وتبيين معانيها كقراءة عائشة وحفصة «والوسطى صلاة العصر»[2] وقراءة ابن مسعود : «فاقطعوا أيمانهما»[3]».[4]

أما ابن عجيبة فهو وإن كان يرى أهمية الإستفادة من القراءات الشاذة في هذا المجال إلا أنه قليلا ما يوردها ويستأنس بمعانيها، ويرى أن الشاذ ليس بحجة، وهو وإن ساق أحيانا بعض القراءات الشاذة –ونادرا ما يفعل ذلك– فإنه يحتج لها وقد لا يحتج، كما أنه لا يذكر من قرأ بها، إلا ما كان من بعض قراءات الصحابة التي تخالف مصحف عثمان (ض) وهو في معظم الحالات يعبر بقوله : «وقرئ في الشاذ» مستعرضا ذلك بموازاة مع القراءات الأخرى المقبولة. وقد يورد من ذلك ما هو من قبيل التفسير مما يروى أحادا.

---

1) ابن جني : المحتسب، طبعة القاهرة 1386. 32/1.

2) في مصحفنا : ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ البقرة 236. وأنظر تفسير الطبري 579/2.

3) في مصحفنا : ﴿فاقطعوا أيديهما﴾ المائدة 40. وانظر تفسير الطبري 560/4 والبحر المحيط 246/4.

4) الإتقان 255/1 وكتاب المصاحف لابن أبي داود، نشر آرثر جفري، 1936 ص 94.

ا – فابن عجيبة يعرض للقراءة الشاذة فيحتج لها في بعض الأحيان كما عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب**﴾.[1] حيث قال «من الذين يخافون الله أو رجلان من الجبابرة أسلما وصارا إلى موسى وعليه قراءة يخافون بضم الياء».[2]

فالمؤلف قد أشار إلى القراءة المتواترة التي هي بفتح الياء من «يخافون» ثم أتبع ذلك بما يشير إلى القراءة الأخرى الشاذة التي هي بضم الياء موجها إياها بأن معناها ما روي من أن الرجلين كانا من الجبابرة آمنا بموسى عليه السلام واتبعاه فكانا من القوم الذين يخافون، لكن أنعم الله عليهما بالإيمان بموسى.

وقد نسب ابن جني[3] القراءة إلى سعيد بن جبير ومجاهد وذكر احتمالها لمعنيين أما ابن عطية فقد ذكر أن لتلك القراءة ثلاثة معان، منها المعنى الذي ذهب إليه ابن عطية[4]، وبين أبو حيان ذلك بشيء من التوضيح قائلا : «أو يخافهم بنو إسرائيل فيكون الضمير في يخافون عائدا على بني إسرائيل، والضمير الرابط للصلة بالموصول محذوفا تقديره من الذين يخافونهم أي يخافهم بنو إسرائيل، ويدل على هذا التأويل قراءة ابن عباس وابن جبير ومجاهد «يخافون» بضم الياء...» ثم أورد أبو حيان المعاني الأخرى التي تحتملها القراءة.[5]

وعلة تشذيذ القراءة أنها غير متواترة ولا مستفاضة متلقاة بالقبول وإن صح سندها كما جاء في مستدرك الحاكم[6] من حديث سعيد بن جبير

---

1) المائدة 23.
2) البحر المديد 140/1.
3) المحتسب 208/1.
4) المحرر الوجيز 70/5.
5) البحر المحيط 455/3.
6) المستدرك 237/2.

قال : سألت عبد الله بن عباس (ضما) عن قوله تعالى (وفتناك فتونا)[1] في حديث يبلغ به النبي ﷺ (قال رجلان من الذين يخافون) برفع الياء وصححه. قال الطبري بعد إيراده للقراءتين : «أولى القراءتين بالصواب عندنا قراءة من قرأ (من الذين يخافون أنعم الله عليهما) لإجماع قرأة الأمصار عليها، وأن ما استفاضت به القراءة عنهم فحجة لا يجوز خلافها، وما انفرد به الواحد فجائز فيه الخطأ والسهو.[2]

ومن ذلك أيضا ما جاء في معرض تفسير ابن عجيبة لقوله تعالى : ﴿**فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم**﴾[3] حيث قال : «وقرأ الحسن صال الجحيم بضم اللام ووجهه أنه جمع فحذفت النون للإضافة، والواو لالتقاء الساكنين، ومن مفرد في اللفظ جمع في المعنى فحمل هو على اللفظ والصالون على المعنى».[4]

وإذا كان النحاة قد حاولوا توجيه القراءة توجيهات مختلفة[5]، فإن ابن عجيبة قد اقتصر على إيراد أقوى تلك التوجيهات، وهو التوجيه الذي انتصر له ابن عطية القائل : «أقواه أنه «صالون» حذفت النون للإضافة ثم حذفت الواو للالتقاء، وخرج لفظ الجميع بعد لفظ الإفراد».[6]

2 – وكثيرا ما يذكر ابن عجيبة القراءات الشاذة دون تصريح بذلك كما في قوله : «وقرأ ابن عباس وابن مسعود : تجري لا مستقر لها[7]،

---

1) طه 40.

2) تفسير الطبري 519/4.

3) الصافات 162.

4) البحر المديد 201/3.

5) أنظر البحر المحيط 379/7.

6) المحرر الوجيز 261/13.

7) قال أبو حيان في تفسيره بعد أن ذكر أسماء الذين قرأوا بهذه القراءة :«قرأوا(ولا مستقر لها) مبنيا على الفتح فيقتضي انتفاء كل مستقر وذلك في الدنيا أي هي تجري دائما فيها لا تستقر» البحر المحيط 336/7. وانظر تضعيف القرطبي للقراءة سندا ومعنى في تفسيره 28/15.

ومعناها أنها جارية أبدا لا تثبت في مكان، وقراءة الجماعة أوفق بالحديث.[1]

وقراءة الجماعة التي هي «تجري لمستقر لها» قد ورد في حديث[2] سجود الشمس تحت عرش كل ليلة ما معناه أن مستقرها تحت العرش تسجد فيه كل ليلة بعد غروبها، ولذلك انتصر ابن عجيبة للقراءة المتواترة من حيث توجيه المعنى نظرا لورود الحديث الصحيح بما يوافق ذلك.[3]

3 – وقد يصرح ابن عجيبة بشذوذ القراءة بقوله :«وقرئ في الشاذ» أو قوله «وفي الشاذ كما في قوله تعالى : ﴿هل تنقمون منا﴾[4] حيث قال : «قلت نقم بفتح القاف ينقم بالكسر بمعنى عاب وأنكر وانتقم إذا كافأه على إنكاره، ويقال نقم بالكسر ينقم بالفتح وقرئ به في الشاذ».[5]

فالقراءة الأولى قراءة الجمهور وقد ذكروا أنها اللغة الفصحى ولذلك أجمع القراء على الفتح في قوله تعالى ﴿وما نقموا منهم﴾[6]، والقراءة الثانية قراءة أبي حيوة وابن أبي عبلة وأبي البرهسم[7] والنخعي[8] وهي اللغة المقروء بها في الشواذ وهي من جهة توافق القياس، إذ قياس مضارع (فعِل = نقِم) يكون على (يفعَل = ينقَم)، ومن جهة أخرى فهي قليلة الإستعمال ولذلك وسمت بالشذوذ.

---

1) البحر المديد 189/3 وانظر أيضا قوله (وقرأ ابن مسعود والأعمش وكان عبد الله وجيها) (165/3).

2) نص الحديث كما في صحيح البخاري (كتاب بدء الخلق) 225/4. عن أبي ذر (ض) قال : قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس : تدري أين تذهب، قلت الله ورسوله أعلم قال فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيوذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يوذن لها يقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى : ﴿والشمس تجري لمستقرلها ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

3) أنظر التسهيل لابن جزي 163/3.

4) المائدة 59.

5) البحر المديد 1471.

6) البروج 8.

7) جاء في القاموس المحيط : « أبو البرهسم كسفرجل عمران بن عثمان الزبيدي الشامي ذو القراءات الشاذة.

8) أنظر المحرر الوجيز 139/5 والبحر المحيط 516/5

ومن ذلك أيضا قوله في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**وما تدري نفس بأي أرض تموت**﴾[1] «وفي الشاذ بأية أرض تموت».[2]

4 – وقد يفسر ابن عجيبة قراءة متواترة بقراءة شاذة مصوبا وجه القراءة الشاذة رغم اختياره واحتجاجه للمتواترة كما عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وأصبح فؤاد أم موسى فارغا**...﴾[3] حيث قال : «فارغا من العقل لما دهمها من الجزع والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ويؤيده قراءة ابن محيصن[4] فزعا بالزاي بلا ألف».[5] وكما في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده**﴾[6] حيث قال : «والآية كالدليل لقوله إليه مرجعكم جميعا فإنه لما كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاة الله للمكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة ويؤيده قراءة أنه يبدؤا الخلق بالفتح أي لأنه».[7]

والقراءة الشاذة التي استشهد بها ابن عجيبة هي قراءة الأعمش وسهل بن شعيب وأبي جعفر، قال ابن جني «إن شئت كان تقديره : وعد الله حقا لأنه يبدأ الخلق ثم يعيده وإن شئت كان تقديره : أي وعد الله وعدا حقا أنه يبدأ الخلق ثم يعيده فتكون أنه منصوبة بالفعل الناصب لقوله (وعدا)».[8]

---

1) لقمان 34.

2) البحر المديد 147/3. وهي قراءة ابن أبي عبلة. أنظر تفسير ابن عطية 28/13 والبحر المحيط 194/7.

3) القصص 10.

4) هو محمد بن عبد الرحمان المكي المعروف بابن محيصن، وهو من قراء الشواذ، توفي بمكة عام 123 هـ غاية النهاية 167/2. قال ابن الجزري عن قراءته: «وقد قرأت بها القرآن ولولا ما فيها من مخالفة المصحف لألحقت بالقراءات المشهورة.»

5) البحر المديد 113/3 وأنظر المحرر الوجيز 147/12.

6) يونس 4.

7) البحر المديد 58/2.

8) المحتسب لابن جني 307/1 وأنظر المحرر الوجيز 9/9 والبحر المحيط 124/5.

5 – إن ابن عجيبة من خلال هذه النصوص يبين لنا مذهبه في جواز الإحتجاج بالقراءة الشاذة والإستعانة بها في بيان المراد من القراءة المتواترة، لكنه لا يتفق مع بعض أئمة الفقه في اتخاذها دليلا في مجال الأحكام الفقهية كما هو الشأن بالنسبة للحنفية. ولذلك فهو في مسألة تتابع صيام الأيام الثلاثة في كفارة اليمين لا يرى غير الإستحباب عكس الحنفية الذين يرون وجوب التتابع، يقول في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم**﴾[1] «فصيام ثلاثة أيام يستحب تتابعها واشترطه أبو حنيفة لأنه قرئ[2] «أيام متتابعات» والشاذ ليس بحجة.[3] فابن عجيبة ملتزم بمذهب جمهور المالكية في عدم الإحتجاج بالقراءة الشاذة في الفقه الإسلامي لعلة أنها ليست بقرآن ولا خبر، قال ابن الحاجب : «لا يجوز العمل بالشاذ مثل (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) واحتج به أبو حنيفة لأنه ليس بقرآن ولا خبر، قالوا : لا يخلو من أن يكون قرآنا أو خبرا فيجب العمل به ...لكنه لم يثبت العمل إلا بخبر يغلب على الظن صحته، ولما نقل قرآنا قطع بالخطأفيه»[4] وقال ابن العربي في قبسه[5] : «اعلم أن حديث عائشة في الموطأ ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر**﴾[6] الحديث لا حجة فيه لاتفاق الأمة على أن القراءة الشاذة لا توجب علما ولاعملا.» وزيادة «متتابعات» احتج بها الحنيفة على التتابع في صوم كفارة اليمين لاشتهارها حيث زادوا بها على

---

1) المائدة 91.

2) هي قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب حيث ورد أنهما سمعا النبي ﷺ يقرأ (فصيام ثلاثة أيام متتابعات). أنظر الإتقان 82/1.

3) البحر المديد 152/1.

4) منتهى الوصول والأمل في علمي الأصول والجدل لابن الحاجب ص 46.

5) ابن العربي : القبس في شرح موطأ مالك ابن أنس 521/2.

6) البقرة 236. ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى**﴾.

النص القطعي فقيدوا بها مطلقه[1] و عمل بها الحنابلة في الظاهر من مذهبهم[2]، أما المالكية فلم يحتجوا بها كما لم يحتج بها الظاهرية وطائفة من الشافعية.[3]

ومن ذلك أيضا ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**إنه عمل غير صالح**﴾[4] حيث قوى معنى قراءة سبعية بقراءة شاذة فقال : «وقرأ الكسائي ويعقوب عمل بلفظ الماضي أي عمل عملا فاسدا استحق به البعد منك أو أنه أي سؤالك عمل غير صالح ويقوي هذا قراءة ابن مسعود أنه عمل غير صالح أن تسئلني ما ليس لك به علم، وقراءة الجماعة فلا تسئلني ما ليس لك به علم أصوب».[5]

وقراءة الكسائي روتها أم سلمة وعائشة عن رسول الله ﷺ لكن الطبري ضعف هذه القراءة وطعن في الحديث بكونه من طريق شهر بن حوشب، وقد استند معظم المفسرين إلى قراءة ابن مسعود في مصحفه للتدليل على أن الضمير في قوله : «إنه عمل غير صالح» على قراءة جمهور السبعة إنما يعود على سؤال نوح عليه السلام الذي يتضمنه الكلام، وقد فسره آخر الآية.[6]

6 – وقد ينبه ابن عجيبة على ما في قراءة شاذة من دليل ومستند للمعتزلة على مذهبهم المخالف فيتنكر لها وينتصر لقراءة الجماعة بالرغم مما في تلك القراءة الشاذة من توجيه لغوي جيد، من ذلك مثلا ما جاء في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**إنا كل شيء خلقناه بقدر**﴾[7] حيث قال :

---

1) أحكام القرآن للجصاص 461/2.

2) المغني لابن قدامة 273/11.

3) تفسير القرطبي 183/6 والمحلى 345/6.

4) هود 46.

5) البحر المديد : 78/2.

6) أنظر المحرر الوجيز 162/9 والبحر المحيط 229/5.

7) القمر 49.

«وقرئ كل بالرفع شاذا[1] والنصب أولى لأنه لو رفع لأمكن أن يكون «خلقنا» صفة لشيء، ويكون الخبر مقدرا أي إنا كل شيء مخلوق لنا حاصل بقدر فيكون حجة للمعتزلة باعتبار المفهوم، وأن أفعال العباد غير مخلوقة له. ولم يسبق لها قدر تعالى الله عن قولهم، ويجوز أن يكون الخبر خلقناه فلا حجة فيه ولا يجوز في النصب أن يكون «خلقنا» صفة لشيء لأنه يقتضي الناصب، والصفة لا تعمل في الموصوف وما يعمل لا يفسر عاملا».[2]

وقد أفاض ابن المنير في بيان ما تخدمه القراءة بالرفع من أغراض معتزلية حاول الزمخشري التلميح إليها فقال معترضا على كلامه : «فاعلم أنه إنما عدل عن الرفع إجماعا لسر لطيف يعين اختيار النصب، وهو أنه لو رفع لوقعت الجملة التي هي «خلقناه» صفة لشيء، ورفع قوله بقدر خبرا عن كل شيء المقيد بالصفة. ويحصل الكلام على تقدير : إنا كل شيء مخلوق لنا بقدر، فأفهم ذلك أن مخلوقا ما يضاف إلى غير الله تعالى ليس بقدر، وعلى النصب يصير الكلام أنا خلقنا كل شيء بقدر فيفيد عموم نسبة كل مخلوق إلى الله تعالى».[3]

وقد بين ابن جني قوة هذه القراءة من جهة العربية، وهو في ذلك لا يقصد تضعيف قراءة الجماعة إذ أن القراءة الشاذة قد تكون أقوى إعراباومعنى من القراءة المجمع عليها لكنها مطعون في سندها أو مخالفة للمرسرم المجمع عليه.[4]

---

1) هي قراءة أبي السمال في المحتسب 300/2 ، وهي في المصحف بنصب (كل).

2) البحر المديد 89/4. وانظر تفسير ابن عطية 315/15 والبحر المحيط 183/8.

3) الإنتصاف فيما تضمنه الكشاف من الإعتزال بهامش الكشاف 424.

4 المحتسب 300/2.

ولذلك قال أبو عمرو الداني : «وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل...».[1]

7 – ينحو ابن عجيبة أحيانا أثناء بيانه لمعاني الآية القرآنية إلى الجمع بين المتواتر والشاذ من القراءات بحثا منه على وحدة معنوية تجمع شتات معاني القراءات وتفيد في التفسير والتأويل.من أمثلة ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**لتومنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا**﴾[2] حيث قال : «قرأ المكي والبصري بالغيب في الأربعة والضمائر للناس[3]، وقرأ ابن السميفع[4] وتعززوه بزاءين أي تنصروه وتعزوا دينه».[5]

ومن ذلك أيضا ما جاء في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**وقالوا قلوبنا غلف**﴾[6] حيث قال : «غلف جمع أغلف كأحمر وحمر وأصفر وصفر وهو الذي عليه غشاوة... وقيل أصله غلف بضم اللام وبه قرأ ابن محيصن فيكون جمع غلاف كحجاب وحجب وكتاب وكتب ومعناه قلوبنا أوعية لكل علم فلا تحتاج لعلمك وكتابك».[7]

وقد يذكر ابن عجيبة قراءة بالغة الشذوذ فيوجهها كما هو الشأن في قوله تعالى ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾[8] فبعد أن فسر الآية

---

1) النشر 11/1 وانظر مقدمة وتحقيق أستاذنا الدكتور التهامي الراجي الهاشمي لكتاب «التعريف» للداني ص 72.

2) الفتح 9.

3) أنظر التيسير ص 201 والحجة ص 302 والكشف 280/2 والنشر 359/2.

4) هو محمد بن عبد الرحمان بن السميفع أبو عبد الله اليماني له بن اختيار في القراءة ينسب إليه شذ فيه، وهو ضعيف. أنظر : غاية النهاية لابن الجزري 161/2.

5) البحر المديد 51/4 وانظر البحر المحيط 89/8.

6) البقرة 88.

7) البحر المديد 22/1. وبها قرأ ابن عباس والأعرج وابن هرمز. أنظر البحر المحيط 301/1.

8) فاطر 28.

وأوضح مختلف طرق خشية العلماء فالله تعالى قال : «وقرأ أبو حنيفة وعمر بن عبد العزيز بنصب العلماء ورفع الله، والخشية في هذه القراءة بمعنى التعظيم، والمعنى إن ما يعظم الله من عباده العلماء».[1]

وقد ذهب أبو حيان[2] إلى احتمال عدم صحة ورود هذه القراءة عن أبي حنيفة وعمر بن عبد العزيز معللا ذلك بكون معظم كتب الشواذ لم تذكر هذه القراءة، وإنما ذكرها الزمخشري.[3]

1) البحر المديد 182/3.

2) البحر المحيط 312/7.

3) الكشاف 320/3.

الفصل الثالث :

منهجه في رواية
الأحاديث النبوية الشريفة

حفل تفسير ابن عجيبة بذخيرة مهمة من الأحاديث النبوية الشريفة تمثل مادة أساسية وركيزة هامة في التفسير بالمأثور، وقد وظفها المؤلف لأغراض متعددة، وساق الكثير منها في مجالات الإحتجاج والإستشهاد والإستئناس، إلى غير ذلك من الجوانب والأبعاد التي طرقت بها.

لم يكن ابن عجيبة دخيلا على مجال علم الحديث رواية ودراية، فقد تلقى أصوله وقواعده على كبار محدثي وقته وخاصة بفاس حيث أخذ على الشيخ التاودي بن سودة والطيب بن كيران ومحمد بنيس. وقد أورد في فهرسته سنده في الحديث النبوي إلى رسول الله ﷺ مبينا لنا طرق تحمله لصحيحي البخاري ومسلم. وتتجلى لنا ثقافة ابن عجيبة الحديثية الواسعة أبين جلاء من خلال حاشيته على الجامع الصغير للإمام السيوطي التي أبان فيها عن قدرته الفائقة في شرح الحديث شرحا وافيا وجامعا وإبراز مكامن الدراية الحديثية فيه، وإذا علمنا أن تأليفه للحاشية كان في السنة الأخيرة من حياته تبين لنا أن اهتمام المؤلف بعلم الحديث لم يفتر في أي مرحلة من مراحل حياته، وإذ نؤكد على هذا الأمر نريد أن نوضح أن ابن عجيبة لما ولج طريق التصوف لم يمنعه ذلك من الإهتمام بهذا العلم وتوظيفه توظيفا حسنا في مؤلفاته الصوفية، ويعتبر «البحر المديد» أبرز مثال على ذلك حيث نجد تدفق المادة الحديثية المتنوعة في التفسير

بالظاهر والنفسير بالإشارة على السواء، وقد كان لذلك الأثر البالغ في تعزيز مكانة هذا النتاج التفسيري الضخم حيث امتزج التفسير بالرأي وبالإشارة الصوفية بالتفسير بالمأثور والسنة والرواية، وهو ما جعل تفسير «البحر المديد» يتميز عن كثير من التفاسير الصوفية التي اقتنع فيها أصحابها بالإشارات والتلويحات الصوفية، وبالرأي والدراية معرضين عن علوم الأثر والنقل مما جعلها محط انتقادات العلماء وإنكارهم.

أما عن منهج ابن عجيبة في رواية الحديث النبوي الشريف في تفسيره فسأتعرض له وفق النقط التالية :

أولا : تخريجه للأحاديث.

ثانيا : تصحيحه للأحاديث وتضعيفها.

ثالثا : روايته للأحاديث الضعيفة والموضوعة.

رابعا : أحاديث فضائل السور.

خامسا : رواية الحديث بالمعنى.

أولا : تخريجه للأحاديث.

يلتزم ابن عجيبة في معظم الأحيان بتخريج الأحاديث التي يستشهد بها. فينسبها إلى مصادرها من المصنفات الحديثية المعروفة وخاصة منها الكتب الستة غير أن اعتماده على صحيح البخاري يبدو أمرا لافتا للإنتباه حيث جعله مصدره الأساسي في رواية الأحاديث، وهو يشير إليه بالتصريح مرة[1] وبالتلميح أخرى بقوله : وفي الصحيح.[2]

ونجد المؤلف أحيانا يخرج الأحاديث ويذكر رواتها[3]، كما في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين**﴾[4] حيث قال : «وفي البخاري عن ابن عباس : كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله قال هذا دين صالح وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال هذا الدين سوء».[5]

وقد يذكر ابن عجيبة الأحاديث دون تخريج أو ذكر لرواتها مكتفيا بقوله : وفي الحديث[6] أو قوله : وفي الصحيح[7]. أو قوله : قال رسول الله ﷺ.[8] أو قوله : مما روي مرفوعا.[9]

---

1) أنظر مثلا : البحر المديد :10/2 – 73/2 – 39/3 – 57/4.

2) أنظر مثلا : البحر المديد : 76/1 – 139/1 – 164/2.

3) أنظر مثلا : البحر المديد : 48/4 (في مسند أحمد عن ابن مسعود) 147/2 (في الموطأ عن سعيد بن المسيب) 142/1 (وفي البخاري عن ابن مسعود).

4) الحج : 11.

5) البحر المديد : 93/3 والحديث أخرجه البخاري في صحيحه 181/6 (باب وترى الناس سكارى : تفسير سورة الحج).

6) البحر المديد : 11/1 – 156/3.

7) البحر المديد : 76/1 – 119/2.

8) البحر المديد : 34/1 – 84/1.

9) البحر المديد : 208/3.

ويورد المؤلف الحديث أحيانا مقرونا برواية دون تخريجه مثل قوله: «روى جابر (ض) قال : قال رسول الله ﷺ.[1]

ومما يدلنا على مدى احتياط ابن عجيبة في رواية الأحاديث أنه نقل مرة حديثا عن البيضاوي في تفسيره ثم قال بعد ذلك : «أنظر من أخرجه»[2]، وكأنه ينصح بالتأكد من صحة الحديث.

ثانيا : تصحيحه للأحاديث وتضعيفها.

لم يتطرق ابن عجيبة في تفسيره لميدان الجرح والتعديل حيث إنه لم يعن بنقد الأحاديث من حيث صحتها أو ضعفها، فهو يرى – كرجل صوفي– أن ذلك الأمر يحال على رجاله، إذ همه هو توظيف الحديث من أجل التفسير والإستشهاد وتدعيم آرائه ونظرياته في التصوف لذلك لا نكاد نعثر إلا نادرا على تتبع ابن عجيبة للأحاديث ببيان درجتها عند المحدثين.

إن الذي يهمنا في هذا المبحث هو النظر في مدى تأكيد المؤلف على صحة الحديث أو ضعفه وليس البحث عن مدى اعتماده على الأحاديث الصحيحة والضعيفة الذي سوف نخصص له مبحثا آخر.

والذي يظهر من خلال تصحيح ابن عجيبة لبعض الأحاديث أو تضعيفه لها – وهو أمر نادر– أنه بعد تتبع ذلك وبحثه وتمحيصه تتبين صحة ما ذكره. من أمثلة ذلك ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا...**﴾[3] حيث قال : «وقيل أنه عليه السلام جمع له الأنبياء عليهم السلام وقيل له سلهم وهو ضعيف».[4] والذي يلاحظ

---

1) البحر المديد : 56/1 – 159/3.

2) البحر المديد : 64/3.

3) الزخرف 45.

4) البحر المديد 17/4.

أنه بجانب تضعيف الحديث أورد المؤلف صيغة التمريض في قوله (قيل) تأكيدا على أن الحديث ضعيف.

وفي معرض تفسيره لأواخر سورة الحشر نقل حديثا عن ابن جزي في تفسيره[1] أسنده إلى عبد الله بن مسعود (ض) أنه قال : قرأت على النبي ﷺ فلما انتهيت إلى آخر الحشر قال : «ضع يدك على رأسك قلت ولم ذاك يا رسول الله قال : أقرأني جبريل القرآن فلما انتهيت إلى آخر الحشر قال : ضع يدك على رأسك يا محمد قلت : ولم ذلك... الحديث هـ[2] وعقب ابن عجيبة على الحديث بقوله : وسمعت من شيخنا الفقيه الجنوي أنه حديث ضعيف ويؤكد أحيانا على تصحيح وتضعيف نقاد الحديث وأئمة الجرح والتعديل. من ذلك مثلا إيراده لأحاديث الترمذي في سننه مقرونة بدرجة التصحيح والتحسين كما في قوله[3] : وفي حديث الترمذي : «إن في الجنة بحر الماء وبحر اللبن وبحر العسل وبحر الخمر ... قال حسن صحيح. وقد يشير المؤلف إلى تضعيف الحديث بكونه مما تكلم فيه العلماء الحديث كما جاء في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود**﴾[4] حيث قال : «وفي بعض الأثر : يا داود طهر لي بيتا أسكنه فقال يارب وأي بيت يسعك فقال لم يسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المومن». ثم عقب عليه بقوله :«وفيه عند أهل الحديث كلام».[5] وقد يبين ابن عجيبة في بعض الأحيان وضع الحديث أو نكارته كما هو الشأن في حديث : «ومن عرف نفسه فقد عرف ربه» حيث استشهد به مرات عديدة لكن مع التنبيه على

---

1) ابن جزي : التسهيل : 112/4.

2) البحر المديد : 120/4.

3) نفسه : 45/4.

4) الحج : 26.

5) البحر المديد 41/3. ونحو ذلك استشهاده بحديث في مشروعية السماع فيه أنه عليه الصلاة والسلام قال لمعاوية: مه مه يا معاوية ليس بكريم من لم يهتز عند ذكر الحبيب. قال عقبة : وتكلم الناس في هذا الحديث. (الفتوحات الإلهية 95/2).

درجة ضعفه. فقد أورده مثلا عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾[1] ثم عقب عليه بقوله : «قلت : حديث : «من عرف نفسه فقد عرف ربه» أنكره النووي وقال إنه من كلام يحيى بن معاذ، وقد اشتهر عند الصوفية حديثا، ومعناه حق فإن من عرف حقيقة نفسه وأنها مظهر من مظاهر الحق وغاب عن حس وجوده الوهمي فقد عرف ربه وشهده».[2]

فابن عجيبة يأخذ -كغيره من الصوفية- بالمعنى الصحيح الذي يتضمنه الحديث المعتبر به مما اشتهر ضعيفا، لكنه لا يتوانى في التأكيد على ضعفه ونكارته استنادا لأقوال العلماء، ولذلك نجده يؤكد مرة أخرى على أن الحديث إنما هو من كلام يحيى بن معاذ وليس من كلام رسول الله ﷺ فيقول[3] : (قد اشتهر على ألسنة كثير من الصوفية أن من عرف نفسه فقد عرف ربه حديث، وليس كذلك وإنما هو من كلام يحيى بن معاذ الرازي حسبما نص عليه الحافظ البدر الزركشي والحافظ السيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، ونصه : «حديث : من عرف نفسه فقد عرف ربه قال النووي : غير ثابت، وقال السمعاني : هو من كلام يحيى بن معاذ الرازي» وكل فن يرجع فيه لأربابه، والصوفية رضي الله عنهم لحسن ظنهم كثيرا ما يتساهلون في الأحاديث».[4]

---

1) الذرايات 21.

2) البحر المديد 72/4.

3) الفتوحات الإلهية 269/2 وراجع أيضا نفس المصدر 183/2. وأكد في شرحه على تائية البوزيدي ص 44 على أن الصحيح لدى علماء، الحديث هو نسبته إلى يحيى بن معاذ.

4) جاء في كتاب «المقاصد الحسنة» للسخاوي (ت 902 هـ) قال أبو المظفر السمعاني، لا يعرف مرفوعا وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي من قوله، وكذا قال النووي : أنه ليس بثابت. وقد ألف السيوطي (ت 911) رسالة في الموضوع سماها : «القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه» طبعت ضمن كتاب : الحاوي للفتاوي (351/2 ...) ونقل علي القاري الهروي في كتابه : المصنوع في معرفة الحديث الموضوع أنه حديث باطل ليس بصحيح، أنظر : المصنوع تح عبد الفتاح أبو غدة، مؤسسة الرسالة ط 19782 ص : 37. وراجع سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني، ط 1398/4 هـ (96/1).

ثالثا : روايته للأحاديث الضعيفة والموضوعة .

من المؤكد أنه لا يكاد يخلو مؤلف من مؤلفات الصوفية من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وإذا عرف السبب والهدف اللذان يقيم عليهما الصوفي في كتاباته تبين أن مسألة احتياطه وتيقظه في رواية الأحاديث لا تعار لها الأهمية اللازمة، إذ من المعلوم أن الصوفي ينزع دوما في تآليفه إلى تدعيم آرائه ونظرياته واتجاهه الصوفي بما يكون قد سمعه من الأحاديث أو تلقفته أذناه من الأخبار في مجلس من المجالس، لا يهمه أمر صحتها أو ضعفها ما دامت معانيها ومضامينها صحيحة في نفسها.

وهذا ما يؤدي -ولا شك- إلى مخاطر كثيرة ومزالق متعددة يأتي على رأسها احتمال الكذب على رسول الله ﷺ ورواية الموضوعات الشنيعة وقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : «قال رسول اللهﷺ: كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع»[1] وذكر بسنده إلى مالك بن أنس عن ابن وهب قال : قال لي مالك : اعلم أنه ليس يسلم رجل حدث بكل ما سمع ولا يكون إماما أبدا ولا يحدث بكل ما سمع»والصوفية عموما يحدثون ويروون كل ما سمعوه فهم يقعون إذن في دائرة الحظر النبوي وتحذيرات العلماء والمحدثين.

بيد أن من العلماء من أجاز رواية الأحاديث الضعيفة في مجالات الترغيب والترهيب مما يختص به الوعاظ والصوفية، فقد ذكر المنذري في مقدمة كتابه «الترغيب والترهيب» «أن العلماء استساغوا التساهل في أنواع من الترغيب والترهيب، حتى إن كثيرا منهم ذكروا الموضوع ولم يبينوا حاله»[2] غير أن الذي أكده علماء الحديث هو أن الأمر مشروط بذكر الأحاديث بأسانيدها وهو ما أشار إليه الإمام أحمد بن حنبل في قولته

---

1) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه 11/1.

2) المنذري : الترغيب والترهيب 3/1.

الشهيرة : إذا جاء الحلال والحرام شددنا في الأسانيد وإذا جاء الترغيب والترهيب تساهلنا في الأسانيد»[1] و قد نص عليه الإمام ابن الصلاح في مقدمته بقوله : «ويجوز عند أهل الحديث وغيرهم التساهل في الأسانيد ورواية ما سوى الموضوع من أنواع الأحاديث الضعيفة من غير اهتمام ببيان ضعفها فيما سوى صفات الله وأحكام الشريعة من الحلال والحرام وغيرهما، وذلك كالمواعظ والقصص وفضائل الأعمال وسائر فنون الترغيب والترهيب وسائر ما لا تعلق له بالأحكام والعقائد»[2] على أن ابن الصلاح –وقد كانت رواية الأحاديث الضعيفة والموضوعة في عصره قد تفشت – نبه إلى حسن الأدب في رواية الحديث الضعيف قائلا : «إذا أردت رواية الحديث الضعيف بغير إسناد فلا تقل فيه : قال رسول الله ﷺ كذا وكذا وما أشبه هذا من الألفاظ الجازمة بأنه ﷺ قال ذلك وإنما تقول فيه : روي عن رسول الله ﷺ كذا وكذا أو بلغنا عنه كذا وكذا...وهكذا الحكم فيما نشك في صحته وضعفه».[3]

فالثابت إذن لدى علماء الحديث ضرورة بيان ضعف الحديث أو وضعه في حال ذكره بدون إسناد ولو بطريق التمريض مثل : قيل، روي ونحوه. وقد ذكر الشيخ أحمد شاكر رحمه الله أن «بيان الضعف في الحديث الضعيف واجب على كل حال، لأن ترك البيان يوهم المطلع عليه أنه حديث صحيح، خصوصا إذا كان الناقل من علماء الحديث الذين يرجع إلى قولهم في ذلك، وأنه لا فرق بين الأحكام وبين فضائل الأعمال ونحوها في عدم الأخذ بالرواية الضعيفة، بل لا حجة لأحد إلا بما صح عن رسول الله ﷺ من حديث صحيح أو حسن.[4]

---

1) فتاوي ابن تيمية 65/18.

2) مقدمة ابن الصلاح، طبعة 1972 – منشورات دار الحكمة بدمشق، باب «رواية الحديث وأداؤه» ص : 112.

3) نفسه ص : 106.

4) الباعث الحثيث ص : 101.

في ضوء هذه المعطيات كيف تعامل إذن ابن عجيبة مع الأحاديث الضعيفة والموضوعة في سياق ما هو معروف عن الصوفية من اعتماد قوي على هذا الصنف من الأحاديث؟.

بادئ ذي بدء لابد من التمييز بين صنفين من الصوفية في هذا المجال، فهناك صوفية علماء، قد تزودوا بالمعارف والعلوم الشرعية عامة قبل ولوجهم طريق التصوف وهناك صوفية وعاظ لم يسبق لهم أن تلقوا العلوم الشرعية بما فيه الكفاية لكي يكونوا على بينة منها.

ويمكن القول بأن ابن عجيبة يدخل في الصنف الأول إلا أن تجاذب المعرفتين : العلمية (الشرعية) من جهة والصوفية من جهة أخرى جعله في كتاباته وبخاصة في تفسيره يقف تارة موقف الباحث المتمحص الذي يروي الضعيف وينص عليه منبها وتارة يقف موقف عامة الصوفية الذين لا يولون هذا الجانب أدنى اهتمام فيروون ضعيف الحديث وموضوعه دون التنبيه على ذلك.

وهذا ما سنبينه من خلال بعض الشواهد من تفسيره.

أما بالنسبة للأحاديث التي بين ضعفها فقد سبق أن ذكرنا تأكيده في مواضع عدة من تفسيره على وضع حديث «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، وعلى تضعيف أحاديث أخرى قد يكتفي أحيانا بالتنصيص على أسماء من حكموا بضعفها أو وضعها كقوله في حديث ملكي الموت : قال العراقي : لم أجد له أصلا[1]، وكقوله في حديث معاذ بن جبل (ض) أنه عليه السلام قال : «إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل خلق السماوات ووكل كل ملك بباب من أبواب السماء ...الحديث، ثم عقب بقوله : خرجه المنذري وتكلم في وضعه والله تعالى أعلم.[2]

1) البحر المديد : 149/3.

2) البحر المديد : 78/3.

والذي يلاحظ في هذا الصدد أن ابن عجيبة قد يعلم ضعف الحديث ولا ينص على ذلك، لكنه بالمقابل لا يذكره على أساس أنه حديث بل يذكره كواحد من الآثار أو الأخبار المروية قائلا : «وفي الأثر» أو «في الخبر» قاصدا بذلك إدراجه ضمن أقوال السلف عامة حسب مذهب بعض العلماء في بيان معنى الخبر الذي بينه وبين الحديث عموم وخصوص مطلق، «فكل حديث خبر ولا عكس»[1] كما أن الأثر يتضمن المرفوع والموقوف والمقطوع.

فالحديث الموضوع «من عرف نفسه فقد عرف ربه» نص ابن عجيبة مرارا على ضعفه ووضعه لكن نجده يكتفي أحيانا بقوله : «قيل من عرف نفسه فقد عرف ربه»[2] بصيغة التمريض وأحيانا يقول : «وفي الأثر : من عرف نفسه فقد عرف ربه».[3]

ومن ذلك أيضا قوله : وفي الأثر القدسي : «كنت كنزا لم أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فتعرفت لهم فبي عرفوني»[4] والحديث ذكره علي القاري في موضوعاته[5] بقوله : نص الحفاظ كابن تيمية والزركشي والسخاوي على أنه لا أصل له، وقد ذكره ابن عربي الحاتمي في فتوحاته ووقف عنده طويلا شارحا ومبينا أن الخلق ما عرفوا الخالق بنظرهم وإنما عرفوه بتعريفه إياهم».[6]

---

1) السيوطي : تدريب الراوي ص : 4.

2) البحر المديد : 148/3.

3) البحر المديد: 51/1.

4) البحر المديد : 55/3.

5) المصنوع في الحديث الموضوع ص : 141.

6) الفتوحات المكية 4/6-7 وانظر في شرح كلام ابن عربي كتاب : الكتابة والتجربة الصوفية لمنصف عبد الحق، منشورات عكاظ ط 1988/1 ص : 186. وراجع ما قاله الألوسي في الحديث عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ حيث قال : «ومن يرويه من الصوفية معترف بعدم ثبوت الحديث نقلا، لكن يقول : إنه ثابت كشفا، وقد نص على ذلك الشيخ الأكبر، والتصحيح الكشفي يستثنيه لهم» روح المعاني 20/27.

ومن شواهد ذلك أيضا قوله : «وفي الخبر : من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم»[1] و هو الخبر الذي كثيرا ما يروى على أساس أنه حديث، إلا أن النقاد قد ذكروا هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه حديث نبوي.[2]

بالمقابل نجد ابن عجيبة في تفسيره يروي أحاديث ضعيفة وموضوعة دون أن ينبه على ضعفها أو وضعها، وهو في معظم ذلك يكون ناقلا عن الغزالي في إحيائه وأبي طالب مكي في قوته وغيرهما دون التنبيه إلى قيمة ومستوى الأحاديث المروية، غير أن الذي يمكن تأكيده بهذا الصدد هو أن نسبة الأحاديث الضعيفة المبثوثة في ثنايا تفسير ابن عجيبة قليلة جدا بالمقارنة مع ما جاء في كثير من كتب التفسير وأمهات كتب التصوف، وهذا يدل على احتياط المؤلف الشديد وحذره من الوقوع في المحظور لحديث : «اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم».[3]

من أمثلة ذلك ما استشهد به في سياق تفسيره لقوله تعالى : ﴿**ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها**﴾[4] حيث قال : روى علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ أنه قال : «عليكم بالعدس فإنه مبارك مقدس وإنه يرقق القلب ويكثر الدمعة وإنه بارك فيه سبعون نبيا آخرهم عيسى بن مريم».[5]

ومن ذلك أيضا ما أورده مرويا عن أبي سعيد الخدري (ض) عن النبي ﷺ أنه قال : أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون»[6] والحديث يكثر

---

1) البحر المديد : 57/1.

2) الحديث أخرجه أبو نعيم في حليته (410/1-15). أنظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء 71/1. وراجع سلسلة الألباني 423/1.

3) أخرجه الترمذي في سننه (كتاب التفسير) 268/4. وانظر كتاب : تحذير الخواص للسيوطي ص : 146.

4) البقرة : 61.

5) البحر المديد 17/1. والحديث أورده ابن الجوزي في كتابه «الموضوعات» 294/2.

6) نفسه : 159/3.

وروده ذكره على ألسنة الصوفية.[1] وقد ورد في إسناد الحديث دراج أبو السمح الذي ضعفه نقاد الحديث أمثال أحمد بن حنبل وأبي حاتم[2] ومما يروى من الأحاديث الضعيفة قريبا من هذا حديث : «أكثروا ذكر الله حتى يقول المنافقون : إنكم مراءون».[3]

والملاحظ أن ابن عجيبة كثيرا ما ينساق في رواية الأحاديث الضعيفة وراء ابن عطية دون تمحيص وذلك لكثرة اعتماده عليه، لكننا قد نجده أحيانا يحتاط في ذلك فلا ينقل عنه شيئا مما أورده، ولعل أبرز مثال على ذلك ما جاء في تفسير آية الكرسي حيث اكتفى ابن عجيبة برواية أحاديث صحيحة أخرجها النسائي والحاكم منها أيضا ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي موسى (ض) قال : قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات قال : «إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يحفظ القسط ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور – وفي رواية النار– لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه من أدركه وأبصره»[4] في حين لم ينقل عن ابن عطية حديثا شديد الضعف ساقه لدى تفسيره للآية، والحديث رواه أبو هريرة (ض) قال : «سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى على المنبر قال : «وقع في نفس موسى هل ينام الله جل ثناؤه فأرسل الله إليه ملكا فأرقه ثلاثا ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما قال : فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ثم يستيقظ فيحبس إحداهما عن الأخرى حتى نام نومه فاصطفقت يداه فانكسرت

---

1) الحديث أخرجه الحاكم في مستدركه 499/1 وأحمد في مسنده 68/30. وأورده الثعلبي في تفسيره 117/3.

2) قال أحمد بن حنبل : أحاديثه مناكير ولينه وقال النسائي : منكر الحديث وقال أبو حاتم :ضعيف. أنظر الميزان للذهبي ط 1963/1 القاهرة 24/2.

3) الألباني : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة 9/2.

4) البحر المديد : 57/1. والحديث أخرجه مسلم في صحيحه 161/1 وابن ماجة في مقدمة سننه 71/1 وأحمد في مسنده 395/4.

القارورتان. قال : ضرب الله مثلا أن لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض».[1]

وقد وصف الإمام الذهبي هذا الحديث بأنه منكر حيث قال : «أمية بن شبل يماني له حديث منكر رواه عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة مرفوعا...»[2] ومن المفسرين الذين حكموا على الحديث بالضعف والنكارة الإمام القرطبي (ت 672 هـ) حيث قال : لا يصح هذا الحديث، ضعفه غير واحد منهم البيهقي»[3] وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره : «هذا حديث غريب جدا والأظهر أنه إسرائيلي لا مرفوع والله أعلم».[4]

وإذا كان مما يؤخذ على ابن عجيبة انسياقه وراء الصوفية وبعض المفسرين في رواية الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وهو العالم الصوفي المتمكن من علم الحديث، فإن نقله وإيراده لبعض الأحاديث الضعيفة في مجال فضائل الأعمال هو مما يمكن عدم انتقاده عليه نظرا إلى كون المؤلف ممن يذهب مذهب الجواز في رواية الحديث الضعيف في فضائل الأعمال خاصة وأن حقل التصوف والمواعظ والرقاق يغلب عليه الإكثار من الترغيب والترهيب والحث على فضائل الأعمال. وقد نص ابن عجيبة على أن الفضائل يعمل فيها بالضعيف[5] لكن بشرط أن يكون الضعف غير شديد، يقول في كتابه «الفتوحات الإلهية» : «وأحسن المذاهب في فضائل الأعمال مذهب المحدثين إذ لا يأخذون إلا بما صح أو قارب الصحيح، فلا يأخذون بموضوع ولا بما قوي ضعفه، وقد حذروا من تتبع الفضائل وتتبع الرغائب

---

1) تفسير ابن عطية 275/2.

2) الميزان للذهبي 276/1 وقال : «لا يسوغ أن يكون هذا وقع في نفس موسى، وإنما روي أن بني إسرائيل سألوا موسى عن ذلك».

3) تفسير القرطبي 273/3.

4) تفسير ابن كثير 308/1.

5) البحر المديد : 58/1 عند تفسير آية الكرسي.

كصلاة الأيام والليالي وغير ذلك»[1] فهذا كلام لا يقوله من الصوفية إلا من كانت لديه خلفية واسعة من علم الحديث واطلاع عميق على مباحثه وقواعده. فمذهب المحدثين إذن أسلم وأفيد إذ به يتوقى المرء الوقوع في الحظر الوارد في الحديث : «اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم»[2] ومعلوم أن العلماء اتفقوا على أن الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال وفي الترغيب والترهيب لكن ليس في الإستحباب الذي هو حكم شرعي لا يثبت إلا بدليل شرعي كما أن اعتقاد موجبه وهو مقادير الثواب والعقاب يتوقف بدوره على الدليل الشرعي، وبيان ذلك أن الحديث الضعيف إذا تضمن تقديرا وتحديدا مثل الصلاة في وقت معين بقراءة معينة أو على صفة معينة لم يجز ذلك، لأن استحباب هذا الوصف المعين لم يثبت بدليل شرعي. ولشدة اهتمامه بمعنى الحديث وأبعاده نجد ابن عجيبة أحيانا يقبل الإستشهاد والإستئناس بالحديث الضعيف مادام معناه صحيحا ومقبولا، من ذلك مثلا استشهاده بحديث نقله عن الشطيبي قائلا : «فالله أعلم بصحته غير أنه كلام صحيح في نفسه»[3] ومنه أيضا ما جاء في الفتوحات الإلهية[4] من روايته لحديث : «حب الدنيا رأس كل خطيئة» حيث قال بعد سوقه : «رواه البيهقي في الشعب من مراسيل الحسن وقيل هو من كلام مالك بن دينار وقيل من كلام سيدنا عيسى عليه السلام وقيل من كلام علي كرم الله وجهه وعده بعضهم في الموضوعات، ورده ابن حجر فالله تعالى أعلم، وعلى كل حال فهو كلام صحيح في المعنى مجرب مذوق».

والحاصل أن ابن عجيبة يبدو من خلال تفسيره شديد الحذر من الانسياق وراء رواية مثل تلك الأحاديث التي يغلب على معظم الصوفية

---

1) الفتوحات الإلهية : 141/1.

2) سبق تخريجه.

3) إيقاظ الهمم 217/2.

4) الفتوحات الإلهية 106/1.

حشو مؤلفاتهم بها لا يهمهم في ذلك سوى التأثير على الناس وحثهم على فعل وجوه الخير والبر والإحسان بأي وجه كانت وإن لم يكن لها دليل أو أصل يوافقها.

رابعا : أحاديث فضائل السور

لابد من التنبيه أولا إلى أنه ليس كل ما روي في مجال فضائل القرآن وسوره من أحاديث هي ضعيفة أو موضوعة كما قد يتصور البعض نتيجة ما أثير حول هذه القضية من شبهات وتحذيرات، ويكفي أن نطلع على باب «فضائل القرآن» أو «فضائل السور والآي» في كتب الصحاح والسنن لنعلم بيقين أن هناك أحاديث صحيحة لا مجال لانسياب الشك إليها، كما أورد كل من البدر الزركشي (ت 749 هـ) والجلال السيوطي في كتابيهما[1] نماذج من الأحاديث الصحيحة الواردة في فضائل السور والآي. وأفرده بالتصنيف كل من النسائي.[2] وأبي عبيد القاسم بن سلام[3] وابن كثير[4] والسيوطي[5] وغيرهم.

ولا مجال للحكم على أحاديث فضائل السور بالصحة أو الضعف إلا عن طريق تطبيق قواعد الجرح والتعديل والرجوع إلى ما قاله نقاد الحديث وجهابذة هذا العلم، إذ من تلك الأحاديث الضعيفة والموضوعة ما هو خفي دقيق لا يدركه إلا الحفاظ المتقنون ممن لهم قدم راسخة وثابتة في حفظ الحديث ودرايته ونقده والعلم برجاله وأحوال رواته.

---

1) أنظر البرهان في علوم القرآن للزركشي 438/1. والإتقان للسيوطي 106/4-115.

2) فضائل القرآن للنسائي، تح د . فاروق حمادة، ط دار الثقافة بالبيضاء 1980.

3) فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام، تح أحمد الخياطي، طبع وزارة الأوقاف المغربية 1995.

4) فضائل القرآن لابن كثير. طبع طبعات كثيرة.

5) ذكر في إتقانه أنه ألف كتاب «خمائل الزهر في فضائل السور» حرر فيه ما ليس بموضوع، أنظر الإتقان 102/4.

وقد أجمع العلماء على تصنيف الحديث المطول المروي تارة عن أبي بن كعب وتارة عن ابن عباس عن عكرمة في فضائل القرآن سورة سورة ضمن الموضوعات، حيث ذكره ابن الجوزي في كتابه والسيوطي في لآلئه.[1]

وقد روى ابن الجوزي بسنده إلى ابن المبارك أنه قال في حديث أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال : من قرأ سورة كذا فله كذا...» أظن الزنادقة وضعته».[2]

وقال السيوطي : «قال الخليلي في الإرشاد : روى نوح بن أبي مريم الجامع[3] في فضائل القرآن سورة سورة عن رجل عن عكرمة عن ابن عباس فقيل له : من أين لك هذا ؟ فقال : إن الناس قد اشتغلوا بفقه أبيحنيفة ومغازي ابن إسحاق وغيره فوضعت هذا الحديث حسبة».[4]

وقد أخطأ كثير من المفسرين في اعتمادهم على هذا الحديث وسوقهم له في تفاسيرهم كالثعبلي والواحدي والزمخشري والبيضاوي وغيرهم. وقد يعذر الأول والثاني في كونهما ساقا الحديث بسنده وإن كان لا يجوز لهما السكوت عنه، أما غيرهما فعذرهم أبعد. أما ابن عجيبة فهو ينقل عن الثعلبي والبيضاوي لكنه لا يكثر النقل عنهم حيث إن كثيرا من أحاديث فضائل السور التي ذكراها في تفسيريهما لا نجد لها أثرا في تفسير ابن عجيبة، فالسور التي ختم المؤلف تفسيرها بذكر بعض فضائلها قليلة جدا بالمقارنة مع ما نقله كثير من المفسرين السابقين أمثال الثعلبي والواحدي والزمخشري والنسفي حتى إنه كاد يقتصر على السور التي نص العلماء

---

1) الآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة. ط 1975/2، بيروت 227/1.

2) الموضوعات لابن الجوزي 24/1.

3) نوح ابن أبي مريم لقلب بالجامع لجمعه علوما كثيرة، أخذ الفقه عن أبي حنيفة وابن أبي ليلى والتفسير عن الكلبي والمغازي عن ابن إسحاق، قيل فيه : أنه كان جامعا لكل شيء إلا الصدق.

4) اللآلئ المصنوعة 227/1.

على أنه قد صحت في فضائلها الأحاديث مثل : الفاتحة والزهراوين والأنعام والكهف ويس والدخان[1] والملك[2] والزلزلة والنصر والكافرون والإخلاص والمعوذتين. وقد كان في إمكان ابن عجيبة -وقد عاش في فترة متأخرة (ق 13 هـ) - أن يجمع كل ما أورده المفسرون في هذا المجال ويحشو بذلك تفسيره، لكنه أبى إلا أن يربأ بنفسه عن ذلك حتى إنه يلاحظ أن هناك من السور ما ورد في فضلها أحاديث موضوعة دأب المفسرون على ذكرها لكن المؤلف لم يسقها البتة، مثال ذلك ما ورد في فضل قراءة سورة آل عمران : «من قرأ سورة آل عمران أعطي بكل آية منها أمانا على جسر جهنم».[3]

أما ما نقله ابن عجيبة عن بعض المفسرين من ذلك وكان ضعيفا فهو معتبر لديه ضمن أحاديث الفضائل عامة مما يجوز الأخذ به وهو ما يفهم بوضوح من كلامه في تفسير آية الكرسي حيث أورد في خاتمة ذلك مجموعة من الأحاديث الواردة في فضل قراءة آية الكرسي عزاها إلى البيضاوي وأبي السعود[4] وقال عقبها : «وتكلم السيوطي في بعض هذه الأحاديث والفضائل يعمل فيها بالضعيف والله تعالى أعلم»[5] ونقل في موضوع آخر عن ابن جزي حديثا عن ابن مسعود أنه قال : «قرأت على النبي ﷺ فلما انتهيت إلى آخر الحشر قال : ضع يدك على رأسك، قلت : ولم ذاك يا رسول الله، قال : أقرأني جبريل القرآن فلما انتهيت إلى آخر الحشر

---

1) أورد ابن عجيبة حديث : «من قرأ سورة الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» ثم قال : ذكره في الجامع، وفي فضلها أحاديث تركتها (البحر المديد 28/4).

2) أورد المؤلف في آخر تفسيرها : «إن ابن عطية ذكر في فضل السورة أربعة أحاديث، وقد تقرر أن أحاديث لم تصح إلا أحاديث قليلة، وفي الموطأ أنها تجادل عن صاحبها» (البحر المديد 144/4).

3) أنظر السراج المنير للخطيب الشربيني (ت 977) وراجع تفسير الزمخشري 491/1 والبيضاوي 63/2.

4) مما يلاحظ أن ابن عجيبة كثيرا ما يعزو نقله لأحاديث فضائل السور إلى المفسر الذي نقلها عنه. أنظر مثلا : أواخر سورة الواقعة (102/4 عن النسفي) وأواخر يس (193/3 عن النسفي) وسورة الأنعام (157/1 عن البيضاوي).

5) البحر المديد : 58/1.

قال : ضع يدك على رأسك ...الحديث» قال ابن عجيبة : «وسمعت من شيخنا الفقيه الجنوي أنه حديث ضعيف يعمل به الإنسان وحده فإذا كان مع الناس تركه لئلا تعتقد العامة أنه مندوب أو واجب».[1]

فابن عجيبة إذن يشير في كل مناسبة إلى من ينقل عنه تلك الأحاديث وهو يعلم بضعفها وينبه على ذلك فاتحا باب التمحيص والبحث عن مدى صحتها أو ضعفها.

ومما يدلنا على شدة حيطة ابن عجيبة في رواية أحاديث فضائل السور إيراده لحديث موقوف صحيح عن ابن عباس في فضل سورة النور حيث قال : «روي عن ابن عباس (ض) أنه قرأ سورة النور على المنبر في الموسم وفسرها على وجه لو سمعتها الروم لأسلمت» ثم قال بعد ذلك : «وأما ما ورد في فضل السورة فموضوع، وقد غلط من ذكره من المفسرين وباڤ التوفيق».[2]

وقد ورد الحديث الموقوف السابق بروايات مختلفة منها : «عن أبي وائل : استخلف علي عبد الله بن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة النور ففسرها تفسيرا لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا».[3]

وأورد أبو عبيد القاسم بن سلام روايتين :

أ) أبو عبيد قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي وائل قال : استعمل علي بن أبي طالب عبد الله بن عباس على الموسم (أي موسم الحج) فخطب خطبة لو سمعتها الديلم لأسلمت ثم قرأ سورة النور.

ب) أبو عبيد قال : حدثنا عبد الرحمان عن سفيان عن الأعمش عن أبي وائل قال : قرأ ابن عباس سورة النور وجعل يفسرها فقال رجل : لو سمعت

---

1) البحر المديد : 120/4 وانظر تفسير ابن جزي 112/4.

2) البحر المديد : 74/3.

3) مقدمة التفسير لابن تيمية ص : 95.

هذا الديلم لأسلمت»[1] ومما ساقه ابن عجيبة من الأحاديث الصحيحة الواردة في بعض السور حديث : «من قال حين يصبح ثلاث مرات :أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي فإذا مات في ذلك اليوم مات شهيدا، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة».[2]

وأورد عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون**﴾[3] حديثين في فضل قراءة هذه الآية، أما الأول فقد عزا نقله إلى الثعلبي والنسفي وأما الثاني فقد رواه أبو داود في سننه، يقول ابن عجيبة : «روي عن ابن عباس (ضما) أن رسول الله ﷺ قال : من قرأ : فسبحان الله حين تمسون إلى الثلاث آيات وآخر سورة الصافات : سبحان ربك رب العزة عما يصفون دبر كل صلاة كتب له من الحسنات عدد نجوم السماء وقطر الأمطار وورق الأشجار وتراب الأرض فإذا مات أجرى له بكل لفظ عشر حسنات في قبره.» نقله الثعلبي والنسفي، وعنه عليه السلام : «من قال حين يصبح : فسبحان الله حين تمسون إلى قوله : وكذلك تخرجون أدرك ما فاته في يومه ومن قاله حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته.[4]

وقد تعرض ابن عجيبة في تفسيره الكبير للفاتحة لفضائل السور ونص على ما ورد في فضل سورة الفاتحة من أنها لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل مثلها[5] وأنها أعظم سورة في القرآن وكذلك ما ورد في فضل سورة البقرة من أنها أعظم سورة وكذلك ما ور د في آية الكرسي من أنها

---

1) أبو عبيد القاسم بن سلام : فضائل القرآن ومعالمه وآدابه 60/2.

2) الحديث أخرجه الترمذي في سننه 253/4 (باب فضائل القرآن) وأخرجه كذلك الإمام أحمد في مسنده 213.

3) الروم 17.

4) البحر المديد 135/3 والحديث رواه أبو داود في سننه 319/4 (باب ما يقول : إذا أصبح).

5) رواه الترمذي في سننه 231/4 عن أنس بن مالك، وقال : هذا حديث صحيح. وهو بلفظ : «ألا أخبرك بسورة لم تنزل في الثوراة والإنجيل والقرآن مثلها : قلت : بلى يا رسول الله، قال فاتحة الكتاب، إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

سيدة آي القرآن[1]، وفي المعوذتين من أنهما ما تعوذ متعوذ بمثلهما إلى غير ذلك.[2]

خامسا : رواية الحديث بالمعنى .

اختلف العلماء في مسألة رواية الحديث بالمعنى على مذاهب، فذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة إلى أنه يجوز للعالم بمواقع الخطاب، البصير بآحاد كلماته نقل الحديث بالمعنى، لكن بشرط المطابقة للمعنى بكماله، ومنع ذلك كثير من العلماء منهم القاسم بن محمد وابن سيرين، وقال مجاهد : انقص من الحديث إن شئت ولا تزد فيه، ومع كثرة الخلاف الوارد في الموضوع فإن الراجح والقول الصحيح كما ذهب إلى ذلك الإمام القرطبي[3] هو الجواز بدليل أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يروون الوقائع المتحدة بألفاظ مختلفة وروايات متعددة وما ذلك إلا لأنهم كانوا يصرفون عنايتهم للمعاني، وقد روي عن وائلة بن الأسقع أنه قال : ليس كل ما أخبرنا به رسول الله ﷺ نقلناه إليكم، حسبكم المعنى، وقال الحسن البصري : إذا أصبت المعنى أجزأك.[4]

وقد ذهب ابن عجيبة مذهب الجواز فأورد أحاديث كثيرة بالمعنى نبه عليها بطرق مختلفة، وقد أكد في موضع من تفسيره على أن الصحابة رضوان الله عليهم يروون الحديث بالمعنى نظرا لتعدد الروايات المأثورة عنهم في الواقعة الواحدة، وقد قدم لنا المؤلف في هذا الموضع مثالا

---

1) روى المنذري في «الترغيب والترهيب» 191/3 عن أبي هريرة حديثا بلفظ : «لكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية وهي سيدة آي القرآن».وانظر كتاب : الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة لأبي علي الرجراجي الشوشاوي، تحقيق الوالد الأستاذ إدريس عزوزي. الرباط 1989 ص : 401.

2) تفسير الفاتحة الكبير ص : 74.

3) تفسير القرطبي 412/1.

4) تدريب الراوي ص 299.

واضحا على ذلك، ففي معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم**﴾[1] قال : «قال عليه السلام : افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة قيل : ومن تك واحدة، قال : ما أنا وأصحابي عليه هـ. وهذا الحديث -يقول ابن عجيبة - أصح مما تقدم[2] والصحابة يروون الحديث بالمعنى.[3]

وإذا كان ابن عجيبة قد استند في جواز رواية الحديث بالمعنى إلى اختلاف الروايات والألفاظ عن الصحابة في الوقائع المتحدة فإنه من جهة أخرى يدعم هذا الإتجاه بأمر آخر يتجلى في كون القصة الواحدة في القرآن الكريم تأتي بألفاظ مختلفة في سور شتى، فقد قص الله تعالى علينا قصص الأولين وأنباء ما قد سبق، ذكر بعضها في مواضع من القرآن بألفاظ مختلفة والمعنى واحد، قال القرطبي : «ونقل الله تعالى قصص السابقين من ألسنتهم إلى اللسان العربي وهو مخالف لها في التقديم والتأخير والحذف والإلغاء والزيادة والنقصان. وإذا جاز إبدال العربية بالعجمية فلأن يجوز بالعربية أولى، احتج بهذا المعنى الحسن والشافعي وهو الصحيح في الباب»[4] ويقول ابن عجيبة في معرض تفسيره لقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام :﴿**رب اجعل هذا البلد آمنا...**﴾[5] : «لم يحك الله تعالى لنا قصص الأنبياء بألفاظهم وإنما ترجم عنها بلسان عربي فينزل على رعاية مقتضى الحال ولذلك اختلفت ألفاظ قصص

---

1) آل عمران : 105.

2) تقدم قبل ذلك بقليل إيراده لرواية أخرى نصها : قال عليه السلام : إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة وإن أمتي ستفترق على اثنين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة فقيل : يا رسول الله ما هذه الواحدة فقبض يده وقال : الجماعة ثم قرأ : ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**﴾ (البحر المديد 83/1).

3) البحر المديد : 84/1.

4) تفسير القرطبي : 413/1.

5) إبراهيم : 35.

الأنبياء، لأن كل قصة تنزل على ما يقتضيه المقام والحال من تذكير واختصار وإطناب...»[1] وفي معرض تفسيره لقصة موسى عليه السلام في سورة النمل قال : «واختلاف الألفاظ في هاتين السورتين (أي طه والنمل) والقصة واحدة دليل على نقل الحديث بالمعنى».[2]

وكثيرا ما يروي ابن عجيبة الحديث ويؤكد على أنه إنما ساقه بالمعنى فقط تنبيها للقارئ على ذلك، والتزاما بأمانة النقل والإقتباس والعزو.

فمن ذلك مثلا سوقه لحديث : «مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمن استأجر عمالا إلى آخر اليوم فعملت اليهود إلى الظهر ثم عجزوا ثم عملت النصارى إلى العصر فعجزوا...الحديث، قال ابن عجيبة بعد ذلك : «والحديث في الصحيح نقلته بالمعنى».[3]

والأحاديث التي ينقلها المؤلف بالمعنى لا تختلف عن صيغها الأصلية إلا في بعض الألفاظ وبشكل طفيف، من ذلك مثلا قوله : «وفي الحديث: لو اجتمع الإنس والجن على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قدره الله عليك، أو كما قال عليه السلام»[4] وهو يستعمل في التعبير عند نقله معنى الحديث صيغ المقاربة والمماثلة مثل : «أو كما قال عليه السلام» – «أو كما قال ﷺ» – «أو كما في الحديث». وإذا كان الغرض من رواية

---

1) البحر المديد : 117/2.

2) البحر المديد : 99/3.

3) البحر المديد : 160/3 والحديث رواه البخاري في صحيحه 232/1 (باب من أدرك ركعة من العصر) ونصه : «عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوما يعملون له عملا إلى الليل فعملوا إلى نصف النهار فقالوالا حاجة لنا إلى أجرك فاستأجر آخرين فقال أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا لك ما عملنا فاستأجر قوما فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين».

4) البحر المديد : 24/2.

الحديث بالمعنى الإطلاع على مراد قول الرسول ﷺ والعمل بمعناه الذي تتحقق به النتيجة ذاتها التي ترجى من العمل بالحديث الأصلي، فإننا نجد ابن عجيبة يشير أحيانا إلى هذا الغرض الذي هو مبتغى الصوفية وديدنهم، فهم لا يقفون عند نفس التعابير والصيغ الحديثية بقدر ما يقفون عند معانيها ومضامينها وما توحي به من إشارات وتلويحات، من ذلك مثلا قوله : «ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يقول : من أصابه هم أو غم فليقل: (الله الله لا أشرك به شيئا) فإن الله يذهب همه وغمه أو كما قال عليه السلام، والحديث صحيح، فانظر كيف دل عليه الصلاة والسلام المقبوض إلى الدواء وهو شهود التوحيد، والغيبة عن الشرك، فدلنا ﷺ على القول والمراد منه المعنى فكأنه قال : اعرفوا الله ووحدوه ينقلب قبضكم بسطا ونقمتكم نعمة».[1]

---

1) إيقاظ الهمم : 125/1.

على اليهود من كتبهم، وفي هذا القسم ورد قوله ﷺ :«بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».[1]

القسم الثاني : ما علمنا كذبه بمخالفته أمور العقيدة والنصوص القطعية من الكتاب والسنة، ومن ذلك ما ورد من قصص الأنبياء من أخبار تطعن في عصمة بعضهم كقصص يوسف وداود وسليمان عليهم السلام، فلا تجوز إذن رواية هذا القسم إلا مقرونا ببيان كذبه.

القسم الثالث : ما هو مسكوت عنه مما لا يدخل في القسمين السابقين: فهذا لا نؤمن به ولا نكذبه لحديث : «لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»[2] وإنما أمرنا بعدم التصديق أو التكذيب لاحتمال أن يكون الخبر المنقول حقا فنكذبه أو باطلا فنصدقه.

وفي هذا المعنى ورد ما أخرجه الإمام أحمد من حديث جابر (ض) أن عمرا (ض) أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه فغضب وقال : «لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني».[3]

هذا التقسيم إذن هو الذي أخذ به جل العلماء واستقر عليه موقفهم من الإسرائيليات وهو ما دلت عليه أقوال الإمامين مالك والشافعي مما نقله عنهما ابن حجر في فتحه وهو ما ذهب إليه ابن كثير في تفسيره عندما قال: «...وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله : «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» فيما قد يجوزه العقل، فأما ما تحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القبيل».[4]

---

1) سبق تخريجه.

2) سبق تخريجه.

3) مسند الإمام أحمد 387/3 ورجال الحديث موثوقون إلا أن أحد رواته وهو مجالداتهم بالضعف.

4) تفسير ابن كثير 373/7 (أول سورة ق).

وتشددوا في طلب الإسناد فقالوا : «سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم».[1]

وبالرغم مما بذله علماء الإسلام في عصوره الأولى من جهود من أجل صيانة التفسير والحديث من الدس والكذب فقد تسرب إلى ميدان التفسير من ذلك قسط وافر من الإسرائيليات استطاع أعداء الإسلام العمل على نشرها وإفشائها، وزاد من شرها تغافل كثير من الناس عن ذكر السند في أداء الحديث وطلبه في الرواية. فتناقل الرواة ذلك وتساهل المفسرون فحشوا كتبهم بتفسيرات أهل الكتاب وقصصهم وأساطيرهم منها الصحيح وغير الصحيح.

ثانيا : موقف العلماء من الإسرائيليات.

قسم ابن تيمية -وسار على نهجه باقي العلماء- الإسرائيليات إلى ثلاثة أقسام[2] :

القسم الأول : ما علمنا صحته بالنقل الصحيح عن النبي ﷺ أو بما تضمنه القرآن الكريم نفسه باعتباره شاهدا ومهيمنا على ما سبقه من الكتب السماوية، فما وافقه فهو حق وصدق وما خالفه فهو باطل وكذب، قال تعالى : ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق**﴾.[3] وهذا القسم صحيح تجوز روايته للاستشهاد به وإقامة الحجة

---

1) صحيح مسلم : المقدمة، باب بيان أن الإسناد من الدين ص :15.

2) ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير ص: 95 ومقدمة تفسير ابن كثير 14/1 وانظر : محمد بن محمد أبو شبهة : «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير»، مكتبة السنة - القاهرة ط 1408/4 ص : 106.

3) المائدة 48.

فإذا كان الحديث السابق ينبه إلى ضرورة التحفظ في الأخذ عن أهل الكتاب مما كان من الأخبار محتملا كما بينه ابن حجر، فإن حديثا آخر قد نبه من جانب آخر إلى فتح المجال لقبول أحاديثهم بشرط أن تكون متفقة مع شرعنا وذلك يكون بموافقة نص قرآني أو نص حديثي، والحديث الذي رواه البخاري أيضا عن عبد الله بن عمرو(ض) فيه أن النبي ﷺ قال : «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»[1] قال ابن حجر في شرح الحديث : «وقال مالك : المراد جواز التحدث عنهم بما كان من أمر حسن، أما ما علم كذبه فلا، وقيل: المعنى : حدثوا عنهم بمثل ما ورد في القرآن والحديث الصحيح، وقال الشافعي : من المعلوم أن النبي ﷺ لا يجيز التحدث بالكذب فالمعنى، حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم...».[2]

في إطار كل حيثيات التحفظ والإحتياط الشديد السابقة درج الصحابة على حفظ التفسير القرآني والحديث النبوي من الأكاذيب والقصص الإسرائيلية، فكان عصرهم مصونا من احتمال الدس اليهودي ومنزها عنه، غير أنه بانصرام عهدهم ومجيء عصر التابعين وهبوب رياح الفتن السياسية وظهور الوضع والكذب على رسول الله ﷺ وتفاقم أمر الصراعات المذهبية وجد أعداء الإسلام من الشعوبية واليهود والزنادقة الفرصة سانحة لبث الإسرائيليات والموضوعات في التفسير والحديث على السواء، بيد أن علماء التابعين ونقادهم لم يغفلوا عن جسامة وخطورة الوضع الذي آلت إليه الرواية الحديثية فنهضوا للذب عن السنة النبوية، وبذلوا في ذلك جهودا عظيمة حيث أحكموا ضبط قواعد وقوانين الرواية

---

1) صحيح البخاري : كتاب الأنبياء 328/4.

2) فتح الباري 157/7.

إقدام العرب على الأخذ عن أهل الكتاب في نقل هذه الإسرائيليات إلى أسباب اجتماعية فيقول : «...والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولاعلم وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم ...فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها...».[1]

وبالرغم من تلقي الصحابة رضوان الله عليهم لبعض المعارف التي استقوها من اليهود، فقد مضى عصرهم كما تدل عليه كتب السير على النهج الأكمل في الإلتزام بالهدي الرباني متمثلا في القرآن الكريم والسنة النبوية، وكانوا أشد تحوطا وصيانة لسنة النبي المصطفى صلوات الله عليه خاصة بعد التوجيه النبوي السامي الذي رواه البخاري عن أبي هريرة (ض) قال : (كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ «لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا...»)[2] قال ابن حجر في شرح الحديث : « أي إذا كان ما يخبرونكم به محتملا لئلا يكون في نفس الأمر صدقا فتكذبوه، أو كذبا فتصدقوه فتقعوا في الحرج، ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه، نبه على ذلك الشافعي رحمه الله، ويؤخذ من هذا الحديث التوقف عن الخوض في المشكلات والجزم فيها بما يقع في الظن، وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف من ذلك».[3]

---

1) مقدمة ابن خلدون 997/3.

2) صحيح البخاري : كتاب التفسير 25/6.

3) فتح الباري 23/9. باب ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ من كتاب التفسير (البقرة)، طبعة دار الفكر 1414 بتصحيح ابن باز والحديث أورده البخاري كذلك في بابي التوحيد والإعتصام.

وسأتناول في هذا الفصل استعراض الحديث عن النقط التالية :

أولا : كيف تسربت الإسرائيليات إلى كتب التفسير.

ثانيا : موقف العلماء من الإسرائيليات.

ثالثا : موقف ابن عجيبة من الإسرائيليات في تفسيره.

أولا : كيف تسربت الإسرائيليات إلى كتب التفسير.

بادئ ذي بدء لابد من الحديث عن تطرق الثقافة الإسرائيلية بصفة عامة إلى الثقافة العربية والذي حدث في الجاهلية من جراء اتصال اليهود بالعرب بعد نزوحهم إلى شبه الجزيرة العربية بما معهم من معارف وثقافات مستمدة من كتبهم[1] ونتيجة أيضا لاحتكاك العرب بهم بحكم رحلاتهم المختلفة، مثل رحلتي الشتاء والصيف إلى الشام واليمن، وقد كان العرب بحكم طبيعتهم البدوية والأمية الغالبة عليهم متشوقين إلى معرفة أخبار الأولين وقصص السابقين، فكانوا لا يترددون في سؤال أهل الكتاب، خاصة وأن جماعات منهم مقيمة بيثرب كانت أقرب إليهم، بالإضافة إلى أن طائفة منهم كانوا قد دخلوا في الإسلام أمثال : وهب بن منبه[2] وكعب الأحبار[3] وعبد الله بن سلام[4] وعبد الملك بن جريج[5] ويرجع ابن خلدون

---

1) منها التوراة وشروحها والزبور وأسفار الأنبياء والتلمود وشروحه وغيرها.

2) وهب بن منبه اليماني الصنعاني، روى عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وابن عمر وابن عباس، أخرج له البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود(ت 114 هـ)، أنظر وفيات الأعيان لابن خلكان 238/2.

3) هو كعب الأحبار الحميري كان من يهود اليمن قدم المدينة أيام عمر بن الخطاب (ض)، أثنى عليه العلماء،وقال فيه ابن حجر في فتحه (285/13) كان من أخيار الأحبار (ت 32 هـ) ترجمته في الإصابة لابن حجر 315/3.

4) أبو يوسف عبد الله بن سلام، أسلم أول ما دخل النبي ﷺ المدينة، كان من أعلم الصحابة بعد إسلامه، شهد له النبي ﷺ بالجنة (ت 43 هـ) ترجمته في الإصابة 320/2.

5) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي مولاهم المكي، محدث حافظ مفسر رومي الأصل، ولد بمكة وقدم العراق ومات بالبصرة، أنظر تذكرة الحفاظ للذهبي 160/1.

الفصل الرابع :

الإسرائيليات وموقف ابن عجيبة منها

تعتبر قضية «الإسرائيليات في التفسير» من أخطر القضايا المتعلقة بالنصوص الشرعية وخاصة منها النص القرآني، وقد طرحت منذ القرون الأولى في ميدان البحث والمناقشة ولا تزال إلى حد الآن، وارتبطت «الإسرائيليات» بالتفسير ارتباطا وثيقا وامتزجت به وتفاقم خطرها بمرور الزمن حيث تم التهاون في أمر محاربتها وبيان فسادها.

والإسرائيليات جمع «إسرائيلية» والنسبة فيها إلى إسرائيل وهو سيدنا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، والإسرائيلية بمعنى القصة أو الأسطورة أو الأحدوثة التي تروى عن مصدر إسرائيلي ويبدو أنها صفة لموصوف محذوف تقديره القصة أو الأسطورة، فحذف الموصول وحلت الصفة محله في المعنى : «وهذه الكلمة قد غلبت على كل ما نقل من اليهودية إلى الإسلام، وما نقل عن الأديان الأخرى إليه ولكنها خصت بهذا الإسم، لأن أغلب ما نقل عن اليهودية والأديان الأخرى كان طريقه أولئك الإسرائيليون».[1]

ولفظ «الإسرائيليات» في اصطلاح كثير من العلماء يطلق على كل ما تسرب إلى حقلي التفسير والحديث من أساطير وقصص وروايات قديمة يهودية أو نصرانية أو غيرهما. وبذلك يتبين أن إطلاق «الإسرائيليات» إنما هو من جانب التغليب للمصدر اليهودي على ما سواه ولكثرته وهيمنته على غيره.

---

1) نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن الكريم للدكتور السيد أحمد خليل ط 1954/1 ص : 37.

والذي يجب توضيحه بخصوص مواقف العلماء من هذه القضية هو إجماعهم على أن التحديث عن أهل الكتاب بشيء مما هو مسكوت عنه أمر سائغ بشرط أن لا يتعلق بأمور العقيدة ومسائل التحليل والتحريم مما تعلق بأحكام الشرع، أما ما ارتبط بميدان القصص والأخبار وأحاديث الأنبياء والمواعظ فلا بأس من الإستئناس بتفاصيل ذلك من مرويات أهل الكتاب، وقد ثبت أن ابن عباس (ض) وبعض الصحابة كانوا لا يتحرجون في سؤال أهل الكتاب عن ذلك مما ارتبط بالأخبار وقصص الأولين، لكن مع التحفظ الشديد والتمحيص البالغ.

أما مواقف المفسرين من الإسرائيليات فقد اختلفت من فئة إلى أخرى، إلا أن معظمهم لم يلتزموا الحذر في روايتها والتحفظ في نقلها فبلغتنا تفاسير كثيرة قد تدفقت من خلالها مادة الإسرائيليات وعمت جوانب كثيرة من قضايا التفسير وطالت جميع السور القرآنية. وإذا كان بعض المفسرين قد برئوا من عهدة نقل تلك الإسرائيليات إلى حد ما بسبب سوقهم لأسانيدها إلى قائليها فإن اللوم يقع بالمقابل على طائفة من المفسرين الذين أوردوا الكثير من ذلك دون التأكيد على مدى صحته أو بطلانه.

وقد تنبه لذلك كثير من المفسرين المتأخرين فحذروا من خطورة تشويه معالم تفسير النص القرآني بإقحام تلك الأساطير والقصص والأخبار الواهية، فالإمام ابن عطية(ت 542 هـ) يقول في مقدمة تفسيره[1]: «وقصدت فيه أن يكون جامعا وجيزا محررا لا أذكر من القصص إلا ما لا تنفك الآية إلا به» أما الإمام القرطبي (ت 672 هـ) فيقول في خطبة تفسيره[2]: «وأضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين إلا ما لابد منه ولا غنى عنه للتبيين» ويذهب ابن جزي (ت 741 هـ) ضمن الباب

---

1) مقدمة المحرر الوجيز 5/1 (طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية).

2) مقدمة تفسير القرطبي 3/1.

الرابع من مقدمة تفسيره إلى قوله[1] : «وأما نحن فاقتصرنا في هذا الكتاب من القصص على ما يتوقف التفسير عليه وعلى ما ورد منه في الحديث الصحيح».

أما صوفينا الإمام ابن عجيبة فيؤكد بدوره على ضرورة الحيطة والحذر في نقل تلك القصص والإسرائيليات، فيقول في معرض حديثه عن العلوم التي يحتاج إليها المفسر[2] : «منها القصص والأخبار لاشتمال القرآن على قصص الأولين، فلابد من مطالعتها لتحرير معاني القرآن غير أن منها ما يتوقف عليه البيان فهو المحتاج وما سواه إمتاعٍ أو تطويل وقد يذكر منها ما يعلم بالنقل أو بالعقل أنه كذب فلا يجوز التعرض له».

وبالرغم من تأكيد هؤلاء المفسرين المغاربة والأندلسيين - ممن يعدون من المقلين من ذكر الإسرائيليات - وغيرهم على ضرورة اجتناب رواية تلك القصص والأخبار، والتنبيه عليها فإن مما لا ريب فيه أن وجود الإسرائيليات - ولو بقدر قليل في التفسير ظاهرة عامة يشترك فيها كافة المفسرين، إذ من الصعوبة بمكان العثور على مفسر قد أخلى تفسيره تماما من هذا الشر الذي لا مناص منه. ولذلك أوردنا كلام ابن عجيبة السابق في سياق تنبيهات أسلافه من المفسرين (ابن عطية -القرطبي- ابن جزي وغيرهم) تمهيدا لرصد موقفه من الإسرائيليات على أساس موضوعي مقارن، وذلك حتى تتبين لنا مكانة تفسيره وقيمته.

---

1) مقدمة التسهيل 1/7-8.

2) تفسير الفاتحة الكبير ص : 60.

ثالثا : موقف ابن عجيبة من الإسرائيليات في تفسيره.

يعتبر موقف ابن عجيبة من الروايات الإسرائيلية -بالمقارنة مع باقي المفسرين - موقفا إيجابيا حيث إنه لم يكثر من إيرادها ولم ينسق وراء المفسرين الذين نقل عنهم وكانوا من الذين ملؤوا تفاسيرهم بها، وهو وإن وقع في شيء من ذلك ونقل بعضا منها فإنه غالبا ما يحيل على المصدر الذي نقل منه.

يمكن القول بأن ابن عجيبة كان ذا ملكة نقدية فائقة مكنته من تجنب حشو تفسيره بالكثير من الطامات والأساطير والخرافات مما يدخل في إطار القصص والروايات الإسرائيلية. وتبدو لنا تلك الملكة النقدية وذلك الحس النقدي القوي من خلال تمحيصه لكثير من الروايات ونقده لها ثم تنبيهه على وضعها، ومما يدلنا دلالة قوية على أن المؤلف كان مقلا من إيراد الإسرائيليات في تفسيره خلوه في كثير من مواطن التفسير من ذكر بعضها مما تناقله المفسرون بعضهم عن بعض، خاصة وأنه اطلع على جل التفاسير المعروفة ونقل عنها حسبما بيناه في فصل «مصادره في التفسير».

فمما نبه على عدم صحته من الروايات الإسرائيلية ما أورده عند تفسير قوله تعالى : ﴿**هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به، فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا جعلا له شركا فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون**﴾.[1]

وهاتان الآيتان فسرهما كثير من المفسرين[2] تفسيرا مقرونا بذكر قصة مفادها أن آدم عليه السلام قد أشرك في التسمية حيث سمى ولده عبد

---

1) الأعراف 189-190.

2) المحرر الوجيز 225/7.

الحارث، والحارث هو الشيطان، يقول ابن عجيبة وهو يذكر القصة : «...لما آتاهما ولدا صالحا كما سألا (أي آدم وحواء) جعل أولاده له شركا فيما آتاهما فسموا عبد العزيز وعبد مناف وعبد الدار، فالآية إخبار بالغيب في أحوال بني آدم ممن كفر منهم ولا يصح في آدم وحواء هذا الشرك لعصمة الأنبياء، وهذا هو الصحيح، وقد يعاقب الملك الأب على ما فعل أولاده كما إذا خرجوا عن طاعته فيقول له : أولادك فعلوا على عادة الملوك، وقيل لما حملت حواء أتاها إبليس في صورة الرجل، فقال لها : وما يدريك ما في بطنك لعله بهيمة أو كلب وما يدريك فخافت من ذلك فقال لها إن أطعتني وسميته عبد الحارث فسأخلصه لك، وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث، وإن عصيتني قتلته فأخبرت بذلك آدم فقال لها إنه عدونا الذي أخرجنا من الجنة فلما ولدت مات الولد ثم حملت مرة أخرى فقال لها إبليس مثل ذلك فعصته فلما ولدت مات الولد ثم حملت مرة أخرى ثالثة فسمياه عبد الحارث طمعا في حياته، فقوله : جعلا له شركا فيما آتاهما أي في التسمية لا غير لا في عبادة غير الله، والقول الأول أصح لثلاثة أوجه :

أحدها : أنه يقتضي براءة آدم وحواء من الشرك قليله وكثيره وذلك هو حال الأنبياء عليهم السلام.

الثاني : أن جمع الضمير في قوله : «فتعالى الله عما يشركون» يقتضي أن الشرك وقع من أولادهما لا منهما.

الثالث : أن هذه القصة تفتقر إلى نقل صحيح وهو غير موجود في القصة».[1]

وهذه القصة ساقها معظم المفسرين واستند كثير منهم إلى حديث رواه كل من الإمام أحمد في مسنده[2] والترمذي في سننه[3] والحاكم في

---

1) البحر المديد : 24/2.

2) مسند الإمام أحمد 11/5.

3) سنن الترمذي 332/4 عند تفسير الآية من كتاب التفسير، وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة. وقد أورد الطبري روايات عن ابن عباس وبعض تلاميذه فيها بعض التفصيلات الواردة في الرواية التي أشار إليها ابن عجيبة (تفسير الطبري 98/9-100).

مستدركه.[1] وهو كما في المسند : عن سمرة عن النبي ﷺ قال : «لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره».

ويلاحظ من خلال القصة التي أوردها ابن عجيبة أنها مركبة من روايتين :

أما الأولى فقد ضمنها نسبة الإشراك إلى أولاد آدم وذريته : «فالآية إخبار بالغيب في أحوال بني آدم ممن كفر منهم» ثم أضاف ابن عجيبة نافيا أن يكون قد صدر شيء من الشرك من آدم وحواء فقال : «ولا يصح في آدم وحواء هذا الشرك لعصمة الأنبياء وهذا هو الصحيح».

أما الرواية التي ساقها بصيغة التمريض (وقيل) فقد نقلها عن ابن جزي بشيء من التصرف وانتصر من خلالها للقول المدعم لتنزيه آدم عليه السلام عن نسبة الشرك إليه والذي تعززه أدلة من أهمها : افتقار القصة إلى سند صحيح، وقد ناقش الإمام ابن كثير سند الرواية ونقد القصة بقوله: «الحديث معلول من ثلاثة أوجه:

1 – عمر بن إبراهيم الذي روى الحديث عن قتادة هو البصري وقد وثقه ابن معين ولكن قال أبو حاتم الرازي لا يحتج به ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعا.

2 – أنه قد روي من قول سمرة نفسه ليس مرفوعا.

3 – أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه.

ثم خلص ابن كثير إلى استنتاج ما يلي : «فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي ويحتمل أنه تلقاه عن بعض أهل الكتاب منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما».[2]

---

1) مستدرك الحاكم 545/2.

2) أنظر تفسير ابن كثير 328/3 وراجع تفنيد الفخر الرازي للقصة من جهتي العقل والنقل في : التفسير الكبير 86/15-87. وانظر أيضا رد الإمام القرطبي للقصة ونصه على إسرائيليتها في تفسيره 338/7.

- ومن الإسرائيليات التي ذكرها ابن عجيبة وعقب عليها ما أورده في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب**﴾[1] حيث أورد قصة طويلة في فتنة سليمان عليه السلام عبر عنها في ثلاثة أقوال :

القول الأول : ما روي مرفوعا أنه قال : لأطوفن الليلة على سبعين أو تسع وتسعين[2] امرأة تأتي كل واحدة منهم بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله[3] فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، قال نبينا عليه السلام : والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون.

فالفتنة على هذا -يقول ابن عجيبة- كونه لم يقل إن شاء الله، والجسد هو شق الإنسان الذي ولد له».

وهذا الحديث صحيح وارد في الصحيحين[4] من رواية أبي هريرة.

القول الثاني : وقيل أنه ولد له ابن فأجمعت الشياطين على قتله وقالوا إن عاش له ولد لم ننفك من خدمته فلما علم ذلك حمله في السحاب فما شعر حتى ألقي على كرسيه جسدا ميتا فتنبه لخطئه حيث لم يتوكل على الله.

---

1) سوره ص : 34.

2) وردت روايات متعددة في ذكر عدد النساء : ففي صحيح البخاري وردت مرة عبارة : «لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين» (الفتح 117/6، الحديث رقم 2819) ومرة (لأطوفن الليلة على سبعين امرأة (الفتح 371/13. الحديث رقم 6639)، ورواه مسلم فقال : «سبعين» ومحصل جميع الروايات : ستون، سبعون، تسعون وتسع وتسعون ومائة.

3) حصل مثل هذا للنبي ﷺ فقد سأله أهل مكة عن قصة أهل الكهف فقال : أجيبكم غدا ولم يقل : إن شاء الله، فأبطأ عنه الوحي خمسة عشر يوما ثم نزل قوله تعالى : ﴿**ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله**﴾.

4) صحيح البخاري : كتاب الجهاد 41/2 وصحيح مسلم : كتاب الإيمان، باب الإستثناء 1275/3.

القول الثالث : وهنا أورد ابن عجيبة قصة طويلة مزج فيها بين روايتين مستقلتين :

الأولى : مفادها أن سليمان عليه السلام كانت له امرأة يحبها وكان أبوها ملكا كافرا قد قتله سليمان وكانت لا تفتر عن البكاء على أبيها جزعا، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته فكانت تغدو عليها وتروح وصار صنما معبودا في دار سليمان فأخبر بذلك فكسر الصورة.

أما الرواية الثانية فمفادها أن سليمان عليه السلام كان له خاتم ملكه وكان فيه اسم الله فكان ينزعه إذا دخل الخلاء توقيرا لاسم الله العظيم فنزعه يوما ودفعه إلى جارية فتمثل لها جني في صورة سليمان وطلب منها الخاتم فدفعته له، وراح الناس يظنون أنه سليمان، وخرج سليمان فارا بنفسه فأصابه الجوع فطلب حوتا ففتح بطنه فوجد فيه خاتمه، وكان الجني قد رماه في البحر فلبس سليمان الخاتم وعاد إلى ملكه».[1]

إن ابن عجيبة وهو يسرد مختلف هذه الأقوال المتعلقة بقصة سليمان عليه السلام لم يقف منها موقفا سلبيا كما فعل كثير من المفسرين[2] الذين نقلوا كل ما تعلق بالقصة من أقوال وروايات دون تعليق أو ترجيح، بل إن

---

1) البحر المديد 208/3 وراجع القصة بطولها في تفسير الطبري 23/100-102 حيث أسند عدة روايات إلى مجاهد وقتادة وابن عباس والسدي وغيرهم، وفي الدر المنثور للسيوطي(316/5) ما يفيد أن ابن عباس(ضمنا) قد أخذ القصة عن كعب الأحبار. وروى النسائي القصة في كتاب التفسير من طريق المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وقد قوى الحافظ ابن حجر هذا الإسناد. إلا أن تلقي ابن عباس للقصة عن كعب الأحبار جعلها من الإسرائيليات كما ذكر ذلك الشيخ عبد الله بن الصديق في كتابه: بدع التفاسير ص : 112. وبطلانها يظهر من وجوه منها :

- أن الجني لا يسمى جسدا لأنه كان حيا والجسد الذي يلقى لا يكون إلا ميتا.
- أن الجني لا يمكن أن يتصور في صورة نبي ولا يقدر على ذلك لما يترتب عليه من المفاسد.
- أن هذه القصة خالية من العبرة والله تعالى يقول ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾.

2) أنظر على سبيل المثال تفسير ابن عطية (34/14) حيث مال إلى القول بأن الجسد الذي ألقي على كرسي سليمان هو الجني المذكور. ثم عقب بقوله : وهذا أصح الأقوال وأبينها معنى.

ابن عجيبة يرجح الرواية الأولى[1] لأنها رواية صحيحة مرفوعة إلى النبيﷺ وهي كما بينا مخرجة في الصحيحين، وهذا ما عبر عنه بقوله : «وأظهر ما قيل في فتنته عليه السلام ما روي مرفوعا...» أما القولان الثاني والثالث فقد استهلهما معا بصيغة التمريض (وقيل)، مما يدل على تضعيفه الضمني لهما.على أن مما يدلنا على اهتمام ابن عجيبة أحيانا بالروايات الإسرائيلية بحثا وتمحيصا تعقيبه على كل تلك الأقوال السالفة بقوله : «وأنكر بعض المحققين هذه القصة، وقال : لا يصح ما نقله الأخباريون وأهل التفسير في هذا الموضع من تشبه الشيطان بنبيه وتسلطه على ملكه وتصرفه في أمته والجور في حكمه. قال القاضي عياض : الشياطين لا يتسلطون على مثل هذا، وقد عصم الله الأنبياء عن مثله، ومثله لابن العربي أيضا وحكى إنكاره عن السمرقندي، وقال الطيبي : أشبه الأقاويل في إلقاء الجسد هو شق الولد كما تقدم، وخالف ابن حجر فقال : قال غير واحد من المفسرين إن المراد بالجسد المذكور شيطان وهو المعتمد[2]، فالله أعلم، غير أن التنزيه أسلم».

فابن عجيبة بعد إيراده لمختلف أقوال العلماء في القصة آثر السلامة في الحكم والتنزيه في الإعتقاد إذ أن عصمة الأنبياء مما ينبغي التسليم بها والإقرار بها.

– ومن الإسرائيليات التي نبه ابن عجيبة على بطلانها ما ذكره المفسرون عند تفسير قوله تعالى : ﴿**قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين**

---

1) العجب من ابن جرير وابن عطية وابن كثير الذين أغفلوا ذكر هذا الحديث في تفاسيرهم، بالمقابل نجد أن هناك من المفسرين من نص على الحديث وضعف ما عداه مثل أبي حيان الغرناطي الذي قال : نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالا يجب براءة الأنبياء منها...ثم عقب قائلا : وأقرب ما قيل فيه أن المراد بالفتنة كونه لم يستثن في الحديث (البحر المحيط 397/7) وراجع : روح المعاني للألوسي 194/8.

2) جاء في فتح الباري 129/7 : «حكى النقاش في تفسيره أن الشق المذكور هو الجسد الذي ألقي على كرسيه. وقد تقدم قول غير واحد من المفسرين أن المراد بالجسد المذكور شيطان، وهو المعتمد، والنقاش صاحب مناكير».

وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾[1] حيث ذكروا كثيرا من الروايات في صفة هؤلاء القوم وعظم أجسامهم، وما ورد من قصة عوج بن عوق[2] وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع[3] وأن طوفان نوح لم يصل إلى ركبتيه، وأنه امتنع عن ركوب السفينة مع نوح[4] إلى غير ذلك من الأباطيل التي تخالف العقل والنقل.

أشار ابن عجيبة إلى قصة عوج بن عوق في موضعين عند تفسيره الآية السابقة، وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر**﴾.[5] وفي الموضع الأخير أورد ما نصه : «قيل ما نجا من الغرق إلا عوج بن عنق، كان الماء إلى حجرته، وسبب نجاته أن نوحا احتاج إلى خشب الشام للسفينة فلم يمكنه نقلها فحمل عوج تلك الخشب إليه من الشام فشكر الله له ذلك ونجاه من الغرق».

قاله الثعلبي. ثم عقب المؤلف بقوله : «وقد تقدم إبطاله في سورة العقود (أي المائدة) وأنه من وضع الزنادقة، ذكره القسطلاني.[6]

أما عند تفسير آية المائدة فإن ابن عجيبة لم يذكر القصة وما حفتها من روايات باطلة بل اقتصر على تفنيد ذلك بالاستناد إلى إبطال الإمام القسطلاني لها، قال «وأما ما ذكره الثعلبي هنا وغيره من قصة عوج بن

---

1) المائدة 22.

2) عوج بن عوق أو عوج بن عنق. ورد الإسمان معا في التفاسير، وفي القاموس المحيط : «وعوج بن عوق بضمهما – أي العينين– رجل ولد في منزل آدم فعاش إلى زمن موسى وذكر من عظم خلقه شناعة».

3) هذا يخالف ما ورد في الصحيحين من أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن.» صحيح البخاري، كتاب الأنبياء (265/4).

4) وهذا يخالف أيضا قول الله تعالى على لسان نوح (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) وقوله عز وجل ﴿**وأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين**﴾ وقوله سبحانه ﴿**لا عاصم من أمر الله اليوم إلا من رحم**﴾.

5) القمر 13.

6) البحر المديد 86/4.

عنق فقال القسطلاني : هي باطلة من وضع الزنادقة فلا يجوز ذكرها في كتاب الله الصادق المصدوق».[1]

وقال ابن القيم (ت 752) في إبطال القصة بعد أن ذكر حديث عوج : «وليس العجب من جرأة من وضع هذا الحديث وكذب على الله وإنما العجب ممن يدخل هذا في كتب العلم من التفسير وغيره، فكل ذلك من وضع زنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا الإستهزاء والسخرية بالرسل وأتباعهم».[2]

– ومن ذلك أيضا ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿**ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه**﴾[3] حيث أورد كلاما مطولا عن إبن جزي في تفسيره[4]، وهو كلام مستحسن رد به صاحب «التسهيل» على من فسر همَّ يوسف عليه السلام بما لا يليق به كنبي معصوم[5] فقال : «بل كان همه خطرة خطرت على قلبه ولم يتابعها ولكنه بادر إلى التوبة والإقلاع عن تلك الخطرة حتى محاها من قلبه، ولا يقدح هذا في عصمة الأنبياء لأن الهم بالذنب ليس بذنب» وقد استصوب ابن عجيبة كلام ابن جزي وقال «قلت : كلامه حسن لأن الخطرات لا طاقة للبشر على تركها ومجاهدة مخالفتها، وقال البيضاوي : والمراد بهمه ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الإختياري[6]... ومثله في تفسير الفخر[7] وأنه مال إليها بمقتضى الطبع ومنع منه بصارف الهمة، كالصائم يشتاق الماء البارد ويمنعه منه صومه،

---

1) نفسه 1381.

2) محمد أبو شبهة : (الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص 186.

3) يوسف 24.

4) التسهيل لابن جزي 117/2، وإليه ذهب ابن عطية في تفسيره 278/9 حيث قال :«فلا يجوز عليه عندي إلا الهم الذي هو الخاطر».

5) أنظر على سبيل المثال : تفسير الطبري 108/12 والدر المنثور 13/4.

6) تفسير البيضاوي 103/3.

7) التفسير الكبير للفخر الرازي 117/18.

ومثله أيضا في لطائف المنن[1] : همت به هَمَّ إرادة وهم بها هَمَّ ميل لا هم إرادة...».[2]

ثم عقب ابن عجيبة على كل هذه الأقوال بقوله : «أما تفسير الهم بالميل فلا يليق بالنفس المطمئنة، وأما تفسيره بالخاطر فيتصور في المطمئنة وغيرها، إنما سماه الله تعالى هما في حق يوسف عليه السلام لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعلو منصبهم وشدة قربهم من الحضرة يشدد عليهم في مطالبة الأدب فيجعل الخاطر في حقهم هما وظنا كما قال تعالى :﴿**حتى إذ استيأس الرسل وظنوا أنهم كذبوا**﴾[3] (فيمن خفف الذال)[4] وكما قال تعالى في حق يونس عليه السلام : ﴿**فظن أن لن نقدر عليه**﴾[5] على أحد التفاسير والله تعالى أعلم».

لقد أفصح ابن عجيبة من خلال كلامه هذا عن تنزيهه ليوسف عليه السلام من أن يكون قد هَمَّ بشيء مما يهم بها الناس غير المعصومين. فإذا كان البيضاوي والرازي وغيرهما قد حاولوا دفع كل التفسيرات الواردة بخصوص لفظة «الهم» الواردة في الآية مما لا يليق بجناب الأنبياء عليهم السلام وذلك بتفسير الهم بميل الطبع لا ميل الإرادة فإن ابن عجيبة قد أبى إلا أن يخلق في أجواء ورحاب علم السلوك الذي يوجه أربابه إلى حسن التأدب مع الأنبياء، فلم يقنعه التفسير السابق وإن استحسنه ورأى أن تفسير الهم بالميل لا يليق بالنفوس المطمئنة التي هي نفوس الأنبياء، وأن الأقرب جعل الهم مرادفا للخاطر والظن مستشهدا على ذلك بآيتين

---

1) ابن عطاء الله : لطائف المنن، تح د عبد الحليم محمود دار المعارف –القاهرة 1992 ص 135.

2) البحر المديد 902.

3) يوسف 110.

4) (قد كذبوا) قرأه الكوفيون بالتخفيف وشدد الباقون، وعلى قراءة التخفيف يحمل على معنى أن المرسل إليهم ظنوا أنهم قد كذبوا فيما أتاهم به الرسل، فالظن بمعنى الشك. أنظر : الكشف لمكي بن أبي طالب 15/2 والتيسير للداني ص 130 والحجة ص 174.

5) من سورة الأنبياء 87.

قرآنيتين. وهي محاولة تفسيرية جيدة ناظر فيها وشابه من خلالها بين لفظتي «الهم» و «الظن» لقرب اتحاد معنييهما حسبما ذهب إليه من جعل الخاطر في حق الأنبياء هما وظنا.

وإذا كان ابن عجيبة يقظا وحذرا في رواية كثير من الإسرائيليات معرضا تارة عن ذكرها ومنبها ومبطلا تارة أخرى فإنه قد انساق في بعض الأحايين وراء جمهرة المفسرين الذين ملؤوا تفاسيرهم بتلك الإسرائيليات، ولذلك وجدناه يسوق بعض تلك الأخبار والقصص الإسرائيلية دون أدنى إشارة إلى ضعفها أو بطلانها غير أننا نجده في كثير من الحالات يحيل على من نقل عنه ذلك من المفسرين وكأنه يجعل العهدة عليهم.

من ذلك ما ذكره في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر...**﴾ الآية[1]، حيث قال: «هاروت وماروت كانا ملكين من أعبد الملائكة، ولما رأت الملائكة ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة في زمن إدريس عليه السلام عايروهم بذلك وقالوا : يا ربنا هؤلاء الذين جعلتهم خليفة في الأرض وهم يعصونك فقال الله تعالى : ﴿**لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لارتكبتم ما ارتكبوا، قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك**﴾، فقال الله تعالى : «فاختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض فاختاروا هاروت وماروت وكانوا من أعبد الملائكة فركب الله تعالى فيهما الشهوة وأمرهما أن يحكما في الأرض بين الناس بالحق ونهاهما عن الشرك والقتل بغير الحق والزنى وشرب الخمر. فكانا يقضيان بين الناس

---

1) البقرة 102.

يومهما فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء فاختصمت إليهما ذات يوم امرأة يقال لها الزهرة وكانت من أجمل الناس من أهل فارس فأخذت بقلوبهما فراوداها عن نفسها فأبت ثم عادت في اليوم الثاني ففعلا مثل ذلك فأبت وقالت إلا أن تعبدا ما أعبد وتصليا لهذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر فأبيا هذه الأشياء وقالا إن الله نهانا، فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث فراوداها فعادت عليهما بما قالت بالأمس، فقالا : الصلاة لغير الله أمر عظيم وأهون الثلاثة شرب الخمر، فشربا ووقعا بالمرأة فلما فرغا رآهما الإنسان فخافا أن يظهرا عليهما فقتلاه، وفي رواية عن سيدنا علي كرم الله وجهه أنه قال : قالت لهما لن تدركاني حتى تخبراني بالذي تصعدا به إلى السماء، قالا باسم الله الأعظم فعلماها ذلك فتكلمت به وصعدت به إلى السماء فمسخها الله كوكبا ولذلك كان عليه السلام إذا رأى سهيلا قال لعن الله سهيلا كان عشارا باليمن ولعن الزهرة وقلا إنها فتنت ملكين. هـ».[1]

أوردنا نص هذه القصة بطولها لنتبين تفاصيلها من جهة وطريقة سرد ابن عجيبة لها[2] مقارنة بغيره من المفسرين من جهة أخرى. وأنه من المستغرب حقا أن يتداول ابن عجيبة وغيره مثل هذه القصة الإسرائيلية التي تتضمن القدح في عصمة الملائكة المنزهين عن مثل هذه الكبائر. وقد أخبر الله تعالى عنهم بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ثم كيف ترفع المرأة الفاجرة إلى السماء –حسب الرواية الثانية التي أوردها ابن عجيبة – وكيف تمسخ كوكبا مضيئا وقد كان النجم المسمى (الزهرة) في مكانه من يوم أن خلق الله السماوات والأرض، فمثل هذه الروايات

---

1) البحر المديد 25/1.

2) تعددت الروايات في هذه القصة حتى بلغت طرقها –كما ذكر الألوسي في تفسيره– نيفا وعشرين طريقا. روح المعاني 341/1.

المكذوبة والأباطيل الواهية التي تمس أمورا عقدية يجب التنزه عن ذكرها والتنبيه على فسادها وبطلانها.

وإذا كان معظم المفسرين الذين نقلوا القصة قد سلموا بها دون تعقيب أو تعليق فإن ابن عجيبة قد عقب بالمقابل على ذلك بقوله : «قلت : قصة هاروت وماروت ذكرها المنذري في شرب الخمر وقال في حديثها رواه أحمد وابن حبان في صحيحه من طريق زهير بن محمد وقد قيل أن الصحيح وقفه على كعب.[1] وقال ابن حجر[2] : قصة هاروت وماروت جاءت بسند حسن خلافا لمن زعم بطلانها كعياض[3] ومن تبعه».[4]

فهذا التعقيب من ابن عجيبة يدل على تسليمه بالقصة إذ أنه حاول تدعيم ذلك التسليم بأقوال من أثبتها كالإمام أحمد وابن حبان والمنذري وابن حجر، وتأكيده على قول ابن حجر الذي يدفع تفنيد القاضي عياض للقصة دليل على ميله إلى إثباتها. وهذا يعتبر من الأخطاء التي وقع فيها ابن عجيبة إذ أنه قد اطلع بدون ريب على مواقف كثير من العلماء والمفسرين الذين أثبتوا زيف القصة وبطلانها بما لا يدع مجالا للشك في أنها من أقبح ما روي من الإسرائيليات.

يعلق الإمام الرازي على القصة فيقول : «...واعلم أن هذه الرواية فاسدة مردودة غير مقبولة لأنه ليس في كتاب الله ما يدل على ذلك بل فيه ما يبطلها من وجوه». ثم ذكر ثلاثة أوجه في بطلانها،[5] أما ابن كثير

---

1) وهو ما ذهب إليه الحافظ ابن كثير عندما قال : «وأقرب ما يكون في ذلك أنه من رواية عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار كما قال عبد الرزاق في تفسيره عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم بن عبد الله عن ابن عمر عن كعب. ورفع مثل هذه الإسرائيليات إلى النبي كذب واختلاق ألصقه زنادقة أهل الكتاب زورا وبهتانا». أنظر تفسير ابن كثير 139/1.

2) فتح الباري : 387/11 (باب السحر).

3) قال القاضي عياض : «وما ذكره أهل الأخبار ونقله المفسرون في قصة هاروت وماروت لم يرد فيه شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ وليس هو شيئا يؤخذ بالقيلس».

4) البحر المديد 25/1.

5) التفسير الكبير 129/1.

فقال[1] : «وقصها (أي الرواية) خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع متصل الإسناد إلى الصادق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى». وحكم بوضع القصة كذلك الإمام ابن الجوزي.[2] وإذا كان بعض أصحاب كتب السنة قد أوردوا نص القصة في كتبهم مثل الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه وإذا كان بعض المحدثين مثل الحافظ ابن حجر قد مالوا إلى ثبوت بعض الروايات الواردة في الموضوع، فإن كل ذلك يعتبر تساهلا منهم في إيراد مثل هذه الروايات وإن ثبتت صحة أسانيد بعضها.

أما ابن حجر فيعتبر هذا تشددا منه في التمسك بالقواعد والضوابط الحديثية في التصحيح دون نظر إلى ما يلزم من الحكم بثبوت ذلك من المحظورات، يقول الشيخ محمد أبو شبهة رحمه الله : «وأنا لا أنكر أن بعض أسانيدها صحيحة أو حسنة إلى بعض الصحابة أو التابعين، ولكن مرجعها ومخرجها من إسرائيليات بني إسرائيل وخرافاتهم، والراوي قد يغلط وبخاصة في رفع الموقوف، وقد حققت هذه في مقدمات البحث وأن كونها صحيحة في نسبتها لا ينافي كونها باطلة[3] في ذاتها...[4]

وإذا كان ابن عجيبة قد اجتنب رفع القصة الإسرائيلية إلى رسول الله ﷺ كما فعل بعضهم فإنه بالمقابل قد تساهل كثيرا عندما نسب في آخر القصة إلى النبي عليه الصلاة والسلام أنه «لعن الزهرة وقال أنها فتنت

---

1) تفسير ابن كثير 203/1 والبداية والنهاية له أيضا : 37/1.

2) السيوطي : الآلئ المصنوعة 82/1. ولم أجده في الموضوعات لابن الجوزي.

3) لا منافاة بين كون الرواية الإسرائيلية صحيحة السند وبين كونها مما يروى عن أهل الكتاب من الخرافات والأكاذيب، فهي تكون صحيحة السند إلى عبد الله بن عباس (ضمنا) أو عكرمة أو مجاهد أو غيرهم ولكنها ليست متلقاة عن النبي ﷺ وإنما أخذت عن أهل الكتاب الذين أسلموا. فثبوتها عمن رويت عنه شيء وكونها باطلة في ذاتها شيء آخر.

4) الإسرائيليات والموضوعات : مرجع سابق ص 164.

ملكين». والحديث أورده ابن كثير في تفسيره وقال : «لا يصح وهو منكر جدا»[1] وقال : «رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة وابن منده في تفسيره وقد أورده كذلك السيوطي في تفسيره وجامعه الصغير.[2]

– ومن الإسرائيليات التي أوردها ابن عجيبة في تفسيره دون التعقيب عليها ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين**﴾[3] حيث أورد في تفسيرها ما سبق أن أورده معظم المفسرين مثل ابن جرير الطبري والثعلبي والبغوي والخازن من «أن سليمان أراد أن يتزوج بلقيس فقيل له: إن في عقلها شيئا وهي شعراء الساقين ورجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش واتخذ صرحا ليتعرف ساقيها ورجلها فكشفت عنهما فإذا هي أحسن الناس ساقا وقدما إلا أنها شعراء...وأراد سليمان تزوجها فكره شعرها فعملت له الشياطين النورة[4] فنكحها سليمان وأحبها وأقرها على ملكها وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام وولدت له وانقضى ملكها بانقضاء ملك سليمان عليه السلام».[5]

فهذه الرواية وغيرها مما أورده ابن عجيبة وغيره من المفسرين تعتبر من الإسرائيليات المتلقاة عن أهل الكتاب، وبناء الصرح الممرد لم يكن ليتم بناؤه من أجل سبب تافه ينطوي على تحايل يرمي من ورائه سليمان عليه السلام النظر إلى ساقي بلقيس كما ورد في هذه الإسرائيلية. وإنما أراد

---

1) قال الشيخ ناصر الدين الألباني :«آفته جابر وهو ابن يزيد الجعفي وهو متهم بالكذب، وكان يؤمن برجعة علي ويقول : إنه دابة الأرض المذكورة في القرآن». أنظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة 315/2.

2) السيوطي : الدر المنثور 97/1 الجامع الصغير 269/5 ولم يتعقبه المناوي وهو عنده بلفظ : «لعن الله الزهرة فإنها هي التي فتنت الملكين...».

3) النمل 44.

4) ما يزال به الشعر.

5) البحر المديد 105/3.

سليمان عليه السلام ببنائه أن يبرز لها عظمة الله ويريها ما أعطاه الله من الملك وأسباب العمران.

لقد ساق ابن عجيبة إسرائيليات أخرى لم يعقب عليها لكنه يشير إلى من نقل عنه ذلك من المفسرين مثل الثعلبي[1] وابن عطية[2] والقرطبي[3] وغيرهم. وقد يقتصر أحيانا على ذكر من روى تلك الإسرائيليات ممن تدور عليهم رواياتها في أغلب الأحيان مثل كعب الأحبار[4] ووهب بن منبه[5] وابن جريج[6] وابن عباس[7] والسدي[8] ومقاتل.[9]

هكذا إذن نخلص إلى القول بأن ابن عجيبة لم يكن منهجه في رواية الإسرائيليات منهج كثير من المفسرين الذين حشوا تفاسيرهم بها دون تعقيب أو تعليق. فهو لم يركن إليها ركون المستسلم المقلد، بل كان له رأي واضح في كثير منها. غير أنه انساق في بعض الأحيان وراء جمهرة المفسرين في سوق بعض تلك الإسرائيليات. والذي يمكن تسجيله بخصوص موقف ابن عجيبة من الإسرائيليات أن تعقيبه على بعضها إنما كان في حالة ارتباطها بأمور العقيدة وعصمة الأنبياء والملائكة ومسائل التحليل والتحريم حيث كان يرى عدم التساهل في بث مثل تلك الروايات والأخبار فيما تعلق بأحكام الشرع. أما ما سوى ذلك مما ارتبط بمجال القصص والمواعظ وأخبار الأنبياء فكان لا يرى بأسا من الإستئناس بتفاصيل ذلك.

---

1) أنظر على سبيل المثال : البحر المديد 141/1-141/4-86.

2) أنظر على سبيل المثال : 80/2-94/3.

3) أنظر على سبيل المثال : 77/2.

4) – أنظر على سبيل المثال : 80/2-101/3.

5) أنظر على سبيل المثال :البحر المديد : 55/1-115/3-144/3.

6) أنظر على سبيل المثال : 141/1.

7) أنظر على سبيل المثال : 105/3.

8) أنظر على سبيل المثال : 141/1-92/3.

9) أنظر على سبيل المثال : 2/3.

الفصل الخامس :

المنهج العقدي في تفسير ابن عجيبة

تعددت السبل وتنوعت المناهج في الاستدلال على مسائل العقيدة، سيما ما تعلق منها بذات الله تعالى من إثبات أسمائه وصفاته وتقرير الألوهية والربوبية.

وإذا كان المعتزلة ومتكلمو الأشاعرة قد اشتهر عنهم تقديم الجانب العقلي على الجانب السمعي، واعتبار العقل هو الأساس الذي يجب أن يكون تصوره منطلقا لإثبات العقيدة فإن الصوفية المغاربة الملتزمين بالكتاب والسنة قد سلكوا منهجا متميزا يتسم بتفضيل الأخذ بالأدلة النقلية الواردة في إثبات مسائل العقيدة، مع الأخذ بمنهج الأشاعرة في التأويل والتفويض. يقول ابن عجيبة : «واعلم أن مذهب الصوفية الأخذ بالأحسن في كل شيء عملا بقوله تعالى : ﴿**فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾، وأحسن المذاهب في الإعتقاد مذهب السلف من اعتقاد التنزيه ونفي التشبيه وتفويض المتشابه والوقوف مع ما ورد كما ورد[1] ما لم يحتج إلى تقييد، فيقيد بما ينفي شبهته من غير زائد، وبهذا تمسكت الصوفية في بدايتهم».[2] وقد ذكر ابن جزي في مقدمة كتابه «القوانين

---

1) هذا هو نفس ما نص عليه أحمد زروق في كتابه (عدة المريد) مخطوط سابق الذكر ورقة 7 ب أثناء حديثه عن مذاهب الصوفية في العقيدة والأحكام فقال : «ولذلك كان مذهبهم في الإعتقاد تابع لمذهب السلف من اعتقاد التنزيه ونفي التشبيه وقبول ما ورد كما ورد من غير تعرض لكيف ولا غير...»

2) ابن عجيبة : الفتوحات الإلهية : 139/1.

الفقهية»[1] أن خير الإستدلال ما كان على طريقة السلف الصالح... وهو الإستدلال بكتاب الله وتدبر آياته.

ويعتقد ابن عجيبة أن الصوفية وإن كانوا ينزعون إلى تقرير مذهب الأشاعرة، فهم يتطلعون دوما إلى بلوغ درجة الإطلاع على أسرار الإلهيات عن طريق البصيرة وهو ما يعرف بالمنهج العياني المباشر أو الحدسي الذي يؤدي إلى الموضوع مباشرة. وهو يركز على مناداة البصيرة الصافية التي تؤهل للوصول إلى درجة اليقين والتمكين. يقول ابن عجيبة مستأنفا كلامه السالف : «وقد يطلعهم الله تعالى (أي الصوفية) على أسرار من مكنون علمه فتتسع لهم دائرة العلوم وتنحل عنهم قيود المتشابه فيطلعون على أسرار تنكشف بها غوامض المتشابه»[2] ويقول أيضا : «التوحيد الحقيقي هو ما كان ذوقا وحالا ومقاما لا ما كان علما واعتقادا إذ ذلك من شأن أهل الحجاب أهل الدليل والبرهان».[3]

وسأحاول فيما يلي الوقوف على مدى توظيف المؤلف لهذا المنهج في كثير من مجالات العقيدة وتبين معالم منهجه في تفسير الآيات ذات العلاقة بالعقيدة الإسلامية بصفة عامة. وسأقسم هذا الفصل إلى المباحث التالية :

المبحث الأول : عرضه لأدلة الربوبية والألوهية.
المبحث الثاني : موقفه من مباحث علم الكلام.
المبحث الثالث : رده على الفرق المنحرفة.

---

1) ابن جزي : القوانين الفقهية ص 31.
2) الفتوحات الإلهية 139/1.
3) ابن عجيبة : شرح الصلاة المشيشية ص 25.

المبحث الأول :

عرضه للأدلة الربوبية والألوهية

تكلم ابن عجيبة عن الربوبية والألوهية باعتبارهما من مجالات علم أصول الدين الذي عرفه بقوله : «وإن كان (العلم) نظرا في استنباط الأحكام الأصلية الإعتقادية منه فذلك علم أصول الدين وهو علم التوحيد وعلم الكلام، ففي كتاب الله تعالى بحمد الله ما يحتاج إليه من إثبات العقائد وسائر السمعيات، والإستدلال على ذلك والرد على الخصوم ما يكفي ويغني عن نقل العلم الإلهي من الفلسفة إلى الملة، وذلك أن حاصل هذا العلم ثلاثة أنواع : الإلهيات والنبويات والسمعيات، وهي كلها مذكورة بأبلغ وجه مع ما يحتاج إليه الأول من الأدلة كحدوث العالم المشار إليه بخلق السماوات والأرض وخلق النفوس وغير ذلك وهو مبسوط في مواضع كثيرة، وكذلك ما يحتاج إليه من أدلة النبوة كانشقاق القمر والتحدي بالقرآن وغير ذلك...» فكتاب الله تعالى هو الشفاء من كل سقم والنجاة من كل هلاك والهدى من كل ضلال نسأل الله تعالى أن يرزقنا فهمه والتمسك به حتى نلقاه، آمين».[1]

فابن عجيبة من خلال هذا النص يؤكد على أن القرآن الكريم يشتمل على كافة براهين التوحيد ودلائل الإيمان حيث إنها مبسوطة في مواضع كثيرة بيسر ووضوح وبيان شاف، ومما أورده من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿**وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون...إلى قوله : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما**

---

1) تفسير الفاتحة الكبير ص 11.

يصفون﴾[1] حيث قال : «ولما برهن على وحدانيته تعالى في ملكه بأنه خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة وأنهم قاطبة تحت ملكه وقهره وأنهم عباده مذعنون لطاعته ومثابرون على عبادته ومنزهون عن كل ما لا يليق بشأنه أنكر على من أشرك معه بعد هذا البيان فقال : «أم اتخذوا آلهة (يعبدونها) من الأرض...» ثم أبطل الإشتراك في الألوهية فقال : لو كان فيهما آلهة إلا الله، أي لو كان السماوات والأرض آلهة غير الله كما هو اعتقادهم الباطل لفسدتا أي لفسد نظامهما بما فيهما لوجود التمانع كعادة الملوك أو لبطلتا بما فيهما ولم يوجد شيء منهما للزوم العجز بهما، وبيان ذلك أن الألوهية مستلزمة للقدرة على الإستبداد بالتصرف فيهما على الإطلاق تغييرا وتبديلا وإيجادا وإعداما وإحياء وإماتة، فبقاؤهما على ما هما عليه من غير فساد إما بتأثير كل منهما وهو محال لاستحالة وقوع الأثر الواحد بين مؤثرين، وإما بتأثير واحد منهما، فالباقي بمعزل عن الألوهية، والمسألة مقررة في علم الكلام[2]... ثم قال تعالى :«فسبحان الله، أي فسبحوا الله بما يليق به ونزهوه عما لا يليق به من الأمور التي من جملتها أن يكون له شريك في الألوهية وإيراد الجلالة في موضع الإضمار حيث لم يقل : فسبحانه للإشعار بعلية الحكم مناطا لجميع صفات كماله التي من جملتها تنزيهه تعالى عما لا يليق به...».[3]

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون... والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير**

---

1) الأنبياء 19-22.

2) يقول ابن جزي في التسهيل 243 : «وقال كثير من الناس في معنى الآية :إنها دليل التمانع الذي أورده الأصوليون، وذلك أنا لو فرضنا إلهين فأراد أحدهما شيئا وأراد الآخر نقيضه فإما أن تنفذ إرادة كل واحد منهما وذلك محال لأن النقيضين لا يجتمعان، وأما أن لا تنفذ إرادة واحد منهما وذلك أيضا محال لأن النقيضين لا يرتفعان معا ولأن ذلك يؤدي إلى عجزهما وقصورهما فلا يكونان إلهين» وقال الفخر الرازي في تفسيره 150/22 : «لأن المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر. فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك، وبالعكس فلو امتنعا معا لوجدا معا وذلك محال».

3) البحر المديد 27/2.

أحياء...﴾[1] يقول ابن عجيبة : «أفمن يخلق كل شيء ويقدر على كل شيء كمن لا يخلق شيئا ولا يقدر على شيء، بل هو أعجز من كل شيء، وهو إنكار على من أشرك مع الله غيره بعد إقامة الدلائل المتكاثرة على كمال قدرته وباهر حكمته، فذكر ما تقدم من أنواع المخلوقات وبدائع المصنوعات...ثم قال تعالى : «والذين تدعون أي والأصنام الذين تدعونهم من دون الله لا يخلقون شيئا لظهور عجزهم، كما نفى المشاركة بين من يخلق ومن لا يخلق. بين أنها لا تخلق شيئا ليتحقق نفي الألوهية عنها ضرورة، ثم علل عجزها وعدم استحقاقها للألوهية بقوله : وهم يخلقون أي وهم مخلوقون مفترقون في وجوههم إلى التخليق، والإله لابد أن يكون واجب الوجود...».[2]

– عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمان الرحيم إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس...لآيات لقوم يعقلون**﴾[3] قال ابن عجيبة: «يقول الحق جل جلاله : «يا معشر العباد، الذي يستحق أن يعبد هو الله واحد لا شريك له ولا نظير ولا ضد له ولا ند، لا إله إلا هو إذ لا يستحق العبادة غيره، إذ هو الرحمان بنعمة الإيجاد الرحيم بنعمة الإمداد، فكل ما سواه مكون مخلوق إما منعم عليه أو نعمة، فلا يستحق العبادة غيره، ثم برهن على وجوده وثبوت وحدانيته بثمانية أمور فقال : إن في خلق السماوات طباقا متفاصلة مرفوعة بغير عمد، وما اشتملت عليه من الكواكب والبروج والمنازل وفي خلق الأرض وما اشتملت عليه من الجبال والبحار والأنهار والأشجار، وفي الفلك التي تجري في البحر بقدرته مع إمكان رسوبها إلى أسفل ملتبسة بما ينفع الناس من التجارة وغيرها... إلى أن قال : وفي السحاب المسخر أي المذلل بين السماء والأرض لا يسقط ولا

---

1) النحل 17-20.

2) البحر المديد 129/2.

3) البقرة : 164.

يرتفع مع أن الطبع يقتضي أحدهما أو مسخر للرياح تقلبه في جو السماء بمشيئة اللهلآيات لقوم يعقلون، أي تلك المخلوقات آيات دالة على وحدانيته تعالى وباهر قدرته، ولو كان فيهما آلهة إلا اللهلفسدتا، وفي ذلك دلالة على علم التوحيد العام والخاص».[1]

إن ابن عجيبة من خلال هذا التفسير للآية يبرز لنا طريقة النظر في الملكوت كما وردت في القرآن الكريم، فما يشتمل عليه هذا الكون الفسيح من عجائب مخلوقات اللهيدل بوضوح على أن لهذا الكون خالقا أوجده. فالأمور الثمانية التي بسط المؤلف ذكرها انطلاقا من الآية هي واضحة محسوسة إذا تمعن فيها الإنسان وحكم عقله خلص من ذلك إلى أن هذه كائنات لم يكن وجودها ذاتيا ولم يكن لها أن تسير أنفسها بتلك الدقة المتناهية وذلك التناسق العجيب، بل وجودها وفق هذا النظام المحكم دليل واضح على أن لها موجدا خلقها.

فابن عجيبة رحمه اللهيرى ضرورة الإستدلال لإثبات وحدانية اللهبالأدلة الشرعية التي تضمنها القرآن الكريم، وهي -ولاشك- طريقة سليمة خالية من التعقيد الذي اكتنف طرق المتكلمين.

وتعتبر آية الكرسي[2] من أعظم الآيات المتضمنة لتلك الأدلة الباهرة والبراهين القاطعة على توحيد الألوهية وإثبات وجود اللهتعالى، يقول ابن عجيبة في تفسير الآية : «وهذه الآية مشتملة على أمهات مسائل الألوهية فإنها دالة على أنه تعالى موجود واحد في ألوهيته متصف بالحياة الذاتية واجب الوجود لذاته موجب لغيره، إذ القيوم والقائم بنفسه المقيم لغيره، منزه عن التحيز والحلول، مبرأ عن التغير والفتور...».[3]

---

1) البحر المديد 36/1.

2) البقرة 255.

3) البحر المديد 58/1.

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**ما اتخذ اللهمن ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان اللهعما يصفون**﴾[1] يؤكد ابن عجيبة على المعاني السابقة فيقول : «يقول الحق جل جلاله ما اتخذ اللهمن ولد خلاف ما يقوله النصارى والعرب التي قالت : الملائكة بنات الله والمسيح ابن الله تعالى اللهعن قولهم علوا كبيرا، وما كان معه من إله يشاركه في ألوهيته كما يقول عبدة الأوثان وغيرهم، إذا لذهب كل إله بما خلق، أي لو كان معه ألهة كما تزعمون لذهب كل واحد منهم بما خلقه واستبد به ليتميز ملكه من ملك غيره ووقع بينهم التغالب والتحارب كما هو الجاري بين الملوك[2] ولعلا بعضهم على بعض وارتفع عليه كما ترون حال ملوك الدنيا، مماليكهم متميزة وهم متغالبون، وحين لم تروا أثرا لتمايز المماليك والتغالب فاعلموا أنما هو إله واحد».[3]

ومما يؤخذ على ابن عجيبة في هذا المجال خلطه بين الأدلة القرآنية الدالة بوضوح على وحدانية اللهوانفراده بالألوهية، وبين المصطلحات الصوفية القائمة على أساس الذوق والوجد والشهود والعيان كما يقول، وليس على أساس الحجة والبرهان الذي يعتبره دون الأساس الأول قوة وسموا. ولعل أبرز ما ذهب إليه في هذا السياق هو تقسيمه للتوحيد إلى عام وخاص، وهو تقسيم لا ينفك يردده كلما تعرض للحديث عن التوحيد، يقول في تفسير الفاتحة الكبير: «وحد علم التوحيد العلم بالعقائد الدينية من الأدلة اليقينية، وهذا هو التوحيد العام، وأما التوحيد الخاص فهو من شأن أهل التصوف».[4]

---

1) المؤمنون 91.

2) نفى ابن جزي في تسهيله 56/3 أن يكون هذا البرهان قد دل على دليل التمانع كما فهم ذلك ابن عطية وغيره بل هو دليل آخر.

3) البحر المديد 53/3.

4) تفسير الفاتحة الكبير ص 11.

ويستشهد ابن عجيبة بكلام للجنيد يقول فيه : «التوحيد معنى تضمحل فيه الرسوم وتندرج فيه العلوم يكون اللهكما لم يزل» ثم يعقب عليه بقوله : «هذا هو التوحيد الخاص أعني توحيد أهل الشهود والعيان»[1] ولذلك يرى المؤلف أنه لما كانت غاية هذا العلم من أشرف الغايات وموضوعه من أعلى الموضوعات كان لابد من أخذه عن أهل التنوير وأهل الذوق، وإلا فقد حذر منه كثير من الأئمة لا سيما الصوفية فلا يحتاجون إليه أبدا[2]، لأن أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان كما قال الشاذلي».[3]

ويرى ابن عجيبة أن توحيد الخلق الله تعالى على ثلاث درجات :

الأولى : توحيد العامة وهو الذي يعصم النفس والمال وينجي من الخلود في النار وهو نفي الشركاء والأنداد والصاحبة والأولاد والأشباه والأضداد.

الثانية : توحيد الخاصة وهو أن يرى الأفعال كلها صادرة من اللهوحده ويشاهد ذلك بطرق الكشف لا بطريق الإستدلال، فإن ذلك حاصل لكل مومن،[4] وإنما مقام الخاصة يقين في القلب بعلم ضروري لا يحتاج إلى دليل.

الثالثة : ألا يرى في الوجود إلا الله، ولا يشهد معه سواه فيغيب عن النظر إلى الأكوان في شهود المكون».[5]

---

1) البحر المديد 36/1.

2) هذا يناقض ما فسر به قوله تعالى : ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ...﴾ (النحل 25) حيث قال : «فيه دليل على أن الجاهل في العقائد غير معذور إذ كان يجب عليه أن يبحث عن الحق وأهله وينظر في دلائله وحججه (البحر المديد 130/2).

3) تفسير الفاتحة الكبير ص 11.

4) لذلك يرى المؤلف أن مذهب الصوفية الأخذ بالعزائم، والأرجح من كل شيء عقدا وقولا وفعلا، فأخذوا من العقائد مقام العيان، ولم يقنعوا بالدليل والبرهان. (البحر المديد216/3).

5) البحر المديد 36/1. وهذا التقسيم أصله لابن جزي في تفسيره : 66/1.

المبحث الثاني :

موقفه من مباحث علم الكلام

لقد أضاف ابن عجيبة في معالجاته الكلامية بعدا جديدا وجانبا خصبا إلى أبعاد وجوانب شخصيته العلمية حيث استعان بخبرته العظيمة في فهم أسرار القرآن الكريم وإدراك معانيه الروحية والسمو بنظره إلى مدارك الفهم الصوفي، فاستطاع -بحق- حماية معاني التنزيل من التأويلات الفاسدة والآراء الضالة مع إقرار مبادئ أهل السنة والجماعة.

وظهر ابن عجيبة في تفسيره عالما أشعريا، وقد ساق القول بأن أبا الحسن الأشعري هو واضع علم الكلام «ولا شك أنه هو الذي دون هذا العلم وهذب مطالبه ونضخ مشاربه فهو إمام أهل السنة غير مدافع، لكن عده واضعا له فيه بحث فإن هذا العلم كان قبله»[1] وإذا كان المؤلف يرى أن هناك من العلماء من خاض في علم الكلام قبل الإمام الأشعري فإنه يذهب بعيدا للقول بأن الأولى أن يقال بأنه علم قرآني فيكون الواضع له هو الحق تعالى في كتابه، وذلك لأن في القرآن كما يقول : «كل ما يحتاج إليه من إثبات العقائد وسائر السمعيات والإستدلال على ذلك والرد على الخصوم ما يكفي... وإذا كان حاصل علم التوحيد الذي منه علم الكلام ثلاثة أنواع : الإلهيات والنبويات والسمعيات فإنها كلها مذكورة في القرآن بأبلغ وجه[2]».

فالذي يفهم إذن من كلام ابن عجيبة هو أن جميع قضايا علم الكلام التي وقع فيها الخلاف بين مختلف الفرق الكلامية توجد مبسوطة في

---

1) تفسير الفاتحة الكبير 12.

2) نفسه ص 11.

القرآن يجب أخذها كما هي، وقد لا يفهمها ويستوعبها إلا من ذاق أسرار التوحيد وكان من العارفين المتقين. ويرى صوفينا أنه يجب على المفسر الإلمام بأصول الدين نظرا لما في القرآن من الآيات الدالة بظاهرها على ما لا يجوز على اللهوما يجب له وما يجوز، وقد اشتمل القرآن على كثير من العقائد والمباحث الكلامية والأكثر منه في السور المكية، لأن الأصل الخطاب بالتوحيد فلابد من تحريره ليحق الحق ويبطل الباطل».[1]

والذي يظهر من خلال المباحث الكلامية التي عقدها المؤلف في تفسيره انتصاره للمذهب الأشعري في مسألة الصفات وغيرها من مباحث علم الكلام. وقد سبق أن سقنا قوله في الموضوع : «اعلم أن مذهب الصوفية الأخذ بالأحسن في كل شيء عملا بقوله تعالى : ﴿**فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾ وأحسن المذاهب في الإعتقاد مذهب السلف من اعتقاد التنزيه ونفي التشبيه وتفويض المتشابه والوقوف مع ما ورد كما ورد ما لم يحتج إلى تقييد فيقيد بما ينفي شبهته من غير زائد».[2]

فالصوفية إذن يقولون بالتفويض كالسلف، لذلك قال الغزالي في إحيائه : ويشهد له بسيرة السلف فإنهم كانوا يقولون أمروها (أي الصفات) كما جاءت ...ثم قال : وذهبت طائفة إلى الإقتصاد وفتحوا باب التأويل في كل ما يتعلق بصفات اللهسبحانه وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها ومنعوا التأويل فيه وهم الأشعرية.[3] يقول عند تفسيره قوله تعالى : ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان**﴾[4] : «قال بعض العارفين : الحق تعالى منزه عن الأين والجهة والكيف والمادة والصورة ومع ذلك لا يخلو منه أين ولا مكان ولا كم ولا كيف ولا جسم ولا

---

1) نفسه ص 59.

2) الفتوحات الإلهية 139/1.

3) الإحياء 179/1.

4) البقرة 186.

جوهر ولا عرض، لأنه للطفه سار في كل شيء ولنورانيته ظاهر في كل شيء ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيف غير متقيد بذلك، فمن لم يعرف هذا ولم يذقه ولم يشهده فهو أعمى البصيرة محروم عن مشاهدة الحق. هـ» ثم يعقب ابن عجيبة بقوله : «وهذه الإشارات لا يفهمها إلا أهل الأذواق من أهل المعاني، فأصحب الرجال أهل المعاني تذق أسرارهم وتفهم إشاراتهم، وإلا فحسبك أن تعتقد كمال التنزيه وبطلان التشبيه وتمسك بقوله تعالى : ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[1]، وإذا تحققت أن الحق قريب منك كفاك لسان الحال عن طلب المقال».[2]

إن هذا النص الوجيز يبين لنا مجمل مذهب ابن عجيبة في المباحث الكلامية، فهو يرمي إلى الابتعاد والتنزه عن الخوض في متاهات المتكلمين فيما يخص صفات اللهتعالى : معتبرا أن اعتقاد كمال التنزيه من جهة وبطلان التشبيه من جهة أخرى يؤدي إلى المبدأ القرآني الحق «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» إذ هو سبحانه له الكمال المطلق المنزه عن العيوب والنقائص، وهو سبحانه وتعالى لا يشبه أحدا من خلقه في أسمائه وصفاته كما لا يشبهه أحد، وهنا نجد ابن عجيبة يبين لنا كيف أن العبد إذ تحقق بأن اللهتعالى قريب منه وقف عند ذلك الحد دون أن يبحث عن الكيف والصورة. فلسان الحال الذي هو تعبير عن تذوق الأسرار وفهم الإشارات يغني عن طلب الكيفية والأدلة.

غير أن ابن عجيبة في آيات أخرى تتعلق بنفس المبحث أكد على أشعريته بوضوح لكنه طبعها بطابع صوفي إشاري، فهو عند تفسير قوله تعالى : ﴿**آمنتم من في السماء...**﴾[3] يورد كلاما للجائي فيه تنزيه لله

---

1) الشورى 11.

2) البحر المديد 41/1.

3) الملك 16

تعالى عن الجهة، ثم يعقب عليه بقوله : «وسيأتي في الإشارة تحقيقه عند أهل التوحيد» وهو التحقيق الذي جاء فيه قوله : «واعلم أن ذات الحق جل جلاله عمت الوجود فليست محصورة في مكان ولا زمان فأينما تولوا فثم وجه الله، فأسرار ذاته تعالى سارية في كل شيء قائمة بكل شيء كما تقدم، فهو موجود في كل شيء ولا يخلو منه شيء... وإنما خص الحق تعالى السماء بالذكر لأنها مرتفعة معظمة فناسب ذكر العظيم فيها، وعلى هذا تحمل الأحاديث والآيات الواردة على هذا المنوال، وليس هنا حلول ولا اتحاد إذ ليس في الوجود إلا تجليات الحق ومظاهر ذاته، كان الله ولا شيء معه وهو إله على ما كان عليه...ولا يفهم هذا إلا أهل الذوق والتسليم».[1]

وذهب ابن عجيبة إلى تأويل قوله تعالى : ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**﴾[2] بأن صعود الكلم الطيب والصدقة الطيبة إلى السماء عبارة عن حسن القبول لهما. يقول في تفسير الآية : «ومعنى الصعود القبول والرضى وكل ما اتصف بالقبول وصف بالرفعة والصعود والعمل الصالح كالعبادة الخالصة يرفعه اللهتعالى أي يقبله».[3]

ومن الآيات القرآنية التي أكد من خلالها على أشعريته آيات الاستواء، وتعتبر صفة الإستواء من أهم الصفات التي دار الكلام حولها كثيرا، وقد وردت صفة الاستواء في سبعة مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿**الرحمان على العرش استوى**﴾[4] وقوله : ﴿**ثم استوى على العرش الرحمان**﴾[5] وقوله : ﴿**إن ربكم اللهالذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش**﴾[6] وغيرها.

---

1) البحر المديد 143/4. وانظر مثالا في تفسيره لقوله تعالى ﴿**يخافون ربهم من فوقهم**﴾ (النحل 50) البحر المديد 133/2.

2) فاطر 10.

3) البحر المديد 178/3

4) طه 5.

5) الفرقان 59.

6) الأعراف 54 ويونس 3.

فعند تفسير قوله تعالى : ﴿**الرحمان على العرش استوى**﴾ قال : «والإستواء على العرش مجاز عن الملك والسلطان، يقال استوى فلان على سرير الملك مراد أنه ملك الملك والتصرف وإن لم يقعد على سرير أصلا، والمراد تعلق قدرته وقهريته بجميع الكائنات بالتدبير والتصرف التام، وسئل أحمد بن حنبل عن الإستواء فقال : استواء غلب وقهر لا استواء كما يتوهم البشر. وسئل عنه مالك والشافعي رضي اللهعنهما فقالا : الإستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عن هذا بدعة وضلالة آمنوا بلا تشبيه وصدقوا بلا تمثيل وأمسكوا عن الخوض في هذا كل الإمساك».[1]

وفي قوله تعالى : ﴿**إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش**﴾[2] يقول : «ثم استوى على العرش استواء يليق به والعرش جسم عظيم محيط بالأكوان سمي به لارتفاعه وللتشبيه بسرير الملك. فالأكوان في جوفه ممحوقة فقد استولى عليها ومحقها، كذلك أسرار معاني الربوبية الأزلية قد استولت عليه ومحقته فيمكن أن يكون الحق تعالى عبر بالإستواء عن هذا الإستيلاء». وفي باب الإشارة من تفسير نفس الآية يقول بعد أن ساق كثيرا من الإشارات الصوفية المتعلقة بصفة الإستواء : «وأقرب من هذا كله أن العرش قد استولى على ما في جوفه من العوالم حتى صارت في وسطه كلا شيء، ومعاني أسرار الربوبية وهي العظمة الأصلية قد استولت عليه وأحاطت به ومحت وجوده فعبر الحق جل جلاله عن استيلاء هذه العظمة التي هي أسرار الربوبية على العرش بالإستواء وإلى هذا أشار في الحكم العطائية بقوله : يا من استولى برحمانيته على عرشه فصار العرش عينا في رحمانيته كما صارت العوالم غيبا في عرشه فمحقت الآثار بالآثار ومحقت الآثار وهي العرش وما

---

1) البحر المديد 12/3.

2) الأعراف 54.

احتوى عليه بمحيطات أفلاك الأنوار وهي أسرار الذات المحيطات بالآثار من العرش إلى العرش فعبر عن المعاني المستولية على العرش بالرحمانية، لأن الرحمان صفة الذات والصفة لا تفارق الموصوف فافهم».[1]

لقد مزج ابن عجيبة في تفسيره للآية إن على مستوى الظاهر أو على مستوى الإشارة بين تحليل صاحب النظر العقلي وتحليل صاحب القلب العرفاني في فهم الإستواء على العرش. حيث انتقل من شرح الإستواء الجسماني على العرش المكاني بالتنزيه عنه إلى التشبيه بالإستواء السلطاني الحادث وهو ما عبر عنه المؤلف بقوله : «سمي به (أي العرش) لارتفاعه وللتشبيه بسرير الملك» وقوله قبل ذلك «مراد أنه ملك الملك والتصرف وإن لم يقعد على سرير أصلا» ويمكن القول بأن التفسير الإشاري الذي أورده ابن عجيبة يعبر عن القدرة التي تمكن من قلب الصوفي من الجمع بين التنزيه والتشبيه إذ القلب يسع الحقيقة الإلهية كاملة.

وإذا كان ابن عجيبة قد نص في فتوحاته[2] على أن أحسن المذاهب مذهب السلف من اعتقاد التنزيه ونفي التشبيه فإن تنصيصه على التشبيه في النص السابق لا يراد به التشبيه المذموم الذي يجب أن ينزه الله‌تعالى عنه، ولكن يفهم منه نوع من التقييد الذي ينفي الشبهة، فالله هو «المقيد بما قيد به نفسه من صفات الجلال، وهو المطلق بما سمى به نفسه من أسماء الكمال وهو الواحد الحق الجلي لا إله إلا هو العلي العظيم.[3]

وعندما يعرض ابن عجيبة لتفسير الآيات التي يوهم ظاهرها مشابهة الله‌تعالى للحوادث مثل الآيات التي تثبت لله وجها أو يدا أو عينا فإنه يؤولها بما يناسب كمال الله‌تعالى وجلاله.

---

1) البحر المديد 8/2.

2) الفتوحات الإلهية 139/1.

3) الفتوحات المكية 289/1.

فعند تفسير قوله تعالى : ﴿**ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه اللهإن اللهواسع عليم**﴾[1] قال : «يقول الحق جل جلاله ولله المشرق والمغرب، والجهات كلها له لا يختص به مكان دون آخر فإذا منعتم من الصلاة في المساجد فأينما كنتم ووليتم وجهكم إلى القبلة التي أمرتم بالتوجه إليها فثم جهته أمر بها أو فثم ذاته المقدسة...».[2]

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي**﴾[3] يقول ابن عجيبة : «قال يا إبليس ما منعك أن تسجد أي عن السجود لما خلقت بيدي بلا واسطة[4] أب وأم امتثالا لأمري وإعظاما لخطابي، ولما كانت الأعمال تباشر في الغالب باليد أطلقت على القدرة والتثنية لإبراز كمال الإعتناء بخلقه عليه السلام المستدعي لإجلاله وإعظامه...»[5] وفسر المؤلف اليدين في باب الإشارة من تفسير نفس الآية بالقدرة والحكمة فقال : «خلقته بيد القدرة ويد الحكمة فالقدرة كناية عما في باطنه من أسرار المعاني الإلهية، والحكمة عبارة عما في قالبه من عجائب التصوير وغرائب التركيب...».

والذي يمكن ملاحظته بشأن المباحث الكلامية التي يتعرض لها ابن عجيبة أنها جد مقتضبة ومادتها قليلة جدا، ويكاد تعرض المؤلف لها أن يكون ترفقا في طلب الإنصراف عن الخوض في هذه المسائل، وهو ما يؤكد لنا مرة أخرى مذهب الصوفية في معالجة قضايا علم الكلام من حيث

---

1) البقرة 115.

2) البحر المديد 27/1.

3) سورة ص 75.

4) حكى الزمخشري في كشافه 383/3 أن معنى (خلقت بيدي) خلقت بغير واسطة، لكنه قبل ذلك حاول أن يؤكد على أن لفظ (بيدي)صلة وقد أجهد نفسه على ذلك قاصدا نفي صفة اليدين لكن رد عليه ابن المنير ردا مقنعا.

5) البحر المديد 211/3.

العزوف تماما عن استعراض أقاويل المتكلمين وخلافاتهم ومختلف اتجاهاتهم. ولذلك قال الكلاباذي في كتابه «التعرف لمذهب أهل التصوف»[1] واصفا مذهب الصوفية في الصفات : «إنها صفات له كما يليق به ولا يعبر عنها بأكثر من التلاوة والرواية. ويجب الإيمان بها ولا يجب البحث عنها».

غير أن ابن عجيبة وإن كان اتجاهه إزاء مسائل علم الكلام اتجاها سلبيا يفضل التسليم لما ورد عن الشرع، إلا أن ذلك لا يعني قطعا أخذه بمذهب السلف القائل بعدم التأويل. فهو كما رأينا من خلال النماذج السالفة معتز بأشعريته، مؤول آيات الصفات، إلا أن مما يحمد له في هذا المجال هو ترفعه عن الخوض في مسائل علم الكلام بما يقتضيه ذلك من إيراد لمختلف الآراء وتقوية بعضها وتضعيف البعض الآخر، ولقد خالف مذهب معظم المفسرين الذين كانوا يصرون على استعراض جميع الآراء الكلامية حيث وجدناه لا ينص على آراء السلف ولا يذكر مذاهبهم في القضايا الكلامية.

---

1 التعرف : 37.

المبحث الثالث :

رده على الفرق المنحرفة

خاض المعتزلة والرافضة وغيرهم من الفرق المنحرفة في معظم مسائل علم الكلام، وكانت لهم في ذلك مقالات فاسدة وآراء ضالة كان لها أكبر الأثر في بعض المحن والفتن التي مني بها المسلمون في حقبة من الزمن. وأبرز تلك الفتن فتنة القول بخلق القرآن. وقد كان فشو مثل تلك الآراءالفاسدة التي تمس صميم العقيدة الإسلامية سببا دافعا للعلماء من أجل الإشتغال بتفنيدها وبيان زيغها وتوطيد دعائم الحق بالحجة الساطعة والبرهان القاطع.

وقد اهتم المفسرون بالرد على بدع أصحاب الفرق المنحرفة وشددوا النكير عليهم متتبعين جميع آرائهم الكلامية الفاسدة التي حاولوا أن يطوعوا نصوص التنزيل لإقرارها والإحتجاج لها.

وقد كان ابن عجيبة رحمه اللهمدركا لخطورة آراء هؤلاء وبدعهم، فوقف في تفسيره موقف المدافع الكفء والنصير المبرز لمذهب أهل السنة والجماعة. وتعقب المعتزلة على وجه الخصوص في آرائهم وأصولهم الإعتقادية الباطلة التي بنوها على الأصول الخمسة : التوحيد – العدل – الوعد والوعيد – المنزلة بين المنزلتين – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد سعى المعتزلة من أجل كسب آيات القرآن في صف أصولهم الخمسة فعملوا على تأويل الآيات والنصوص وتطويعها لخدمة آرائهم الإعتقادية ومذاهبهم الإعتزالية.

ومن أبرز آرائهم التي تعرض لها ابن عجيبة بالتفنيذ قولهم بخلق العبد لأفعاله الإختيارية[1]، ونفيهم كونه تعالى مريدا ومقدرا للهداية والضلال والإيمان والكفر، فعند تفسير قوله تعالى : ﴿**وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان... فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي...**﴾[2] قال : «ولوموا أنفسكم حيث أطعتموني حين دعوتكم ولم تطيعوا ربكم لما دعاكم ولا حجة للمعتزلة في الآية على أن العبد يخلق أفعاله، لأن كسب العبد مقرر في ظاهر الأمر لقيام عالم الحكمة، وهو رداء لعالم القدرة، فالقدرة تبرز والحكمة تستر، وهو ما يظهر من اختيار العبد ولا اختيار له في الحقيقة. قال تعالى : ﴿**ولو شاء ربك ما فعلوه**﴾ ﴿**وما تشاءون إلا أن يشاء الله**﴾.[3] لقد رد ابن عجيبة في هذا الموقف من خلال تفسيره للآية دعوى المعتزلة بكون الآية حجة على خلق العبد لأفعاله، وقد أكد وفق منهجه في الرد على الفرق المنحرفة على خلاف ما ادعوه مثبتا بذلك العقيدة السنية المستوحاة من النص القرآني، فأثبت بطريقة إشارية ما قد يظهر من اختيار العبد في حين أنه لا اختيار له.

والمؤلف من خلال ردوده على المعتزلة لا يقف عند بسط آرائهم وتفصيلها بقدر ما يحاول أن يبرهن على أن الآيات المحتج بها من طرف القوم لا تعتبر حجة لهم ولا سبيل إلى تمسكهم بها، وهذا ما يسعى ابن عجيبة لتحقيقه والتأكيد عليه من خلال احتجاجه بآيات تعتبر دليلا وحجة لأهل السنة. ففي سياق رده على المعتزلة في مسألة خلق العبد لأفعاله نجده يقول في تفسير قوله : ﴿**ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما**

---

1) يشترك في هذا الإعتقاد الباطل كل من المعتزلة والمرجئة والخوارج وطوائف أخرى. أنظر : الفصل في الملل والنحل لابن حزم : 41/3.

2) إبراهيم 22.

3) الأنعام 112 والإنسان 30 .وانظر البحر المديد 115/2.

يفترون ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يومنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون﴾[1] «وفي الآية دليل لأهل السنة في أن الله خالق الكفر والإيمان والطاعة والمعصية، فالمعصية خلقها وقدرها ولم يرضها لا يسأل عما يفعل وهم يسألون».[2]

وفي معرض تفسير قوله تعالى : ﴿والله خلقكم وما تعملون...﴾[3] قال : «والله خلقكم وما تعملون أي وخلق ما تعملونه من الأصنام، أو (ما) مصدرية أي وخلق أعمالكم، وهو دليلنا في خلق الأفعال لله تعالى، أي خالقكم وخالق أعمالكم فلم تعبدون غيره».[4]

ومن المسائل ذات الصلة الوثيقة بقضية خلق الله لأفعال العباد مسألة القضاء والقدر. وهي بدعة قديمة اشتهرت عن معبد الجهني وتابعه عليها غيلان الدمشقي، واحتضنها بعد ذلك المعتزلة الذين أنكروا القدر وأسندوا أفعال اللهإلى قدرهم حتى اشتهر تلقيبهم بالقدرية لذلك[5]، وهو تلقيب يستعمله ابن عجيبة في تفسيره[6] أحيانا للرد على المعتزلة. أما الجبرية فيرد عليهم قولهم بأن العبد مسلوب الإختيار لا قدرة له أصلا، مؤكدا على أنه وإن كانت قدرة العبد لا تأثير لها في فعله إلا أنه يثبت له الكسب الذي اشتهر القول به عن جمهور الأشاعرة والمعروف بكسب الاشعري. يقول الآمدي حاكيا مذهب هؤلاء القوم : «وذهب أهل الحق إلى أن أفعال العباد مضافة إليهم بالإكتساب، وإلى الله تعالى بالخلق والإختراع، وإنه لا أثر للقدرة الحادثة فيها أصلا».[6]

---

1) الأنعام 112-113.

2) البحر المديد 173/1.

3) الصافات 96.

4) البحر المديد 197/3 وانظر التسهيل لابن جزي 173/3.

5) جمال الدين القاسمي : تاريخ الجهمية والقدرية، مؤسسة الرسالة 1399 ص 71.

6) أنظر مثلا قوله : «والمراد بأهل القدر المعتزلة القائلون بأن اللهتعالى لم يرد الكفر والمعاصي وهو باطل» البحر المديد 75/4.

7) الآمدي : غاية المرام، مطابع الأهرام بالقاهرة 1391 ص 207.

يقول ابن عجيبة في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون**﴾[1]، «الآية كالتعليل للأمر بالتبري إن الله لا يظلم الناس شيئا بسلب حواسهم وعقولهم ولكن الناس أنفسهم يظلمون بإفسادها وإهمالها وتفويت منافعها عليكم وفيه دليل على أن للعبد كسبا وأنه ليس مسلوب الإختيار بالكلية كما زعمت الجبرية».[2]

ويقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿**هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مومن**﴾[3] : «هو الذي خلقكم خلقا بديعا حائزا لجميع الكمالات العلمية والعملية، ومع ذلك فمنكم كافر أي فبعض منكم مختار للكفر كاسبا له على خلاف ما تستدعيه خلقته، ومنكم مومن مختار للإيمان كاسبا له على حسب ما تقتضيه خلقته، وكان الواجب عليكم جميعا أن تكونوا مختارين للإيمان شاكرين لنعم الخلق والإيجاد...»[4] وهكذا أبطل ابن عجيبة مدعى المعتزلة ومن لف لفهم من منطلق ثبوت الوحدانية لله عز وجل الشاملة لوحدانية الذات والصفات والأفعال، وهذه الأخيرة مقتضية لأن يكون الله تعالى متفردا بخلق جميع الأفعال – بما فيها أفعال العباد – ومن ثم فمن نسب خلق الأفعال للعباد فقد قدح في صفة الوحدانية بمدلولها الشامل. إذ أن أفعال العباد هي كسب لهم وهي خلق الله تعالى. ومن المسائل الإعتقادية التي رد فيها ابن عجيبة على أصحاب الأهواء من الجهمية والمعتزلة مسألة رؤية الله تعالى في الآخرة التي تعتبر من أشرف مسائل أصول الدين،وقد كان الخلاف فيها على رأيين:

أحدهما : القول بإثباتها للمؤمنين يوم القيامة وهو مذهب سلف الأمة والأشاعرة.

---

1) يونس 43.

2) البحر المديد 64/2. وانظر تفسير البيضاوي 93/3.

3) التغابن 2.

4) البحر المديد 130/4.

ثانيهما : القول بالمنع وهو مذهب الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية.[1]

ويعتبر قوله تعالى : ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾[2] من أظهر الأدلة على هذه القضية، وقد تصدى ابن عجيبة للتأويل القائل بأن النظر الوارد في الآية هو بمعنى الإنتظار فكأنه تعالى قال : «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها منتظرة، وأثبت رؤية المومنين لربهم بأبصارهم يوم القيامة. وفي ذلك يقول في معرض تفسير الآية السالفة : «إلى ربها ناظرة أي مستغرقة في مشاهدة جماله فتغيب عما سواه، ورؤيته تعالى يوم القيامة متفاوتة، يتجلى لكل واحد على قدر حضوره هنا ومعرفته، ورؤيته تعالى جائزة في الدنيا والآخرة، واقعة في الدارين عند العارفين، وهذه الاية شاهدة لذلك وهي مخصصة لقوله : ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾.[3] ثم ينتقل المؤلف للرد على المعتزلة فيما ذهبوا إليه فيقول : «وحمل النظر على الإنتظار لأمر ربها أو لثوابها لا يصح خلافا للمعتزلة[4]، لأن الإنتظار لا يسند إلى الوجه، وأيضا المستعمل بمعنى الإنتظار لا يتعدى بإلى مع أنه لا يليق الإنتظار في دار القرار».[5]

فابن عجيبة يرى أن هذه الآية صريحة في الرؤية إن في الدنيا أوالآخرة، ولا مكان لمختلف الاستعمالات الواردة في النظر في هذه الآية ، لأن النظر هنا قد قرن بالوجه، ولا معنى لذلك سوى الرؤية بالعينين. أما الإنتظار الذي زعمه المعتزلة فلا يقرن بالوجه من جهة، كما لا يكون مقرونا بإلى من جهة أخرى، لأنه لا يجوز عند العرب أن يقولوا في نظر

---

1) أنظر مقالات الإسلاميين للأشعري 238/1.

2) القيامة 23.

3) الأنعام 103.

4) أنظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار، تح د. عبد الكريم عثمان ط 1 مطبعة الإستقلال الكبرى 1384 ص 245.

5) البحر المديد : 170/4 وانظر رد ابن المنير علي الزمخشري المعتزلي في تفسيره للاية الكشاف 192/4.

الإنتظار «إلى» ألا ترى أن الله عز وجل قال : ﴿**ما ينظرون إلا صيحة واحدة**﴾[1] ولم يقل «إلى» إذ كان معناه الإنتظار». أما قوله تعالى : ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**﴾ الذي استدل به المعتزلة على نفي الرؤية، فقد رد ابن عجيبة عليهم بأن هذه الآية خاصة في الدنيا، أو أن المراد بها نفي الإدراك الذي هو الإحاطة دون الرؤية، وفي ذلك يقول «يقول الحق جل جلاله : « لاتدركه الأبصار أي لا تحيط به ولا تناله، وعن ابن عباس لا تدركه في الدنيا وهو يرى في الآخرة، ومذهب الأشعرية أن رؤية الله في الدنيا جائزة عقلا لأن موسى عليه السلام سألها ولا يسأل موسى ما هو محال، وأحالته المعتزلة مطلقا وتمسكوا بالآية، ولا دليل فيها لأنه ليس الإدراك مطلق الرؤية ولا النفي في الآية عاما في الأوقات ولعله مخصوص ببعض الحالات»[2] ونجد كذلك لابن عجيبة مواقف أخرى في الرد على المعتزلة في كثير من القضايا الإعتقادية، وسنقتصر منها علي ما ذهبوا إليه في شأن مرتكب الكبيرة، ومعلوم أن مرتكب الكبيرة عند أهل السنة إذا مات ولم يتب منها فإنه لا يخلد في النار، وأمره مفوض إلى الله تعالى إن شاء غفر له وإن شاء عاقبه بمقدار جرمه ثم يدخله الجنة برحمته خلافا للخوارج الذين يكفرونه وللمعتزلة الذين يضعونه في منزلة بين المنزلتين. وقد نص الشهرستاني على مذهب الأشعري في هذه المسألة فقال : «وصاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة يكون حكمه إلى الله تعالى إما أن يغفر له برحمته وإما أن يشفع فيه النبي ﷺ إذ قال : «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[3] وإما أن يعذبه بمقدار جرمه ثم يدخله الجنة برحمته، ولا يجوز أن يخلد في النار مع الكفار لما ورد به السمع بالإخراج من النار لمن كان في قلبه مثقال ذرة

---

1) يس : 49.

2) البحر المديد 171/1.

3) الحديث أخرجه أبو داود في سننه 236/4 عن أنس بن مالك، كما أخرجه أحمد في مسنده 213/3.

من الإيمان»[1] وقد رد ابن عجيبة على المعتزلة في هذه المسألة وقرر في بعض المواطن من تفسيره ما يراه أهل السنة في مرتكب الكبيرة، من أنه هو في مشيئة الله.

فمثلا عند تفسير قوله تعالى : ﴿**ومن يقتل مومنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما**﴾.[2] قال: «يقول الحق جل جلاله : ومن يقتل مومنا متعمدا مستحلا لقتله فجزاؤه في جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه أي طرده وأعد له عذابا عظيما. وقولنا مستحلا لقتله هو أحد الأجوبة عن شبهة المعتزلة القائلين بتخليد عصاة المومنين في النار ومن جملتهم قاتل النفس، ومذهب أهل السنة أنه لا يخلد إلا الكافر ويؤيد هذا الجواب سبب نزول الآية لأنها نزلت في كافر وهو مقيس بن صبابة الكناني وجد أخاه هشاما قتيلا في بني النجار وكان مسلما فذكر ذلك للنبي ﷺ ... إلى آخر القصة التي كانت سببا في نزول الآية، أو يكون الخلود عبارة عن طول المكث».[3]

وقد يستأنس ابن عجيبة بكلام بعض المفسرين في الرد على المعتزلة في هذه المسألة، كما هو الشأن عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾[4] حيث أورد نصا للبيضاوي في تفسيره جاء فيه : «هذا مما يحتج به الوعيدية –يعني المعتزلة– في تخليد العصاة والجواب أن الآية في الكفار لاشتمال السيئات على الكفر والشرك، ولأن الذين أحسنوا يتناول أصحاب الكبيرة من أهل القبلة فلا يتناولهم قسيمه».[5]

---

1) الشهرستاني : الملل والنحل ص 92.

2) النساء 93.

3) البحر المديد 121/1.

4) يونس 27.

5) البحر المديد 62/2 وانظر تفسير البيضاوي 91/3.

والملاحظ في هذا الصدد أن ابن عجيبة قد تحاشى التعرض لمذهب المعتزلة في صاحب الكبيرة في تفسيره لكثير من الآيات التي كانت محل اهتمام جل المفسرين بهذا الموضوع. وذلك مثل قوله تعالى : ﴿**وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما**﴾[1] ومثل قوله تعالى : ﴿**بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾[2] فالمؤلف في تفسيره لمثل هذه الآيات لم يتعرض لمذهب المعتزلة ولم يشر ولو من قريب إلى ما دأب المفسرون على تقريره في مثل هذه الآيات من إثبات مذهب أهل السنة في أن العصاة لا يخلدون في النار.

والذي يظهر من خلال تفسير ابن عجيبة أن المؤلف مقتنع من أنه لم يشأ أن يضع تفسيره لتقرير المسائل الكلامية وغيرها من المباحث مما سبق أن نبهنا إلى قلة اهتمام ابن عجيبة ببحثها، فقد كان همه الأساسي وهدفه الأسمى هو إجلاء المعاني الروحية واستنباط الإشارات الصوفية، وهذا ما يتبين بوضوح من خلال تفسيره لآية البقرة السابقة حيث خصص للتفسير الإشاري للاية أربعة أضعاف ما قرره في التفسير بالظاهر.[3]

وقد يشير المؤلف أحيانا إلى مذهب المعتزلة لكن باقتضاب شديد وإشارة خاطفة، ومثال ذلك ما أورده عند تفسير قوله تعالى : ﴿**فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون**﴾.[4] حيث قال : «ووفيت حينئذ كل نفس ما كسبت من خير أو شر وهم لا يظلمون

---

1) النساء 18.

2) البقرة 81.

3) البحر المديد 20/1.

4) آل عمران 25.

أي لا يبخسون من أعمالهم شيئا، فلا ينقص من الحسنات ولا يزاد على السيئات، وفيه دليل على أن المؤمن لا يخلد في النار».[1]

هكذا يكون ابن عجيبة قد ساهم في بحث بعض القضايا الإعتقادية والمسائل الكلامية بوجه لا يرتفع إلى مستوى يمكن أن يقال فيه أنه خوض في مسائل علم الكلام فضلا عن أن يكون عرضا مسهبا لمختلف الآراء والمذاهب الكلامية. وبذلك يبدومن السهل تعليل ما خاض فيه من المسائل القليلة بالعلة التي ذكرناها من قبل وهي رغبة المؤلف في لفت الأنظار إلى أن الأولى ترك الإشتغال بالمسائل الكلامية الخلافية التي لا طائل تحتها والإهتمام بالمقابل بما يعتبر سبيلا إلى تحقيق سلامة الباطن وتهذيب السريرة وتصفية العقيدة من الشوائب بعيدا عن خلافات المتكلمين.

---

1) البحر المديد 70/1.

الباب الثالث :

منهجه في التفسير بالرأي وما يتعلق به

تمهيد :

المراد بالتفسير بالرأي عند العلماء تفسير القرآن الكريم بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لعلوم اللغة ووجوه دلالتها ووقوفه على الأدوات التي يحتاجها المفسر من العلوم النقلية و العقلية كأسباب النزول و الناسخ والمنسوخ وغير ذلك، ومن ثم نجد المفسر بالرأي لا يستغني بحال عن الجانب النقلي، بل يضيف إليه من نتاج العقل و الرأي ما يزداد به اقترابا من كشف حقائق التنزيل وتبيان وجوه الأقاويل.

ويرى ابن عجيبة أن من حجب فهم القرآن اقتصار المرء على قراءة تفسير نقلي مع الاعتقاد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيره، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي، فهذا من الحجب العظيمة لأن التفسير بالرأي هو الذي يوافق الهوى الفاسد فيحمل القرآن على ما يوافق هواه ليحتج به على تصحيح غرضه. أما استنباط الأحكام واستخراج الفوائد و العلوم منه فليس منه، ومنه قول علي رضي الله عنه : «إلا أن يوتي الله العبد فهما في القرآن»، ولو كان المعنى هو الظاهر المنقول لما اختلف الناس فيه.

لذلك فقد التزم ابن عجيبة في تفسيره الجمع بين المأثور والرأي وأكد على ضرورة الاعتماد عليهما معا و الإفادة منهما في فهم معاني التنزيل واستنباط وجوه التأويل، فهو مثل كثير من المفسرين يراوح ويزاوج في تفسيره بين التفسير بالمأثور و التفسير بالرأي. ولما كان التفسير بالرأي يقوم على الاجتهاد في إبراز المعاني الجلية و الخفية التي يدل عليها النص بصريح العبارة أوبلطيف الإشارة و فإن ذلك إنما يتحقق بتوظيف مختلف أدوات الفهم و التدبر من لغة ونحو وبلاغة واستنباطات فقهية مع التركيز على مختلف علوم القرآن من نسخ وأسباب نزول وغيرهما.

ومن أجل ذلك قسمت هذا الباب إلى خمسة فصول هي :

الفصل الأول : التفسير الإشاري في البحر المديد

الفصل الثاني : الجانب البلاغي في تفسير ابن عجيبة

الفصل الثالث : الاتجاه اللغوي والنحوي في تفسير ابن عجيبة

الفصل الرابع : منهج ابن عجيبة في عرض الأحكام الفقهية

الفصل الخامس : آراؤه في بعض علوم القرآن

الفصل الأول : التفسير الإشاري عند ابن عجيبة

ويتضمن أربعة مباحث :

المبحث الأول : التعريف بالتفسير الإشاري

المبحث الثاني : شرعية التفسير الإشاري

المبحث الثالث : مدى التزام ابن عجيبة بشروط التفسير الإشاري

المبحث الرابع : خصائص التفسير الإشاري عند ابن عجيبة.

المبحث الأول :

التعريف بالتفسير الإشاري

تمهيد :

لما كان التصوف ينقسم عند الدارسين إلى قسمين : تصوف نظري فلسفي وآخر عملي سلوكي، فإن التفسير عند الصوفية ينقسم بدوره إلى تفسير صوفي نظري وآخر إشاري أو فيضي.

أما التفسير الصوفي النظري فهو اتجاه منحرف في التفسير سلكه بعض فلاسفة الصوفية الذين تشبعوا بنظريات فلسفية غريبة حاولوا ترويجها وتطبيقها على أساس من القرآن الكريم، فحاولوا تفسير آياته وفق ما ترمي إليه تلك النظريات محاولين من وراء ذلك إقحام وإخضاع القرآن الكريم لما تنبني عليه نظرياتهم من مقدمات علمية تنقدح في أذهانهم خدمة لفلسفاتهم الصوفية ونظرياتهم التأويلية المنحرفة. وممن سلك هذا الاتجاه ابن سينا[1] وابن عربي الحاتمي[2] وغيرهما ممن يرون أن تفسيرهم النظري للآية هو كل ما تحتمله الآية من المعاني وليس وراء ذلك معنى آخر يمكن أن تحمل عليه.[3]

أما التفسير الإشاري فهو يختلف عن التفسير النظري من عدة جوانب، وهو اتجاه في التفسير محمود إلى حد ما حسب استجابته للشروط

---

1) انظر كتاب : التفسير القرآني و اللغة الصوفية في فلسفة ابن سينا لحسن علي عاصي.

2) انظر على سبيل المثال كتاب : د.نصر حامد أبو زيد : فلسفة التأويل عند ابن عربي.

3) هذا الاتجاه لم يعرف عبر التاريخ تفسيرا صوفيا نظريا كاملا وإنما هي نصوص تفسيرية متفرقة كما هو الحال بالنسبة للتفسير المنسوب لابن عربي وكذا بعض كتبه الأخرى مثل الفتوحات المكية وفصوص الحكم.

والضوابط التي وضعها العلماء لتقييد هذا الاتجاه بما يلائم قواعد الشرع السليمة وعدم انحرافه عن المنهاج الصحيح للتفسير القرآني، وقد سلك هذا الاتجاه كثير من المفسرين ومن بينهم ابن عجيبة في كتابه :«البحر المديد»، ولما كان هذا الأخير قد توسع إلى حد ما في هذا الجانب من التفسير ارتأيت ضرورة الحديث عن التفسير الاشاري من حيث التعريف الشامل له ومدى شرعيته والشروط المطلوبة لقبوله، وأقوال العلماء فيه وغير ذلك من المباحث المتعلقة بهذا الاتجاه.

التعريف بالتفسيرالإشاري :

الإشارة في اللغة بمعنى الإيماء و الإيحاء، وفي الاصطلاح عرفها الجرجاني في تعريفاته[1] بأنها ما ثبت بنفس الصيغة من غير أن يساق له الكلام.

أما الجاحظ وقد عقد لهذا المصطلح مبحثا ممتعا في بيانه وتبيينه فقد ذكر أصناف الدلالات وقال : «أولها اللفظ ثم الإشارة، وقال : حسن الإشارة من تمام حسن البيان» وقال أيضا :«والإشارة واللفظ شريكان ونعم العون هي له ونعم الترجمان هي عنه وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط» ثم يقول : فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة وحلية موصوفة على اختلافها في طبقاتها ودلالتها».[2]

وقد استعمل كثير من المؤلفين مصطلح الإشارة معنونين به كتبهم، من ذلك مثلا :

---

1) التعريفات : الدار التونسية للنشر 1971 ص : 16.

2) البيان والتبيين 1/77-78.

- كتاب الإشارات و التنبيهات للإمام الجرجاني (ت 729)[1]
- كتاب الإشارات إلى بيان الأسماء والمبهمات للإمام النووي (ت 676 هـ)
- كتاب الإشارات في ضبط المشكلات لنجم الدين الطوسي (ت 753 هـ)[2] وغيرها.

ومثلما أطلق هؤلاء مصطلح «الإشارة» على كتبهم، كذلك أطلق بعض المفسرين من المتصوفة هذا المصطلح على ما فسروا به آيات القرآن على سبيل المجاز وذلك لآن «نسبة الإشارة إلى لفظ القرآن مجازية لآنها إنما تشير لمن استعدت عقولهم وتدبرهم في حال من الأحوال، فلما كانت آيات القرآن قد أثارت تدبرهم وأثارت اعتبارهم نسبوا تلك الإشارة للآية».[3]

والإشارة التي قصدها الصوفية في الاستدلال على مشاعرهم هي «بمعنى الإخبار من غير الاستعانة إلى التعبيربباللسان»[4] فهي عبارة عن لطائف لاحت في قلوبهم من أنوار إلهية بها بينوا معاني لآيات القرآن الكريم. وهذه اللطائف يكسبها الصوفي الذي قام بترويض نفسه على فعل الطاعات وسلوك طريق المقربين. وهذا ما يشهد له ما رواه أبو نعيم الأصفهاني من أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله علمني من غرائب العلم ؟ فقال : «هل عرفت الرب؟ فقال : نعم، قال : فما صنعت في حقه؟ قال : ماشاء الله، قال : عرفت الموت؟ قال : نعم قال : ما أعددت له؟ قال : ما شاء الله، قال : انطلق فاحكم ها هنا ثم تعال أعلمك من غرائب العلم».[5] فتبين أن الرسول ﷺ إنما يعلم غرائب العلم لمن استأنس منه

---

1) كشف الظنون 94/1.

2) إيضاح المكنون للبغدادي 137/1.

3) ابن عاشور : التحرير و التنوير 36/1.

4) د. قاسم غني : تاريخ التصوف في الإسلام ص : 335.

5) حلية الأولياء 24/1.

القدرة على فهم أسرارالملكوت، وهو ما عبر عنه الإمام الغزالي بقوله : «واعلم يقينا أن أسرار الملكوت محجوبة عن القلوب الدنسة بحب الدنيا... وكيف تفهم هذا وأنت لا تفهم لسان الأحوال، بل تظن أنه قد لا نطق في العالم إلا بالمقال، فلا تفهم معنى قوله تعالى : ﴿**وإن من شيء إلا يسبح بحمده**﴾[1] ولا قوله تعالى : ﴿**قالتا آتينا طائعين**﴾[2] ما لم تقدر للأرض لسانا وحياة، فكيف تفهم ما وراء هذه الأسرار».[3]

فإطلاق كلمة «تفسير» على كلام الصوفية أهل الإشارة في تأويل آيات القرآن الكريم هو إذن على سبيل التجوز فقط لا على سبيل القطع، لأن علم التفسير الذي اصطلح عليه جل المفسرين يراد به القطع بأن مراد الله كذا في حين أن الإشاريين قد أبوا اعتبار ما يفسرون به القرآن تفسيرا وإنما إشارة فقط تعبر عن تلويحات خفية قد ظهرت لهم، لذا يمكن القول بأن أحسن تعريف للتفسير الإشاري هو قولهم : «إنه تأويل آيات القرآن على غير ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأهل العلم والسلوك تقوم على التطابق بينها وبين الظواهر المرادة من الآيات القرآنية بوجه من الوجوه الشرعية».[4]

وعرفه الإمام الآلوسي بقوله : «وأما كلام السادة الصوفية في القرآن فهو من باب الإشارات إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة»[5] وقد حاول الألوسي حرصا منه على التمييز بين التفسير والإشارة إلى التعبير عن الإشارة بالتأويل حتى لا يختلط الآمر بين التفسير والإشارة. فقال : «إن التأويل إشارة قدسية

---

1) الإسراء : 44.

2) السجدة : 11.

3) الغزالي : جواهر القرآن ودرره، دار الكتب العلمية ببيروت ط1988/1 ص :41 بتصرف.

4) خالد العك : أصول التفسير وقواعده ص : 205، وانظر : التفسير و المفسرون 381/2.

5) روح المعاني : 7/1.

ومعارف سبحانية تنكشف من سجن العبارة للسالكين وتنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين، و التفسير غير ذلك».[1]

ويقول ابن عجيبة في معرض تعريفه بالتفسير : «هو العلم الباحث عن معاني القرآن الظاهرة إفرادا وتركيبا وما يتوقف عليه خاصا به أو كالخاص، وقيدناه بالمعاني الظاهرة احترازا عن فُهوم أهل الإشارات فإنها ليست بالتفسير المتعارفِ بل هي خارجة عما تؤديه العبارة».[2] ويقول في موضع آخر : ويسمى تفسيرهم (أي الصوفية) لكلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ تفسير إشارات».[3]

ومن خلال نص آخرِ مقتطف من «إيقاظ الهمم» نجد ابن عجيبة يميز بين التفسير و الإشارة قائلا : كثيرا ما يستدل الصوفية بهذه الآية ﴿**قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون**﴾[4] على الانقطاع إلى الله و الغيبة عما سواه وهو تفسير إشارة لا تفسير معنى لإنها نزلت في الرد على اليهود.. والصوفية رضي الله عنهم يقررون الظاهر على ظاهره ويقتبسون إشارات خفية لا يعرف مقصودهم غيرهم، ولذلك رد عليهم بعض المفسرين حيث لم يعرف قصدهم قد علم كل أناس مشربهم»[5] ويقول أيضا : «أما تفسير أهل الباطن فهو إشارة لا تفسير معنى، وفي الحديث : إن للقرآن ظاهرا وباطنا وحدا ومطلعا».[6]

---

1) المصدر السابق 8/1

2) تفسير الفاتحة الكبير ص : 7.

3) المصدر السابق ص : 56.

4) الأنعام : 91.

5) إيقاظ الهمم 220/2.

6) المصدر السابق 112/2. والحديث سبق تخريجه.

المبحث الثاني :

شرعية التفسير الإشاري

يستمد التفسير الإشاري مشروعيته من عدة آيات قرآنية وأحاديث نبوية، ويرى الصوفية أهل الإشارات أن التفسير الإشاري ليس بالأمر الجديد في إبراز معاني ولطائف القرآن الكريم، بل هو أمر عرف منذ عهده ﷺ بإشارة بعض آي القرآن وتنبيه بعض الأحاديث النبوية وأقوال بعض الصحابة.

فمن إشارات القرآن الكريم : قوله تعالى : ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾[1] وقوله عز وجل : ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾[2] وقوله سبحانه : ﴿**فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا**﴾.[3]

فهذه الآيات تشير جميعها إلى أن القرآن له ظاهر وباطن، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى حيث ينعي على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثا ويحضهم على التدبر في آيات القرآن الكريم لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون نفس الكلام أو حضهم على فهم ظاهره لأن القوم عرب، والقرآن لم يخرج عن لغتهم، فهم يفهمون ظاهره ولاشك وإنما أراد بذلك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب وحضهم على أن يتدبروا في آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده، وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم.[4]

---

1) النساء : 82.

2) محمد : 24.

3) النساء : 78.

4) الموافقات للشاطبي3/382.

ويقول ابن عجيبة في آية سورة محمد : «أفلا يتدبرون القرآن فإن فيه علوم الظاهر و الباطن لكن إذا زالت عن القلوب الأقفال وحاصلها رفعه حب الدنيا وحب الرياسة والانهماك في الحظوظ والشهوات وكثرة العلائق والشواغل فإن سلم من هذه صفا قلبه وتجلت فيه أسرار معاني الذات والصفات فيتدبر القرآن ويغوص في بحر أسراره ويستخرج يواقيته ودرره»،[1] وقريب من ذلك ما قاله القشيري في قوله تعلى : ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾ حيث قال : «التدبر تدبر إشارة المعاني بغوص الأفكار واستخراج جواهر المعاني بدقائق الاستنباط».[2]

وهناك آيات أخرى تشهد حسب كثير من الصوفية للتفسير الإشاري مثل قوله تعالى : ﴿**وكل شيء أحصيناه في إمام مبين**﴾[3] وقوله عز من قائل : ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب**﴾[4] وقوله سبحانه : ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾[5] وقوله تعالى : ﴿**الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب**﴾.[6]

ومن الآحاديث النبوية : ما رواه الفريابي من رواية الحسن البصري مرسلا عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع» وكذا ما أخرجه الديلمي من حديث عبد الرحمان بن عوف مرفوعا : «القرآن تحت العرش له ظهر وبطن يحاج العباد»[7] وما أخرجه

---

1) البحر المديد 484 وانظر لطائف الإشارات 413/3.

2) لطائف الإشارات 350/1.

3) يس : 12.

4) ص : 29.

5) ق : 37.

6) الزمر : 18.

7) الاتقان للسيوطي 225/4.

الطبراني وأبو يعلى و البزار وغيرهم عن ابن مسعود موقوفا : «إن هذا القرآن ليس منه حرف إلا له حد ولكل حد مطلع»[1] وأورد الغزالي في إحيائه رواية أخرى للحديث بلفظ : «إن للقرآن ظاهرا وباطنا وحدا ومطلعا».[2]

وقبل الحديث عن معنى هذه الأحاديث والمقصود بالمصطلحات الأربعة : الظاهر و الباطن والحد والمطلع، أرى ضرورة إبراز درجة صحة هذه الأحاديث وما ماثلها. فقد سئل ابن تيمية عن الحديث السابق الذي رواه ابن مسعود مرفرعا وحديث : (للقرآن باطن وللباطن باطن إلى سبعة أبطن) فقال : «أما الحديث المذكور (أي الثاني) فمن الأحاديث المختلفة التي لم يروها أحد من أهل العلم ولا يوجد في شيء من كتب الحديث ولكن يروى عن الحسن البصري موقوفا أو مرسلا : «إن لكل آية ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا.[3]

وأما حديث ابن مسعود فقد أورده الإمام الطبري بسندين حيث قال : «وحدثنا محمد بن حميد الرازي قال : حدثنا جرير بن عبد الحميد عن مغيرة عن واصل بن حيان عمن ذكره عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل حرف منها ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع»، وقد حقق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله مدى صحة الحديث فقال : (هو حديث واحد بإسنادين ضعيفين أما أحدهما فلانقطاعه بجهالة راويه عمن ذكره عن أبي الأحوص وأما الآخر فمن أجل راويه عن أبي الأحوص)، ثم قال : (والحديث بهذا اللفظ الذي هنا ذكره السيوطي في الجامع الصغير ونسبه للطبراني في المعجم

---

1) المصدر السابق 224/4 وروي أيضا مرفرعا بلفظ :«انزل القرآن على سبعة أحرف لكل حرف منها ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع»

2) الإحياء 99/1 و الحديث أخرجه ابن حيان في صحيحه من حديث ابن مسعود (كتاب التفسير).

3) فتاوي ابن تيمية 231/13.

الكبير ورمز له بعلامة الحسن[1] ولا ندري إسناده عند الطبراني)[2] وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : «رواه البزار وأبو يعلى والطبراني في الكبير وفي الأوسط باختصار أخره ورجال أحدهما ثقات».[3]

وبالرغم من ضعف هذه الأحاديث المتشابهة فإن العلماء وخاصة منهم الصوفية قد بينوا المراد من تلك المصطلحات حسب اجتهاداتهم، فجاءت التعريفات كثيرة ومتنوعة تدل على ما تمثله هذه الأحاديث من أهمية بالغة كمستند شرعي يعتمد عليه الصوفية في تبرير شرعية تمسكهم بعلم الإشارة أو علم الباطن مقرونا بعلم الظاهر.

أشار الطبري إلى معنى الحديث بقوله : «وقوله ﷺ وإن لكل حرف منها ظهرا وبطنا فظهره الظاهر في التلاوة وبطنه ما بطن من تأويله».[4]

أما ابن تيمية فقد بين ذلك بأن قسم الباطن إلى قسمين :«أحدهما باطن يخالف العلم الظاهر و الثاني لا يخالفه، فأما الأول فباطل : فمن ادعى علما باطنا أو علما بباطن وذلك يخالف العلم الظاهر كان مخطئا إما ملحدا زنديقا وإما جاهلا ضالا، وأما الثاني فهو بمنزلة الكلام في العلم الظاهر قد يكون حقا وقد يكون باطلا.... فإن علم أنه حق قبل وإن علم أنه باطل رد وإلا أمسك عنه و أما الباطن المخالف للظاهر المعلوم فيمثل ما يدعيه الباطنية القرامطة من الإسماعيلية و النصيرية وأمثالهم ممن وافقهم من الفلاسفة وغلاة المتصوفة و المتكلمين».[5]

وأورد السيوطي في إتقانه أوجها خمسة للتمييز بين الظاهر و الباطن، أنقل هنا الوجه الخامس الذي هو عبارة عن كلام لابن النقيب (ت 769 هـ)

---

1) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي 54/3.

2) تفسير الطبري بتخريج أحمد محمد شاكر 22/1-23.

3) الهيثمي : مجمع الزوائد 152/7.

4) تفسير الطبري 72/1.

5) مجموع الفتاوي لابن تيمية 235/13-236.

جاء فيه «أن ظهر الآية ما ظهر منها لأهل العلم بالظاهر وباطنها ما تضمنته من الأسرار التي أطلع الله عليها أرباب الحقائق».[1]

وإذا كان هؤلاء قد عرفوا معنى الباطن مقارنا بالظاهر فإنهم قد أهملوا بيان المراد من الحد والمطلع، وهو ما بينه لنا ابن عجيبة لدى شرحه لحديث الجامع الصغير حيث قال بعدما نقل نفس كلام ابن النقيب السابق: «وقوله (ولكل حرف حد) أي منتهى تنتهي العقول إلى ما يفهم منه من الأحكام والمعاني الظاهرة (ولكل حد مطلع) بشد الطاء وفتح اللام وهو ما يطلع منه على غوامض أسرار المعاني أي لكل حرف حد يقف معه أهل الظاهر ويطلع منه أهل الباطن على أسرار وغوامض لا تفهم من ظاهر اللفظ وإنما تؤخذ بالإشارة وقد تتبعنا ذلك في تفسيرنا البحر المديد من أول القرآن إلى آخره».[2]

وجمع ابن عجيبة أقوال بعض العلماء و الصوفية في ذلك من أجل بيان تعدد معاني تلك الاصطلاحات واحتمالها لتفسيرات عدة واجتهادات مختلفة فقال : «وقال ابن العربي في قانون التأويل علوم القرآن خمسون علما وأربعمائة علم وسبعة آلاف علم وسبعون ألف علم على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة إذ لكل كلمة ظهر وبطن وحد ومطلع، وقال السهروردي في عوارفه[3] وساق قوله عليه السلام ما نزلت آية من القرآن إلا ولها ظاهر وباطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع أي مصعد وهو الفهم، قال فالظاهر لفظ القرآن و الباطن تأويله و وقيل الظاهر صورة القصة من الغضب على قوم وعقابهم ونحو ذلك و الباطن تنبيه من يقرأ ذلك. وقيل ظاهره تأويله وباطنه تفسيره، وقوله عليه السلام لكل حرف حد آي في التلاوة فلا يجاوز المصحف، وفي التفسير بالسماع و الآثار و التأويل وهو صرف الآية إلى ما

---

1) الإتقان 314/2 وقد نقل كلام ابن النقيب أيضا الإمام الألوسي في تفسيره 7/1.

2) ابن عجيبة : حاشية على الجامع الصغير. تح علي اسماعيل تمام، رسالة مرقونة بكلية آداب الرباط 411/2.

3) عوارف المعارف ص : 2

تحتمله مما يوافق الكتاب والسنة والمطلع لأرباب القلوب، وهو شهود المتكلم بالآية لأنها مستودع وصف من أوصافه تتجدد لهم التجليات بتلاوة الآيات»[1] أما سهل التستري فيرى أن «الظاهر :

التلاوة والباطن : الفهم والحد : حلالها وحرامها والمطلع : إشراق القلب على المراد بها فقها من الله عز وجل، فالعلم الظاهر علم عام والفهم لباطنه و المراد به خاص».[2]

وذهب الألوسي – وهو متأخر عن ابن عجيبة – إلى «شرح معنى ذلك بقوله : «ومعنى قوله ولكل حرف حد أن لكل حرف منتهى فيما أراده الله تعالى من معناه، ومعنى قوله : ولكل حد مطلع أن لكل غامض من المعاني والأحكام مطلعا يتوصل به إلى معرفته ويوقف على المراد به...».[3]

هذه إذن تعريفات مختلفة بينت المقصود من الأحاديث الواردة في شأن تقسيم الآي إلى ما هو ظاهر وباطن. وهي في مجملها تدل على أن تلك الأحاديث مهما كانت ضعيفة فإن القول بأن هناك معنى باطن للآية مستور وخفي إلا على أرباب الحقائق أمر وارد لا يسع إنكاره مهما اختلفت في مدلول مصطلح الباطن ما دام أن المقصود هو كل معنى أو إشارة أو إيحاء أو إيماء مما لا يدل عليه ظاهو الكلام.

وقد أشبع الصوفية الكلام في علم الباطن من حيث الحقائق التي يشملها والمعاني التي يرمي إليها ساعين من وراء ذلك إلى البرهنة وإقامة الدليل على شرعية اتجاهم المتمثل في الأخذ بباطن الكلام وظاهره على مستوى واحد.

أما ما روي عن الصحابة في ذلك : فمنه : ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس (ضما) أنه قال : «إن القرآن ذو شجون

---

1) ابن عجيبة : تفسير الفاتحة الكبير ص : 53.

2) تفسير سهل ص : 3.

3) روح المعاني 7/1.

وفنون وظهور وبطون لا تنقضي عجائبه ولا تبلغ غايته فمن أوغل فيه برفق نجا ومن أوغل فيه بعنف هوى، أخبار وأمثال وحلال وحرام وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه وظهر وبطن، فظهره التلاوة وبطنه التأويل فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء».[1]

وروي عن أبي الدرداء (ض) أنه قال : «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرأن وجوها» وعن ابن مسعود (ض) أنه قال : من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن».[2]

وبالإضافة إلى أقوال الصحابة هناك روايات تدل على أن بعضهم ممن اوتي بصيرة ثاقبة وموهبة لدنية قد استطاع تفسير بعض الآي تفسيرا إشاريا لم يفهمه غيرهم. من ذلك مثلا ما رواه البخاري عن ابن عباس (ض) أنه قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال : لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله فقال عمر : إنه من حيث علمتم : فدعاه ذات يوم فأدخله معهم فما رئيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم قال : ما تقولون في قوله تعالى : ﴿إذا جاء نصر الله و الفتح﴾[3] فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وسكت بعضهم فلم يقل شيئا فقال لي : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت لا قال فما تقول ؟ قلت هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال : إذا جاء نصر الله والفتح فذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك و استغفره إنه كان توابا فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول»[4] هنا نجد ابن عباس وعمر قدفهما من إشارة السورة ما لم يفهمه غيرهما من الصحابة حيث لاح لهما إيحاء آخر غير الذي يدل عليه ظاهر السورة وذلك هو المعنى الباطن أو الإشارة التي دلت عليه السورة.

---

1) روح المعاني للألوسي 7/1.

2) الإحياء للغزالي 124/3.

3) النصر : 1.

4) باب التفسير من صحيح البخاري 179/6.

ومما ورد من ذلك أيضا أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾[1] فرح الصحابة وبكى عمر (ض) وقال : ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعرا نعيه عليه الصلاة و السلام، فقد أخرج ابن أبي شيبة أن عمر (ض) لما نزلت الآية بكى فقال النبي ﷺ : «ما يبكيك ؟ قال : أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص، فقال عليه الصلاة و السلام : صدقت».[2]

بهذا يتبين إذن أن الصوفية قد حاولوا جهد المستطاع أن يوجدوا مستندا شرعيا لا تجاهم الذوقي الإشاري في تفسير القرآن الكريم، وبالرغم من أن معظم الأحاديث والآثار التي يستشهدون بها ليست صحيحة، إلا أنهم – وباعترافهم بذلك أحيانا – يؤكدون على أهمية توجيه معانيها وتوظيفها من أجل تعزيز وتبرير منحاهم الصوفي، ولعل ما يشهد لهم في ذلك هو عدم وجود مانع عقلي أو شرعي يمنع من إبداء تفسير الآية القرآنية على وجه لم يسبق أن أتى به الأولون إذا لم يعارض أصلا تشريعيا، ولذلك قال الفخر الرازي في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة**﴾.[3] فثبت في أصول الفقه أن المتقدمين إذا ذكروا وجها في تفسير الآية، فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها. ولو لا جواز ذلك لصارت الدقائق التي استنبطها المتأخرون في التفسير مردودة باطلة، وذلك لا يقوله إلا مقلد خلف».[4]

---

1) المائدة : 3

2) روح المعاني 60/6 وانظر : التفسير و المفسرون للذهبي 385/2.

3) النساء : 3.

4) تفسير الرازي 184/9.

المبحث الثالث :

مدى التزام ابن عجيبة بشروط التفسير الإشاري

اختلف علماء التفسير في الشروط المطلوب توافرها في كل تفسير إشاري حتى يكون مقبولا وغير متناف مع قواعد الشرع الحنيف، إلا أن المتأخرين منهم قد ذهبوا إلى وضع شروط أربعة[1]، سأعرضها فيما يلي مقررا مدى التزام ابن عجيبة بها في تفسيره، وهذه الشروط تشترط مجموعة إلا أنني سأحاول الإدلاء بنماذج من التفسير متحدثا عن كل شرط على حدة.

أولا : يجب ألا يتنافى التفسير الإشاري وما يظهر من معنى النظم القرآني

وهذا أمر واضح في البحر المديد لأن صاحبه لما كان يقرر أثناء التفسير المعنى الظاهر للآيات أولا وهو في ذلك خاضع - بالطبع - لشروط وقواعد التفسير المعروفة، وبالتالي فهو مبرز لمعنى النظم القرآني، لا يمكنه أن يعارض ما قاله في التفسير بالظاهر بما يتنافى ومعنى النظم القرآني وإلا كان متناقضا في كلامه، ويبدو و لا شك أن هذا الشرط لا يمكن أن يختل في تفسير إشاري مزج فيه صاحبه بين التفسير بالظاهر و التفسير

1) انظرها في : التفسير و المفسرون 410/2 وأصول التفسير وقواعده للعك ص : 208.

الإشاري. وإنما يفتقد هذا الشرط في تفسير صوفي محض أفرد للمعاني الصوفية البحتة فحسب.

أما المعاني المستنبطة من القرآن الكريم والتي لا تتوافق وظاهر النظم القرآني، ولا تجري على لسان العربي فلا يمكن أن تقبل، ولذلك اشترط الإمام الشاطبي في موافقاته[1] شرطين أساسيين لقبول المعنى الباطن.

أولهما : أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب بحيث يجري على المقاصد العربية.

ثانيهما : أن يكون له شاهد نصا أو ظاهرا في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.

أما الشرط الأول فظاهر من قاعدة كون القرآن عربيا فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربيا بإطلاق، ولأنه مفهوم يلصق بالقرأن وليس في ألفاظه ولا في معانيه ما يدل عليه، وما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلا، إذ ليست نسبته إليه على أن مدلوله أولى من نسبة ضده إليه، ولا مرجح يدل على أحدهما، فإثبات أحدهما تحكم وتقول على القرآن ظاهر، وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال في كتاب الله بغير علم.

وأما الشرط الثاني : فلأنه إن لم يكن له شاهد في محل أخر أو كان وله معارض صار من جملة الدعاوي التي تدعى على القرآن، و الدعوى المجردة عن الدليل غير مقبولة باتفاق العلماء.

وهذان الشرطان اللذان قررهما الإمام الشاطبي يتوافران في تفسير ابن عجيبة، لم يَحِد عنهما، فمن ذلك مثلا ما جاء في قوله تعالى : ﴿**وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾[2] حيث قال ابن عجيبة في باب الإشارة:

---

1) الموافقات 394/3.

2) البقرة : 35.

«يقول الحق تعالى للروح إذا كمل تهذيبها وكملت تربيتها (اسكن أنت وبشريتك التي تزوجتها)، قال تعالى : ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ «جنة المعارف وكلا من ثمار أذواقها وأنهار علومها وتبوءا من قصور ترقياتها أكلا واسعا ما دامت متحلية بالأدب و لا تقربا شجرة المعصية وسوء الأدب فتكونا من الظالمين».[1]

وهكذا يمكن أن يلاحظ لأول وهلة أن ابن عجيبة قد ادعى في تفسير الآية خلاف ما جرى عليه المفسرون من أن الذي أمره الله تعالى أن يسكن الجنة هو آدم عليه السلام وزوجه وليست الروح، لكن إذا ما استغرقنا النظر مليا في كلام صوفينا وجدنا له مخرجا ووجها يجري عليه، فهو أولا قد فسر الآية تفسيرا ظاهرا وفق ما قرره جل المفسرين من قصة آدم عليه السلام منذ أن أمر الله تعالى ملائكته بالسجود له إلى حين هبوطه من الجنة، ثم أراد بعد ذلك أن يشير ويومئ إلينا بمعنى آخر فيه نوع من الاعتبار والتذكير بحيث لا يتنافى ومعنى النظم الكريم، فأمر الله تعالى لآدم بالسكن هو وزوجه الجنة يصح حمله على النفس التي يجب جهادها وتهذيبها إلى طريق الخير على اعتبار أنها هي الأمارة بالسوء ما دامت معلقة بالمعاصي والهوى، فإذا تطهرت وتزكت سميت روحا، وهو ما عبر عنه ابن عجيبة بقوله : «يقول الحق تعالى للروح إذا كمُل تهذيبها وكملت تربيتها اسكن أنت وبشريتك الجنة» ونجده بهذا الصدد يحاول الاستشهاد بشاهد من القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾[2] أي الأرواح[3] فتبين إذن أن في تفسير ابن عجيبة للآية بالإشارة ما يوافق ظاهر النظم القرآني. أما تفسيره للشجرة بشجرة المعصية ففيه نعت لما جلبته تلك

---

1) البحر المديد 13/1.

2) التكوير : 7

3) أي أعيدت إلى أجسادها وقرنت ببشريتها، انظر البحر المديد 186/4.

الشجرة لآدم من المعصية ﴿**وعصى آدم ربه فغوى**﴾[1]، وفي إشارة إلى أن المعاصي التي يرتكبها الإنسان في هذه الدنيا تقترف باستمرار كما تقطف الثمار من الشجرة في كل وقت وحين، وفي تفسير القشيري[2] للشجرة بشجرة المحنة ما يستأنس به كإشارة أخرى إلى ما جلبته تلك الشجرة لآدم عليه السلام من محنة، وإن كان قد بدا من تقدير الله تعالى ما سبق به الحكم.

ويتأكد لنا التزام ابن عجيبة بهذا الشرط في معرض تفسيره لقوله تعالى في ذم من كان عبدا لهواه : ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله**﴾[3] حيث قال : «فالآية نص في ذم من أحب هواه واتخذ ربا من دون مولاه، وأما تفسير أهل الباطن فهو إشارة لا تفسير معنى» ثم أورد تفسيرا إشاريا لشيخ شيوخه محمد بن عبد الله يناقض ظاهر النص ويبتعد كل البعد عن المعنى المقصود، وبعد أن نقل ذلك التفسير قال : «وهذا في ظاهر العبارة خارج عن سياق ظاهر الآية لكنها باطنها و لايصح تفسير الآية به، ثم يعقب على ذلك محاولا تبرير مثل هذه التفسيرات الإشارية قائلا : «واعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسول الله ﷺ على غير المعنى المعهود ليس هو عندهم عين المعنى المراد ولكنهم يقررون الآية و الحديث على ما يعطيه اللفظ ثم يفهمون إشارات ودقائق وأسرار خارجة عن مقتضى الظاهر».[4]

---

1) طه : 121.

2) لطائف الإشارات 80/1.

3) الجاثية : 23.

4) إيقاظ الهمم 101/2-102.

ثانيا : ألا يدعى أنه هو المراد وحده دون الظاهر بل لا بد من الاعتراف بالمعنى الظاهر أولا

قال الإمام الآلوسي في تفسير قوله تعالى : ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا﴾[1] «أي ينحرفون في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة فيحملونها على المحامل الباطلة وهو مراد ابن عباس بقوله : يضعون الكلام في غير موضعه»[2] ويرى ابن عجيبة ضرورة الربط بين الظاهر والباطن أو بين العبارة والإشارة، فإذا كان العلماء من أهل الظاهر يتوقفون عند ظاهر الآيات ومعانيها التي تعطيها قوة اللغة العادية، فإن الصوفية ينفذون إلى ما تشير إليه تلك العبارة أو الآية من معان وجودية وإشارات رمزية، إن ابن عجيبة يقف ضد التأويل الذي ينكر الظاهر ويرفضه في حين يقول بتعدد مستويات الدلالة والمعنى للآية الواحدة على اعتبار أنها جميعها تشكل وجوها متعددة لحقيقة الكلام الإلهي، فهو ينقل عن ابن عطاء الله السكندري (ت 709 هـ) في كتابه لطائف المنن قوله : «فلا يصدنك عن تلقي المعاني عنه (أي عن تفسير الصوفي) أن يقول لك ذو جدل أو معارضة هذا إحالة لكلام الله عز وجل وكلام رسوله ﷺ، فليس ذلك بإحالة وإنما يكون إحالة لكلام الله لو قال لا معنى للآية إلا هذا وهم لا يقولون ذلك بل يقرون الظواهر على ظاهرها ومراداتها وموضوعاتها ويفهمون عن الله ما أفهمهم».[3]

فلا بد إذن للمفسر العارف من أن يتحقق أولا بظاهر الآيات و لا يتم ذلك إلا بفهمه من خلال معطيات اللغة الوضعية الاصطلاحية فيستخرجون الأحكام وغيرها من نصوص الآيات طبقا لمراعاة قواعد لغوية متفق

---

1) فصلت : 40.

2) روح المعاني 112/24.

3) تفسير الفاتحة الكبير ص : 56 وراجع كتاب لطائف المنن ص : 137.

عليها، وهو المستوى الذي يقف عنده العلماء و الفقهاء بصفة عامة، وبعد التحقق بذلك يمكنه الانتقال إلى التفسير بالإشارة وذلك باستنباط المعاني و الإشارات وذكر ما قد تومئ إليه الآيات من معان باطنة لا يدركها «إلا من أشرقت على قلبه أنوار الشموس العرفانية»[1] لذلك يصر ابن عجيبة على ضرورة الجمع بين الظاهر و الباطن في فهم النص لأن الظاهر يمثل الرمز الذي لا يمكن النفاذ إلى المرموز إليه الباطن إلا من خلاله.

يقول ابن عجيبة في أول تفسيره المتوسط للفاتحة : «واعلم أن القرآن له ظاهر لأهل الظاهر وباطن لأهل الباطن، وتفسير أهل الباطن خاص بأهل الباطن لا يفهمه غيرهم ولا يذوقه سواهم، ولا يصح ذكره إلا بعد تقرير الظاهر، ثم يشير إلى علم الباطن بعبارة رقيقة وإشارة دقيقة»[2] ويقول في طالعة تفسيره : «وتفسير أهل الباطن لا يذوقه إلا أهل الباطن، لا يفهمه غيرهم و لا يذوقه سواهم، ولا يصح ذكره إلا بعد تقرير الظاهر».[3]

ويقول الغزالي في كتابه الإحياء : «فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل في زمرة من يفسر بالرأي، فالنقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير أو لا ليتقى به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع التفهم و الاستنباط».[4]

وقد التزم ابن عجيبة في تفسيره بتقرير التفسير الظاهر أولا على طريقة المفسرين مخضعا النص القرآني لقواعد اللغة وأصولها وما يحمله سياق الآيات من أحكام ومباحث علمية متنوعة، ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان ما قد ترمي إليه الآيات من إشارات و إيحاءات وعبر ومواعظ بعبارة رقيقة وإشارة دقيقة كما يقول ولعل في التزامه ذلك دون أن يحيد عنه من

---

1) تفسير الفاتحة الكبير ص : 58.

2) ابن عجيبة : تفسير الفاتحة المتوسط، خ خ الحسنية 11325، الورقة 30 ب.

3) البحر المديد 1/1.

4) الإحياء 138/3.

أول التفسير إلى أخره ما يجعلنا نؤكد على أن «البحر المديد» يتميز عن غيره من تفاسير الصوفية بذلك النفس الصوفي الطويل الذي أمد ابن عجيبة بمئات الإشارات والإيحاءات، وهذا ما يفتقد في كثير من التفاسير الصوفية.

ثالثا : أن يكون له شاهد شرعي يؤيده

يقول الشاطبي : «فلأنه إن لم يكن له شاهد في محل آخر أو كان له معارض صار من جملة الدعاوي التي تدعى على القرآن و الدعوى المجردة عن الدليل غير مقبولة باتفاق العلماء».[1]

لقد حرص ابن عجيبة في تفسيره على أن لا يورد من الإشارات الصوفية إلا ما كان يشهد له نص قرآني آخر أو حديث نبوي أو قول صحابي، إلا أن طريقته في ذلك تتجلى في عدم تنصيصه على ذلك إلا نادرا، وهذا هو منهج جل الصوفية في ما يوردونه من خواطر وسوانح وإشارات، إنهم يؤكدون على أن ذلك لا يمكن أن يعيه إلا من ولج طريقتهم وخاض غمار التصوف وذاق أسراره وحلاوته، ففي معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع و البصر و الفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا**﴾[2] قال : «الإشارة : ينبغي للإنسان الكامل أن يكون في أموره كلها على بينة من ربه فيحكم على ظاهره الشريعة المحمدية وعلى باطنه الحقيقة القدسية فإذا تجلى في باطنه شيء من الواردات أو الخواطر فليعرضه على الكتاب و السنة فإن قبلاه أظهره وفعله وإلا رده وكتمه ...فقد انعقد الإجماع على أنه لا يحل لامرئ مسلم أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه، وإليه الإشارة بقوله (ولا تقف ما ليس لك به علم)[3]» وعند

---

1) الموافقات 394/3.

2) الإسراء : 36.

3) البحر المديد 149/2.

تفسيره لقوله تعالى : ﴿**فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله** ...﴾[1] قال : الإشارة يجب على المريد الصادق الذي يطلب دواء قلبه أن يفر من الوطن الذي يكثر فيه الحسد و الاشتهار إلى الوطن الذي يقل فيه الحسد و الاستظهار، وأن يفر من الوطن الذي فيه الإنكار إلى الوطن الذي يكثر فيه الإقرار إلى من يعينه على نصر الدين من الأبرار المقربين الذين جعلهم الله حواريي الدين، ففي الحديث الصحيح[2] : «خير مال المسلم غنم يتبع بها شعب الجبال يفر بدينه من الفتن».[3]

وكثيرا ما نجد ابن عجيبة أثناء تفسيره للآيات الواردة في شأن الكفار أو المنافقين يحاول أن يجري معناها في الإشارة في غير الذي نزلت الآية فيه ويعبر عن ذلك الانتقال من المعنى الأصلي إلى المعنى الإعتباري بصيغ مختلفة كقوله : «والآية تجر ذيلها على منافقي الصوفية»[4] أو قوله: «هذه الآية تنسحب على علماء السوء»[5] مثال ذلك ما أورده عند تفسير قوله تعالى[6] : ﴿**قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة و الإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم**﴾ حيث قال[7] : الإشارة : ما قيل لأهل الكتاب يقال لهذه الأمة المحمدية على طريق الإشارة يقال لهم لستم على شيء يعبأ به من أعمالكم وأحوالكم حتى تقيموا كتابكم القرآن فتحلوا حلاله وتحرموا حرامه وتقفوا عند حدوده وتمتثلوا أوامره وتجتنبوا نواهيه وتقيموا أيضا سنة نبيكم فتقتدوا بأفعاله وتتأدبوا بآدابه، وتتخلقوا بأخلاقه على جهد الاستطاعة ولذلك قال بعض السلف : ليس علي في

---

1) آل عمران : 52.

2) أورده البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق 258/4 وأخرجه أبو داود في سننه (كتاب الفتن) 103/4.

3) البحر المديد 75/1.

4) انظر على سبيل المثال : البحر المديد : 144/4.

5) انظر على سبيل المثال : البحر المديد : 79/1.

6) المائدة : 68.

7) البحر المديد 394/3.

القرآن أشد من هذه الآية : قل يل أهل الكتاب ... الآية كما في البخاري»[1] فإبن عجيبة في تفسيره الإشاري للآية قد سحب الخطاب الموجه لأهل الكتاب على مسلمي هذه الآمة للاعتبار و النظر، فإذا كان اليهود والنصارى ليسوا على شيء حتى يطبقوا ما جاء في التوراة و الإنجيل وما أنزل إليهم فإن المسلمين كذلك مأمورون بالأخذ بما جاء في القرآن الكريم والعمل به، ولعل فيما وجده بعض السلف من شدة وطأة الآية وثقلها دليلا قائما على صحة ما ذهب إليه ابن عجيبة، إذ أن ما ذهب إليه من سحب الآية على مؤمني هذه الأمة هو نفس المعنى الذي فهمه ذلك الرجل التقي من السلف الصالح .

ويشهد لهذا المنحى في التفسير أيضا ما روي[2] من أن عمر بن الخطاب (ض) قال لبعض من توسع في الدنيا من أهل الإيمان : أين تذهب بكم هذه الآية (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا) وكان هو نفسه يعتبر بها مع أن الآية نزلت في حق الكفار لقوله تعالى : ﴿**ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا**﴾.[3]

ويُروى عن عمر (ض) أيضا أنه قال : «لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأحسنكم لباسا ولكنني أستبقي طيباتي لأن الله تعالى وصف قوما فقال: أذهبتم طيباتكم».[4]

فإذا كان ابن عجيبة قد أكثر إذن من هذا النوع من الإشارة بإجراء معنى الآية في غير ما نزلت فيه قصد النظر والاعتبار، فإن له في ذلك ما يشهد له ويؤيده من فهوم الصحابة و السلف الصالح حيث إنهم رضوان الله

---

1) أخرجه البخاري في كتاب التفسير من صحيحه (باب تفسير سورة المائدة) 99/6.

2) التفسير و المفسرون 390/2.

3) الأحقاف : 20.

4) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري 14/26 وانظر البحر المديد 39/4.

عليهم لشدة ورعهم وتحريهم كانوا يعتبرون بما تشير إليه كثير من الآيات القرآنية التي نزلت في شأن أهل الكتاب وخاصة منهم بني إسرائيل.

ويعارض ابن عجيبة أحيانا تفسيرا إشاريا لا يؤيده دليل شرعي فيفرضه ويبرر ذلك كما عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا و اجنبني وبني أن نعبد الأصنام**﴾ حيث أورد قول الغزالي في الإحياء : «عنى إبراهيم عليه السلام بالأصنام الذهب و الفضة بمعنى حبهما و الاغترار بهما و الركون إليهما، قال عليه السلام : تعس عبد الدينار و الدرهم .. الحديث[1] لأن رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من الحجارة، هـ . قلت (الكلام لابن عجيبة) : الظاهر أن يبقى اللفظ على ظاهره في حقه وفي حق بنيه، أما في حقه فلسعة علمه وعدم وقوفه مع ظاهر الوعد كما هو شأن الأكابر، لا يزول اضطرارهم و لا يكون مع غير الله قرارهم، وهذا كقوله : ﴿**ولا أخاف ما تشركون به شيئا إلا أن يشاء ربي شيئا**﴾.[2]

وتقدم هذا المعنى مرارا وأما في حق بنيه فإنما قصدالعموم في نسله لكن لم يجب إلا فيمن كان صلبه فإن دعاء الأنبياء عليهم السلام لا يجب أن يكون كله مجابا فقد يجابون في أشياء ويمنعون من أشياء، وقد سأل نبينا عليه السلام أمته فأجيب في البعض ومنع في البعض كما في الحديث».[3]

---

1) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد من صحيحه (باب الحراسة في الغزو في سبيل ق) 100/4

2) الأنعام : 80.

3) البحر المديد : 117/2.

رابعا : ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي

هذا الشرط يمكن إلحاقه بالشرط الثالث لأن ما كان يؤيده شاهد شرعي فهو بالضرورة لا يكون له معارض شرعي أو عقلي، وقد التزم ابن عجيبة في تفسيره عدم ذكر شيئ من التفسير الإشاري يعارض الشرع أو العقل غير أنه لا يفتأ يحذر من قصور أهل الظاهر عن استيعاب المعاني الصوفية التي يبتها أرباب السلوك، يقول في كتابه «إيقاظ الهمم» : «وكل من كان عنده الفهم عن الله لا يتصرف إلا بالإذن من الله، وبعض من طبع الله على قلبه من الفقهاء ينكر هذا وهو معذور في بلاد الضعف إذ من جهل شيئا عاداه، و المراد بالتمكين هو صحة الفهم عن الله حتى لا يبقى له تزلزل أنه مراد الحق بحيث لم ير له معارض شرعي و لا عادي».[1]

1) الإيقاظ 12-20.

المبحث الرابع :

خصائص التفسير الإشاري عند ابن عجيبة

سار ابن عجيبة على نمط واحد في التفسير فهو يفسر الآية الواحدة أو الآيتين إلى خمس آيات مرة واحدة وكلما فسرها بالظاهر إلا وأتى على ما تحمله من إشارات تلوح له. وطريقته في عرض تلك الإشارات تختلف وتتنوع حسب طبيعة الخطاب الإلهي و السياق القرآني وما تبطنه الآية أو الآيات من حمولة صوفية كامنة يستخرج منها ما فتح الله عليه منها كما يستخرج منها غيره من الصوفية جوانب أخرى تلوح لهم، فلغة الإشارة تبقى دائما «حبلى» بالمعاني و الإيحاءات التي تستجيب لأكثر من «تجربة صوفية» وتحتل بالتالي أكثر من إشارة، وهذا ما يفسر لنا قدرة وبراعة ابن عجيبة في استبطان كثير من تلك الإشارات وذكرها جميعا في موضع واحد كما سوف نرى. ونظرا لعمق وشفافية التجربة الصوفية لدى ابن عجيبة ونظرا لتنوع طريقة استخراج الإشارة من لغة «العبارة» فإن خصائص كثيرة ميزت تفسيره وطبعته بطابع جديد ومتجدد امتزجت فيه تجارب الصوفية القدامى بتجربته الروحية الغنية، وسأعرض فيما يلي لأبرز تلك الخصائص مما يشكل قاعدة مطردة.

1 - **عدم التقيد بأسباب النزول** : فالعبرة بما تحمله الآية من عموم يحمل مدلولات كثيرة تتجاوز السبب وهو ما يكسبها استمرارية الإعجاز ودوام تجدد فهم الخطاب الرباني، فلدى تفسيره لقوله تعالى : ﴿**يا أيتها**

النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾[1] أورد أسبابا عدة فيمن نزلت فيه الآية ثم قال عقب ذلك: «و المختار أنها عامة في المومنين، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» ثم ينتقل إلى إشارة الآية فيقول : «يا أيتها النفس المطمئنة التي اطمأنت بشهود الحق ودام فناؤها وبقاؤها بالله ارجعي إلى ربك أي إلى شهود ربك بعد أن كنت عنه محجوبة راضية عن الله في الجلال والجمال مرضية عنده في حضرة الكمال، وعلامة الطمأنينة أن صاحبها لا ينهزم عند الشدائد وتفاقم الأهوال»[2] وفي معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا**....﴾[3] أورد قول ابن عطية في سبب نزولها من ذهاب الجمهور إلى أنها نزلت في الذين هاجروا إلى أرض الحبشة لأن الآية مكية وهجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية، ثم عقب عليه بقوله : «قلت : والمختار العموم ويكون من جملة الإخبار بما سيقع، أو هم المحبوسون بمكة المعذبون بعد هجرة رسول الله ﷺ وهم بلال وصهيب وعمار.... أو كل من هاجر لبلده لإقامة دينه».[4]

فابن عجيبة في هذا المثال وبعد أن أورد بعض أسباب نزولها[5] أورد المعنى العام الذي يمكن أن يكون محل عبرة متجاوزا بذلك ما قاله الجمهور وغير متقيد به وهو ما أكده في إشارة الآية عندما قال : «و الذين هاجروا حظوظهم وهواهم وكل ما نهى الله عنه ابتغاء مرضاة الله أو فارقوا أوطانهم وديارهم في طلب معرفة الله كما فعل كثير من الصوفية، فقل أن

---

1) الفجر : 27-30.

2) البحر المديد : 203/4.

3) النحل : 42.

4) البحر المديد 132/2 وراجع المحرر الوجيز لابن عطية : 186/10.

5) انظر أسباب نزولها في تفسير الطبري 731/4-74.

تجد وليا إلا وهاجر من بلده لإقامة دينه وإفراغ سره لربه من بعد ما ظلموا بإذاية الخلق كما هو سنة الله في خواصه».

2 – عدم الاكتفاء بذكر وجه تفسيري واحد للآية :

فالمؤلف يحاول في كثير من الأحيان الإتيان بشتات من الأوجه التفسيرية مما قد قد تشير إليه الآية عن طريق الاستبطان، وهو في ذلك يؤكد على صحة كل تلك الأوجه دون ترجيح بينها ما دامت لا تحكمها قواعد أو ضوابط متفق عليها بل إن هي إلا إشارات لاحت له وإيحاءات أومأ إليها على اعتبار أنها جميعها نابعة من الباطن الذي يزخر بمكنونات الأسرار و الدقائق وتهدف إلى تعميق التوحيد بالله وهو ما يطلق عليه ابن عجيبة اسم : «التوحيد الخاص» كما تهدف إلى إثارة الانتباه إلى مختلف جوانب الحقيقة وسبل تحققها و السعي إلى التمكن منها.

ففي معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا و اتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾[1] يقول ابن عجيبة : «يا أيها الذين ءامنوا إيمان أهل الخصوص اصبروا على حفظ مراسم الشريعة وصابروا على تحصيل أنوار الطريقة ورابطوا قلوبكم على شهود أسرار الحقيقة أو اصبروا على أداء العبادة وصابروا على تحقيق العبودية ورابطوا في تحصيل العبودية أي الحرية أو اصبروا على تحقيق مقام الإسلام وصابروا على دوام الإيمان ورابطوا على العكوف في مقام الإحسان أو اصبروا على تخليص الطاعات وصابروا على رفع الحظوظ و الشهوات ورابطوا أسراركم على أنوار المشاهدات و اتقوا الله لعلكم تفلحون».[2]

إن إحاطة ابن عجيبة بطريق القوم ومسالك الطريقة ودقائق علم الحقيقة فضلا عما فتح الله عليه في فهم معاني القرآن الكريم قد مكنته من

---

1) آل عمران : 200.

2) البحر المديد 1/001.

القدرة الفائقة على استبطان أكثر ما يمكن من الوجوه التفسيرية الإشارية مما يستأنس به في فهم الأبعاد الروحية و المقاصد الباطنية التي تومئ إليها الآية وذلك في سبيل الحث على سلوك طريق التوحيد الخالص وإثارة انتباه السالك الغافل.

ولعل تركيز ابن عجيبة على نقل إشارات متعددة للآية الواحدة إنما هو تأكيد منه لتعدد الدلالات التي يمكن أن تثيرها الآية الواحدة وبذلك تتقوى التفسيرات الإشارية التي تدل على صفاء التجليات الإلهية الواردة على حسب قرائن الأحوال. وهذا ما ينص عليه ابن عربي في قوله : «إن الإنسان ينطق بالكلام يريد به معنى واحدا مثلا من المعاني التي يتضمنها ذلك الكلام، فإذا فسر بغير مقصود المتكلم من تلك المعاني فإنما فسر المفسر بعض ما تعطيه قوة اللفظ وإن كان لم يصب مقصود المتكلم، ألا ترى الصحابة كيف شق عليهم قوله تعالى : ﴿**الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم**﴾[1] فأتى به نكرة فقالوا : وأينا لم يلبس إيمانه بظلم. فهؤلاء الصحابة هم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ما عرفوا مقصود الحق من الآية، والذي نظروه سائغ في الكلمة غير منكور فقال لهم النبي ﷺ : «ليس الأمر كما ظننتم وإنما أراد الله بالظلم هنا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه : ﴿**يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم**﴾[2] فقوة الكلمة تعم كل ظلم وقصد المتكلم إنما هو ظلم مخصوص»[3] ونجد ابن عربي في موضع آخر من فتوحاته المكية يرى أن من حق المريد أن يعيد شرح عبارة عرفانية قالها في زمان تال إذا لاح له من ورائها معان جديدة لم تكن مقصورة من عبارته في الزمان الأول».[4]

---

1) الأنعام : 82.

2) لقمان : 13.

3) الفتوحات المكية 1/135-136.

4) المصدر السابق 282.

هذا ما نلاحظه عند ابن عجيبة الذي فسر الفاتحة عن طريق الإشارة أكثر من ثلاث مرات في أزمنة مختلفة[1] مستحضرا إشارات متباينة وإيحاءات مختلفة وهو ما نلاحظه أيضا عندما نجده يفسر آية من الآي في كتاب من كتبه غير التفسير فإذا ما قورنت بما جاء في البحر المديد تبين أن الإشارات مختلفة وطرق تأويلها متفاوتة[2] فدل على أن المؤلف يستمد ذلك من معين إلهي لا ينضب ويستقيه من مدد رباني لا ينحصر، ففي معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا**﴾[3] قال : «الإشارة : قد جعل الله في خواص أوليائه موعظة للناس بما يسمعون منهم من التذكير و الإرشاد وشفاء لما في الصدور لما يسري منهم إلى القلوب من الإمداد وما يكتسبه من صحبهم من أنوار التحقيق.... قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ففضل الله أنوار الإسلام و الإيمان ورحمته انوار الإحسان أو فضل الله أحكام الشريعة ورحمته الطريقة والحقيقة أو فضل الله حلاوة المعاملة ورحمته حلاوة المشاهدة أو فضل الله استقامة الظواهر ورحمته استقامة البواطن أو فضل الله محبته ورحمته معرفته إلى غير ذلك مما لم ينحصر ولم يقل».[4]

فابن عجيبة يؤكد هنا على أن تلك الإشارات المتنوعة التي لاحت له أثناء تفسيره للآية لا تنحصر ولا تحد، وهو ما لاحظه ابن عطاء الله السكندري (ت 709) على كلام شيخه أبي العباس المرسي قبل أن يلج طريق التصوف حيث يقص علينا في كتابه لطائف المنن قصة صلته بأبي

---

1) وضع ابن عجيبة تفسيرا مطولا للفاتحة وآخر متوسطا وثالثا صغيرا بالإضافة إلى تفسير رابع مغاير في البحر المديد. انظر قسم : آثار ابن عجيبة.

2) انظر مثلا تفسيره لقوله تعالى : «يا أيها الذين ءامنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون» في البحر المديد 112/1 وقارن بتفسيره لنفس الآية في إيقاظ الهمم 36/1. وانظر أيضا تفسيره لقوله تعالى :«وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاي..» البحر المديد 133 وقارن بما جاء في الإيقاظ 103/1.

3) يونس : 58.

4) البحر المديد 65/2-66.

العباس فيقول :«كنت لأمره (أي لأمر الشيخ أبي العباس) من المفكرين وعليه من المعترضين لا لشيء سمعته منه ولا لشيء صح نقله ولكن جرت المخاصمة بيني وبين أصحابه فقلت فيهم قولا عظيما ثم قلت في نفسي : دعني أذهب أنظر هذا الرجل فصاحب الحق له أمارات لا يخفى شأنه... فأتيت إلى مجلسه، فوجدته يتكلم في الأنفاس ومسألة درجات

السالكين إلى الله ومدى معوفتهم به وقربهم منه، فقال : الأول : إسلام وثانيها الإيمان وهو مقام حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية، وثالثها الإحسان وهو مقام شهود الحق تعالى في القلب، وإن شئت قلت الأول عبادة والثاني عبودية والثالث عبودة[1]، وإن شئت قلت : الأول شريعة والثاني حقيقة والثالث تحقق، فما زال يقول وإن شئت قلت وإن شئت قلت إلى أن بهر عقلي وسلب لُبي فعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض بحر إلهي ومدد رباني فأذهب الله ما كان عندي...».[2]

3 – نفي ظاهرة التكرار في القرآن :

وهو ما يؤكد عليه ابن عجيبة بإلحاح في سورة المرسلات من تكرار قوله تعالى ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ وفي سورة الرحمان من تكرار قوله تعالى ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ففي معرض تفسيره لمستهل سورة المرسلات أورد المؤلف قول ابن عطية في سر تكرير قوله تعالى :

---

1) بين الحكيم الترمذي الفرق بين العبادة و العبودة في كتابه «الفروق» فقال : «العبودة رفض المشيئة لأن العبد لا مشيئة له لأنه لا يملك: ضررا ولا نفعا وهكذا وصفه الله عز وجل في تنزيله فقال : «عبدا مملوكا لا يقدر على شيء» النحل 75. فالعبودة لرجل قد شخص بقلبه إلى تدبير ربه فذلت نفسه بين نظر إلى تدبير عالم حكيم جبار في عظمته فنبذ مشيئته وراء ظهره وراقب مشيئة الله عز وجل... فالعبودة امتهان القلب للخدمة و امتهانه كونه بين يديه مراقبا لتدبيره ومشيئاته»

انظر : الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية للدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة 227/2.

ونقل ابن عجيبة في كتابه : «معراج التشوف» ص 36 قول أبي علي الدقاق : «العبودية أتم من العبادة، فأول المراتب عبادة ثم عبودية ثم عبودة، فالعبادة للعوام و العبودية للخواص و العبودة لخواص الخواص»

2) ابن عطاء الله : لطائف المنن ص : 82 وانظر مقدمة تحقيق شرح زروق للحكم ص : 16

﴿**ويل يومئذ للمكذبين**﴾ فقال : «قيل لمعنى التأكيد فقط وقيل بل في كل آية منها ما يقتضي التصديق فجاء الوعيد على التكذيب بذلك هـ[1]، ثم عقب ابن عجيبة بقوله : «وهذا الأخير هو الصواب وسيأتي التنبيه عليه في كل آية».[2]

فابن عجيبة ينحو منحى كثير من مفسري الصوفية الذين ينفون ظاهرة تكرار بعض الآيات في القرآن ويرون أن إعادة ذكرها كل مرة يدل على أمر معين يقتضيه سياق الآية التي قبلها، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿**ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون ويل يومئذ للمكذبين**﴾[3]، قال ابن عجيبة :«ويل يومئذ للمكذبين بقدرتنا على ذلك أو على الإعادة أو بنعمة الفطرة من النشأة الدالة على صدق الوعيد بالبعث».[4] فقد ربط هنا الآية التي تكررت بما ورد قبلها مجسدا الخطاب الإلهي بطريقة تجعل القارئ يربط بطريقة منطقية التقريع والإنذار كل مرة بما تم تكذيبه أو جحوده من تصديق الوحي أو النعم وغيرها، وقد ترد الآية المكررة قريبة من سابقتها فيفهم ابن عجيبة من ذلك معنى زيادة التوبيخ والتقريع كما في قوله تعالى : ﴿**إنا كذلك نجزي المحسنين ويل يومئذ للمكذبين كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون ويل يومئذ للمكذبين**﴾[5]، حيث قال : «ويل يومئذ للمكذبين بهذا حيث نال المومنون هذا الجزاء الجزيل وبقوا هم في العذاب المخلد الوبيل ويُقال لهم في الدنيا على وجه التحذير : كلوا وتمتعوا كقوله اعملوا ماشئتم أو في الآخرة أي الويل ثابت لهم ذلك تذكيرا لهم بحالهم في الدنيا... إنكم

---

١) البحر المديد : ٥/٢٠٠١٥ والكشف تفسير ابن جزي ٤/١٢١٨.

٢) البحر المديد : ٤/١٣٦٨.

٣) المرسلات : ٢٠.

٤) البحر المديد : ٤/١٣٦٨.

٥) المرسلات : ٤٥.

أي كافرون أي إن كل مجرم يأكل ويتمتع أياما قلائل، ثم يبقى في الهلاك الدائم، ويل يومئذ للمكذبين، زيادة توبيخ وتقريع أو ويل يومئذ للمكذبين الذين كذبوا».[1]

وأما في قوله تعالى : ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾[2] فيرى ابن عجيبة أن الفاء «لترتيب الإنكار والتوبيخ على ما فصل من فنون النعماء وصنوف الآلاء الموجبة للإيمان شكرا و التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية، والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد التنكير وتشديد التوبيخ»[3] أما المراد من التكذيب الوارد في الآية المكررة فيرى المؤلف أن معنى التكذيب بالآلاء كفرهم بها إما بإنكار كونه نعمة في نفسه كتعليم القرآن، ما يستند إليه من النعم الدينية قوله تعالى مثلا : ﴿**الرحمان علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان**﴾[4] وإما بإنكار كونه من الله تعالى مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى مثل قوله تعالى : ﴿**مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان**﴾[5]، والجدير بالملاحظة أن استنباط ابن عجيبة للإشارة كل مرة يتجدد فيها تكرير الآية إنما يتم بطريقة منطقية ومحكمة تربط بين ما تفسر به وبين سياق الآية السابقة ومدلولها.

وتعتبر هذه الخاصية المتعلقة بنفي ظاهرة التكرار في القرآن ميزة أساسية تميز«البحر المديد» فالقشيري مثلا في تفسيره «لطائف الإشارات» قد أغفل التعرض للتكرار الوارد في سورتي الرحمان و المرسلات[6] بالرغم مما عرف عنه من احتفاء بالغ بالبسملة عند مطلع كل سورة ولجوئه إلى

---

1) البحر المديد : 176/4.

2) وردت 31 مرة في سورة الرحمان.

3) البحر المديد : 90/4.

4) الرحمان 1-4.

5) الرحمان 19-20.

6) لطائف الإشارات : 502/3 و 607/3.

تفسيرها على نحو لافت للنظر إذ هي تختلف وتتنوع ولا تكاد تتشابه فيما بينها، فبسملة كل سورة لها دلالتها الخاصة بتلك السورة. يقول في هذا الصدد : «فلما أعاد سبحانه وتعالى هذه الآية – أعني بسم الله الرحمان الرحيم – في كل سورة وثبت أنها منها أردنا أن نذكر من كل سورة من إشارات هذه الآية كلمات غير مكررة وإشارات غير معادة».[1]

وبالمقارنة بين عملية نفي ظاهرة التكرار في القرآن عند القشيري وابن عجيبة يتبين أن الأول قد أخذ بها فيما تعلق بالبسملة فحسب، في حين لم يأخذ ابن عجيبة بذلك في البسملة لكن عمل بها في غيرها (في سورتي الرحمان و المرسلات مثلا كما أشرنا إليه أعلاه).

أما في باقي سور القرآن حيث ترد بعض الآيات مكررة مرتين أو ثلاثا أو أكثر باختلاف الألفاظ أمثال قوله تعالى : (أفلم يسيروا، أو لم يسيروا – إليه مرجعكم، إلى الله مرجعكم – كذلك يطبع الله، كذلك نطبع...) فابن عجيبة لا يتعرض لها بالتفسير إلا في الموضع الأول في حين يحيل في المواضع الأخرى على موضع تفسير الآية أول مرة. وهذا فيما يخص التفسير بالظاهر، أما فيما يتعلق بالإشارة فإن المؤلف لا يتردد في تفسير الآية إشاريا عند كل موضع أعيد ذكر الآية فيه مستعينا بنفسه الصوفي المتجدد الذي يمده كل حين بإشارات جديدة دقيقة ومتنوعة، إيمانا منه بأنه :«لم تكرر المقاطع في القرآن الكريم لتعاد ألفاظها فحسب دون فائدة جديدة، وإنما جيء بها بتحوير خفيف أو عميق طبعا، ليؤسس عليها أمر آخر لم ينص عليه بدءا[2]» ولعل أبرز مثال يمكن الاستشهاد به في هذا الصدد ما ذكره في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**إنما حرم عليكم الميتة و الدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ و لاعاد فإن**

---

1) لطائف الإشارات 44/1.

2) «بعض أسرار االتكرار في القرآن الكريم» مقال لأستاذنا الدكتور التهامي الراجي الهاشمي بمجلة دعوة الحق، العدد 307 (رجب 1415) ص : 15.

الله غفور رحيم﴾[1]، حيث اكتفى في تفسيرها بالإحالة على ما ذكره في سورتي البقرة والمائدة تجنبا لتكرار نفس التفسير الظاهر، في حين نجده يقول في تفسير الآية إشاريا : «إنما حرم عليكم ما يشغلكم عنه كجيفة الدنيا و التهارج عليها ونجاسة الغفلة و ما يورث القساوة و البلادة وقلة الغيرة على الحق وما قبض من غير يد الله أو ما قصد به غير وجه الله إلا وقت الضرورة فإنها تبيح المحظور و الله أعلم».[2]

أما في سورة البقرة عند تفسير قوله تعالى : ﴿**إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم**﴾[3]، فيقول في إشارتها : إنما حرم عليكم ما يعوقكم عن هذه المواهب أو ينزلكم عن منابر تلك المراتب كالميل إلى جيفة الدنيا أو الركون إلى متابعة الهوى أو تأخذون منها ما قصد به غير الله أو تقبضونها من يد غير الله فمن اضطر إلى أخذ شيء من نجاستها فأخذ القدر الذي احتاج إليه منها دون التشوف إلى ما زاد عليه غير قاصد بذلك شهوة ولا متعة فلا إثم عليه، إن الله غفور رحيم».[4]

وعند قوله تعالى من سورة المائدة : ﴿**حرمت عليكم الميتة و الدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به و المنخنقة...**﴾ الآية[5] أورد التفسير الإشاري التالي : «حرمت عليكم يا معشر المريدين طلب الحظوظ والشهوات وما تموت به قلوبكم من الانهماك في الغفلات وتقابل ما أعطاكم لغير وجه الله أو قبضتموه من غير يد الله فإن نظرتم حين قبضه إلى الواسطة وغفلتم عن المعطي حقيقة فمقتضى شريعة الخواص إخراجه عن الملك وحرمان النفس من الانتفاع به كما وقع لبعض الأولياء، ولا تتناولوا من الطعام إلا

---

1) النحل : 115.

2) البحر المديد 142/2.

3) البقرة : 173.

4) البحر المديد : 38/1.

5) المائدة : 3.

ما ذكيتموه بأن شهدتم فيه المنعم دون الوقوف مع النعمة، ونزلتم إليه بالإذن دون قصد الشهوة و المتعة وهذا يحتاج إلى تيقظ كبير ومراقبة».[1]

لقد أثرت نقل التفسيرات الإشارية الثلاثة لنفس معاني الآية حتى أستوضح غاية ابن عجيبة من إعادة التفسير الإشاري منوعا كل مرة، عكس التفسير بالظاهر الذي تنكب عن إعادة تقريره كما رأينا، ولا شك أن إيمان صوفينا بفكرة نفي ظاهرة التكرار في القرآن إيمانا عميقا جعله يرقى بإشاراته المتنوعة إلى أعلى مستوى من النضج، وأرفع مرتبة من التذوق، وقد يبدو لقارئ النصوص الإشارية الثلاثة أنها تكاد تتشابه من حيث الحمولة الصوفية، لكن عند إمعان النظر و استغراق الفكر فيها، و المقارنة بين فقراتها سرعان ما تتضح لنا الصورة الحقيقية لذلكم التنوع الخصيب الذي ألمحت إليه، ولو لم يكن هناك تنوع واختلاف بين التفسرات الثلاث لما حمل المؤلف قارئ تفسيره عناء تلاوة ما هو مكرر من كلامه، ولاقتصر على تفسير واحد، وأحال الباقي عليه كما فعل بصدد التفسير الظاهر لتلك الآيات الثلاث.

على أن الذي يمكن ملاحظته هو أن ابن عجيبة لم يلتفت إلى ظاهرة التكرار في القرآن إلا على مستوى الإشارة، أما على مستوى التفسير بالظاهر الذي يقتضي البحث عن أسرار التكرار في القرآن من حيث الزيادة و النقصان في الألفاظ أو التقديم والتأخير أو الإيجاز أو إبدال حرف مكان حرف آخر أو غير ذلك مما يوجب اختلافا طفيفا وخفيفا بين الآيتين، فإنه لم يقرر شيئا من ذلك في كتابه بالرغم من أهميته، وذلك لأن هذا التكرار «إن كان – كما يقول أستاذنا الدكتور التهامي الراجي الهاشمي – يُعَسِّر علينا الحفظ بهذا الشكل فإنه ييسر علينا الفهم، وإن كان يتعبنا في امتلاك زمام نص القرآن الكريم فإنه يريحنا في فهمه بإنارة الطريق أمامنا».[2]

---

1) البحر المديد : 135/1.

2) الدكتور التهامي الراجي الهاشمي : المقال سابق الذكر ص : 16.

والحاصل أن ابن عجيبة الذي نحا منحى الصوفية في اعتدادهم بالجانب الاشاري من التفسير قد انصب اهتمامه بمجال التكرار في القرآن على المعاني المختلفة والإيحاءات الإشارية المتنوعة التي تومئ إليها الآيات المكررة سواء تكررت بنفس الألفاظ و الصيغ كما في سورتي الرحمان والمرسلات، أو تكررت نفس المقاطع لكن بتحويرات خفيفة.

4 - مخاطبة العوام والخواص وخواص الخواص :

يكثر ابن عجيبة في تفسيره الإشاري من تقسيم المؤمنين إلى طبقات ثلاث، عوام وخواص وخاصة الخواص. ويهدف من وراء هذا التقسيم المعروف لدى الصوفية إلى بيان منزلة كل طبقة في سُلَّم الإيمان و التوحيد الخاص. وبين كل طبقة وأخرى فرق كبير يتفاوت حسب درجة تجرد المومن ومدى اغترافه من بحر التصوف وسلوكه طريق المقربين التي تعتبر أسمى طريق وأرقاها.

يقول ابن عجيبة في تفسير الأصناف الثلاثة : «الناس ثلاثة عوام وخواص وخواص الخواص، فالعوام هم الذين لا شيخ لهم يصلح للتربية والخواص هم الذين صحبوا شيخ التربية ولم ينهضوا إلى مقام التجريد وخواص الخواص هم الذين صحبوا شيخ التربية وتجردوا ظاهرا وباطنا خربوا ظواهرهم وغمروا بواطنهم وهم الذين خاضوا بحار التفريد وذاقوا أسرار التوحيد.[1] فصحبة الشيخ إذن ضرورية في سلوك الطريق للتميز عن عامة الناس لكنها غير كافية فلابد من التجرد الكامل واستقامة الظاهر من أجل ولوج طريق المقربين. ويحرص ابن عجيبة في تفسيره كلما سنحت له الفرصة الحديث عن شيخ التربية على أن ينبه إلى آداب السالك معه وضرورة الانصياع لكل ما يشير به، وهو لا يرى سبيلا للوصول إلى درجة

---

1) البحر المديد : 37/2.

المقربين إلا بصحبتهم«فلا مطمع لأحد في التطهير من الظنون و الأوهام إلا بصحبة شيخ كامل عارف بالله فيلقي إليه نفسه فلا يزال يسير به حتى يقول ها أنت وربك».[1]

وإذا كانت صحبة الشيخ المربي معيار الترقي من درجة العامة إلى درجة الخاصة فخاصة الخاصة فإن ابن عجيبة كثيرا ما يتعرض في تفسيره للحديث عن الأصناف الثلاثة وهو بصدد تفسيره للآيات القرآنية التي تشير إلى بعض المقامات[2] أو العبادات تأكيدا منه على أن كل مقام صوفي بإعتباره مكتسبا يتموضع السالك في إطاره حسب اجتهاده في تحصيل ذلك المقام ومدى استيفائه لأحكامه صح أن يكون فيه نصيب لكل صنف من الأصناف الثلاثة، ففي مقام التوبة يرى ابن عجيبة وهو بصدد تفسيره لقوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين ءامنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا**﴾[3]، أن توبة العامة إنما تكون من الذنوب وتوبة الخاصة من العيوب أما توبة خاصة الخاصة فتكون من الغيبة عن حضرة علام الغيوب»[4]، وفي مقام المراقبة عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا**﴾[5]، يقول: هذه الآية وأمثالها هي أصل المراقبة عند القوم وهي على ثلاثة أقسام : مراقبة الظواهر ومراقبة القلوب ومراقبة السرائر فالأولى للعوام والثانية للخواص والثالثة لخواص الخواص، فأما مراقبة الظواهر فهي اعتقاد العبد أن الله يراه ومطلع عليه في كل مكان فينتج له الحياء من الله فيستحي أن يسيء

1(الخاص المباشرة ٢\٥٤.

2(اعتمد ابن عجيبة في ترتيبه للمقامات على ما ورد في كتاب اللمع للسراج الطوسي، ينظر: ابن عجيبة ومنهجه في التصوف، رسالة ماجستير، إعداد الطالبة: سعاد بن عمر، إشراف: د. عبد الحكيم بن محمد حمادوش، السنة الجامعية: ٢٠٠٤-٢٠٠٥، ص: ٢٤.

3(التحريم : ٨.

4(البحر المديد : ٤\١٤٩.

5(يونس : ٦١.

الأدب معه وهو بين يديه... وأما مراقبة القلوب فهي تحقيق العبد أن الله مطلع على قلبه فيستحي أن يجول فيما لا يعني، أو يدبر ما لا يفيد ولا يجري أو يهم بسوء أدب فإن جال في ذلك استغفر وتاب، وأما مراقبة السرائر فهي كشف الحجاب عن الروح حتى ترى الله أقرب إليها من كل شيء فيستحي أن تجول فيما سواه من المحسوسات فإن فعلت بادرت إلى التوبة والاستغفار»[1] وقد يلجأ ابن عجيبة إلى نفس التقسيم في مجال العبادات فتلوح له أثناء تعرضه لبعض الآيات المتعلقة بالعبادات من صلاة وصوم وغيرهما إشارات إلى توجيه الخطاب إلى الأصناف الثلاثة السابقة كما عند قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾[2]، حيث أشار إلى أن هناك صوم العوام وصوم الخواص وصوم خاصة الخواص : «اعلم أن الصيام على ثلاثة درجات صوم العوام وصوم الخواص وصوم خواص الخواص، أما صوم العوام فهو الإمساك عن شهوتي البطن والفرج وما يقوم مقامهما من الفجر إلى الغروب مع إرسال الجوارح في الزلات وإهمال القلب في الغفلات، وصاحب هذا الصوم ليس له من صومه إلا الجوع لقوله عليه السلام : «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس له به حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[3] وأما صوم الخواص فهو إمساك الجوارح كلها عن الفضول وهو كل ما يشغل العبد عن الوصول وحاصله حفظ الجوارح الظاهرة و الباطنة عن الاشتغال بما لا يعني، وأما صوم خواص الخواص فهو حفظ القلب عن الالتفات إلى غير الرب أو حفظ السر عن الوقوف مع الغير وحاصله الإمساك عن شهود السوي وعكوف القلب في حضرة المولى».[4]

---

1) البحر المديد 66/2.

2) البقرة : 183.

3) أخرجه البخاري في كتاب الصوم من صحيحه 61/3 واخرجه كذلك الترمذي في سننه 105/2.

4) البحر المديد : 41/1.

فهذه إشارات دقيقة ورائعة تنم عن صدق توجه صاحبها وحصوله على معرفة صوفية فائقة تجول به في أعماق الفهم وتمكنه من استبطان أسرار الحكمة الإلهية من توجيه الخطاب، فالمتمعن جيدا في تقسيمات ابن عجيبة لمراتب الصوم يتبين له بوضوح صدق ذلك وانطباقه على واقع حال صوم المسلمين خاصة إذا علمنا أن ذلك لم يصدر من صاحبه عن هوى متبع وإنما انطلاقا من أحاديث نبوية شريفة، وما يفتح به الله من أسرار وإشارات تنير السبيل لفهم أعمق وإدراك أوسع.

إن طريقة ابن عجيبة في مخاطبة العوام و الخواص وخاصة الخواص تعتبر من أبرز خصائص تفسيره، إذ أنها تعبر عن خصوبة في التحليل وعمق في الفهم، فإذا كان المفسر بالظاهر يرى أن آية التوبة السالفة الذكر موجهة لعموم المومنين فإن ابن عجيبة يستبطن منها إيحاءا بتوجهها إلى ثلاثة أصناف من العباد، و لأن المومنين ليسوا على درجة واحدة من الإنابة والإستغفار و التوبة النصوح فهم يتفاوتون في الأخذ بها حسب استعدادهم الروحي ومدى عمق إيمانهم.

وقد يوظف ابن عجيبة مصطلحات أخرى للتعبير عن تلك الأصناف فيقتصر على صنفين يقابل أحدهم بالآخر، فالأول صنف الخواص وينعته بأهل التصديق والإيمان والثاني صنف خاصة الخواص وينعته بأهل الشهود والعيان : «فأهل التصديق والإيمان هم عامة أهل اليمين وهم أكثر المسلمين من العلماء و الصالحين يستندون في معرفتهم بالله إلى الدليل و البرهان فتارة يقوى عندهم الدليل فيرتقون عن اتباع الظن إلى الجزم و التصميم وتارة يضعف فيرجعون إلى اتباع الظن الراجح، وأما أهل الشهود و العيان فقد غابت عنهم الأكوان في شهود المكون فصاروا يستدلون بالله على وجود غيره فلا يجدونه».[1]

---

1) المصدر السابق 63/2.

ولعل حرص ابن عجيبة على مقابلة صنف العلماء بصنف الأولياء من الصوفية نابع من شدة إنكار أولئك على هؤلاء ومصادرة أقوالهم وأفعالهم، ولهذا نجده يحمل عليهم في تفسيره بأصناف من اللوم و العتاب منكرا عليهم شدة تحاملهم على الصوفية ومن والاهم، يقول في معرض تفسيره بالإشارة لقوله تعالى : ﴿**الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نومن لرسول حتى ياتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فَلِم قتلتموهم إن كنتم صادقين**﴾[1]، «ما زالت خواص العامة[2] مولعة بالإنكار على خواص الخاصة يسترقون السمع منهم إذا سمعوا كلمة لم يبلغها علمهم وفيها ما يوجب الغض عن مرتبتهم حفظوها وحرفوها وأذاعوها يريدون بذلك إطفاء نورهم وإظهار عوراتهم والله حفيظ عليم سيكتب ما قالوا وما قصدوا من الإنكار على أوليائه ويقول ذوقوا عذاب البعد و الحجاب»[3]، وقد يقابل ابن عجيبة بين الصنفين أحيانا لا لأن فريقا منهما ينكر على الآخر ولكن للاعتراف بدور علماء الظاهر في ترشيد الناس إلى أحكام الشريعة وإبراز تكامل وظائف الصنفين من العلماء: علماء الظاهر وعلماء الباطن، وهذا ما يجليه لنا وهو بصدد تفسير قوله تعالى : ﴿**ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾،[4] حيث ذكر أن في كل عصر أمة صالحة يهدون الناس بالحق ويدعون إلى الله: «فمنهم من يهدي إلى تزيين الظواهر بالشرائع وهم العلماء الأتقياء ومنهم من يهدى إلى تنوير السرائر بالحق وهم الصوفية الأولياء المحققون بمعرفة الله».[5]

---

1) آل عمران : 183.

2) المقصود بهم الفقهاء.

3) البحر المديد 97/1 وانظر أيضا 70/1 عند تفسير قوله تعالى : ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم...﴾ (آل عمران 19).

4) الأعراف : 159.

5) البحر المديد 192 وانظر أيضا مدحه لعلماء الظاهر و ما يقومون به من خدمة الشريعة 1191 عند تفسير قوله تعالى : ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ (النساء : 83).

5 - تقسيم المدلول القرآني إلى حسي ومادي وآخر قلبي معنوي :

تعتبر هذه الخاصية من مميزات التفسير الإشاري عند ابن عجيبة كما هي عند معظم الصوفية الذين لا يقفون عند ظاهر الأمر المحسوس ماديا وإنما يتجاوزون ذلك محاولين استنباط معان أخرى لها صلة بالجانب الروحي دون أن يغفل مسايرة الاتجاه العام لمدلول الآية، إنهم يرون في ذلك إدراكا للأبعاد الباطنية للآيات التي تعتبر في نظرهم مما يشير إليه المدلول القرآني ويرمي إليه، وهذا ما يدرك بالبصيرة التي هي عين القلب كما أن البصر عين البدن فإذا كان البصر يرى الأمور الحسية الحادثة فإن البصيرة تدرك المعاني القديمة[1]، فالحس كما يقول ابن عجيبة عبارة عن تكثيف الأشياء ظاهرا، أما المعنى فهو عبارة عن تلطيفها باطنا «فالمعاني رقيقة لطيفة لا تدرك إلا بتحسسها في قوالب الكائنات، فظهور المعنى بلا حس محال وشهود الحس بلا معنى جهل وظلمة».[2]

لقد تناول ابن عجيبة كثيرا من الآيات القرآنية وفق التقسيم الثنائي: حسي /قلبي أو مادي /معنوي، وذلك في باب الإشارة من تفسيره، فمثلا عند تعرضه لتفسير الآية الكريمة : ﴿**فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم**﴾[3]، نجده يقسم الهجرة إلى حسية ومعنوية فيقول : «الهجرة سنة الخواص وهي على قسمين : هجرة حسية وهجرة معنوية، فالحسية هي هجرة العبد من وطن تكثر فيه الغفلة والعوائق عن الله والإذاية و الإنكار إلى وطن يجد فيه اليقظة وقلة العوائق، والهجرة المعنوية هي هجرة القلب من وطن المعصية إلى وطن التوبة ومن وطن الغفلة إلى

---

1) البحر المديد 171/1. ويرى المؤلف كذلك أن البصيرة ناظر القلب كما أن البصر ناظر القالب، وإذا كان البصر لا يرى إلا الكثيف فإن البصيرة لا ترى إلا اللطيف (إيقاظ الهمم 18/1) وانظر شرح زروق على الحكم العطائية ص : 47.

2) معراج التشوف ص : 52.

3) العنكبوت : 26.

وطن اليقظة ومن وطن الحرص إلى وطن الزهد و القناعة، ومن وطن الحظوظ والشهوات إلى وطن العفة والحرية، ومن وطن الشواغل إلى وطن التفرغ ومن وطن رؤية الحس إلى وطن رؤية المعاني وهذه نهاية الهجرة».[1]

فهذه إشارة رقيقة تعبر بدقة عن أهمية «هجرة القلب» بالمقارنة مع «هجرة الوطن» فهجرة القلب وانتقال أحواله من معصية وغفلة وحرص إلى توبة ويقظة وقناعة تحقق مزيدا من الإيمان والتقوى وتهدف إلى بلوغ مستوى أعلى من الطمأنينة الروحية بالقدر الذي يتوقف من ورائه مهاجر الوطن تحقيق الطمأنينة النفسية، ويرى الإمام القشيري في تفسيره لنفس الآية أن الهجرة القلبية أسمى من الهجرة الحسية : «فلا تصح الهجرة إلى الله إلا بالتبري – بالكمال – بالقلب عن غير الله، والهجرة بالنفس يسيرة بالإضافة إلى الهجرة بالقلب، وهي هجرة الخواص، وهي الخروج عن أوطان التفرقة إلى ساحات الجمع،[2] والجمع بين التعريج في أوطان التفرقة و الكون في مشاهد الجمع متناف»[3] ويقعد ابن عجيبة – في هذا الصدد – قاعدة أساسية سار عليها في تفسيره كما أخذ بها كثير من الصوفية، وتتجلى في سحب كل خطاب إلهي تعلق باللوم والعتاب للكفار على المتنكبين عن طريق الإيمان و الإحسان من المسلمين، فإذا ما ذكر العذاب فهو للكفار حسي وللغافلين من المسلمين معنوي، يقول في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**بيسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله**

---

1) البحر المديد : 128/3.

2) «الجمع عبارة عن شهود المعنى القائم بالأشياء، والفرق عبارة عن شهود حس الكائنات. والفرق ما نسب إليك والجمع ما سلب عنك» (معراج التشوف لابن عجيبة ص : 51) ويقول القشيري في رسالته ص 38 ك «ما يكون كسبا للعبد وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع، فإثبات الخلق من باب التفرقة وإثبات الحق من نعت الجمع».

3) لطائف الإشارات للقشيري : 95/3.

بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده[1] «الإشارة : اعلم أن قاعدة تفسير أهل الإشارة هي أن كل عتاب توجه لمن ترك طريق الإيمان وأنكر على أهله يتوجه مثله على من ترك طريق مقام أهل الإحسان وأنكر على أهله، وكل وعيد توعد به أهل الكفران يتوعد به من ترك السلوك لمقام الإحسان غير أن عذاب أهل الكفر حسي بدني وعذاب أهل الحجاب معنوي قلبي»[2] وتحقيقا لنفس الغاية يفسر ابن عجيبة قوله تعالى : **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون**[3] بقوله : «الإشارة : قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع الحسية إلى العبادة الحسية وهو العُباد والزهاد من الصالحين فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من القصور و الحور والولدان وغير ذلك، وقوم تتجافى جنوبهم عن مضاجع الفرق إلى حال الجمع ثم من الجمع إلى جمع الجمع[4] فهؤلاء على صلاتهم دائمون وفي حال نومهم عابدون وعلى كل حال إلى ربهم سائرون»[5]، ويقول القشيري في تفسيره لنفس الآية : «تتباعد قلوبهم عن مضاجعات الأحوال ورؤية قدر النفس وتوهم المقام، فإن ذلك بجملته حجاب عن الحقيقة وهو للعبد سم قاتل، فلا يساكنون أعمالهم ولا يلاحظون أحوالهم ويفارقون مألفهم ويهجرون في الله معارفهم».[6]

---

1) البقرة : 90.

2) البحر المديد : 22/1.

3) السجدة : 16.

4) لم يورد ابن عجيبة تعريف مصطلح «جمع الجمع» في معراجه، إلا أنه لما كان يمثل درجة أعلى من درجة الجمع كان المقصود منه عنده «الجمع في الفرق» ذلك أنه في أول شرحه على تصلية ابن مشيش ذكر أهل الفرق وهم أهل الحجاب وأهل الجمع وهم أهل الجذب والفناء وأهل الجمع في الفرق وهم الذين لا يحجبهم جمعهم عن فرقهم ولا فرقهم عن جمعهم، يعطون كل ذي حق حقه (انظر شرح الصلاة المشيشية ص 19 وورد هذا المصطلح أيضا في : البحر المديد 94/1) ويعرف الألوسي المصطلحات الثلاث فيقول في جمع الجمع : «هو الاستهلاك بالكلية و الفناء عما سوى الله تعالى وهو المرتبة الأحدية» روح المعاني للألوسي 9/1.

5) البحر المديد : 150/3.

6) لطائف الإشارات 142/3.

6 – انسحاب ما اتصف به اليهود على منافقي الأمة :

يرى ابن عجيبة أن ما ذكره القرآن الكريم في شأن اليهود من مساوئ وأعمال وصفات شنيعة ينسحب على أقوام السوء من هذه الأمة، فهو يقول: «كل ما قصه الحق علينا من مساوئ غيرنا فالمقصود به التنفير و التحذير من مثل ما ارتكبوه و التخلق بضد ما فعلوه».[1] فإذا تعلق الأمر بإخلاف الوعد ونقض العهد وغير ذلك من الصفات القبيحة مما عرف به يهود بني إسرائيل انسحب ذلك حسب ابن عجيبة على منافقي هذه الأمة، وإذا توجه الخطاب القرآني إلى أحبار اليهود انجر ذلك إلى علماء السوء من هذه الأمة : «ما قيل في احبار اليهود يقال مثله في علماء السوء من هذه الأمة».[2]

وإذا كان أحبار اليهود قد كتموا صفة الرسول ﷺ بقوله تعالى : ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات و الهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون**﴾[3]، فعلماء السوء من هذه الأمة الذين ملكتهم جميع الدنيا وأسرهم الهوى يقبضون الرشاوي على الأحكام فيكتمون المشهور الواضح ويحكمون بشهوة أنفسهم فأولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون»[4] ولذلك جرى ابن عجيبة في تفسيره على وصف قبائح الأعمال ورذائل الصفات مما عرف به اليهود واتصف بها بعض المسلمين بأنها نزعات يهودية أو نزعات إسرائيلية، ففي معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما**

---

1) البحر المديد 27/1.

2) المصدر السابق : 35/1.

3) البقرة : 159.

4) نفس الإشارة جاءت في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه...**﴾ حيث قال : «هذه الآية تنسحب على علماء السوء الذين يفتون بغير المشهور لحظ ياخذونه من الدنيا وعلى قضاة الجور الذين يحكمون بالهوى ويعتمدون على الأقوال الواهية، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله» (البحر المديد 79/1).

﴿يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾[1]، قال بعد أن سحب الآية على كثير من أهل الرئاسة والجاه من أبناء هذه الأمة : «وهذه نزعة يهودية سببها الحسد»[2] وفي قوله تعالى : ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾[3]، قال في باب الإشارة : «ترى كثيرا من الناس يدخلون في طريق القوم ثم تثقل عليهم أعباؤها فيخرجون منها لضعفهم عن حملها أو دخلوا مختبرين لها أو على حرف أو حيلة لغيرهم فإذا رجع أحد منهم قالت الناس لو كانت صحيحة ما رجع فلان عنها ويصدون الناس عن الدخول فيها والدوام عليها وهذه نزعة إسرائيلية، قالوا آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون، وقال عليه السلام : «لتسلكن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا : اليهود و النصارى قال : نعم فمن إذا»[4] ويلخص لنا ابن عجيبة معالم هذه الخصيصة في قوله : «اعلم أن قاعدة تفسير أهل الإشارة هي أن كل عتاب توجه لمن ترك طريق الإيمان وأنكر على أهله يتوجه مثله على من ترك طريق مقام أهل الإحسان وأنكر على أهله وكل وعيد توعد به أهل الكفر أن يتوعد به من ترك السلوك لمقام الإحسان».[5]

7 – استمرارية الخطاب القصصي في القرآن :

يرى ابن عجيبة أن قصص الأنبياء لم تنته بانتهاء أصحابها فالخطاب بها ما زال قائما يوجه إلى الإنسان في كل عصر من أجل التذكير

---

1) آل عمران : 69.

2) البحر المديد : 78/1.

3) آل عمران : 71.

4) البحر المديد 78/1 وقد ذكر أحمد زروق في كتابه عدة المريد قولا لأبي العباس المرسي ورد فيه مصطلح «النزعة اليهودية». والحديث أخرجه البخاري في صحيحه 326/4 (كتاب الأنبياء).

5) البحر المديد : 22/1.

و الاعتبار وتربية النفوس وإيقاظ الضمائر،فقارئ القرآن عليه أن يعتقد أنه المقصود بكل خطاب، فإن سمع قصص الأولين علم أن المقصود به الاعتبار ليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه ويقوي به إيمانه قال تعالى : ﴿**وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك**﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾[2]، «فالقرآن لم ينزل خاصا برسول الله ﷺ، بل هو شفاء ورحمة ونور للعالمين فيثبت فؤاد كل من يسمعه».[3]

يقول وهو بصدد تفسير قصة هود عليه السلام : «الإشارة : في تكرير القصص والأخبار وعظ وتذكير لأهل الاعتبار وتهديد وتخويف لأهل الإصرار وحث على المبادرة إلى التوبة و الإستغفار»[4]، وفي معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله**﴾[5]، قال : «فيه رفع الهمة عن الخلق والاكتفاء بالملك الحق وعدم الشكوى فيما ينزل وهو ركن من أركان طريق التصوف بل هو عين التصوف».[6]

ويرى ابن عجيبة أن ما أنبأ به القرآن الكريم منذ عهد آدم عليه السلام من قصص وأخبار السابقين متكرر في هذه الأمة بقصد الاعتبار و التنبيه ولذلك نجده لا ينفك يرد على علماء الظاهر بكونهم لا يفهمون الحكمة من تكرار القصص القرآني بسبب ظنهم أن ما في القرآن من قصص أهل الأديان السابقين وأخبار المعاقبين منهم و المثابين مقصوده الإخبار والقصص المجردان.

---

1) هود : 120.

2) يوسف : 111.

3) البحر المديد : 207/3.

4) البحر المديد : 78/2.

5) يوسف : 86.

6) البحر المديد : 99/2.

والذي يمكن ملاحظته بهذا الصدد هو أن جميع الآيات المتعلقة بالإنكار على الرسل وتكذيبهم يسحبها ابن عجيبة في تفسيره على الأولياء وأهل التصوف على اعتبار أن الأولياء هم خلفاء الرسول عليه السلام (ما قيل للرسول يقال لخلفائه من أهل التذكير)[1]، ويبين صوفينا هذه القاعدة بوضوح لدى تفسيره لقوله تعالى : ﴿**وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون**﴾[2]، حيث قال الإشارة : كل ما جاء في القرآن من الإنكار على الرسل على أيدي الكفرة وتنقيصهم و الاستهزاء بهم ففيه تسلية لمن بعدهم من الأولياء وكذلك ما ذكره الحق تعالى من مقالات أهل الجهل في جانبه كقوله : ﴿**لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء**﴾[3]، وقوله : ﴿**وقالت اليهود يد الله مغلولة**﴾[4]، إلى غير ذلك من مقالات أهل الجهل، فكأن الحق تعالى يقول : لو سلم أحد من الناس لسلمت أنا وأنبيائي الذين هم خاصة خلقي، فليكن بي وبرسولي إسوة لمن أوذي من أوليائي و بالله التوفيق»[5] ومن أبرز الشواهد على ذلك تفسيره إشاريا لقوله تعالى : ﴿**ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون**﴾[6] بقوله : «ويوم نحشر من كل أمة فوجا ينكر على أهل الخصوصية ممن يكذب بآياتنا وهم العارفون بنا الدالون علينا المعروفون بنا فهم يوزعون يجمعون للعتاب حتى إذا جاءوا إلينا بقلب سليم قال أكذبتم بأوليائي الدالين على حضرتي بعد التطهير والتهذيب...».[7]

---

1) البحر المديد : 4/201.

2) الحجر : 6.

3) آل عمران : 181.

4) المائدة : 64.

5) البحر المديد : 2/120.

6) النمل : 83.

7) البحر المديد : 3/110.

ويستعمل ابن عجيبة أثناء تعرضه لتفسير قصص الأنبياء و الأولين عبارات معينة يفهم منها سحب مضامين تلك القصص والأنباء على أهل كل عصر. فهو يتتبع أخبار و أنباء السابقين ويحاول تبيين وجوه الشبه بينها وبين بعض أصناف هذه الأمة المحمدية، مثل قوله : «ما قاله الرسول يقال مثله لمن فعل كذا وكذا» وقوله : «ما قيل لأهل الكتاب يقال لهذه الأمة وقوله : «هذه الآية تنسحب على علماء السوء» وقوله أيضا : «كل آية في الكفار تجر ذيلها على عصاة المومنين»، إلى غير ذلك من شواهد ذلك ما جاء في معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم...**﴾[1]، حيث قال : «الإشارة : ما قاله سيدنا موسى عليه السلام لقومه يقال مثله لمن عبد هواه وعكف على متابعة دنياه، يا من بخس نفسه بإرخاء العنان في متابعة هواها حتى حرمها من مشاهدة جمال مولاها تب إلى ربك وانتبه من غفلتك...»[2]، ومن ذلك أيضا ما أورده لدى تفسيره لقوله تعالى: ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا...**﴾ الآية.[3] حيث قال : الإشارة : كل من ترامى على مراتب الرجال أو ادعى مقاما من المقامات وهو لم يدركه يريد بذلك إمالة وجوه الناس إليه يفضح يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ويقال له هؤلاء الذين كذبوا على ربهم...، فكل آية في الكفار تجر ذيلها على عصاة المومنين».[4]

وإذا كان ابن عجيبة يجرى معاني الآيات في غير الذي نزلت من أجله حسب الظاهر محاولا تجاوز المعنى الأصلي إلى معنى أو معان أخرى اعتبارية فإنه إنما يقتصر على إيراد ذلك في باب الإشارة الذي يأتي في

---

1) البقرة : 54.

2) البحر المديد : 16/1.

3) هود : 18.

4) البحر المديد : 75/2.

مرحلة لاحقة بعد تفسير الآية حسب الظاهر على طريقة باقي المفسرين. وقد ينبه أحيانا على ذلك بتلميحه إلى أن ذلك الانتقال من معنى أصلي إلى آخر اعتباري إنما هو عن طريق الإشارة، مثال ذلك قوله : «تنسحب الآية من طريق الإشارة على...»[1]، وقوله : «ما قيل لأهل الكتاب يقال لهذه الأمة المحمدية على طريق الإشارة..».[2]

8 - استخلاص الفوائد و العبر :

يهدف ابن عجيبة من وراء عملية التفسير إلى كشف بواطن ما تحمله الآيات القرآنية واستجلاء أسرار مكنوناتها من أجل استخلاص الفوائد واستنتاج العبر، فهو يرى أن المقصود من تدبر القرآن وفهمه هو أخذ العبرة وجني الفوائد، ولهذا كثيرا ما نجده يصوغ باب الإشارة من التفسير في شكل تجميع لمجموعة من الفوائد، بشكل منسق،مرتب، وهي غالبا ما تتعلق بأخبار السابقين ومواعظ الأنبياء لأقوامهم وتجارب الأمم السابقة.

يعبر المؤلف عن مصطلح «الاعتبار» بألفاظ مثل «الاتعاظ» و«التفكر» و«التدبر»، وهذان اللفظان الأخيران يأتيان بمعنى واحد. فالتدبر هو التفكر الشامل الموصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه. فمادة الكلمة في القرآن تدور حول عواقب الأمور وأدبارها و النظر في ما تؤول إليه. فابن عجيبة يرى أن وراء الفهم غرض التذكر والعظة وهو ما لا يحظى به إلا أهل الإحسان من أولي الألباب وأصحاب القلوب الصافية، ذلك أن عملية التدبر و التفكر تحتاج إلى بصيرة نافذة وفهم ثاقب، يفسر صوفينا قوله تعالى : ﴿**فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾[3] فيقول : فاتعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة على وجه لا تهتدي إليه الأفكار أو فتأملوا فيما نزل بهؤلاء والسبب

---

1) نفسه : 196/3.

2) نفسه : 149/1.

3) الحشر : 2.

الذي استحقوا به ذلك فاحذروا أن تفعلوا مثل فعلهم فتعاقبوا بمثل عقوبتهم».[1]

ويرى ابن عجيبة أن مبدأ «الاعتبار» يقتضي من متدبر القرآن أن تتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الخوف والرجاء و القبض والبسط وغير ذلك[2]. إذ بدون ذلك يكون القلب غافلا غير حاضر. فقارئ القرآن قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه مقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره، ولذلك قال علي كرم الله وجهه : «لا خير في عبادة لافقه فيها ولا خير في قراءة لا تدبر فيها».

ويذهب ابن عجيبة إلى أن التفكر و الاعتبار من أفضل عبادة الأبرار، ويفسر قوله تعالى : ﴿**ألم ياتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم، وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب**﴾[3]، بقوله على سبيل الإشارة : «في الحديث تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة فليتفكر العبد فيما سلف قبله من القرون الماضية والأمم الخالية كيف رحلوا عن ديارهم المشيدة وفروشهم الممهدة واستبدلوها بضيق القبور... فيوجب هذا التفكر الانحياش إلى الله والمسارعة إلى طاعة الله و الزهد في هذه الدار الفانية»، ثم يخلص صوفينا بعد ذلك إلى تقرير قاعدة طالما قررها في كثير من المواضع من تفسيره وهي قوله : «وفي تكذيب الصديقين تسلية للعارفين وللمتوجهين من المريدين إذا قوبلوا بالإذاية و التكذيب».[4]

---

1) البحر المديد : 116/4.

2) البحر المديد : 207/3.

3) إبراهيم : 9.

4) البحر المديد : 113/2. والحديث الوارد في النص أخرجه العراقي في باب التفكر من الإحياء للغزالي، وقال أخرجه ابن حبان في كتاب العظمة بإسناد ضعيف ورواه الديلمي في مسند الفردوس.

ولذلك يجب على المومن اللبيب العاقل أن يبحث عن أسباب هلاك الأولين فإنه : «ما أهلك الله قوما إلا كانوا عبرة لمن بعدهم، فالعاقل يبحث عن سبب هلاكهم فيعمل جهده في التحرز منه و الغافل منهمك في غفلته لا يلقي لذلك بالا حتى ياتيه ما يوعد»[1]، ومن هنا جاء قوله تعالى : ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ذلك بأن الله مولى الذين ءامنوا وأن الكافرين لا مولى لهم**﴾[2]، حاثا على الاعتبار و التفكر في ما آلت إليه الأمم الغابرة، فيحاول ابن عجيبة – انطلاقا من الآية – تحديد مجالات الاعتبار والتفكر فيقول : الإشارة : تفكر الاعتبار[3] يكون في أربعة :

الأول : في سرعة ذهاب الدنيا وانقراضها كأضغاث أحلام وكيف غرت من تشبث بها وأخذته في شبكتها حتى قدم على الله بلا زاد وكيف دمر الله على أهل الطغيان واستأصل شأفتهم فينتج ذلك التشمير و التأهب ليوم الجزاء.

الثاني : في دوام دار البقاء ودوام نعيمها فينتهز الفرصة في العمل الصالح.

الثالث : في النعم التي أنعم الله بها على عباده الدنيوية و الأخروية الحسية و المعنوية قال تعالى : ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾[4] فينتج ذلك الشكر لتدوم عليه.

---

1) البحر المديد : 125/2 عند تفسير قوله تعالى : ﴿وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم...﴾ الحجر : 78-79.

2) محمد : 10.

3) يميز ابن عجيبة بين تفكر الاعتبار وتفكر الاستبصار فالأول لأهل التفكر و الاعتبار و الثاني لأهل الشهود والاستبصار و الأول يشد عروة الإيمان في حين يشد الثاني عروة الإحسان وهو أسمى من الأول، وهذا التقسيم مأخوذ مما جاء في الحكم العطائية من أن «الفكرة فكرتان : فكرة تصديق وإيمان وفكرة شهود وعيان «انظر البحر المديد 102/2».

4) إبراهيم : 34.

الرابع : في نصب هذه العوالم على ما هي عليه من الإبداع و الإتقان فيثمر ذلك معرفة الصانع وباهر قدرته وحكمته...».[1]

وإذا كان من نتائج عملية التدبر أخذ العبرة و العظة بما جرى للأمم السابقة وما لحقهم من عذاب وسوء عاقبة من جراء جحودهم وطغيانهم وإنكارهم للرسالات السماوية فإنه يتم أحيانا الاكتفاء بتحصيل بعض الفوائد واستخلاص بعض الثمرات و الخصال الصوفية، ويؤكد ابن عجيبة على هذا الجانب كثيرا في تفسيره حيث يكثر من استنتاج العبر و الفوائد من الآيات التي يفهم منها ذلك.

من شواهد ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وقال الملك إيتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك... ولأجر الآخرة خير للذين ءامنوا وكانوا يتقون**﴾[2]، حيث قال : «الإشارة : في الآية ثلاث فوائد :

الأولى : مدح التأني في الأمور ولو كانت جلالية لأنه يدل على كمال العقل و الرزانة وطمأ نينية القلب وذم العجلة لأنها من خفة العقل و الطيش وعدم الصبر والاحتمال يؤخذ ذلك من تأني يوسف عليه السلام في السجن بعد طول مدته.

الثانية : عدم تزكية النفس ودوام اتهامها ولو بلغت من التصفية ما بلغت، وقد قال بعض الصوفية : وكيف يصح لعاقل أن يزكي نفسه و الكريم بن الكريم يقول : وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء.

الثالثة : تسلية أهل البلاء إذا صحبهم الإحسان و التقوى وبشارتهم بالعز بعد الذل والغناء بعد الفقر والنصر والتمكين بعد الاستضعاف والهوان، يؤخذ ذلك من قوله : «وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها ما يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين».[3]

---

1) البحر المديد 44/4. وقد ذكر في إشارة قوله تعالى : ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾ (يوسف 111) نفس الكلام إلا أنه زاد أمرا خامسا وهو تفكر الإنسان في عيوبه ومساوئه لعله يسعى في تطهيرها ويشتغل بها عن عيوب غيره. انظر البحر المديد : 102/2.

2) يوسف : 50-57.

3) يوسف : 21 وانظر البحر المديد : 95/2.

فابن عجيبة من خلال هذا النص الذي شكل فقرات «الإشارة» المخصصة لمجموعة من الآيات من سورة يوسف يوضح أبرز الفوائد التي يمكن استخلاصها من الآيات، وهي فوائد تعكس مدى أهمية قواعد التدبر الأمثل عند صوفينا وقدرته الفائقة على التحليل والاستنتاج و الدعوة إلى الاعتبار من غير أن يحيد عن إطار النص القرآني، وهو ما يتجلى بوضوح من خلال إسناده كل فائدة ذكرها إلى الآية القرآنية التي استنبطها منها مما يعطي لعملية استخلاص الفوائد عند ابن عجيبة في إطار الإشارة الصوفية مشروعيتها وموافقتها لأصول الاستنباط وقواعد التدبر. وفي معرض تفسيره لوصايا لقمان[1] استعرض ابن عجيبة في باب الإشارة من التفسير ما اشتملت عليه الوصايا من خصال صوفية سامية يجدر التحلي بها والتخلق بمعانيها فذكر منها :

– استحضار مراقبة الله ومشاهدته في السر و العلانية وفي الجلاء والخفاء ويشهد لذلك قوله : ﴿**يابني إنها إن تك مثقال حبة**....﴾ الآية.

– القيام بوظائف العبودية بدنية ولسانية.

– الصبر على النوائب سواء كانت من جهة الخلق أو من قهرية الحق.

– التواضع و الليونة وهما مصيدة الشرف ومن شأن أهل السياسة، ومن تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره. وهو قوله : ﴿**ولا تصاغر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا**﴾.

– السكينة والوقار والرزانة وهي نتيجة عمارة القلب بالهيبة، والإجلال، وهو قوله : ﴿**واقصد في مشيك**﴾.

– خفض الصوت في سائر الكلام وهو من علامة وجدان هيبة الحضرة و القرب من الحق، قال تعالى : ﴿**وخشعت الأصوات للرحمان فلا تسمع إلا همسا**﴾.[2]

---

1) لقمان 13-19.

2) البحر المديد : 145/3.

وإذا كانت هذه الخصال الصوفية قد استنبطت من جملة وصايا لقمان، فإن خطب الأنبياء عليهم السلام في أقوامهم جديرة بأن تكون محل تأمل و استخلاص الخصال، ولما كان شعيب عليه السلام خطيب الأنبياء فقد استنتج ابن عجيبة من خطبته الشهيرة المضمنة في قوله تعالى : ﴿**قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا...**﴾، إلى قوله : ﴿**ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود**﴾[1]، ست خصال نوجزها فيما يلي[2]:

- فتح البصيرة ونفوذ العزيمة وتنوير القلب بمعرفة الله حتى يكون على بينة من ربه.
- تيسير الرزق الحلال من غير تعب ولا مشقة.
- السعي في إصلاح عباد الله وإرشادهم.
- الاعتماد على الله و الرجوع إليه.
- الحذر و التحذير من مخالفة ما جاءت به الرسل من عند الله والاعتبار بمن هلك قبله ممن خالف أمر الله.
- تحقيق التوبة والانكسار والإكثار من الذكر والاستغفار.

ويؤكد ابن عجيبة على أن هذه المواعظ والخصال لا يفقهها إلا أهل الإيمان والتنوير، أما أصحاب القلوب القاسية بالكفر والمعاصي فلا تسمع منها إلا ما تسمع البهائم من الناعق والراعي ولذلك : «فبقدر ما يرق القلب يتأثر بالمواعظ»، وبقدر ما يغلظ باتباع الحظوظ و الهوى يغيب عن تدبر المواعظ» ويذهب بعيدا في البحث عن أسباب تنوير القلب ورقته فيقول : «سبب ذلك قربه من الله وتعظيمه لحرمات الله وتعظيم من جاء من عند الله من أنبياء الله ورسله وورثته القائمين بمحبته كالأولياء و العلماء الأتقياء».[3]

---

1) هود : 88-90.

2) البحر المديد : 82/2.

3) البحر المديد : 83/2.

الفصل الثاني :

الجانب البلاغي في تفسير ابن عجيبة

تمهيد :

نص العلماء على ضرورة تحصيل وبحث ما يتوصل به إلى إدراك فصاحة الألفاظ و التراكيب القرآنية و الإلمام بأسرارها البلاغية، يقول الإمام الزركشي في برهانه وهو يتحدث عن مبحث «معرفة كون اللفظ والتركيب أحسن و أفصح» «وهذا العلم أعظم أركان المفسر فإنه لا بد من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز من الحقيقة و المجاز وتأليف النظم وأن يواخي بين الموارد ويعتمد ما سبق له الكلام حتى لا يتنافر وغير ذلك...» ثم يقول أيضا : «واعلم أن معرفة هذه الصناعة بأوضاعها هي عمدة التفسير المطلع على عجائب كلام الله وهي قاعدة الفصاحة وواسطة عقد البلاغة ولو لم يحبب الفصاحة إلا قول الله تعالى : ﴿**الرحمان علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان**﴾ لكفى.[1]

و المفسرون هم أحوج العلماء إلى ضرورةتحصيل هذا الفن كما نص على ذلك ابن خلدون[2]، ولذلك تجد معظم المفسرين قد اهتموا بمباحث هذا العلم الذي كان يعبر عنه فيما قبل بعلم البيان تارة[3] وعلم البديع[4] تارة أخرى.

---

1) الزركشي : البرهان 312/1.

2) ابن خلدون : المقدمة ص : 552.

3) مثل ابن جزي في مقدمة التسهيل حيث قال : «أما أدوات البيان فهي صناعة البديع وهو تزيين الكلام كما يزين العلم الثوب وقد وجدنا في القرآن منها اثنين وعشرين نوعا التسهيل 13/1.

4) مثل ابن أبي الأصبع المصري (ت 654 هـ) صاحب كتاب (بديع القرآن) وقد أودع فيه مباحث علم البيان وعلم المعاني إضافة إلى مباحث علم البديع.

وقد أشاد ابن عجيبة بأهمية علم البلاغة ودوره في البحث التفسيري حيث صرح بضرورة معرفته وتحصيله لمن أراد التصدي لعلم التفسير واكتساب القدرة على فهم التنزيل، وقد سجل ذلك في تفسيره المطول للفاتحة مبينا أقسام البلاغة الثلاثة : علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع،فعرف علم المعاني بقوله : «وحقيقة علم المعاني هو العلم الباحث عن الكلام العربي من حيث مطابقته لمقتضى الحال في مقام التخاطب[1] فإنه رب مقام يطلب فيه الاختصار في الكلام خوف السآمة و الإطناب لأجل البيان أو حذف شيء للعلم به أو ذكره لزيادة الإيضاح أو توكيد الكلام لإزالة شذ أو تردد ونحو ذلك».

أما علم البيان فقد عرفه بقوله : «وحقيقة علم البيان هو العلم الباحث عن معنى اللفظ العربي من حيث إيراده بطرق مختلفة في وضوح الدلالة، وإنما يتأتى الاختلاف في الدلالة الالتزامية دون المطابقة والتضمينية فإن أريد اللازم مع عدم صحة إرادة الملزوم فمجاز وإلا فكناية، و المجاز إما مفرد وإما مركب وهو مقرر في محله فلا نطيل به».[2]

أما علم البديع فقد أدمج تعريفه ضمن تعريف علم البيان ولذلك نجده يقول : «وإن كان نظرا في إيراد اللفظ الواحد بالوجوه المختلفة في وضوح الدلالة فهو علم البيان، وإن كان نظرا في تحسين اللفظ بوجوه معنوية أو لفظية فهو علم البديع وقد يسمّون الجميع علم البيان».[3]

ويؤكد ابن عجيبة على أهمية علم المعاني بالنسبة للمفسر فيقول : «وتتأكد معرفته (أي علم المعاني) لمريد التصدي للتفسير إذ لا تعرف بلاغة القرآن وإعجازه إلا من هذا العلم وهو مقرر في محله كالتلخيص[4] وشبهه»

---

1) انظر التلخيص للقزويني، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ ص : 37.

2) ابن عجيبة : تفسير الفاتحة ص : 20.

3) نفسه : ص 20.

4) التلخيص لأبي القاسم القزويني (ت 739 هـ) لخص فيه كتاب مفتاح العلوم للسكاكي (ت 626).

ولذلك نجده يهتم به أكثر من غيره، وإذا ما صحت دعوى ابن خلدون من أن اهتمام المشارقة بهذا العلم أقوم من اهتمام المغاربة فإنها لا تعني قط إغفال المغاربة لهذا الجانب المهم من العلوم المساعدة على التفسير بقدر ما يدل ذلك على عدم تأليفهم وإبداعهم في هذا الحقل، إذ تركزت اهتمامات المغاربة على التحشية وشرح أمهات كتب البلاغة المشرقية خاصة بعد دخول كثير منها إلى المغرب مثل كتابي (الإيضاح) و(التلخيص) للقزويني، وكتاب (المفتاح) للسكاكي.

وقد استفاد ابن عجيبة كثيرا من كتاب التلخيص للقزويني حيث أشار إليه في تفسيره المطول للفاتحة، كما أشار إليه في فهرسته[1] أثناء استعراضه لأبرز الكتب التي تلقاها عن شيوخه.

واستنذ مؤلفنا في تفسيره أثناء تصديه لبعض المباحث البلاغية إلى جملة من التفاسير السابقة التي عرف عن مؤلفيها اهتمام بالغ بهذا العلم مثل تفسير الزمخشري وتفسير أبي السعود.

فتفسير الزمخشري على الرغم مما تضمنه من مزالق وانحرافات في مجال العقيدة يعتبر سابقا في إبراز دقائق ولطائف هذا العلم.[2] وقد اعتمد عليه جل المفسرين الذين أتوا بعده، أما تفسير أبي السعود فقد اهتم فيه صاحبه بسبك العبارة وحسن صياغتها و الكشف عن مختلف نواحي القرآن البلاغية فضلا عن العناية بإبراز سر الإعجاز القرآني في النظم والأسلوب.[3]

وكثيراما نجد ابن عجيبة يصرح بنقله عن تفسير أبي السعود بعض المباحث البلاغية[4]، ويمكن القول بأن اعتماد ابن عجيبة على تفسير أبي السعود إنما كان بالأساس في الجانب البلاغي منه.

---

1) الفهرسة ص : 31د وقد أخذ التلخيص عن كل من عبد الكريم بن قريش ومحمد الورزازي ومحمد الجنوي.

2) ينظر ما قاله أبو حيان الأندلسي في مقدمة تفسيره 9/1.

3) الذهبي : التفسير و المفسرون 349/1.

4) انظر مثلا : 164/2-50/3-25/4.

وسأحاول فيما يلي توضيح منهج ابن عجيبة في التفسير البياني للقرآن ضمن أربعة مباحث تتعلق الثلاثة الأولى منها بعلوم المعاني والبيان والبديع، في حين سأخصص المبحث الرابع للحديث عن رأي ابن عجيبة في إعجاز القرآن.

المبحث الأول :

في علم المعاني

1 – الالتفات :

تطرق ابن عجيبة في تفسيره إلى صور متعددة للالتفات الذي هو عدول بالتعبير عن معنى معين بالتكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى التعبير المفاجئ بطريق أخرى، وهو لون من ألوان إخراج الكلم على غير مقتضى الظاهر يلجأ إليه البليغ لحال يقتضيه.[1] ولذلك تعتبر معرفة أسرار الالتفات في القرآن الكريم أمرا عظيما ينطوي على الكشف البليغ لأسرار ودقائق تبهر الألباب.

من ذلك ما أورده عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون**﴾[2]، حيث قال : «وفيه التفات من التكلم إلى الخطاب ومقتضى الظاهر : وإليه أرجع، و التحقيق أن المراد : مالكم لا تعبدون لكن

---

1) يعرفه الزركشي بكل اختصار بأنه (نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر) البرهان 314/3. وانظر الإتقان 253/3. ومعترك الأقران للسيوطي 377/1.

2) يس : 22.

لما عبر عنهم بطريق التكلم تلطفا في الإرشاد بإيراده في عرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصح حيث أراد لهم ما أراد لها جرى على ذلك في قوله: وإليه ترجعون، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره».[1]

لقد استعمل ابن عجيبة هنا مصطلح الالتفات صريحا كما استعمله في مواضع عدة من تفسيره، فبين أن الأصل ومقتضى الظاهر «وإليه أرجع» ثم بين أنه إنما التفت إليهم لكونه في مقام تقريعهم وتخويفهم ودعوتهم إلى عبادة الله تعالى وحده.[2]

ومن صور أسلوب الالتفات التي وجهت في سياق التقريع أيضا ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بيس للظالمين بدلا**﴾[3]، حيث قال : «وفي الالتفات إلى الغيبة مع وضع الظاهر موضع الضمير من الإيذان بكمال السخط و الإشارة إلى أن ما فعلوه ظلم قبيح ما لا يخفى».[4]

ومما لفت ابن عجيبة الانتباه إليه تأكيده على اختصاص بعض المواضع بنكت لطيفة تتعلق بأسلوب الالتفات الذي يستقيم بترجيح قراءة قرآنية معينة.

من ذلك ما أورده في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**عم يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون**﴾[5]، حيث قال : «سيعلمون عن قريب حقيقة الحال إذا حل بهم

---

1) البحر المديد : 187/3.

2) انظر توجيها قريبا من هذا في الإتقان 253/3.

3) الكهف : 50.

4) البحر المديد 164/2.

5) النبأ : 51.

العذاب والنكال «ثم كلا سيعلمون» تكرير للردع، والوعيد للمبالغة في التأكيد والتشديد..، وقرئ[1] ستعلمون بالخطاب على نهج الالتفات تشديدا للردع والوعيد لا على تقدير قل لهم، للإخلال بجزالة النظم الكريم».[2]

ومن صور الالتفات الدالة على المبالغة في تفسير ابن عجيبة ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿**حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان**﴾.[3] حيث قال : «وجرين بهم بريح طيبة فيها عدول عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة كأنها تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم،ففيه التفات، ومقتضى القياس : وجرين بكم بريح طيبة لينة الهبوب»[4] وقد نص الزمخشري على وجه المبالغة في هذه الصورة بقوله : «فإن قلت : ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة ؟ قلت : المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار و التقبيح...»[5]، وسبق عبد الرحمان بن زيد ابن أسلم إلى التنبيه إلى أسلوب الالتفات في الآية وذلك قبل أن تقعد علوم البلاغة بمختلف أقسامها فقد أخرج ابن أبي حاتم عن عبد الرحمان بن زيد بن أسلم أنه قال في قوله تعالى ﴿**حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم**﴾ قال : ذكر الحديث عنهم ثم حدث عن غيرهم ولم يقل (وجرين بكم) لأنه قصد أن يجمعهم وغيرهم وجرين بهؤلاء وغيرهم من الخلق.[6]

---

1) هي قراءة الحسن، معاني القرآن للفراء 227/3.

2) البحر المديد : 177/4.

3) يونس : 22.

4) البحر المديد : 61/2.

5) الكشاف : 231/2.

6) الإتقان : 255/3.

2 – أسلوب القصر :

القصر ويقال له الحصر هو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص، ويقال أيضا : إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، وينقسم إلى قصر الموصوف على الصفة وقصر الصفة على الموصوف، وقد بينهما بن عجيبة في سياق تفسيره لقوله تعالى : ﴿**قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون**﴾.[1] حيث قال : «وإنما الأولى لقصر الحكم على الشيء كقولك إنما يقوم زيد و الثانية لقصر الشيء على الحكم كقولك إنما زيد قائم أي إنما يوحى إلي وحدي إنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون»[2] ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾[3]، حيث قال ابن عجيبة في تفسيرها : «إياك مفعول بنعبد وقدم للتعظيم والاهتمام به والدلالة على الحصر، ولذلك قال ابن عباس : نعبدك ولا نعبد معك غيرك ولتقديم ما هو مقدم في الوجود وهو الملك المعبود، وللتنبيه على أن العابد ينبغي أن يكون نظره إلى المعبود أولا وبالذات ومنه إلى العبادة لا من حيث أنها عبادة صدرت منه بل من حيث أنها نسبة شريفة إليه ووصلة بينه وبين الحق، فإن العارف إنما يحق وصوله إذا استغرق في ملاحظته القدوس وغاب عما عداه حتى إنه لا يلاحظ نفسه ولاحالا من أحواله إلا من حيث أنها تجل من تجلياته وظهور لربوبياته.... وإياك مفعول بنستعين وقدم أيضا للاختصاص والاهتمام كما تقدم في إياك نعبد...»[4]. وقد نبه ابن عجيبة على أسلوب الحصر في الآيةبجلاء في تفسيره المتوسط للفاتحة وذلك بقوله : «وفي تقديم المعمول إيذان بالحصر و الاختصاص أي لا نعبد إلا إياك».[5]

---

1) الأنبياء : 108.

2) البحر المديد : 37/3.

3) الفاتحة : 5.

4) البحر المديد : 31/1.

5) خ خ الحسنية بالرباط 11325 ز (34 أ) وجاء في الإتقان 156/3 (كاد أهل البيان يطبقون على أن تقديم =

فالمؤلف إذن قد استعمل من خلال هذين المثالين المصطلحات الثلاث : القصر و الحصر و الاختصاص، وهو في المثال الثاني قد حاول توظيف أسلوب الحصر في التعبير عن إشارة صوفية دقيقة لا تعارض في شيء المعنى الظاهر للآية، وقد أوضح تلك الإشارة أجلى توضيح في تفسيره الكبير للفاتحة بقوله : «وقال أهل الإشارة : قدم ضمير الذات لينبه العابد على أن المقصود الأهم هو إلى الذات دون الوقوف مع حلاوة الطاعات».[1]

3 - أسلوب التقديم والتأخير :

من ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله**﴾[2]، حيث قال ابن عجيبة : «يعني وعد النصر على الأعداء وقدم المفعول الثاني، و الأصل مخلف رسله وعده فقدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا على الإطلاق، ثم قال : رسله ليعلم أنه إذا لم يخلف وعد أحد من الناس فكيف يخلف وعد رسله وخيرة خلقه فقدم الوعد أولا بقصد الإطلاق ثم ذكر الرسل بقصد التخصيص».[3]

ويبدو أن ابن عجيبة قد استقى هذا التفسير من الكشاف حيث أورده الزمخشري في صيغة سؤال وجواب[4] غير أن ابن عجيبة لم ينتبه إلى مسحة الاعتزال التي طالت جواب المفسر المعتزلي الذي تضمن أن وعد الله واقع لا محالة، فمن وعده بالنار من العصاة لا يجوز أن يغفر له أصلا، وهو ما نبه عليه أبو حيان في البحر المحيط.[5]

=المعمول يفيد الحصر سواء كان مفعولا أو ظرفا أو مجرورا. ولهذا قيل في : (إياك نعبد وإياك نستعين) معناه نخصك بالعبادة و الاستعانة).

1) تفسير الفاتحة الكبير : مخطوط خاص ص : 210.

2) إبراهيم : 47.

3) البحر المديد : 119/2.

4) انظر الكشاف للزمخشري 384/2 وراجع التسهيل لابن جزي 143/2. وقد نقل بدوره نفس كلام الزمخشري.

5) البحر المحيط : 439/5.

المبحث الثاني :

في علم البيان

1 - المجاز :

المجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة بينهما وهو قسمان : مفرد و مركب، وعرفه القزويني بأنه الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب على وجه يصح مع قرينة عدم إرادته.[1]

وأجمع الجمهور على وقوع المجاز في القرآن وانكر ذلك الظاهرية وبعض العلماء.

ولم يفصح ابن عجيبة عن رأيه في موضوع الحقيقة و المجاز إلا ما كان من تقسيمه للكلام إلى مجاز وكناية وأن المجاز إما مفرد أو مركب وقد اعتذر عن تفصيل ذلك خشية الإطالة كما بينه في تفسير الفاتحة الكبير.[2] على أنه يلاحظ لدى الرجوع إلى تفسير المؤلف لبعض الآيات القرآنية المتضمنة لبعض مباحث الحقيقة والمجاز التي بينها جل المفسرين السابقين إغفال تام للإشارة إلى ذلك. وقد أوضح لنا في موضع من تلك المواضع سبب عدم وقوفه كثيرا عند تلك المباحث وغيرها فقال لدى تفسيره لقوله تعالى : ﴿**أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين**﴾.[3] (وها هنا استعارات وبلاغات يطول

---

1) التلخيص للقزويني ص : 294.

2) تفسير الفاتحة الكبير ص : 20.

3) البقرة : 168.

سردها إذ مرادنا تربية اليقين بكلام رب العالمين)[1]، بيد أن ابن عجيبة قد أشار في بعض المواضع القرآنية إلى نكت بلاغية متعلقة بالمجاز بمختلف أقسامه وفيما يلي بيان بذلك :

أ) **بين الحقيقة و المجاز** :

اختلف موقف ابن عجيبة بالنسبة لترجيح الحقيقة على المجاز أو العكس أو ذكر الاحتمالين معا دون ترجيح.

من ذلك ما أورده عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وءاتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب**...﴾[2]، حيث قال : «قلت : اليتيم من فقد أباه ولا يقال فيه اليتيم عرفا إلا قبل البلوغ وهو هنا مجاز أي من كان يتيما..»[3] ثم ما فتئ يورد احتمال كون لفظ اليتيم على حقيقته مستندا في ذلك إلى : «ما قيل من أن العرب كانت لا تورث الصغار مع الكبار فأمروا أن يورثوهم، فعلى هذا يكون اليتيم على حقيقته فعلى الأول يكون الخطاب للأوصياء وعلى الثاني للعرب التي كانت لا تورث الصغار».

وهكذا يكون المؤلف قد قدم الاحتمالين معا ووجه الخطابين حسب ما يقتضيه الحال، وقد عقب ابن المنير على الزمخشري في هذا الصدد مرجحا الوجه القائل بأن لفظ اليتيم على حقيقته فقال : «والوجه الأول قوي بقوله بعد آيات : «وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم» : دل على أن الآية الأولى في الحض على حفظها لهم ليؤتوها عند بلوغهم ورشدهم، والثانية في الحض على الإيتاء الحقيقي عند حصول البلوغ و الرشد...».[4]

---

1) البحر المديد : 10/1 وقد بين المفسرون هنا مجازا عقليا يظهر من قوله تعالى ﴿**فما ربحت تجارتهم**﴾ أي ما ربحوا في تجارتهم، وأضيف الربح إلى التجارة لأن الربح يكون فيها.

2) النساء : 2

3) البحر المديد : 110/1.

4) ابن المنير : «انصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال» بهامش الكشاف 494/1.

فالمجاز الذي أشارإليه ابن عجيبة هو مجاز مرسل، وابن عجيبة وإن لم يفصح عن هذا القسم من المجاز إلا أنه أشار إلى نوع العلاقة التي يتضمنها وهي اعتبار ما كان، حيث استعملت كلمة اليتامى في الراشدين ممن كانوا يتامى، وهذه الآية تعتبر من شواهد القزويني في تلخيصه.[1]

ومن ذلك أيضا ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال**﴾[2]، حيث قال : «يحتمل أن يكون السجود حقيقة فالملائكة والمومنون يسجدون طوعا في الشدة والرخاء والكفار يسجدون في الشدة والضرورة كرها أو يكون مجازا وهو انقيادهم لما أراد منهم شاءوا أو كرهوا».[3]

ب) المجاز العقلي :

بينه ابن عجيبة في مواضع من تفسيره منها :

عند قوله تعالى : ﴿**وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تامروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون**﴾[4]، حيث قال : «ومكر الليل بالإضافة على معنى في، وإضافة المكر إلى الليل على الاتساع بإجراء الثاني مجرى المفعول به، وإضافة المكر إليه او اجعل الليل والنهار ماكرين بهم مجازا.[5]

فهذا إسناد مجازي بينه الزمخشري بقوله : «ومعنى مكر الليل والنهار مكركم في الليل والنهار فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به

---

1) التلخيص ص : 298.

2) الرعد : 15.

3) البحر المديد : 2/401.

4) سبأ : 33.

5) البحر المديد : 4/422.

وإضافة المكر إليه أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي».[1]

ومن ذلك أيضا ما أورده عند تفسير قوله تعالى : ﴿**من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب**﴾[2]، حيث قال : «من كان يريد حرث الآخرة، سمى ما يعمله العامل مما ينبغي به الفائدة المستقبلة حرثا مجازا لأن الحرث إلقاء البذر في الأرض لتنظر نتاجه فأطلقه على العمل الجامع مع حصول النتائج أي من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة نزد له في حرثه ونضاعف له ثوابه، الواحدة بعشر إلى سبعمائة فما فوقها...».[3]

2 – الاستعارة :

الاستعارة مجاز لغوي وهي ذكر الشيء باسم غيره وإثبات ما لغيره له للمبالغة في التشبيه، وقال القزويني في تلخيصه[4] «قد يضمر التشبيه في النفس فلا يصرح بشيء من أركانه سوى المشبه ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به، فيسمى التشبيه استعارة بالكناية أو مكنيا عنها، وإثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخييلية كما في قول الهذلي :

وإذا المنية أنشبت أظفارها **** ألقيت كل تميمة لا تنفع

ومطلوبات الاستعارة وحكمتها المبالغة في التشبيه وإظهار الخفي وإيضاح الظاهر الذي ليس بجلي و الإيجاز وغير ذلك.[5]

وطريقة ابن عجيبة في الإشارة إلى الاستعارة الاقتصار على ذكر المعنى المجازي والإشارة إلى الإستعارة دون بيان نوعها إن كانت

---

1) الكشاف 291/3. ويمكن من خلال هذا النص ملاحظة مدى تأثر ابن عجيبة بمباحث الكشاف البلاغية.

2) الشورى : 20.

3) البحر المديد 6/4 وقارن بالكشاف 415/3.

4) التلخيص ص : 327.

5) الإتقان : 134/3.

تصريحية أو مكنية أو غير ذلك إلا في مواضع قليلة جدا. وقد يبين أحيانا نوع الحكمة في ذلك وخاصة ما تعلق منها بحصول المبالغة، وهذه أمثلة على كل ذلك.

في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا**﴾[1]، قال : «واشتعل الرأس شيبا أي أبيض شمطا، شبهه عليه السلام من جهة البياض والإنارة بشواظ النار وانتشاره في الشعر وفشوه وأخذه منه كل مأخذ باشتعالها ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى محل الشعر ومنبته وهو الرأس وأخرجه مخرج التمييز، ففيه من فنون البلاغة وكمال الجزالة ما لا يخفى حيث كان الأصل واشتعل شيب رأسي فأسند الاشتعال إلى الرأس لإفادة شموله إلى كلها، فإن وزنه اشتعل بيته نارا بالنسبة إلى اشتعال النار في بيته ولزيادة تقريره بالإجمال أولا والتفصيل ثانيا ولمزيد تفخيمه بالتكثير من جهة التنكير».[2]

ففي هذا المثال نلحظ افتتان ابن عجيبة بجمال هذه الاستعارة وروعتها وهو وإن لم يعبر عن نوع الاستعارة المتضمنة في الآية و التي هي تصريحية إلا أنه لمح إلى ذلك بشرحه وتوضيحه لطرفي التشبيه فيها ولوجه الشبه. ولم يفته التأكيد على ما يتضمنه هذا المثال من فنون البلاغة وكمال الجزالة، وقد نبه منها على الإفادة بالشمول و التأكيد للإجمال أولا وبالتفصيل ثانيا ثم الزيادة في التفخيم بالتكثير حيث جاءت تنكيرا للفظة (شيبا).

ومن ذلك أيضا ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**﴾[3]، حيث قال : «استعار الذوق لإدراك

---

1) مريم : 4.

2) البحر المديد : 3/1.

3) النحل : 112.

أثر الضرر واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف، أما الإضاقة فقد كثر استعمالها في البلايا حتى صارت كالحقيقة، وأما اللباس فقد يستعيرونه لما يشتمل على الشيء ويستره كقول الشاعر[1] :

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا **** غلقت لضحكته رقاب المال

فقد استعار الرداء للمعروف فإنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لمن يلقى عليه.[2]

ومن خلال هذا المثال يبين ابن عجيبة إشكال كون الإذاقة و اللباس استعارتين معا وذلك بأن رد الإذاقة إلى حقيقتها نظرا لكثرة استعمالها في البلايا و الشدائد وأوضح الاستعارة الموجودة في اللباس.[3] ثم أورد صورة الاستعارة – مع الفارق في المنزلة الجمالية و الروعة البيانية – في ديوان الشعر العربي فيما أورده الزمخشري في كشافه من شعر كثير.

ومن الأمثلة التي نص فيها ابن عجيبة على نوع الاستعارة الموجودة في الآية – وهو نادرا ما ينص على ذلك – ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين ءامنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله**﴾[4]، حيث قال : «في هذه العبارة ضرب من المجاز الذي يسمى تمثيلا، وفيه فائدة جليلة وهي تصوير الهجنة و الشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة وفائدة هذا الأسلوب الدلالة على قوة الاختصاص، ولما كان رسول الله ﷺ بالمكان الذي لا يخفى سلك به هذا

---

1) البيت لكثير كما في الكشاف 431/3. وكثير عزة شاعر مشهور من أهل الحجاز، واخباره مع عزة بنت جميل كثيرة. وكان عفيفا في حبه، توفي بالمدينة عام 105 هـ.

2) البحر المديد : 142/2.

3) أما نوع الاستعارات الموجودة في الآية و التي لم يبينها ابن عجيبة فهي : وجود استعارة تصريحية أصلية في الجوع والخوف من حيث إضافة اللباس إليهما بالإضافة إلى استعارة أخرى مكنية في اللباس.

4) الحجرات : 1.

المسلك»[1] فهذا مثال للاستعارة التمثيلية أو مجاز التمثيل وقد بين ابن عجيبة الحكمة من ذلك وهي دلالتها على قوة الاختصاص.

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**واخفض لهما جناح الذل من الرحمة**﴾[2] قال : «واخفض لهما جناح الذل، ألن لهما جانبك الذليل وتذلل لهما وتواضع، استعار للذل جناحا وأضافه إليه مبالغة فإن الطير إذا تذلل أرخى جناحه إلى الأرض، كذلك الولد ينبغي أن يخضع لأبويه ويلين جانبه ويتذلل لهما غاية جهده وذلك من الرحمة».[3]

3 - التشبيه :

أغفل ابن عجيبة في تفسيره التنصيص على كثير من أنواع التشبيه التي يزخر بها النص القرآني. وبخاصة في بعض المواضع التي لا يكاد يغفل عن ذكر وجه التشبيه فيها أي مفسر، وذلك مثل التشبيه الوارد في قوله تعالى : ﴿**مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم**....﴾[4]، حيث لم يلوح ابن عجيبة بأية إشارة تفيد وجود أسلوب التشبيه بها.ومما عرض له ابن عجيبة من صور التشبيه في التنزيل الحكيم ما يلي :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿**لهم أجرهم ونورهم**﴾[5] قال : «أي لهم أجر الصديقين ونورهم على التشبيه ولا يبلغ المشبه درجة المشبه به».[6]

---

1) البحر المديد 57/4 وأصله في الكشاف 552/3.

2) الإسراء : 24.

3) البحر المديد 147/2 وانظر بيانه لأسلوب الاستعارة في قوله تعالى : ﴿واخفض جناحك للمومنين﴾ الحجر 88 في البحر المديد 126/2.

4) البقرة : 17.

5) الحديد : 19.

6) البحر المديد : 106/4.

ومن أنواع التشبيه التي وقف عندها التشبيه المركب الذي هو أن ينتزع وجه الشبه من أمور مجموع بعضها إلى بعض ومثل له بآية البقرة : ﴿**أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت و الله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم**﴾[1]، حيث قال : «يحتمل أن يكون من التشبيه المركب وهو تشبيه الجملة بالجملة أو من الفصل[2] فيكون المطر مثالا للقرآن، وفيه ذكر الكفر والنفاق المشبهات بالظلمات والوعيد عليه والزجر المشبه بالرعد والحجج الباهرة التي تكاد أحيانا تبرقهم المشبهة بالبرق.....».[3]

ومنه أيضا ما أورده عند تفسير قوله تعالى : ﴿**مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا**﴾[4]، حيث قال : «شبه اليهود بالحمار فإنهم حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها ثم لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بآياتها... فهم أشبه شيء بحمار حمل كتبا كبارا من كتب العلم فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يلحقه من الكد والتعب، وفي التلخيص : وجه الشبه حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب في استصحابه».[5]

وتكلم ابن عجيبة عن التمثيل و التشبيه في سورة النور عند قوله تعالى : ﴿**الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح...**﴾[6] فقال : «الله نور السماوات و الأرض أي منور أهلهما بنور الإسلام لأهل الإسلام وبنور الإيمان لأهل الإيمان وبنور الإحسان لأهل الإحسان،

---

1) البقرة : 19-20.

2) في التسهيل لابن جزي 39/1. : «وهذا التشبيه على الجملة، وقيل أن التشبيه على التفصيل» الكشاف 209/1.

3) البحر المديد : 10/1.

4) الجمعة : 5.

5) البحر المديد : 126/4 وانظر كلام القزويني في التلخيص ص : 260 وراجع الإتقان للسيوطي 130/3.

6) النور : 35-40.

فحقيقة النور هو الذي تنكشف به الأشياء على ما هي عليه حسية أومعنوية و المراد هنا المعنوية بدليل قوله : يهدي الله لنوره من يشاء، فإن انكشفت به أحكام العبودية باعتبار المعاملة الظاهرة يسمى نور الإسلام وإن انكشفت به أوصاف الذات العالية وكمالاتها من طريق البرهان يسمى نور الإيمان وإن انكشفت به حقيقة الذات وأسرارها من طريق العيان يسمى نور الإحسان. فالأول يشبه نور النجوم والثاني نور القمر و الثالث نور الشمس.. ثم ضرب المثل لذلك النور حين يقذفه في قلب المومن فقال : مثل نوره أي صفة نوره العجيبة في قلب المومن كما هي قراءة ابن مسعود، (كمشكاة) أي كصفة مشكاة وهي الكوة في الجدار غير النافذة... إلى أن يقول : فهذا مثال النور الذي يقذفه الله في قلوب المومنين، فالمشكاة هو الصدر والمصباح نور الإيمان والإسلام والإحسان على ما تقدم. والزجاجة هو القلب الصافي، ولذلك شبهه بالكوكب الدري، والزيت هو العلم النافع يقوي اليقين ولذلك وصفه بالصفاء والإنارة.... ويضرب الله الأمثال للناس تقريبا للفهم لأنه إبراز للمعقول في هيئة المحسوس والله بكل شيء عليم».[1]

لقد آثرت نقل هذا النص بطوله لأنه يبين لنا كيف أن الحديث عن التمثيل جر ابن عجيبة إلى إثارة أهمية النور الذي يقذفه الله تعالى في قلب المومن. وهنا نجد توظيفا دقيقا لقراءة ابن مسعود «مثل نوره في قلب المومن» من أجل بيان أن قلب المومن[2] يتلقى نور الله تعالى حسب درجة ومستوى انكشاف الحقائق و الكمالات العرفانية، فهناك نور الإسلام ونور

---

1) البحر المديد 66/3 وقارن بالكشاف 69/3.

2) وهو ما ذهب إليه القشيري عندما قال : أراد بهذا نور قلب المومن وهو معرفته فشبه صدره بالمشكاة وشبه قلبه في صدره بالقنديل في المشكاة وشبه القنديل – الذي هو قلبه – بالكوكب الدري، وشبه إمداده بالمعرفة بالزيت الصافي الذي يمد السراج في الاشتعال...» لطائف الإشارات 211/2-212.

الإيمان ونور الإحسان وهو أعلاها، أما المشكاة و المصباح و الزجاجة والكوكب الدري والزيت فهي جميعها تشبيهات يضرب الله بها الأمثال تقريبا للفهم.

4 – الكناية :

عرفها القزويني بأنها : «لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه»[1] وفرق الزمخشري بين الكناية و التعريض بأن الكناية ذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له والتعريض ذكر الشيء للدلالة به على شيء لم يذكر[2] وقد تحدث ابن عجيبة عن الكناية في تفسيره ونبه عليها في كثير من المواضع من القرآن الكريم، من أمثلة ذلك :

ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المومنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعتدونها**﴾[3]، حيث قال ابن عجيبة : «والنكاح في الأصل الوطء من تناكحت الأشجار إذا التصقت بعضها ببعض، وتسمية العقد نكاحا مجاز لملابسته والمماسة له من حيث أنه طريق إليه كتسمية الخمر إثما لأنها سببه، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله تعالى إلا في معنى العقد لأنه لو استعمل في الوطء لكان تصريحا به ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة والمماسة والقربان والتغشي و الإتيان تعليما للأدب و الحياء».[4]

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا**﴾[5]، قال : «واذكر أيضا يوم يعض الظالم على يديه ندما وتحسرا بعض اليد والأنامل كناية عن شدة الغيظ والحسرة

---

1) التلخيص ص : 337.

2) الإتقان : 147/3.

3) الأحزاب : 49.

4) البحر المديد : 160/3.

5) الفرقان : 27.

لأنها من روادفها، فتذكر المرادفة ويراد بها المردوف فيرتفع الكلام في طبقة الفصاحة، ويجد السامع في نفسه من الروعة ما لا يجده عند اللفظ المكنى عنه».[1]

فابن عجيبة في هذا المثال يورد نوعا شبيها بالكناية يعرف بالإرداف، وقد استعمل هذا المصطلح مبينا أن العض على اليدين ندما وتحسرا مرادف لشدة الغيظ والحسرة، وقد ذكر السيوطي في إتقانه أن الإرداف يشابه الكناية، وعرفه بأن يريد المتكلم معنى ولا يعبر عنه بلفظه الموضوع له ولا بدلالة الإشارة، بل بلفظ يرادفه، وقد فرق بعضهم بين الكناية والإرداف بأن الكناية انتقال من لازم إلى ملزوم، أما الإرداف فهو انتقال من مذكور إلى متروك.[2]

وشبيه بهذا ما أورده ابن عجيبة عند تفسير قوله تعالى : ﴿**ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين**﴾[3]، حيث قال : «ولما سقط في أيديهم كناية عن اشتداد ندمهم فإن النادم بتحسره يعض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها أو يسقط رأسه ليعض يده. وقال الدماميني : العرب تضرب الأمثال بالأعضاء ولا تريد أعيانهاو تقول للنادم سقط في يده و للذليل رغم أنفه».[4]

وقدلا يتفق ابن عجيبة مع بعض المفسرين في فهم بعض أساليب البيان القرآني التي فهموها على أساس أنها تعبر عن الكناية، فمن ذلك مثلا قوله تعالى في وصف عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام ﴿**كانا يأكلان الطعام**﴾[5] حيث لم يفسرها ابن عجيبة بأنها كناية عن الاحتجاج

---

1) البحر المديد : 79/3.

2) الإتقان : 146/3.

3) الأعراف : 149.

4) البحر المديد : 16/2 وانظر الكشلف 118/2.

5) المائدة : 75.

إلى الغائط كما ذهب بعض المفسرين[1]، بل اكتفى بقوله : «كانا يأكلان الطعام ويفتقران إليه افتقار الحيوانات»[2] وقد نحا في ذلك منحى ابن عطية في تفسيره حيث نبه إلى أن القول بالكناية عن الاحتجاج إلى الغائط قول بشع ولا ضرورة تدفع إليه... وإنما هي عبارة عن التغذي.[3]

المبحث الثالث :

في علم البديع

1 – اللف والنشر :

عرفه القزويني بقوله : «اللف و النشر هو ذكر متعدد على التفصيل أو الإجمال ثم ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه، فالأول ضربان لأن النشر إما على ترتيب اللف نحو : ﴿**ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله**﴾[4]، وإما على غير ترتيبه... والثاني نحو قوله تعالى : ﴿**وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى** ...﴾[5] [6]

---

1) مثل مكي بن أبي طالب و المهدوي ڤ ينظر مثلا : لطائف الإشارات للقشيري 440/1.

2) البحر المديد : 150/1.

3) المحرر الوجيز : 162/5.

4) القصص : 73.

5) البقرة 111.

6) التلخيص ص 361-362.

وقد أشار ابن عجيبة إلى النوع التفصيلي الذي يرد فيه النشر على ترتيب اللف عند قوله تعالى : ﴿**ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**﴾[1]، حيث قال : «ومن رحمته تعالى جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه في الليل ولتبتغوا من فضله بالنهار بأنواع المكاسب وهو من باب اللف و النشر».[2]

ومما عرض له من باب اللف و النشر المعكوس ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين**﴾[3]، حيث قال : «وفي الآية اللف والنشر المعكوس، فقوله : قلتم ما ندري ما الساعة راجع لقوله : والساعة لا ريب فيها، وقوله إن نظن إلا ظنا راجع لقوله : إن وعد الله حق، وكذا قوله : وما نحن بمستيقنين، أي لا يقين عندنا وهو راجع لقوله إن وعد الله حق.[4]

2 – القلب :

عرفه ابن جزي في مقدمة تفسيره بقوله : «أن يكون الكلام يصلح ابتداء قراءته من أوله وآخره أو تعكس كلماته فتقدم المؤخر منها وتؤخر المقدم».[5] ومن ذلك ما أورده في معرض تفسيره لقوله تعالى : ﴿**وأتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة**﴾[6]، حيث قال : «وقيل معنى تنوء تنهض بتكلف». ويكون حينئذ في الكلام قلب «إذ العصبة هي التي تنوء بالمفاتيح لا العكس».[7]

---

1) القصص 73.

2) البحر المديد 122/3 وانظر التسهيل لابن جزي 110/3.

3) الجاثية 31.

4) البحر المديد 34/4.

5) التسهيل 13/1 وانظر التلخيص للقزويني ص 404.

6) القصص 76.

7) البحر المديد 122/3.

3 - الطباق :

عرفها القزويني بقوله : المطابقة وتسمى الطباق والتضاد أيضا وهي الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة، ويكون بلفظين من نوع اسمين نحو : ﴿**وتحسبهم أيقاظا وهم رقود**﴾[1] أو فعلين نحو : «يحيي ويميت[2] ...».[3]

ومما عرض له ابن عجيبة من ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿**أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس...**﴾[4] حيث قال: «وفي الآية من أنواع البيان الطباق في قوله ميتا فأحييناه».[5]

4 - الجناس :

عرفه ابن جزي بقوله : «هو اتفاق لفظ مع اختلاف المعنى.....ثم الاتفاق قد يكون في الحروف والصيغة أو في الحروف خاصة، أو في أكثر الحروف لا في جميعها أو في الخط لا في اللفظ».[6]

ومما ذكره ابن عجيبة من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿**فأقم وجهك للدين القيم**﴾[7]، حيث قال : «ويقول الحق جل جلاله فأقم وجهك أي قومه ووجهه للدين القيم البليغ في الاستقامة الذي لا يتأتى فيه عوج ولا خلل، وفيه من البديع جناس الاشتقاق».[8]

وقد أورد القزويني أن الجناس يلحقه شيئان أحدهما أن يجمع اللفظين الاشتقاق، نحو : فأقم وجهك للدين. وهو المثال الذي وقف عنده

---

1) الكهف : 18.

2) في آيات كثيرة منها : آل عمران 156.

3) التلخيص ص : 348.

4) الأنعام 122.

5) البحر المديد 174/1.

6) التسهيل ص 13 وينظر التلخيص ص 389 وبديع القرآن لابن أبي الأصبع ص 29.

7) الروم 43.

8) البحر المديد 139/3.

ابن عجيبة، والثاني أن يجمعهما المشابهة وهي ما يشبه الاشتقاق نحو: ﴿قال إني لعملكم من القالين[1]﴾.[2]

هذه إذن بعض المحسنات اللفظية و المعنوية التي تعرض لها ابن عجيبة في تفسيره، والذي يمكن ملاحظته بهذا الصدد هو أن مؤلفنا لم يهتم بكثير من المباحث الأخرى المتعلقة بعلم البديع مثل الاقتباس والتقسيم والمقابلة و المشاكلة وغير ذلك، بل إن ما تعرض له مما سبق أن أشرنا إليه يعتبر نادرا وقليلا جدا.

المبحث الرابع :

رأيه في إعجاز القرآن

يعتبر الإعجاز من خصائص القرآن الكريم الذي نزل على أمة أمية في كل شؤون الحياة إلا «الكلمة» وتذوقهافهم – أي العرب – أربابها وأصحابها الذين يعقدون للقول المجامع ويعقدون له الأسواق، فبعث فيهم محمد ﷺ فلم تكن معجزاته في شيء لا يتقنونه أو فن لا يحذقونه، بل تحداهم فيما اشتهروا بإتقانه وحذقه والبروز فيه، فجاءت المعجزة قرآنا يتلى فإذا به أبلغ من بليغ الكلام وأفصح من فصيحه، وإذا كان القرآن معجزة الإسلام الخالدة وقد جاء بلسان عربي جار على نفس أنماط الأساليب العربية، فأين تتجلى إذن وجوه الإعجاز ؟

---

1) الشعراء 168.

2) التلخيص ص 362.

قبل التطرق لذلك نرى ضرورة الإشارة إلى أن آيات التحدي في القرآن الكريم تعتبر أبرز مواطن تقرير وتأكيد خاصية الإعجاز حيث كذب العرب بالقرآن وتباينت واختلفت أقوالهم فيه فقال بعضهم ﴿**إن هذا إلا أساطير الأولين**﴾[1] وقال البعض الآخر :﴿**إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون**﴾[2]، ﴿**بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر**﴾[3]، إلى آخر ما قالوه في شأن القرآن الكريم الذي بهرهم أسلوبه وملكتهم بلاغته، وهنا جاء تحدي القرآن لهم بأن ياتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين، بل تحداهم بأن ياتوا بعشرسور مثله مفتريات أو حتى بسورة مثله إن كانوا قادرين على ذلك. فلما عجزوا عن القيام بأدنى محاولة من أجل معارضته والإتيان بما يماثله قامت الحجة عليهم بأنه كلام الله العزيز المعجز وليس من كلام البشر كما يزعمون، فأكد الله تعالى أنه لن يقدر أحد في أي زمن من الأزمان أن ياتي بمثل القرآن ولوتظاهر على ذلك الإنس و الجن فقال سبحانه : ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**﴾.[4]

لقد أسهب كثير من العلماء في الحديث عن وجوه إعجاز القرآن الكريم، وألفوا في ذلك كتبا اشتهر بعض منها مثل كتب الخطابي والرماني والجرجاني والباقلاني وغيرهم.

بالنسبة لرأي ابن عجيبة في هذا المجال يمكن تبينه من خلال تفسيره لبعض الآيات المتعلقة بالإعجاز القرآني، وهو رأي يعبر عن تشبع بالمذهب الأشعري في هذا المجال حيث نجد الأوجه الثلاثة التي قررها

---

1) الأنعام : 25.
2) الفرقان : 4.
3) الأنبياء : 5.
4) الإسراء : 88.

الباقلاني[1] مبثوثة عبر مختلف مواطن الحديث عن الإعجاز في تفسير ابن عجيبة، فيقول مثلا عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله....**﴾[2] يقول الحق جل جلاله : «وإن كنتم يا معشر الكفار في شك مما نزلنا على محمد عبدنا ورسولنا المختار لسر وحينا فاتوا بسورة من جنسه في الفصاحة و البلاغة مشتملة على علوم وأسرار ومغيبات كما اشتمل عليه كتابي».[3]

وفي معرض تفسير قوله تعالى : ﴿**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون**﴾.[4] يقول : وما كنت تتلو من قبله من قبل القرآن من كتاب ولاتخطه بيمينك بل كنت أميا لم تقرأ ولم تكتب فظهور هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم الشريفة والأخبار السالفة على يد أمي لم يعرف بالقراءة و التعلم خرق عادة قاطعة... هذا وكونه عليه السلام أميا كمال في حقه عليه السلام ومعجزة دالة على نبوته لأنه عليه السلام مع كونه أميا أحاط بعلوم الأولين والآخرين وأخبر بقصص القرون الخالية والأمم الماضية من غير مدارسة ولا مطالعة، وهو مع ذلك يخبر بما مضى وبما يأتي إلى قيام الساعة...».[5]

لقد قرر ابن عجيبة من خلال هذين النصين الوجوه الثلاثة التي ذكرها الباقلاني وهي : الإخبار عن المغيبات الماضية والمستقبلة مع كونه

---

1) الأوجه الثلاثة للإعجاز القرآني التي لخصها الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن ط بيروت 1988 ص 50) هي :
أولا : الإخبار عن الغيوب.
ثانيا : ما كان معلوما من حال النبي ﷺ أنه كان أميا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ كما أنه لم يعرف شيئا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ثم أتى بجمله ما وقع من عظيمات الأمور ومهمات السير من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه....
ثالثا : بديع نظم القرآن وعجيب تأليفه.

2) البقرة : 23.

3) البحر المديد 11/1.

4) العنكبوت : 48.

5) البحر المديد 131/3.

عليه السلام أميا لا يقرأ ولا يكتب وحسن النظم و بلاغة الأسلوب والفصاحة.

بيد أن جانب فصاحة القرآن وحسن نظمه يعتبر الوجه الأكثر تعبيرا عن إعجاز القرآن في رأي ابن عجيبة وهو ما يؤكد عليه في مواطن عدة من تفسيره كلما تعرض لآية قرآنية اشتملت على براعة الأسلوب وبلاغة البيان، فيقول مثلا في قوله تعالى : ﴿**وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين**﴾[1]، «والآية كما ترى في غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها وللدلالة على كنه الحال مع الإيجاز الخالي عن الإخلال وإيراد الأخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل.....».[2]

ولم يتعرض ابن عجيبة للمذهب القائل بالصرفة، كما لم يتعرض لوجوه الإعجاز الأخرى بالرغم من ذهابه مذهب القائلين بتعدد تلك الوجوه إذ نجده يقول : «وقال أكثر الناس إنما عجزوا عنه لفصاحته وبراعته وحسن نظمه، ووجوه إعجازه كثيرة»[3] ويرى ابن عجيبة أن الإعجاز الحاصل في أي القرآن يطال اللفظ والمعنى معا حيث يقول : «والقرآن كما هو معجز باعتبار المعنى معجز باعتبار اللفظ».[4] وقد اتبع في ذلك مذهب بعض الذين كتبوا في الإعجاز من القدامى ومنهم الإمام الخطابي الذي يقول : وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور منها : إن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية بألفاظها التي هي ظروف المعاني و الحوامل ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على

---

1) هود : 44.

2) البحر المديد 77/2.

3) نفسه 155/2.

4) نفسه 141/2.

تلك الألفاظ وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لها ناظم».[1]

هذا إذن هو رأي ابن عجيبة في بعض وجوه الإعجاز القرآني، وكان بالإمكان تبين وجهة نظره كاملة لو أنه بسط الكلام بإفاضة وعمق أثناء تفسيره لآيات التحدي وغيرها من الآيات المتضمنة لملامح الإعجاز البلاغي والبياني.

---

1) الخطابي : بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، طبعة دار المعارف بمصر ص 25.

الفصل الثالث :

الإتجاه اللغوي والنحوي في تفسير ابن عجيبة

تمهيد :

يشكل الإتجاه اللغوي والنحوي في : «البحر المديد» واحدا من الركائز والأسس القوية التي بنى عليها ابن عجيبة تفسيره، حيث اعتمد على هذا الإتجاه بشكل قوي في بناء العملية التفسيرية للآيات القرآنية، فقد اهتم بمفردات القرآن أيما اهتمام وعالج جوانب عدة في بحث الألفاظ واشتقاقاتها، كما أبرز مختلف مباحث علم النحو التي يرتبط بها تفسير الآيات القرآنية.

لقد أكد ابن عجيبة في تفسيره الكبير للفاتحة أثناء حديثه عن العلوم التي يجب على المفسر الإضطلاع بها ومعرفتها على ضرورة الإعتماد على اللغة والنحو واللذين ذكرهما في المرتبة الأولى تأكيدا على أهميتهما في إدراك وفهم معاني كلام الله تعالى الذي نزل بلسان عربي مبين، يقول صوفينا وهو يبين أهمية الإلمام باللغة وعلومها : «أولها اللغة لأن بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع العربي لأن القرآن نزل بلسان العرب فلابد من معرفة مهماتها. قال مجاهد : لا يحل لامرئ يومن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات

العرب[1]، ولا يكفي في حقه معرفة اليسير منها فقد يكون اللفظ مشتركا وهو يعلم أحد المعنيين والمراد الآخر، ثانيها النحو، لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلابد من اعتباره، أخرج أبو عبيد عن الحسن أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس الآية فيعنى بوجهيها فيهلك فيها أي يتكلف تفسيرها فيفسرها على غير وجهها فيهلك».[2]

ويعرض المؤلف في المقدمة الأولى من تفسيره الكبير للفاتحة تقسيما تقليديا للعلوم فيذكر منها علم اللسان الذي هو [redacted] يتعلق بكلام العرب نثرا ونظما ولغاتهم التي يتحاورون بها، فإن كان نظرا في فهم معناها فهو علم متن اللغة وقد وضعوا لها كتبا كالقاموس والمصباح وصحاح الجوهري وغيرها، وإن كان نظرا فيما يعتور اللفظ من تصحيح وإعلال ونحو ذلك فهو علم التصريف، وهو العلم الباحث عن الكلمة المفردة من حيث ما يعرض لها من صحة وإعلال ونحو ذلك، وإن كان نظرا فيما يعتري اللفظ في آخره من حركات وسكنات وإعراب وبناء فهو علم الإعراب ويسمى مجموعها علم النحو».[3]

وتتبين من خلال هذا النص أبرز الأسس المنهجية لفهم معاني التنزيل في ضوء الإتجاه اللغوي النحوي، وهي بذلك تمثل الوسائل والمواد الأولية التي يمكن من خلالها استيعاب المنقول وفقه علوم التنزيل، وبالتالي فهم التنزيل نفسه، فلنبسط فيما يلي الحديث أولا عن الإتجاه اللغوي ثم نقفيه بالحديث عن الإتجاه النحوي وذلك قصد الوقوف على جهده ومنهجه في عرض الدرس اللغوي والنحوي.

---

1 البرهان للزركشي 292/1.

2 تفسير الفاتحة الكبير ص 58-59.

3 نفسه ص 18.

المبحث الأول :

الإتجاه اللغوي في تفسير ابن عجيبة

يعتبر الإهتمام بمعاني المفردات وتحقيق الألفاظ القرآنية أول ما ينبغي أن ينشغل به المقبل على تفسير كتاب الله، فقد نص الراغب الأصبهاني في مستهل كتابه على «أن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه كتحصيل اللبن في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه، وليس ذلك نافعا في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع، فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته وواسطه وكرائمه وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم».[1]

ويشكل البيان اللغوي لألفاظ القرآن الرافد الأول المؤدي إلى فهم واستيعاب معاني القرآن الكريم، ولذلك أثر عن الإمام مالك قوله : «لا أوتى برجل يفسر كتاب الله غير عالم بالعربية إلا جعلته نكالا»[2]، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان، من حديث أبي هريرة مرفوعا : «اعربوا القرآن والتمسوا غرائبه»[3]، والمراد بإعراب القرآن في هذا الحديث كما قال السيوطي هو معرفة معاني ألفاظه، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه

1) الراغب الأصبهاني «معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ص ن».

2) البرهان في علوم القرآن 292/1.

3) ذكر العراقي في تخريج أحاديث الإحياء 289/1 أنه حديث ضعيف أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وأبو يعلى الموصلي والبيهقي في الشعب .

عند النحاة. وهو ما يقابل اللحن، لأن القراءة مع فقده ليست قراءة ولا ثواب عليها.[1]

لقد اهتم ابن عجيبة بمفردات القرآن اهتماما بليغا، وهو ما يتبين من خلال عرض مصادره المتنوعة في هذا الجانب، حيث اعتمد على أمهات كتب اللغة كما سبق أن بينا أثناء الحديث عن مصادره في التفسير، وهو ما يعطي تصورا كاملا عن إلمامه الواسع بمختلف جوانب علوم اللغة وأصولها.

وإذا ما انتقلنا إلى الجانب التطبيقي للاتجاه اللغوي في تفسير ابن عجيبة وجدنا احتفاء بالغا بغريب القرآن، حيث أن المؤلف قد اهتم غاية الإهتمام بالألفاظ الغريبة الواردة في القرآن الكريم والتي تحتاج إلى بيان وتفسير. وقد اعتمد في هذا الصدد على مجموعة من كتب الأوائل مثل كتاب «غريب القرآن» لابن عزيز السجستاني (ت 330) وكتاب مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصبهاني (ت 502) بالإضافة إلى استئناسه بكتب معاني القرآن ككتابي الفراء والزجاج وغيرها.

وقد تحدث ابن عجيبة عن علم غريب اللغة في سياق عرضه لمختلف العلوم فقال : «وإن كان نظرا في تفسير خصوص المشكل من الألفاظ اللغوية فهو علم غريب اللغة، وقد صنف فيه كثير من الأئمة ومثل ذلك يكون في ألفاظ القرآن وألفاظ الحديث فيقال له غريب القرآن وغريب الحديث، وصنفوا فيه أيضا».[2]

ويتجلى منهج ابن عجيبة في عنايته بغريب القرآن في عدم الإقتصار على معرفة المدلول اللغوي فحسب كما كان صنيع ابن جزي في تسهيله، بل كان يستند في ذلك إلى بيان المدلول وشرح الغريب مرتكزا على النقل

---

1) الإتقان : 3/2.

2) تفسير الفاتحة الكبير ص 21.

حيث يعرض للنظائر القرآنية التي وظفت فيها مشتقات المادة اللغوية، وذلك من أجل استقصاء واستجلاء مختلف صورها ومدلولاتها واستعمالاتها اللغوية المتعددة، وقد يجنح أحيانا إلى تقوية وجه تفسيري وترجيحه.

من ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى : ﴿**ملك يوم الدين**﴾[1] حيث قال : «ويوم الدين هو يوم الحساب والجزاء يوم يجازي الله فيه العباد بأعمالهم، يقال دانه حاسبه وجازاه، وفي الحديث «كما تدين تدان»[2] أي كما تجازي تجازى، ومنه قوله تعالى : ﴿**أئنا لمدينون**﴾[3] أي لمحاسبون، وقال لبيد :

حصادك يوما ما زرعت وإنما يدان الفتى يوما بما هو دائن

أو تقول هو يوم القهر والغلبة : تقول دنته أي قهرته فخضع وذل ».[4]

فمن خلال هذا المثال يتبين لنا مدى استعانة ابن عجيبة في توجيه لفظة «الدين» بمعنى الجزاء والحساب بنظائر من القرآن والحديث وشعر العرب.

وقد يستعين أحيانا بقراءات الصحابة لترجيح وجه لغوي على آخر، من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿**أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا**﴾[5]، حيث قال : «أفلم ييأس أي يعلم الذين آمنوا من إيمانهم مع ما رأوه من أحوالهم وفرط عنادهم علما منهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا. أو أفلم ييأس أي يعلم الذين آمنوا أن الهداية بيد الله ومشيئته لهدى الناس جميعا وكون ييأس بمعنى علم لغة هوازن، فقد

---

1) الفاتحة 4.

2) أورده البخاري في صحيحه 4/6 لدى ترجمته لتفسير سورة الفاتحة.

3) الصافات 53.

4) تفسير الفاتحة الكبير ص 164.

5) الرعد : 31.

علموا بما أعلمهم أن الله لا يهدي من يضل، وقد قرأ علي وابن عباس وجماعة أفلم يتبين الذين آمنوا وهو يقوي تفسير ييأس بيعلم».[1]

وقد ذهب جل أهل اللغة والمجاز والمعاني إلى تفسير اللفظة بيعلم وتبين كما ذهب إلى ذلك ابن عجيبة، فقد ذكر الفراء في معانيه قوله : «قال المفسرون، ييأس : يعلم، وهي في المعنى على تفسيرهم لأن الله قد أوقع إلى المومنين أنه لو يشاء الله لهدى الناس جميعا، فقال : أفلم ييأسوا علما... وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : ييأس في معنى يعلم لغة للنخع».[2]

أما أبو عبيدة فذكر في كتابه «مجاز القرآن» قوله : «مجازه (أي أفلم ييأس) : ألم يعلم ويتبين»[3] ومن ذلك أيضا ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿**وأصبح فؤاد أم موسى فارغا**﴾[4]، حيث قال ابن عجيبة : «أي صار فؤاد أم موسى فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى وهمه، أو فارغا خاليا من العقل لما دهمها من الجزع والحيرة حيث سمعت بوقوعه في يد فرعون ويؤيده قراءة ابن محيصن فزعا بالزاي بلا ألف. أو فارغا من الوحي الذي أوحى إليها أن تلقيه في اليم ناسية للعهد أن يرده إليها لما دهمها من الوجد».[5]

ومن منهج ابن عجيبة في تفسير الغريب وشرح المفردات اعتماده على أقوال أهل اللغة في مدلول اللفظ وإيراده أحيانا لأقوال المفسرين.

---

1) البحر المديد 108/2 وينظر : ترتيب تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب لأبي حيان الغرناطي ط 1989/1 بيروت ص 223.

2) الفراء : معاني القرآن 63/2-64.

3) أبو عبيدة معمرين المثنى : مجاز القرآن : 332/1.

4) القصص : 10.

5) البحر المديد. 113/3.

من ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**﴾[1]، «وما أرسلناك إلا رسالة عامة لهم محيطة بهم لأنها إذا عمتهم فقد كفهم أن يخرج منها أحد، وقال الزجاج : معنى الكافة في اللغة الإحاطة، والمعنى أرسلناك جامعا للناس في الإنذار والإبلاغ، على أنه حال من الكاف، والتاء للمبالغة كالراوية والعلامة».[2]

وقد يذكر أحيانا أقوال أهل اللغة ثم يردفها بأقوال المفسرين جامعا بينهما، من أمثلة ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**﴾[3]، حيث قال: قال الزجاج : معناه أن الله تعالى فطر الخلق على الإيمان به على ما جاء في الحديث أن الله عز وجل أخرج من صلب آدم ذريته كالذر وأشهدهم على أنفسهم بأنه خالقهم، فقالوا بلى، وكل مولود فهو من تلك الذرية التي شهدت بأن الله تعالى ربها وخالقها (هـ)[4]، ابن عطية : الذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة في نفس الطفل التي هي مهيأة لمعرفة الله والإيمان به الذي على الإعداد له فطر البشر، لكن تعرضهم العوارض على حسب ما جرى به القدر[5]، ولا يلزم من الإعداد وجعله على حالة قابلة للتوحيد ألا يساعده القدر كما في قوله تعالى : ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾، أي خلقهم معدين لذلك... وقال في المشارق،[6] أي يخلق سالما من الكفر متهيئا لقبول الصلاح والهدى ثم أبواه يحملانه بعد على ما سبق له في الكتاب هـ» ونربط هذا النص بما قبله للوقوف على

---

1) سبأ 28.

2) البحر المديد 172/3 وينظر كتاب معاني القرآن وإعرابه للزجاج 254/4.

3) الروم 30.

4) الزجاج : معاني القرآن وإعرابه : 185/4.

5) المحرر الوجيز : 2581/12.

6) لم أعثر عليه في مشارق الأنوار للقاضي عياض.

منهج ابن عجيبة في التفسير اللغوي حيث لا يكتفي بإيراد أقوال أهل اللغة والمفسرين، بل يمهد لذلك ببعض الأحاديث والآثار التي تعزز التفسير وتقويه، فقد فسر لفظة «حنيفا» بقوله : «مائلا عن كل ما سواه من الأديان» ثم قال : «وفي حديث قدسي : كل عبادي خلقت حنيفا فاحتالهم الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بي غيري»[1] (هـ). وفي الصحيح : «كل مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[2] (هـ).

لقد حاول ابن عجيبة أن يفسر ألفاظ القرآن الكريم وأن يوضحها بلغة العرب، فبين معنى الكلمات ومدلولاتها بما قاله أئمة اللغة، وساق في تفسيره مباحث لغوية كثيرة حاول بها أن يوضح اللفظ القرآني وأن يبين مدلوله.

ومن المباحث اللغوية المهمة التي اهتم بها مبحث الإشتقاق حيث يبحث عن أصل المادة فيقلب تصاريف اللفظة وصورها مستعرضا أقوال أئمة اللغة واتجاهاتهم المختلفة، وقد أكد ابن عجيبة على أهمية علم الاشتقاق في سياق حديثه عن أهم العلوم التي يحتاج إليها المفسر فذكر أن رابع هذه العلوم علم الاشتقاق «لأن الإسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما كالمسيح هل هو من السياحة أو من المسح».[3]

من ذلك ما ذكره عند تفسير البسملة من مبحث اشتقاق لفظة الإسم حيث قال : «... واشتقاقه من السمو وهو الرفعة لأن التسمية تنويه بالمسمى وإشادة بذكره، والإسم إن أريد به اللفظ فغير المسمى لأنه يتألف من أصوات

---

1) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه 2197/4 : بلفظ «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاحتالتهم عن دينهم» كما أخرجه الإمام أحمد في مسنده 163/4.

2) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه 207/6 (باب تفسير سورة الروم) كما أخرجه مسلم في صحيحه 2047/4 وأبو داود في سننه 229/4 وأحمد في مسنده 315/2.

3) تفسير الفاتحة الكبير ص 59.

منقطعة غير قادرة، ويختلف باختلاف الأمم والأعصار ويتعدد تارة ويتحد أخرى، والمسمى لا يكون كذلك، وإن أريد به ذات المسمى فهو المسمى لكن لم يشتهر بهذا المعنى، وقوله تعالى : ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾[1]، المراد به اللفظ لأنه كما يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته عن النقائص يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها عن الرفت وسوء الأدب، أو الإسم فيه مقحم كما في قول الشاعر : إلى الحول ثم إسم السلام عليكما، وإن أريد به الصفة كما هو رأي أبي الحسن الأشعري انقسم انقسام الصفة عنده إلى ما هو نفس المسمى وإلى ما هو غيره وإلى ما ليس هو ولا غيره.[2]

وقد رجح ابن عجيبة في هذا النص رأي البصريين في اشتقاق لفظ «الإسم» فذكر مذهبهم في ذلك معرضا عن ذكر مذهب الكوفيين القائل باشتقاق الإسم من السمة التي هي العلامة، وقد أكد على ترجيحه لمذهب البصريين في تفسيره للفاتحة من «البحر المديد» حيث قال : «وهو مشتق من السمو عند البصريين، فلامه محذوفة. وعند الكوفيين من السمة أي العلامة ففاؤه محذوفة. ودليل البصريين التصغير والتكسير فقالوا أسماء ولم يقولوا أوسام، وقالوا سمي ولم يقولوا وسمي».[3]

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿رب العالمين﴾[4] قال : الرب هنا صفة الله وأصله ربب على وزن فرح ثم أدغم يقال : ربه يربه فهو رب كنمه ينمه فهو نم، وقيل هو مصدر وصف به للمبالغة كصوم وعدل من التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا بجلب المنافع ودفع المضار سمي به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه ويطلق في لغة العرب على أربعة أمور: على المعبود : كقول الشاعر في صنم :

---

1) الأعلى : 1.

2) تفسير الفاتحة الكبير ص 85.

3) البحر المديد : 2/1.

4) الفاتحة : 2.

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بالت عليه الثعالب*

وعلى السيد المالك كقولهم : رب العبيد والمماليك

وعلى الرئيس القائم بالأمور كقول الشاعر :

واهلكن يوما رب كندة وابنه ورب معد بين خبت وعرعر

وعلى الملك أي السلطان كقول النابغة :

تخب إلى النعمان حتى تناله فدى لك من رب طريف وتالد**

ومنه قول صفوان لأبي سفيان : لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن. أي لأن يملكني ويتصرف في رجل من قريش يعني رسول الله ﷺ أحب إلي من أن يتصرف في رجل من هوازن، قاله يوم حنين. قال في الكشاف[1] : ولم يطلقوا الرب على غيره تعالى إلا على التقييد بالإضافة كقولهم رب الدار ورب الناقة. وقوله تعالى : ﴿ارجع إلى ربك﴾[2]، ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾.[3] هـ وقال الواسطي : الرب هو الخالق ابتداءا، والمربي غذاء والغافر انتهاء : يعني هذا هو الذي يستحق نعت الربوبية على الحقيقة وإطلاقها على غيره مجاز».[4]

فالمؤلف بعد أن ذكر مختلف معاني الرب واشتقاقاته رجح معنى الخالق والإله إذ الله سبحانه وتعالى هو المستحق للربوبيةعلى الحقيقة، وقد نقل في تفسيره «البحر المديد»عن ابن جزي قوله : «ومعانيه أربعة : الإلاه والسيد والمالك والمصلح، وكلها تصح في رب العالمين إلا أن الأرجح معنى الإله : لاختصاصه بالله تعالى».[5] وإذا كان ابن عجيبة أثناء بحثه

---

*) البيت لغاوي بن عبد العزى، والثعلبان بضم المثلثة واللام ذكر الثعالب.

**) من قصيدة يمدح بها النعمان بن وائل الكلبي.

1) الكشاف : 531.

2) يوسف 50.

3) يوسف 23.

4) تفسير الفاتحة الكبير ص 101.

5) البحر المديد 2/1 والتسهيل 33/1.

في اشتقاق اللفظة القرآنية يورد أكثر من أصل اشتقاقي مرجحا بينها، فإنه في بعض الأحيان يكتفي بذكر مختلف الإشتقاقات دون أدنى ترجيح أو اعتراض، مثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون**﴾[1]، حيث قال : هي الحيوان أي الحياة الحقيقية لأنها دائمة والحيوان مصدر وقياسه حييان، فقلبت الياء الثانية واوا ولم يقل لهي الحياة لما في بناء فعلان من الحركة والإضطراب. وفي المصباح : الحيوان مبالغة في الحياة كما قيل للموت الكثير موتان هـ».[2]

ومن أمثلة ذلك أيضا ما ذكره في تفسير قوله تعالى : ﴿**وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال**﴾[3]، حيث قال : «والمحال المكر والخديعة من محل بفلان إذا كاد له وعرضه للهلاك ومنه تمحل إذا تكلف استعمال الحيلة فالميم أصلية ووزنه فعال، وقيل مشتق من الحيلة فالميم زائدة ووزنه مفعل وأصله محيل»[4]، ومن ذلك أيضا ما ساقه عند تفسير لفظة «العالمين» حيث قال : «والعالمين جمع عالم وهو اسم لكل ما علم به الخالق من الأجسام والجواهر والأعراض. وكل موجود سوى الله تعالى سمي به لأنه فيه علامة تدل على صانعه، وهو افتقاره إلى مؤثر واجب لذاته فهو جمع لا اسم جمع خلافا لابن مالك، وإنما جمع مع كون مفرده عاما لاختلاف أنواعه وكثرة أصنافه. وإنما جمع بالياء والنون مع أن جمع السالم خاص باسم العقلاء أو صفتهم لما فيه من معنى الوصفية، وهي الدلالة على معنى العلم، لأن العالم مشتق من العلم وغلب العقلاء على غيرهم. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله رب العالمين قال : عالم الإنس وعالم الجن وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف

---

1) العنكبوت 64.

2) البحر المديد 132/3.

3) الرعد 13.

4) البحر المديد 104/2.

عالم... وقال الفراء وأبو عبيدة هم عبارة عما يعقل، وهم أربعة أمم : الملائكة والإنس والجن والشياطين. ولا يقال للبهائم عالم، وهو مشتق من العلم، وقال مجاهد وقتادة والحسن هو عبارة عن جميع المخلوقات : السماوات والأرض وما بينهما لقوله تعالى : ﴿**قال فرعون وما رب العالمين قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين**﴾[1]، واشتقاقه من العلامة لظهور الصنعة فيهم فهي علامة على صانعها، وقال ابن عباس : كل ذي روح دب على وجه الأرض فهو عالم، وقال سعيد بن المسيب : الله تعالى ألف عالم منها ستمائة في البحر وأربعمائة في البر... وقال أبو سعيد الخدري : إن الله تعالى ألف لأربعين ألف عالم : الدنيا من شرقها إلى غربها عالم واحد. وقال مقاتل بن سليمان : لو فسرت العالمين لاحتجت إلى ألف مجلد، كل مجلد ألف ورقة... قلت، فهذه العوالم على اختلاف أجناسها وكثرة أنواعها كلها داخلة تحت تربية الحق تعالى وإحاطته وقيوميته بل لا نسبة لها معه ولا وجود لها مع وجوده»[2] وهكذا نتبين من خلال عرض مختلف وجوه اشتقاق لفظ (عالم) مبنى مذاهب أهل اللغة والمفسرين في تفسير اللفظة القرآنية، حيث نجد الحسن وقتادة ومجاهد وسعيد بن المسيب يبنون تفسيرهم على أنه مشتق من العلامة لظهور الصنعة فيهم فهي علامة على صانعها، بالمقابل نجد الفراء وأبا عبيدة وغيرهما يذهبون إلى تفسير (العالمين) بالعقلاء فقط بناء على اشتقاق (العالم) من العلم، وبالتالي تغليب العقلاء على غيرهم.

وابن عجيبة لا يتعرض بالشرح والتفصيل لجميع الألفاظ القرآنية التي تحتاج إلى بحث في اشتقاقاتها وأصولها ومعانيها، وإذا ما تعرض لبعضها فإنه يكتفي – في معظم الأحيان – بذكر أصل اشتقاقي واحد

---

1) الشعراء : 23-24.

2) تفسير الفاتحة الكبير ص 101-103. وينظر تفسير ابن عطية 66/1 والبحر المحيط 19/1.

معرضا عن ذكر غيره من الوجوه مما أسهب في بيانها جل المفسرين. وقد يترك القارئ أحيانا متشوفا إلى مزيد من الشرح والتفصيل عندما يشير إلى رأيه في اشتقاق لفظة دون ذكر حججه أو أقوال علماء اللغة والتفسير في ذلك.

مثل ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى : ﴿**ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة**﴾[1]، حيث قال : «السلم بالفتح والكسر هو الإستسلام والإنقياد ويبعد هنا تفسيره بالصلح»[2]، فابن عجيبة في هذا النص يرد تفسير السلم بالصلح دون أن يبين البيان الشافي علة استبعاده لذلك الوجه الذي قرره كثير من علماء اللغة والتفسير.[3]

الإستشهاد بالشعر في تفسير ابن عجيبة :

تنبه المفسرون منذ عصر الصحابة رضوان الله عليهم إلى دور الشعر وأهميته البالغة في التفسير فاعتمدوه في مباحثهم اللغوية وجعلوه من جملة ما يخدم النص القرآني ويساعد على فهم غريبه وبيان معناه، وهم حينما أكدوا على ذلك لم يقصدوا إلى الإستشهاد به على حساب النقل والأثر وإنما جعلوه مكملا لذلك ومعينا على فهم اللفظ القرآني والإلمام بمختلف معانيه.

وقد عد الشعر العربي مصدرا موثوقا يعتمد عليه في معرفة غريب القرآن ومفرداته منذ عصر الصحابة رضوان الله عليهم. فهذا الإمام ابن عباس (ض) يقول : «الشعر ديوان العرب فإذا خفي عليهم الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغتهم رجعوا إلى ديوانهم»[4]، وأثر عن عمر ابن الخطاب

---

1) البقرة 206.

2) البحر المديد 46/1.

3) التحرير والتنوير 275/2 حيث قال وحقيقة السلم الصلح وترك الحرب.

4) البرهان للزركشي 294/1.

(ض) أنه قال : ياأيها الناس عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم».[1]

وتعتبر مسائل نافع بن الأزرق أكبر دليل على أهمية الاستشهاد بالشعر في التفسير، حيث استشهد ابن عباس (ض) في كل جواب من أجوبته على مسائل ابن الأزرق ببيت من أبيات الشعر العربي.[2]

وهكذا ارتبط النص القرآني بالنص الشعري على نحو يشكل تصورا عاما لدى المفسرين في إطار نظرتهم للعلاقة بين القرآن والشعر، وانطلاقا من هذا الفهم أصبح الشعر يشكل مادة الإحتجاج على ما جاء في القرآن من ألفاظ غريبة. ومن هنا ألح العلماء والمفسرون على وجوب التمكن من رواية الشعر والدراية باللغة لكل من يتصدى لتفسير النص القرآني. ونجد هذه الفكرة تتردد بشكل قوي في مقدمات كتب التفسير. وهو ما نص عليه ابن عجيبة أيضا.[3]

وإذا كان بعض المفسرين قد أسرفوا في الإستشهاد بأشعار العرب، وجاءت تفاسيرهم محشوة بالمئات من الأبيات الشعرية، فإن ابن عجيبة لم يتبع صنيعهم واكتفى بإيراد أبيات معدودة في مواضع قليلة من تفسيره.

وقد ساق المؤلف هذه الشواهد الشعرية في تفسيره إما لشرح لفظ غريب أو للاحتجاج لقاعدة نحوية أو الإستئناس به لتوكيد وجه للمعنى المراد، أو للاستدلال على توحيد رأي في الإعراب أو غير ذلك.

فمن أمثلة الإستشهاد الشعري لبيان اللغة وتفسير الغريب من مفردات القرآن الكريم ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**لتركبن طبقا عن طبق**﴾[4]

---

1) تفسير القرطبي 110/10 وتفسير ابن جزي 154/2.

2) تنظر هذه المسائل في الاتقان للسيوطي 88562 وفي خاتمة كتاب : الإعجاز البياني للقرآن الكريم للدكتورة عائشة عبد الرحمان.

3) تفسير الفاتحة الكبير ص 21.

4) الإنشقاق 19.

حيث قال : فالطبق في اللغة يطلق على الحال كما قال الشاعر :

الصبر أجمل والدنيا مفجعة من ذا الذي لم يزور عيشه

إذا صفا لك من سرور فالطيق أهدى لك الدهر من مكروهها طبقا

ويطلق على الجيل من الناس يكون طباق الأرض أي ملأها، ومنه قول العباس في النبي ﷺ :

تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق[1]

ومن ذلك أيضا ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿**فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المبين**﴾[2] حيث قال: «الزبر جمع زبور بمعنى مزبور أي مكتوب وزبرت أي كتبت، وكل كتاب فهو زبور، قال امرؤ القيس :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب[3] يماني[4]

ومن أمثلة ما ذكره ابن عجيبة من الإستشهاد الشعري لقواعد النحو ومسائله ما أورده عند تفسير قوله تعالى : ﴿**أم ماذا كنتم تعملون**﴾[5] حيث قال : «ماذا تأتي على أوجه :

أحدها : أن تكون ما استفهاما وذا إشارة نحو ماذا التواني.

الثاني : أن تكون ما استفهاما وذا موصولة كقول لبيد :

ألا تسئلان المرء ماذا تحاول ما نحيي فيقضى أم ضلال وباطل

الثالث : ماذا كله استفهام على التركيب كقولك لماذا حييت.

---

1) البحر المديد 194/4 وانظر تفسير ابن عطية 265/16 وتفسير القرطبي 280/19.

2) آل عمران 184.

3) العسب : سعف النخل الذي جرد عنه خوصه وهي الجريدة.

4) البحر المديد 97/1 تفسير القرطبي 296/4.

5) النمل 84.

الرابع : أن تكون ماذا اسم جنس بمعنى شيء أو بمعنى الذي كقوله: دعني ماذا علمت، وتكون ذا زائدة».[1]

ومما استشهد به ابن عجيبة من شواهد العرب لتوضيح أسلوب من أساليب العربية والتنظير للمعاني ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل...**﴾[2]، حيث قال في تأويلها يقول الحق جل جلاله : قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل من قبل من الكتب كلها وإن أكثركم فاسقون أي خارجون عن هذا الإيمان، وهذا أمر لا ينكر ولا يعاب، ونظير هذا في الإستثناء العجيب قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب[3]

وهذا النوع من التنظير الذي ذكره ابن عجيبة هو ما يسميه البلاغيون بتأكيد المدح بما يشبه الذم.[4]

وإذا كان ابن عجيبة إنما يورد الشواهد الشعرية في تفسيره للاحتجاج لقاعدة نحوية أو تفسير لفظة غريبة أو توضيح أسلوب من الأساليب العربية نادرة جدا، فإنه قد أورد بالمقابل كثيرا من الأشعار والأنظام لتوضيح بعض المعاني الصوفية وبيان بعض الفضائل والآداب الحسنة، وهي أشعار يكثر ورودها على لسان الزهاد والصوفية. وقد وظف المؤلف هذا النوع من الأشعار في تفسيره بكثرة بالغة ولأغراض متعددة.

---

1) البحر المديد 109/3.

2) المائدة 59.

3) البحر المديد 147/1 والبيت للنابغة الذبياني من قصيدته المشهورة التي أولها :

كليني لهم يا أيمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب.

4) ينظر التلخيص في علوم البلاغة للقزويني ص 389.

المبحث الثاني :

الإتجاه النحوي في تفسير ابن عجيبة

أقبل النحويون على كتاب الله عز وجل يستنبطون منه أحكام النحو ويبنون عليه مبادئه ويعربون آياته ويفسرون معانيه. فهذا سيبويه في «الكتاب» الذي يعتبر أقدم كتاب نحوي يتوفر لدينا قد تناول نص القرآن الكريم باعتباره الدليل الأول من أدلة النحو. ثم ظهر اتجاه النحويين إلى التأليف في إعراب القرآن ولغته وتحليل معانيه. وعرفت كتب «معاني القرآن» وكتب «إعراب القرآن» وغيرها. بيد أن مفسري القرآن الكريم من الفقهاء والمحدثين وقد وقفوا من هذا النوع من التفسير اللغوي موقف الشك فهم يرون أن الإعتماد على النص وحده وفق استعمالات العرب لا يصح في القرآن. فهذا الإمام ابن تيمية قد جعل إحدى جهتي أكثر الخطأ في التفسير بالإستدلال أو بالرأي جعل إحدى جهتي الإعتماد على اللغة وحدها فقال : «أحدهما قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها.

والثاني : قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده من كان من الناطقين بلغة العرب بكلامه من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن والمنزل عليه والمخاطب به».[1]

وقد عرض ابن عجيبة في مقدمات تفسيره الكبير للفاتحة لأهم العلوم وفروعها فذكر علم النحوبقوله : «وإن كان العلم نظرا فيما يعتور اللفظ من تصحيح وإعلال ونحو ذلك فهو علم التصريف[2]، وهو العلم الباحث عن

---

1) ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير، دار الصحافة للتراث طنطا –ط 1988/1 ص 86.

2) لم يتعرض المؤلف لمباحث علم التصريف في تفسيره إلا نادرا وهو يكتفي في بعض الحالات بالإشارة الخاطفة التي لا تسمح بتكوين منهج واضح ورأي مكتمل للمؤلف في مجال علم التصريف.

الكلمة المفردة من حيث ما يعرض لها من صحة وإعلال ونحو ذلك، وإن كان نظرا فيما يعتري اللفظ في آخره من حركات وسكنات وإعراب وبناء فهو علم الإعراب ويسمى مجموعها علم النحو».[1]

ويرى أيضا «أن النحو مركب من علم الإعراب وعلم التصريف فهما كالفن الواحد لا يتم إلا بهما ولذا يجمعان غالبا في الموضوعات».[2]

وقد أكد العلماء والمفسرون على أهمية علم النحو وعظم فائدته فأفرد له الزركشي في برهانه مبحثا خاصا، وجعل معرفة النحو أحد أنواع علوم التنزيل[3]، كما عقد السيوطي في إتقانه النوع الحادي والأربعين لمعرفة إعراب القرآن، وفيه نوه بأهمية النحو والإعراب ومعرفة المعنى.

أما ابن عجيبة فقد أكد على ضرورة اعتماد المفسر على علم النحو نظرا لتوقف إدراك معاني كلام الله تعالى على التمرس بأصوله فقال في معرض حديثه عن أهم العلوم التي يحتاج إليها المفسر : «...ثانيها النحو لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب فلابد من اعتباره، أخرج أبو عبيد عن الحسن أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته قال : حسن يا ابن أخي فتعلمها فإن الرجل يقرأ الآية فيعيا بوجهها فيهلك فيها : أي يتكلف تفسيرها فيفسرها على غير وجهها فيهلك».[4]

وقد تحدث ابن عجيبة عن علم النحو من حيث حده وموضوعه وواضعه وفضيلته وفائدته وغير ذلك. وتكلم عن حكمه فذهب إلى أنه فرض كفاية وأنه وسيلة لحفظ العلم ومفتاحه، إلا من تصدى لتفسير كلام الله أو كلام رسوله فيكون في حقه فرض عين لقوله عليه السلام : من كذب علي

---

1) تفسير الفاتحة الكبير ص 18.

2) نفسه ص 19.

3) البرهان 302/1.

4) تفسير الفاتحة الكبير ص 59. وانظر الإتقان 260/2.

متعمدا فليتبوأ مقعده من النار».[1] والجاهل ملحق بالعامة في كثير من الأحكام.[2]

وبهذا يكون ابن عجيبة قد شدد على ضرورة إحاطة المقبل على تفسير كتاب الله تعالى بمباحث النحو وأبوابه، ولذلك يرى أن فضيلة الإلمام بعلم النحو معرفة كلام الله وكلام رسوله وصونهما من اللحن والتحريف.

وقد برز الجانب النحوي جليا في تفسير ابن عجيبة. وهو وإن كان لا يطيل الكلام في عرض المباحث النحوية إلا أنه لا يكاد يغفل بحث أهم جوانب الدرس النحوي التي تتخلل تفسير الآيات القرآنية. ولا غرو في ذلك فالتكوين العلمي الذي تلقاه المؤلف على كبار علماء النحو في عصره يعتبر أكبر معين له على طرق مختلف أبواب ومباحث الدرس النحوي. ويعتبر شرحه على الأجرومية الذي مزج فيه بين الشرح الظاهر المألوف والشرح الإشاري على وجه طريف أكبر شاهد على قدرته الفائقة على تناول مسائل النحو بشكل يكشف عن دقائق المعاني، ويفتح الأنظار على وجوه التأويل.

وقد اهتم ابن عجيبة بالتوجيه النحوي الإعرابي في تفسيره اهتماما بالغا أبرز من خلاله دراية واسعة في هذا العلم، فنجده ينقل فيه عن أعلام النحاة كسيبويه والفراء والزجاج والكسائي وغيرهم ويبين مختلف المذاهب النحوية من بصرية وكوفية، كما ينقل عن بعض المفسرين المهتمين بهذا الجانب أمثال الزمخشري وابن عطية وأبي حيان وغيرهم، وهو في كل ذلك يقارن ويناقش ويرجح مستعرضا أثناء ذلك شتى الوجوه والأقوال والآراء.

---

1) الحديث متواتر رواه الشيخان وغيرهما. وانظر : نظم المتناثر من الحديث المتواتر لمحمد بن جعفر الكتاني، طبعة بيروت 1980 ص 20

2) استشهد ابن عجيبة في مقدمة شرحه على الآجرومية بكلام للإمام الرازي في المحصول. ذهب فيه إلى أن معرفة الأدلة متوقف على معرفة اللغة والنحو، وما يتوقف على الواجب المطلق فهو واجب واستشهد كذلك بكلام للعز بن عبد السلام في نفس الموضوع. (الفتوحات القدوسيةمخطوط خاص ص 4).

ويأتي بحث المسائل النحوية والإعرابية في مستهل تفسير المؤلف للآيات القرآنية على اعتبار أنه – أي الإعراب – هو الأول وذلك، فهو يقول في مقدمة تفسير الفاتحة الكبير : «غير أن الكثير يصدرون بالإعراب لأنه هو الأول وضعا كما تقدم عن واضعه سيدنا علي رضي الله عنه ثم وضع التصريف بعد ذلك، ومنهم من يبدأ بالتصريف لأن مبحثه المفرد وهو قبل المركب. وقد تذكر منه جملة في علم الإعراب كبناء صيغة المضارع والأمر وأبنية المصادر وأسماء الفاعلين والمفعولين والصفات المشبهات بها واسم التفضيل والزمان والمكان والآلة والتكسير والتصغير ونحو ذلك فإن هذا شعبة من علم التصريف...».[1]

وقد حاول ابن عجيبة أن يتعرض لكل مباحث النحو المتضمنة في التفسير – تقريبا – بدءا من باء البسملة التي بحثها وفق الصورة التالية :

«والباء متعلقة بمحذوف إما فعلا مناسبا لما جعلت البسملة مبدءا له أي باسم الله أقرأ أو أتلو، لأن الذي يتلو التسمية مقروء كما أن المسافر إذا حل وارتحل قال بسم الله أي بسم الله أحل وبسم الله أرتحل وهكذا يقدر كل فعل مناسب لمبدأ. وأما اسما مصدرا مبتدءا أي ابتداءي أو قراءتي أو سفري حاصل بسم الله والأول مذهب الكوفيين يعني تقديره فعلا، والثاني مذهب البصريين، والمتعلق في الحقيقة إنما هو الإستقرار المحذوف الذي هو خبر. فالمجرور في محل نصب على القولين، وإنما قدر المحذوف متأخرا لقصد الحصر والإختصاص والإهتمام لأن المشركين كانوا يبدأون بآلهتهم فيقولون : بسم اللات وباسم العزى، فوجب أن يقصد الموحد الرد عليهم باختصاص اسم الله تعالى بالإبتداء، ولأجل الإهتمام بذكر اسم الله أولا. وإنما قدم الفعل في اقرأ باسم ربك لأنها أول سورة نزلت في القرآن فكان الأمر بالقراءة أهم، وكان تقديم الفعل أوقع ويجوز أن يكون معنى اقرأ

---

1) تفسير الفاتحة الكبير ص 20.

الأول أوجد القراءة غير متعد إلى مقروء كقولهم فلان يعطي ويمنع، ويكون باسم ربك معمولا لا قرأ الثاني.

والباء للإستعانة أي مستعينا باسم الله وهو باء الآلة كقولك كتبت بالقلم، على أن المومن لما اعتقد أن فعله لا يجيء معتدا به في الشرع واقعا على السنة حتى يصدر بذكر اسم الله لقوله عليه السلام «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر...»[1] أو للملابسة أي ملتبسا باسم الله اقرأ كقوله تعالى : ﴿تنبت بالدهن﴾[2]...»[3].

من خلال هذا النص يتبين لنا مدى التعمق النحوي الذي أثرى به ابن عجيبة مبحث الباء من البسملة حيث افتتح حديثه بذكر تعلق الباء بمحذوف مستعرضا مذهبي الكوفيين والبصريين دون ترجيح بينهما مؤكدا على أن تقدير المحذوف متأخرا إنما كان لقصد الحصر والإختصاص[4]، ثم تعرض لمعاني الباء الجارة فذكر منها أنها للإستعانة وللملابسة. وقد أغفل ذكر المعاني الأخرى مثل كونها للإلصاق.

وابن عجيبة يعنى في تفسيره بذكر أقوال النحويين في التوجيه الإعرابي وبيان مختلف المذاهب في ذلك على أساس أن كل ذلك يخدم المعنى القرآني ويوسع دائرة الفهم للآية القرآنية.

من أمثلة ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى : ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده...﴾[5]، حيث قال : «ولو أنما في الأرض : مذهب الكوفيين وجماعة أن ما بعد (لو) فاعل بفعل محذوف أي ولو ثبت كون ما في الأرض... إلخ، ومذهب سيبويه أنه مبتدأ أي ولو كان ما في الأرض واقع،

---

1) وفي رواية فهو أقطع، وفي أخرى فهو أجذم والحديث حسن كما في كشف الخفا للعجلوني 119/2.

2) المومنون 20.

3) تفسير الفاتحة الكبير ص 83-84.

4) لقد تأثر ابن عجيبة بالزمخشري في هذا المبحث، ونقل عنه مجمل كلامه في الباء من البسملة أما قوله بالإختصاص فقد رده أبو حيان في تفسيره. (أنظر : الكشاف 29/1 والبحر المحيط 16/1).

5) لقمان 27.

والبحر مبتدأ، ويمده خبره أي يمد ما ذكر من الأقلام ومن بعده سبعة أبحر مبتدأ وخبر وحذف التمييز أي مداد أبدل عليه يمده، أو سبعة فاعل يمده أي يصب فيه سبعة أبحر، والجملة أي ولو أن الأشجار أقلام في حال كون البحر ممدودا ما نفذت...إلخ. وجملة يمده خبر البحر، ومن قرأ بالنصب فعطف على اسم إن وهو ما».[1]

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**ولات حين مناص**﴾[2]، تناول بالبحث لفظة «ولات» فقال : «ولات هي لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب وثم للتوكيد. وتغير بذلك حكمها حيث لم تدخل إلا على الأحيان ولم يبرز إلا أحد معموليها، إما الإسم أو الخبر، وامتنع بروزهما بنفي الأحيان، وهذا مذهب الخليل وسيبويه، وعند الأخفش أنها النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفي الأحيان.[3] وقال أبو محمد مكي[4]: الوقف عليها عند سيبويه والفراء وأبي إسحاق وابن كيسان بالتاء وعليه جماعة القراء وبه أتى خط المصحف. وعند الكسائي والمبرد بالهاء بمنزلة الرب».[5]

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه**﴾.[6] قال : «قلت : من استفهامية إنكارية فيها معنى النفي مبتدأ ويرغب وما بعده خبر والإبطال لنفيها التي تضمنته، ومن سفه بدل من ضمير يرغب على المختار، ونفسه مفعول بسفه لتضمنه معنى جهل أو هلك، قاله الزجاج، أو على التمييز قاله الفراء، لأن الضمير فيه معنى الشيوع

---

1) البحر المديد 146/3. وانظر : الكشاف 236/3 وتفسير ابن عطية 24/13 والبحر المحيط 191/7.

2) سورة ص : 3.

3) هذا الكلام نقله ابن عجيبة عن الزمخشري في كشافه 359/3.

4) مكي بن أبي طالب : الكشف 2302 وانظر معاني القرآن للفراء 32/2 وتفسير القرطبي 121/9.

5) البحر المديد 203/3 والبحر المحيط 384/7.

6) البقرة 130.

الذي في «من» فلم يكسبها التعريف، أو على إسقاط الجار وإيصال الفعل إليه كقولهم ضرب فلان الظهر والبطن».[1]

فابن عجيبة هنا قد احتج بمذهبي الفراء والزجاج في نصب (نفسه). فالفراء يرى أن التقدير : سفهت نفسه فأضيف الفعل إلى صاحب النفس فخرجت النفس مفسرة.[2] وهذا مذهب الكوفيين، لكن الزجاج اعترض على هذا بأن قال : معنى التمييز لا يحتمل التعريف لأن التمييز إنما هو واحد يدل على جنس أو خلة تخلص من خلال، فإذا عرفته صار مقصودا قصده وهذا لم يقله أحد من المتقدمين من النحويين.[3]

وإذا كان ابن عجيبة من خلال هذه الأمثلة لم يرجح بين مختلف المذاهب والآراء النحوية فإنه من خلال نماذج أخرى قد بين لنا انتصاره لمذهب دون آخر، وترجيحه لرأي نحوي على آخر.

ترجيحه لبعض آراء البصريين :

إن الناظر المتعمق في منهج ابن عجيبة النحوي يرى أنه يقوم على الجمع بين آراء البصريين والكوفيين في التطبيق، غير أن تفكيره النحوي يميل إلى أصول المذهب البصري، كما يكثر النقل عن سيبويه ويقوم بتقرير أقواله مضعفا بالمقابل لآراء الكوفيين في أغلب المسائل، وفيما يلي أمثلة لذلك :

1 – في قوله تعالى : ﴿**ياأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المومنين**﴾[4]، قال : ومن اتبعك، إما عطف على الله أي كفاك الله والمومنون

---

1) البحر المديد 30/1.

2) الفراء : معاني القرآن 79/1.

3) معاني القرآن للزجاج 156/1.

4) الأنفال 64.

أو في محل نصب على المفعول معه، أو في محل جر عطف على الضمير على مذهب الكوفيين، أي حسبك وحسب من اتبعك من المومنين والأول أصح».[1]

وفي قوله تعالى : ﴿**الحج أشهر معلومات**﴾[2] قال : «قلت : الحج مبتدأ على حذف مضاف أي إحرام الحج أو فعل الحج، وأشهر خبر، وإذا وقع الزمان خبرا عن اسم المعنى، فإن كان ذلك المعنى واقعا في كل ذلك الزمان أو جله تعين رفعه عند الكوفيين وترجح عند البصريين إن كان الزمان نكرة نحو السفر يوم أن كان السفر واقعا في جميع ذلك اليوم أو في جله، لأنه لاستغراقه إياه صار كأنه هو، ويصح السفر يوما أو في يوم وإن كان ذلك المعنى واقعا في بعض ذلك اليوم تعين نصبه أو جره بفي، نحو السفر يوم الجمعة أو في يوم الجمعة، وقد يرفع نادرا. قال في التسهيل : ويعني ظرف الزمان عن خبر اسم معنى مطلقا فإن وقع في جميعه أو أكثره نكرة رفع غالبا ولا يمتنع نصبه ولا جره بفي خلافا للكوفيين وربما وقع خبر الزمان الموقع في بعضه».[3]

هذان إذن نموذجان لانتصار ابن عجيبة لآراء الأئمة البصريين. ولذلك نظائر كثيرة في تفسيره أحبس القلم عن ذكرها خوف الإسهاب الممل، إلا أن ابن عجيبة لم يكن متعصبا للمذهب البصري في الدرس النحوي، بل إنه يضطر أحيانا إلى ترجيح مذهب الكوفيين إذا كان أوفق وأحسن في نظره، من ذلك مثلا ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**فآمنوا خيرا لكم**﴾[4]، حيث قال : «قال سيبويه هو منصوب بفعل مضمر تقديره : أتوا خيرا لكم، وقال الخليل منصوب بآمنوا وبانتهوا[5] على المعنى أي

---

1) البحر المديد 35/2. وانظر : المحرر الوجيز 107/8 والبحر المحيط 515/4-516.

2) البقرة 197.

3) البحر المديد 44/1 وانظر المحرر الوجيز 120/2 والبحر المحيط 84/2-85.

4) النساء 170.

5) الواردة في قوله تعالى : ﴿**انتهوا خيرا لكم**﴾ النساء 171.

اقصدوا، وقال الفراء : [1] صفة لمصدر أي آمنوا إيمانا خيرا لكم، وقال بعض الكوفيين هو خبر كان المحذوفة تقديره : يكون الإيمان خيرا لكم، قلت : وهو أظهر من جهة المعنى، وإن منعه البصريون : قالوا لان (كان) لا تحذف مع اسمها إلا في مواضع مخصوصة. قال ابن مالك :

ويحذفونها ويبقون الخبر وبعد إن ولو كثير ذا اشتهر

ولعل هذا الموضع أتى على غير المشهور تنبيها على الجواز». [2]

وقد أكثر ابن عجيبة من ترجيح أقوال سيبويه والإنتصار لها والنقل عنه في مواضع كثيرة، من ذلك مثلا :

1 – في قوله تعالى : ﴿**مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها**﴾[3]، قال :«مثل الجنة مبتدأ. قال سيبويه : الخبر محذوف أي فيما يتلى عليكم من صفة الجنة، وقال الفراء : الخبر هو تجري، وعلى قول سيبويه يكون تجري حالا من العائد المحذوف أي : التي وعدها المتقون حال كونها تجري...». [4]

2 – في قوله تعالى : ﴿**مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف...**﴾ الآية[5] قال : «مثل : مبتدأ والخبر محذوف عند سيبويه، أي فيما يتلى عليكم مثلهم، وقال الفراء : الخبر ما بعده، وهو

---

1) ذكر الفراء في معاني القرآن 295/1 أن «خيرا» منصوب باتصاله بالأمر لأنه من صفة الأمر كأنه يريد أنه نائب عن المصدر فنصب نصب المصدر.

2) البحر المديد 133/1 والمحرر الوجيز 315/4 وراجع : أوضح المسالك 183/1. وقد لخص أبو حيان مختلف المذاهب النحوية في هذه المسألة فقال : «فيها ثلاثة أوجه : مذهب الخليل وسيبويه، (وأتوا خيرا لكم) وهو فعل يجب إضماره، ومذهب الكسائي وأبي عبيدة يكن خيرا لكم ويضمر إن يكن، ومذهب الفراء إيمانا خيرا لكم، وانتهاء خيرا لكم، يجعل خبرا نعتا لمصدر محذوف» (البحر المحيط 400/3).

3) الرعد 35.

4) البحر المديد 109/2 وانظر معاني القرآن للفراء 65/2 والمحرر الوجيز 76/10 والبحر المحيط 395/5.

5) إبراهيم 18.

جملة: أعمالهم كرماد، أو أعمالهم بدل، والخبر كرماد، وعلى قول سيبويه تكون جملة أعمالهم مستأنفة لبيان مثلهم...».[1]

3 – في قوله تعالى : ﴿**وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله**﴾[2]، قال : «أي أي شيء جعلك داريا ما هو يوم الدين على أن ما الإستفهامية خبر يوم، كما هو رأي سيبويه لما مر من أن مدار الإفادة هو الخبر لا المبتدأ، ولا ريب أن مناط إفادة التهويل والفخامة هنا هو ما يوم الدين، أي شيء عجيب هو في الهول والفظاعة».[3]

وقد ينحاز المؤلف لرأي مخالف لمذهب سيبويه فيرجحه وينتصر له كما في المثال التالي : عند تفسير قوله تعالى : ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم**﴾[4]، قال : «السارق مبتدأ والخبر محذوف عند سيبويه،[5] وهو الجار والمجرور أي مما يتلى عليكم حكم السارق والسارقة. وقال المبرد[6]، هو جملة : فاقطعوا، ودخلت الفاء لإنه بمعنى الشرط لأن الموصول وهو «أل» فيه معنى الشرط ومثله «والزانية والزاني فاجلدوا» قلت : وهو أظهر».[7]

وابن عجيبة لا يكتفي بالنقل عن النحاة فقط فهو ينقل أيضا عن المفسرين في مجال الإعراب لكن الذي يستلفت الإنتباه ويسترعي النظر

---

1) البحر المديد 114/2 وانظر معاني القرآن للفراء 72/2 والبحر المحيط 414/5. أما ابن عطية فقد رجح غير هذه الأقوال، واعترضه بعض العلماء كما في البحر المحيط.(المحرر الوجيز 74/10).

2) الإنفطار 19.

3) البحر المديد 189/4 وانظر أمثلة أخرى في 29/4-123/3-5/2-27/1.

4) المائدة 38.

5) في الكتاب لسيبويه، تح عبد السلام هارون، مطبعة الحلبي بمصر 1972(143/1) كأنه قال : وفيما فرض الله عليكم السارق والسارقة.

6) المقتضب للمبرد، تح محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت 196/3.

7) البحر المديد 143/1 وانظر التسهيل لابن جزي 176/1.

كون المؤلف لا يسلك أبدا سبيل النقل المجرد عن النظرة الذاتية وإثبات شخصيته العلمية فيما يقول : بل إنه يثبت لنفسه مواقف ذات بال تخطى بها حواجز التقليد وانتصب برأيه مع : كبار المفسرين والنحاة. فنراه في كثير من المسائل والقضايا النحوية يوجه أقوال المفسرين وينقد آراءهم. وهو إلى جانب ترجيحه بين مختلف الأقوال الواردة عنهم ينبري أحيانا للرد على بعضهم بتضعيف آرائهم وانتصاره لما يظهر له أنه أرجح وأوفق بالصواب. وفيما يلي نماذج تبين ذلك :

1 – في قوله تعالى : ﴿**فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا...ومن قبل ما فرطتم في يوسف**﴾[1]، قال : ومن قبل ما : يحتمل أن تكون (ما) مزيدة مصدرية مرفوعة بالابتداء أي تفريطكم في يوسف واقع من قبل هذا، قاله ابن جزي، وفيه نظر، فإن الظرف المقطوع لا يقع خبرا أو منصوبا بالعطف على منصوب. تعلموا، أي لم تعلموا أخذ ميثاق أبيكم وتفريطكم في يوسف قبل هذا».[2]

2 – في قوله تعالى : ﴿**وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن...**﴾[3] قال : «الضمير في (منه) يعود على القرآن وإن لم يتقدم له ذكر لدلالة ما بعده عليه كأنه قال : «وما تتلو شيئا من القرآن، وقيل يعود على الشأن، والأول أرجح لأن الإضمار قبل الذكر تفخيم للشيء قاله ابن جزي : قلت : والأحسن أن يعود على الله تعالى لتقدم ذكره قبل».[4]

وإذا كان المؤلف يعقب كثيرا على آراء ابن جزي في مجالات الإعراب فإنه في بعض الأحيان يسدد رأيه ويوافق عليه مخالفا بذلك أقوال غيره من

---

1) يوسف 80.

2) البحر المديد 98/2. أما ابن جزي فقد ذكر في ذلك ثلاثة وجوه إلا أنه رجح القول الذي حكاه عنه ابن عجيبة. أنظر التسهيل 125/2.

3) يونس 61.

4 – البحر المديد 66/2 والتسهيل 95/2.

المفسرين، من ذلك مثلا : ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها...**﴾[1]، حيث قال : «ابن جزي : والظاهر أن الباء ليست سببية كما قال الزمخشري[2]، وهو أيضا مقتضى تفسير ابن عطية. وإنما يقدر لها فعل تتعلق به ويقتضيه المعنى، وذلك أن يكون التقدير : ذلك الذي تقدم من خلقة الإنسان والنبات شاهد بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى. ولأن الساعة آتية، فيصح عطف «وإن الساعة» على ما قبله بهذا التقدير، وتكون هذه الأشياء المذكورة بعد قوله ذلك مما استدل عليها بخلقة الإنسان والنبات[3] قال المحشي الفاسي[4] : ويرد عليه أن تقديره عاملا خاصا يمنع حذفه، وإنما يحذف إذا كان كونا مطلقا، فلا يقال زيد في الدار وتريد ضاحك مثلا إلا أن يقال في الآية دل عليه السياق فكأنه مذكور، وعند الكواشي[5] : ليعلموا بأن الله هو الحق» إن انتصار ابن عجيبة لما ذهب إليه ابن جزي في رده على ابن عطية والزمخشري يبدو جليا من خلال هذا النص. فهو إلى جانب نقله لما ذهب إليه بأمانة ودقة عزز ذلك بالنقل عن المحشي الفاسي الذي ذهب نفس المذهب بالإضافة إلى تقرير ما ساقه الكواشي في تفسيره من تقدير لفظة «لتعلموا». وهو التقدير الذي يمنع حصول معنى السببية في الباء. يتضح من هذا المثال ونظائره أن ابن عجيبة لا يكتفي بنقل الآراء

---

1) الحج : 76.

2) الكشاف 63 وقد ضعف ابن عجيبة كثيرا من آراء الزمخشري في مجال الإعراب. ينظر على سبيل المثال البحر المديد : 103/1-200/3

3) البحر المديد 38/3 وانظر : التسهيل 36/3 حيث ضعف ابن جزي الوجهين اللذين ذكرهما ابن عطية في تفسيره 180/11 قائلا : أما قوله أن الأمر مرتبط بعضه ببعض، فالإرتباط هنا إنما يكون بالعطف، والعطف لا يصح، وأما قوله على تقدير الأمر أن الساعة، فذلك استئناف وقطع للكلام، ولا شك أن المقصود من الكلام الأول هو إثبات الساعة، فكيف يجعل ذكرها مقطوعا مما قبله.

4) حاشية الفاسي على الجلالين. مخطوط سابق الذكر : 142/1.

5) لم أعثر عليه في تفسير الكواشي الذي يوجد منه جزء بالخزانة الحسنية بالرباط رقم 6954.

لمجرد العرض، بل يعقب برأيه المستند إلى حجته في الترجيح ويعزز ذلك بأقوال المفسرين المنتصرين لنفس الرأي.

وهكذا يسهم ابن عجيبة بمعرفته الواسعة وإحاطته بشتى آراء النحاة واتجاهاتهم، وبتعمقه في مسائل النحو ومباحثه الدقيقة في توجيه مختلف الآراء التفسيرية حسب الحالة الإعرابية التي تدل على اتجاه المعنى، إذ أن بلوغ المراد من الآية القرآنية يتوقف بدون شك على تفهم إعرابها، وهو ما أكده ابن عجيبة عندما قرر بأن «المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب فلابد من اعتباره».[1]

ومن أجل إبراز مدى حرص المؤلف على إيراد مختلف وجوه الإعراب وإن بشكل مقتضب ومختصر أورد فيما يلي بعض النماذج من بحثه لمسألة الإستثناء من حيث الإتصال والإنقطاع وما ينبني على ذلك من اتجاهات مختلفة للمعنى.

أ) في قوله تعالى : ﴿**لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس**﴾[2]، قال : «إن كان المراد بالنجوى الكلام الخفي فالإستثناء منقطع، وقد يكون متصلا على حذف مضاف، أي إلا نجوى من أمر... وإن كان المراد بالنجوى الجماعة المتناجين فالإستثناء متصل».[3]

ب) في قوله تعالى : ﴿**قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم**﴾[4] قال : «لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم أي إلا الراحم وهو الله فلا عاصم إلا أرحم الراحمين أولا ذو عصمة إلا من رحمه الله فالإستثناء

---

1) تفسير الفاتحة ص 59.

2) النساء 114.

3) البحر المديد 124/1 وانظر الكشاف 563/1.

4) هود 43.

متصل أولا عاصم من أمر الله لكن من رحمه الله فهو المعصوم أولا ذو عصمة لكن الراحم يعصم من يشاء، والإستثناء منقطع».[1]

ج) في قوله تعالى : ﴿**ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق**﴾[2]، قال : «فالقوم الذين بينهم وبين المسلمين ميثاق هم خزاعة، والذين وصلوا إليهم بنو مدلج. فالإستثناء على هذا منقطع لأن بني مدلج كانت مظهرة للكفر لا منافقة، ويحتمل أن يكون متصلا أي إلا الذين يصلون منهم...إلخ فتأمل».[3] وإذا كان ابن عجيبة في كثير من مباحث الإستثناء في تفسيره يورد أبرز الوجوه والتأويلات دون ترجيح بعضها على بعض فإنه في بعض الأحيان يوجه تلك الآراء ويرجح ما يراه أنسب بالمعنى الراجح من التفسير، وفيما يلي نماذج من ذلك :

أ) في قوله تعالى : ﴿**إلا ما ذكيتم**﴾[4]، قال : «إلا ما ذكيتم أي إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة، من ذلك قاله البيضاوي، ابن جزي : وقيل إنه استثناء منقطع وذلك إذا أريد بالمنخنقة وأخواتها ما مات من ذلك بالخنق وما بعده، أي حرمت عليكم هذه الأشياء لكن ما ذكيتم من غيرها فهو حلال، وهذا ضعيف، وقيل إنه استثناء متصل وذلك إذا أريد بالمنخنقة وأخواتها ما أصابته تلك الأسباب وأدركت حياته، والمعنى إلا ما أدركتم حياته من هذه الأشياء فهو حلال».[5]

ب) في قوله تعالى : ﴿**ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا**﴾[6]، قال : «الإستثناء في قوله : إلا أن يشاء منقطع. قاله ابن جزي[7]

---

1) البحر المديد 77/2 وانظر الكشاف 270/2.

2) النساء 89-90.

3) البحر المديد 1201 وانظر الكشاف 551/2.

4) المائدة 38.

5) البحر المديد 135/1 والكشاف 592/1.

6) الأنعام 80.

7) التسهيل لابن جزي 14/2.

وظاهر كلام البيضاوي أنه متصل. وهو المتبادر أي : ولا أخاف ما تشركون في حال من الأحوال إلا أن يشاء ربي أن يصيبني مكروه من جهتها استدراجا لكم وفتنة لكم، وقال الواحدي : لا أخاف إلا مشيئة ربي أن يعذبني».[1]

وإذا كان الإعراب يمثل أساسا مهما من أسس العملية التفسيرية عند ابن عجيبة خاصة وأنه أول ما يفتتح به تفسيره للآيات القرآنية[2]، فإنه قد اهتم في مباحثه الإعرابية بإعراب المفردات كما اهتم بإعراب الجمل. بيد أنه يكتفي في بعض الأحيان بتناول المشكل من إعراب الآيات القرآنية، ونقصد بالمشكل[3] الصعب غير الظاهر. وابن عجيبة وهو يستهل تفسيره للآيات بإعراب القرآن يجعله مستقلا عن بحث المعاني عكس ما ذهب إليه معظم المفسرين من الجمع بين التفسير والإعراب.[4] ولا شك أن استقلال الإعراب عن التفسير يعتبر أفيد وأليق وأسهل على القارئ.

فمن نماذج ما أورده من إعراب المفردات وبيان موقعها النحوي في الجمل القرآنية ما يلي :

في قوله تعالى : ﴿**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾[5]، أورد المؤلف مبحثا حول كلمة «غير» فقال : «غير المغضوب عليهم بدل من الذين على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال أو صفة له مبينة أو مقيدة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة وهي نعمة

---

1) البحر المديد 167/1 ويقول البيضاوي في تفسيره 195/2 : «إلا أن يشاء ربي شيئا أن يصيبني بمكروه من جهتها ولعله جواب تخويفهم إياه من آلهتهم وتهديد لهم بعذاب الله».

2) نص ابن عجيبة كما ذكرنا آنفا على أن كثيرا من المفسرين يستهلون تفسيراتهم للآي بالجانب الإعرابي معتبرا ذلك أفيد وأليق.

3) هو ما ذهب إليه مكي بن أبي طالب في مقدمة كتابه «مشكل إعراب القرآن» 21.

4) هو ما يصدق أيضا على كتب إعراب القرآن التي عنيت إلى حد ما بالمعاني إلى جانب الإعراب وكذا كتب معاني القرآن التي تدرس النص من جميع جوانبه التي منها الجانب الإعرابي.

5) الفاتحة 7.

الإيمان وبين السلامة من الغضب والضلال، وذلك إنما يصح بأحد تأويلين: إجراء الموصول مجرى النكرة إذا لم يقصد به معهود أو يجعل غير معرفة لأنه أضيف إلى ما له ضد واحد وهو المنعم عليه فيتعين تعيين الحركة غير السكون وإلا لزم عليه نعت المعرفة بالنكرة فتأمله».[1]

وفي تفسيره لنفس الآية من «تفسير الفاتحة الكبير» أورد ابن عجيبة قوله : «قرأ الجماعة بكسر الراء وروى الخليل عن ابن كثير نصب الراء[2] فوجه الكسر كونه بدلا من الذين على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال أو نعت له، فإن قلت : «غير» نكرةو«الذين» معرفة، ولا ينعت المعرفة بالنكرة، فالجواب أن المعرفة هنا لما كانت عامة غير معينة أشبهت النكرة. فهي كقولك : مررت بالصادق غير الكذوب فكأنك قلت مررت بمن صدق لا بمن كذب وكقول الشاعر :

ولقد أمر على اللئيم يسبني فاعف ثم أقول لا يعنيني

فجملة يسبني نعت للئيم لأنه في قوة النكرة لعمومه ووجه النصب أنه حال من الضمير المجرور والعامل نعت فكأنه قال : صراط من أنعمت عليهم في حال سلامتهم من الغضب أو على الاستثناء، أي لا المغضوب عليهم أو بإضمار أعني، وإنما تنكرت «غير» مع إضافتها للمعرفة لشدة إبهامها، فإذا قلت رأيت غيرك فكل شيء سوى المخاطب فهو غيره».[3]

في قوله تعالى : ﴿**وقلن حاش لله ما هذا بشرا**﴾[4]، قال : «وحاش لله قال أبو علي الفارسي هو هنا فعل والدليل على ذلك من وجهين :أحدهما أنها دخلت على لام الجر ولا يدخل حرف على حرف والآخر أنها حذف منها

---

1) البحر المديد 4/1 والمحرر الوجيز 85/1 والبحر المحيط 28/1.

2) المحرر الوجيز 85/1 وقد أورد ابن عطية توجيه أبي علي الفارسي لذلك فقال : «والنصب في الراء على ضربين: على الحال كأنك قلت أنعمت عليهم لا مغضوبا عليهم، أو على الاستثناء كأنك قلت إلا المغضوب عليهم. ويجوز النصب على أعني» وحكي نحو هذا عن الخليل.

3) تفسير الفاتحة الكبير ص 318.

4) يوسف 31.

الألف على قراءة الجماعة، والحروف لا يحذف منها شيء. وقرأها أبو عمرو بالألف على الأصل والفاعل بحاش ضمير يوسف أي بعد يوسف على الفاحشة لخوف الله. وقال الزمخشري[1] : حاش وضع موضع المصدر وكأنه قال تنزيها لله، وحذف منه التنوين مراعاة لأصله من الحرفية. البيضاوي : وهو حرف يفيد معنى التنزيه في باب الإستثناء فوضع موضع التنزيه واللام للبيان كما في قولك : سقيا لك، وتكون نون التوكيد الخفيفة كتبت بالألف لتشبيهها بالتنوين».[2]

وتعرض ابن عجيبة لإعراب الجمل في تفيسره مازجا بين علم النحو وعلم المعاني وخاصة ما تعلق بالوصل والفصل، إذ من المعلوم أن الوصل هو عطف لبعض الجمل، والفصل ترك ذلك العطف.[3]

ومن أمثلة ما أورده من إعراب الجمل ما جاء في سورة الأعراف وهو يعرض لتفسير قوله تعالى : ﴿**وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ياخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وان ياتهم عرض مثله ياخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين**﴾[4]، فقد تتبع الترتيب الحاصل بين جملها واحدة واحدة مبينا محل كل واحدة من الإعراب بوجه مقتضب ومختصر وقال : «أمما مفعول ثان لقطعنا أو حال، وجملة منهم الصالحون صفة، وجملة ياخذون حال من فاعل ورثوا، ويقولون عطف على ياخذون أو حال، والحال من سيغفر

---

1) الكشاف 317/2.

2) البحر المديد 92/2 وتفسير البيضاوي 132/3 وتفسير ابن جزي 118/2.

3) السعد التفتازاني : الشرح المطول على التلخيص ص 247.

4) الأعراف : 168-170.

مسند إلى الجار والمجرور أو إلى مصدر ياخذون. و«ألا يقولوا» عطف بيان من ميثاق الكتاب أو تفسير له أو متعلق به أي لأن لا يقولوا. ودرسوا عطف على ألم يؤخذ من حيث المعنى أي ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ولم يدرسوا ما فيه أو حال أي وقد درسوا، والذين يمسكون مبتدأ وجملة إنا لا نضيع أجر المصلحين خبر، والرابط ما في «المصلحين» من العموم فوضع موضع الضمير تنبيها على أن الإصلاح كالمانع من التضييع أو حذف العائد أي منهم ويحتمل أن يكون عطفا على الذين يتقون، أي خير للمتقين وللذين يتمسكون بالكتاب...».[1]

هكذا يبرز رأي ابن عجيبة بالتوجيه والترجيح لما يراه من وجوه الإعراب المتنوعة وما يعرضه من مباحث نحوية يعززها بالإحتجاج والمناقشة والعرض لآراء كل فريق. ومما تبين لي أن خوض ابن عجيبة في المسائل اللغوية والنحوية لم يكن لمجرد الشغف بالبحث والإستعراض، بل كان تعاطيه لتلك المسائل في تفسيره بقدر وفي حدود خدمة النص القرآني خدمة مباشرة.

---

1) البحر المديد 20/2 وانظر البحر المحيط 414/4-418.

الفصل الرابع :

منهج ابن عجيبة
في عرض الأحكام الفقهية

عرف ابن عجيبة الفقه في سياق حديثه عن مختلف العلوم الشرعية وقال : «وإن كان – أي العلم – نظرا في استنباط الأحكام منه، فإن كان دليلها تفصيليا فهو نظر الفقيه وإن كان إجمالا فهو نظر الأصولي فبانضمام ما أخذ منه تفصيلا من الأحكام الشرعية إلى ما أخذ من السنة كذلك ومن الإجماع والقياس وسائر أنواع الإستدلال يحصل مجموع الفقه، فهو الباحث عن الأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية. وتشتمل على ثلاثة أنواع : العبادات والعادات والمعاملات».[1]

ثم شرع في بيان موضوع الفقه واسمه واستمداده وغير ذلك من أقسام المنطق، أما موضوعه فذكر أنه من أفعال المكلفين لأنه يبحث عما يحل منها وما يحرم وما يصح وما يفسد والمشهور أن أول من دون الفقه عبد الملك بن جريح فيكون هو واضعه.

أما استمداده فمن الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

أما حكم الشارع فيه فما يلزم الإنسان في نفسه في تأدية حق الله فهو فرض عين والباقي فرض كفاية إلا لمن ظهرت نجابته فيصير في حقه فرض عين .

---

1) تفسير الفاتحة الكبير : ص ٨.

أما تصور مسائله فالمراد به معرفة المسائل التي هي قواعد في ذلك الفن.

أما فضيلته فهي مشهورة في كتب الترغيب في العلم، وذكر هنا مجموعة من الأحاديث النبوية التي تحض على طلب الفقه.

أما نسبته من العلوم فهو كلي للعلوم الظاهرة دون الإعتقادية، إذ هي وسيلة له، وجزءي للعلوم الباطنية إذ هو وسيلة لها لأن الفقه لإصلاح الجوارح الظاهرة هو باب ومفتاح لإصلاح العوالم الباطنية الذي هو متعلق علم التصوف، فالفقه جزءي لعلم التصوف وكلي لغيره سوى علم التوحيد.

أما غايته فهي الإقتدار على استخراج مسائله عند نزولها بمراجعة أصولها، وفائدته الخروج من ظلمة الجهل إلى نور العلم حتى يكون على بينة من ربه.[1]

وإذا كان ابن عجيبة قد ساق الحديث عن موضوع الفقه وحكمه وفضيلته بالوجه المعروف لدى الفقهاء فإنه أثناء حديثه عن نسبة الفقه من العلوم وغايته وفائدته قد أبان عن نظرته الصوفية للفقه في التأكيد على أن الفقه إنما هو جزءي لعلم التصوف، فهو خادم له ومفتاح لإصلاح الباطن.

وقد ناقش أحمد زروق فيما قبل علاقة الفقه بالتصوف[2] فذكر، أن حكم الفقه عام في العموم لأن مقصده إقامة رسم الدين ورفع مناره وإظهار كلمته، وحكم التصوف خاص في الخصوص لأنه معاملة بين العبد وربه، غير أن ابن عجيبة لا يوافق زروقا فيما ذهب إليه من صحة إنكار الفقيه على الصوفي وعدم صحة إنكار الصوفي على الفقيه، لكن يوافقه في

---

1) نفسه ص 109.

2) يقول زروق في عدة المريد (مخطوط سبق ذكره) ص 22 : فلا تصوف إلا بفقه إذ لا تعلم أحكام الله الظاهرة إلا منه ولا فقه إلا بتصوف إذ لا حقيقة للعلم إلا بالعمل ولا عمل إلا بصدق وتوجه...فهو بمنزلة الروح وهما بمنزلة الجسد لا ظهور له إلا فيهما ولا كمال لهما إلا به....»

عدم إمكان استغناء التصوف عن الفقه بل لا يصح من دونه.[1] فها هو ذا ابن عجيبة أثناء حديثه عن العلوم التي يجب على المفسر الإحاطة بها يذكر الفقه «لكون القرآن محشوا بالأحكام الشرعية فلابد من تحريرها، وقد قيل أن آيات الأحكام خمسمائة».[2]

من هنا يتبين لنا مدى إقلال ابن عجيبة من ذكر المباحث الفقهية والقضايا الأصولية في تفسيره. فهو كثيرا ما يغفل الحديث عن المسائل الفقهية أثناء تفسيره لآيات الأحكام، وإذا ما عرج على شيء من ذلك فبكثير من الإيجاز والإختصار، فالمؤلف يرى أنه لم يضع تفسيره من أجل بحث المسائل الفقهية والأصولية وإنما لبحث واستعراض فوائد ذلك العلم على مستوى إصلاح الباطن وتنقية السرائر وتهذيب النفوس، فالفقه الذي وضع لإصلاح الجوارح الظاهرة يعتبر – كما يقول – بابا لإصلاح العوالم الباطنية الذي هو متعلق علم التصوف[3]، فلابد إذن من إحاطة المفسر الصوفي بمباحث الفقه ومسائله، لكن توظيفه لها يجب أن يكون محدودا بالقدر الذي يفيد في استمداد جوهر المسائل الفقهية وروحها مما هو نافع في تدعيم رأي من الآراء الصوفية أو عمل من الأعمال السلوكية.

ولا شك أن غلبة التصوف على ابن عجيبة في الثلث الأخير من حياته جعلته يتمسك بالفقه الذي استوعبه أثناء دراسته لأنه ملاذ من يريد أن يسلم له دينه مع تطعيم هذا الفقه بأذواق الصوفية حتى لا يجمد على شكليته البحتة، وقد سبق أن بينا أن المؤلف قد أخذ حظا وافرا من الفقه على شيوخه بتطوان وفاس ودرس مختصر خليل والرسالة مرارا على

---

1) قواعد التصوف لزروق ط 1989/3 – القاهرة القاعدة 26. ص 15.

2) تفسير الفاتحة الكبير ص 60.

3) لذلك قال زروق في قواعده (القاعدة 31) ص18 : الفقه مقصود لإثبات الحكم في العموم، فمداره على إثبات ما يسقط به الحرج والتصوف ومرصده طلب الكمال ومرجعه لتحقيق الأكمل حكما وحكمة» . ويقول أيضا في القاعدة 32 : الفقيه ينظر من حيث ثبوت الحكم الظاهرللعمل الظاهر من حيث قاعدته المقتضية له، والصوفي ينظر من حيث الحقيقة في عين التحقيق، ولا نظر للفقيه حتى يصل ظاهره بباطنه.»

شيوخه : محمد الرشاي وعبد الكريم بن قريش ومحمد الورزازي ومحمد الجنوي.

ومما يدل على تمكن صوفينا من الفقه واشتهاره بذلك قبل ولوجه علم التصوف مخاطبة الشيخين التاودي بن سودة ومحمد بنيس لابن عجيبة بالفقيه الناسك. وهو ما يتبين من خلال إجازتي الشيخين لتلميذهما التطواني.[1]

وإذا كان ابن عجيبة قد تفقه بالفقه الظاهر أثناء دراسته، فإنه قد اقتنع بضرورة تقليد مذهب فقهي معين بالنسبة لعموم الناس، أما العلماء الصوفية فهم لا يرضون بالتقليد بل يأخذون بالأحوط، في حين أن الأكابر منهم – يخرجون عن التقليد ويتمسكون بالكتاب والسنة. يقول في معرض حديثه عن الإختلاف الوارد عن الأئمة : «أما مدح الإختلاف فهو محمول على الإختلاف في الفروع كاختلاف الأئمة في المذاهب فإن في ذلك توسعة على الأمة، إذ كل من تمسك بمذهب فهو ناج ما لم يتبع الرخص... بخلاف الإختلاف في الأصول فهو مذموم كاختلاف القدرية والجبرية والحشوية وغير ذلك من الإختلاف في التوحيد، ومذهب الصوفية هو الإتفاق في الأصول والفروع[2]، أما الأصول فنهايتهم الشهود والعيان وهم متفقون فيه لأنه أمر ذوقي لا يختلف، وأما الفروع فهم يأخذون بالأحوط والأكابر منهم يخرجون عن التقليد ويتمسكون بالكتاب والسنة في نفسه، وإن كان جلهم قلدوا في الفروع، فكان الجنيد على مذهب أبي ثور والشبلي مالكيا

---

1) ينظر الفهرسة ص 35-37.

2) يقول ابن عجيبة في تفسيره بالإشارة لقوله تعالى : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ : «المذاهب كلها وقع فيها الإختلاف والتفرق في الأصول والفروع إلا مذاهب الصوفية فكلها متفقة بداية ونهاية، إذ بدايتهم مجاهدة ونهايتهم مشاهدة، وإلى ذلك أشار في المباحث حيث قال : مذاهب الناس على اختلاف ومذهب القوم على ائتلاف.

بخلاف أهل الظاهر لا تجدهم يتفقون إلا في مسائل قليلة لأن مذهبهم مبني على غلبة الظن» البحر المديد : 83/1. وينظر ما ذكره الغزالي في الموضوع في كتابه الإحياء : 68/1-70.

والجيلاني حنبليا إلى غير ذلك...» وهكذا يبقى التقيد بمذهب فقهي معين أمرا ضروريا إذ «أحسن المذاهب في الأحكام مذهب الفقهاء المرجوع إليهم كالأئمة الأربعة، فالتقيد بمذهب واحد أجمع للحقيقة وأقرب للتبصر وأدعى للتحقيق وأسهل تناولا.[1] وعلى هذا درج سلفنا وأشياخنا...».[2]

ومن خلال عرض ابن عجيبة للأحكام الفقهية تتبين لنا الملامح التالية :

1 – ابن عجيبة فقيه مالكي يهتم بتقرير مذهب الإمام مالك غير أنه لا يبرز الخلاف الوارد فيه، ولا ينقل آراء رموز المالكية كابن القاسم وأشهب وعبد المالك بن حبيب وابن وهب وغيرهم إلا نادرا. وقد يكتفي أحيانا بالإشارة إلى أن هناك خلافا داخل المذهب دون الإفصاح عن طبيعته وتفاصيله.

وفيما يلي نماذج توضح ذلك.

أ) عند تفسيره للبسملة من الفاتحة قال : «وأما حكم قراءة البسملة في الصلاة فقال مالك مكروهة في الفرض دون النفل، وقال الشافعي فرض تبطل الصلاة بتركها يبسمل عنده جهرا في الجهر وسرا في السر، وعند أبي حنيفة كذلك إلا أنه يسربها مطلقا.

وحجة مالك أنها ليست آية في الحديث الصحيح عن أنس أنه قال : صليت خلف أبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بالحمد الله رب العالمين لا يذكرون البسملة أصلا، وحجة الشافعي أنها عنده آية».[3]

---

1) يقول ابن عجيبة عند تفسير قوله تعالى : ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾. وقوله عليه السلام : «اختلاف أمتي رحمة، المراد الإختلاف في الفروع كاختلاف المذاهب، ففي ذلك رخصة لأهل الإضطرار، فإن من قلد عالما لقي الله سالما. والله تعالى أعلم» .(البحر المديد 86/2).

2) الفتوحات الإلهية 140/1.

3) البحر المديد 1/1. وينظر أحكام القرآن لابن العربي 6/1. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 91/1.

فابن عجيبة من خلال هذا المثال قد قرر مذاهب الأئمة الثلاثة في حكم قراءة البسملة في الصلاة، إلا أنه اختصر القول في ذكر حجج كل إمام، وهو اختصار قصد منه الإيجاز في عرض الأحكام الفقهية، وهو ما يفهم جليا من خلال بسطه في نفس المسألة في تفسيره الكبير للفاتحة حيث أورد مختلف الحجج مرجحا مذهب مالك وأبي حنيفة في عدم الجهر بها في الصلاة.[1]

ومن ذلك أيضا ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا**﴾[2]، حيث قال : وإذا ضربتم أي سافرتم للجهاد وغيره من السفر المباح أو المطلوب فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة الرباعية إلى ركعتين، ونفي الجناح يقتضي أنها رخصة، وبه قال الشافعي ويؤيده أنه عليه الصلاة والسلام أتم في السفر، وأن عائشة رضي الله عنها قالت : يا رسول الله قصرت وأتممت وصمت وأفطرت فقال : سننت[3] يا عائشة، وأوجبه أبو حنيفة لقول عمر (ض) : صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم. وقول عائشة أول ما فرضت الصلاة ركعتان، فأقرت صلاة السفر وزيدت في الحضر. وقال مالك رضي الله عنه : القصر سنة لكونه عليه السلام داوم عليه في كل سفر، ولم يتم إلا مرة لبيان الجواز».[4]

ب) يكتفي ابن عجيبة أحيانا بالإشارة إلى أن في مسألة ما خلافا فقهيا دون بيانه من أمثلة ذلك ما ذكره في حديثه عن قراءة الفاتحة في الصلاة حيث قال بكل إيجاز : «قراءة الفاتحة في الصلاة واجبة عند مالك

---

1) تفسير الفاتحة الكبير ص 82.

2) النساء : 101.

3) وفي رواية : «أحسنت ياعائشة» (تفسير القرطبي 359/5). وفي أحكام القرآن لابن العربي 615/1 : «أن عائشة قالت: «سافرنا مع رسول الله ﷺ فقصر وأتممت وأفطر وصمت ولم ينكر ذلك علي» وكانت تتم في السفر.

4) البحر المديد 122/1. وانظر أحكام القرآن لابن العربي 614/1، وتفسير القرطبي 352/5.

والشافعي خلافا لأبي حنيفة، وقد ذكرنا في الشرح الكبير منشأ الخلاف».[1]

يفهم من هذا النص إذن أن ابن عجيبة يعمد في تفسيره «البحر المديد» إلى الإيجاز والإختصار فيما يتعلق بالأحكام الفقهية، فهو عندما يحيل القارئ على كتابه «تفسير الفاتحة الكبير» قصد الإطلاع على تفاصيل الخلاف الفقهي في المسألة يبين لنا بوضوح منهجه في عرض الأحكام الفقهية في تفسيره القائم على الإختصار والإقتضاب. يقول ابن عجيبة في موطن الإحالة : «وذهب مالك في أشهر الروايات عنه إلى أنها فرض في كل ركعة كما هو مذهب تلميذه الشافعي ، وروى ابن القاسم عنه في المدونة أنها فرض في الجل وروى أيضا أنها واجبة في النصف، وروى المغيرة أنها واجبة في كل ركعة وهو مذهب الحسن البصري. وذهب أبو حنيفة إلى أنها لا تجب في شيء وإنما الواجب مطلق القراءة أي قراءة اتفق قراءتها أجزأت.

وحد أصحابه في ذلك ثلاث آيات قصار أو آية طويلة، هذا في الركعتين الأوليين وأما في الأخريين فيستحب عنده التسبيح دون القراءة، وبه قال الكوفيون، والجمهور يستحبون القراءة فيها كلها، ثم استطرد المؤلف في ذكر حجج كل فريق بالتفصيل والبيان».[2]

ج) في قوله تعالى : ﴿**وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين**﴾[3]، قال : «النسفي[4]: فيه دليل على أن القرآن إذا ترجم عنه بغير العربية بقي قرآنا. ففيه دليل

---

1) البحر المديد : 6/1.

2) تفسير الفاتحة الكبير ص : 332-334. وينظر تفصيل ذلك في تفسير القرطبي 117/1-126.

3) الشعراء : 192-194.

4) تفسير النسفي بهامش تفسير الخازن 371/3. ولفظه : «وفيه دليل على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية فيكون دليلا على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة».

على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة هـ. وهو حنفي المذهب. وأما مذهب مالك فلا».[1]

د) قد يشير ابن عجيبة إلى مذهبه المالكي في بعض المواضع في تفسيره كما عند تفسير قوله تعالى : ﴿**إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تاجرني ثماني حجج**﴾[2]، حيث قال : «والتزوج على رعي الغنم جائز في شرعنا[3]، على خلاف في مذهبنا[4]».[5]

2 – لما كان تفسير ابن عجيبة ليس الغرض منه استنباط الأحكام الفقهية كما هو الشأن في بعض كتب التفسير وأحكام القرآن، فإن المؤلف لم يسرف في ذكر الأحكام، ولم يشغل نفسه كثيرا بتقرير مذهب مالك على حساب المذاهب الأخرى، بل إنه كثيرا ما يستعرض مع المذهب المالكي بعض المذاهب الفقهية الأخرى، حيث يتطرق إلى مذهبي الشافعي وأبي حنيفة. أما مذهب أحمد بن حنبل فلا يكاد يشير إليه إلا نادرا، ومنهجه في ذلك أنه تارة يسلك مسلك العرض والتوجيه وتارة يسلك مسلك المناقشة والترجيح.

أولا : من الأمثلة التي اكتفى فيها بعرض الآراء الفقهية المتعددة والمتقابلة في تفسيره، وبين من خلالها المذاهب المختلفة دون تعقيب

---

1) البحر المديد 96/3. أما الألوسي في تفسيره فإنه بعد أن حكى عن الإمام أبي حنيفة تجويزه لقراءة القرآن بالفارسية في الصلاة مستدلا بهذه الآية بين أنه رجع عن ذلك، وكان رجوعه عما اشتهر عنه لضعف الإستدلال بهذه الآية عليه كما لا يخفى على المتأمل» روح المعاني 126/19).

2) القصص 27.

3) عن النكاح بالإجارة يقول القرطبي : (273/13) : «وجرى في الحديث الذي لم يكن عنده إلا شيء من القرآن. رواه الأئمة. وفي بعض طرقه : فقال له رسول الله ﷺ : «ما تحفظ من القرآن فقال : سورة البقرة والتي تليها قال : فعلمها عشرين آية وهي امرأتك».

4) قال ابن عطية في تفسيره 161/12 : «وذهب بعض العلماء إلى أن ذلك خاص، وبعضهم إلى أنه منسوخ، ولم يجوز مالك رحمه الله النكاح بالإجارة وجوزها ابن حبيب وغيره».

5) البحر المديد 115/3.

عليها معربا عن رضاه عنها جميعا مع إمكان توجيه كل منها بالدليل، ما يلي :

أ) في قوله تعالى : ﴿**وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا**...﴾الآية[1]، قال : «وإن كنتم مرضى تخافون ضرر الماء أو زيادته أو تأخر برء أو منع الوصول إلى الماء أو على سفر لم تجدوه فيه أو كنتم في الحضر محدثين حيث جاء أحد منكم من الغائط أو البول أو بغيره من الأحداث أو لامستم النساء أي مست بشرتكم بشرتهن بقصد اللذة أو عند وجد أم لا، ولو بميتة. وقال أبو حنيفة إن كانت ملامسته فاحشة بحيث يحصل الإنتشا نقضت وإلا فلا، وقال ابن عباس والحسن البصري ومحمد بن الحسن لا تنقض الملامسة مطلقا، ويقاس على اللمس سائر نواقض

وإنما يشترط فيه الإعلان والإظهار بالدف والدخان ليتميز من السفاح، ويجب عند الدخول».[1]

ثانيا : إن ابن عجيبة قد يسلك في بعض الأحيان مسلك المناقشة والترجيح معززا الرأي الذي يؤيده بالحجة والدليل، غير أنه لم يكن متعصبا لمذهب الإمام مالك، فقد كان يرجح غيره من المذاهب معلنا معارضته لما ذهب إليه، ومنتصرا لرأي الآخر إذا تبين له أن الصواب بجانبه. وفيما يلي ذكر لبعض الشواهد المبينة لذلك :

أ) من الأمثلة التي ذهب فيها إلى ترجيح مذهب مالك لا تعصبا، وإنما لوجود مرجح قوي يستند إليه ويبني ترجيحه عليه ما جاء في تفسيره قوله تعالى : ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها**﴾[2]، حيث قال : «والمعنى التخيير بين الأمرين بعد الأسر بين أن يمنوا عليهم فيطلقوهم وبين أن يفادوهم، ومذهب مالك أن الإمام مخير في الأسارى بين خمسة وهي : المن والفداء والقتل والإسترقاق وضرب الجزية، وقيل لا يجوز المن ولا الفداء، لأن الآية منسوخة بقوله : ﴿**فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم**﴾[3]، فيتعين قتلهم[4]، والصحيح أنها محكمة[5]. ومذهب الشافعي أن الإمام مخير بين أربعة : القتل والإسترقاق والفداء بأسارى المسلمين والمن، ولعل الجزية عنده خاصة بأهل الكتاب، ومذهب أبي حنيفة التخيير بين القتل والإسترقاق فقط، قال : والآية منسوخة لأن سورة

---

1) البحر المديد : 116/3 وينظر أحكام القرآن لابن العربي 509/3. وتفسير القرطبي 280/13. وكذا تفصيل الكلام في الإشهاد على الزواج في 79/3 عند تفسير قوله تعالى : ﴿**ولا تنكحوا المشركات حتى يومن ولأمة مومنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ...**﴾ الآية (البقرة 221).

2) محمد :4.

3) التوبة :5.

4) وهو قول قتادة والضحاك والسدي وابن جريج والعوفي عن ابن عباس.

5) وهو مذهب مالك والشافعي والثوري والأوزاعي، وهو قول ابن عمر والحسن وعطاء. قال ابن العربي في أحكامه (132/4) : «والصحيح إحكامها (أي الآية) فإن شروط النسخ معدومة فيها من المعارضة».

براءة آخر ما نزل... والمراد بالمن في الآية أن يمن عليهم بترك القتل فيسترقوا أو يمن عليهم بإعطاء الجزية. هـ»

وبعد أن استعرض ابن عجيبة المذاهب الثلاثة رجح مذهب الإمام مالك بالحجة والدليل فقال : «والمشهور مذهب مالك لأن النبي ﷺ قتل عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث يوم بدر صبرا وفادى سائر الأسارى، ومن على ثمامة بن أثال الحنفي وهو أسير، واسترق نساء بني قريظة فباعهم، وضرب الجزية على نصارى نجران ومجوس هاجر».[1]

وقد يرجح المؤلف مذهب مالك من غير أن يحتج لذلك، مثاله ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿**لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون**﴾[2]، حيث قال: «قال القرطبي : وإذا أقسم الله بحياة نبيه فإنما أراد التصريح لنا أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته، وقد قال الإمام أحمد فيمن أقسم بالنبي ﷺ أنه تنعقد به يمينه، وتجب الكفارة بالحنث، واحتج بكون النبي ﷺ أحد ركني الشهادة، وقال ابن خويز منداد : استدل من جوز الحلف به عليه السلام بأن إيمان المسلمين جرت من عهده ﷺ حتى إن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا جاء صاحبه قال له : احلف لي بما حوى هذا القبر أو بحق ساكن هذا القبر يعني النبي ﷺ[3]. قلت : ومذهب مالك[4] أنه لا ينعقد يمين بغير الله وصفاته وأسمائه».[5]

---

1) البحر المديد 434 وانظر تفسير ابن عطية 51/15 وتفسير القرطبي 228/16.

2) الحجر : 72.

3) في تفسير ابن عطية 143/10 : «وفي هذه الآية شرف لمحمد ﷺ لأن الله تعالى أقسم بحياته ولم يفعل ذلك مع بشر سواه، قاله ابن عباس» وفي أحكام القرآن لابن العربي 105/3 : «قال المفسرون بأجمعهم : أقسم الله هنا بحياة محمد ﷺ تشريفا له أن قومه من قريش في سكرتهم يعمهون، وفي حيرتهم يترددون، قالوا : روي عن ابن عباس أنه قال : ما خلق الله وما ذرأ ولا برأ نفسا أكرم عليه من محمد، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره. وهذا كلام صحيح».

4) تفسير القرطبي 270/6.

5) البحر المديد 142/2 وانظر تفسير القرطبي 41/10.

ب) قد يرجح ابن عجيبة مذاهب أخرى غير مذهب مالك الذي قد يخالف الدليل، وبذلك تنتفي عن المؤلف تهمة التعصب المذهبي التي عرف بها بعض المفسرين الذين حاولواجاهدين تطويع الإستنباطات الفقهية لتتفق وما ذهبوا إليه من آراء، وهذه شواهد على ذلك.

عند قوله تعالى : ﴿**لا يواخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يواخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم**﴾[1]، قال ابن عجيبة : «لا يواخذكم الله باللغو في أيمانكم هو ما يجري على اللسان من غير قصد كقول الرجل في مجرى كلامه : لا والله وبلى والله، قاله ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما، وبه قال الشافعي، وقال أبو هريرة والحسن وابن عباس في أحد قوليه : هو أن يحلف على ما يعتقده فيظهر خلافه، وبه قال مالك رضي الله عنه، والأول أليق بقوله تعالى : ﴿**ولكن يواخذكم بما كسبت قلوبكم** أي **بما عقدت عليه قلوبكم**﴾.[2]

فعبارة ابن عجيبة «والأول أليق بقوله تعالى : ولكن يواخذكم بما كسبت قلوبكم» فيها تأييد وترجيح لمذهب الشافعي نظرا لموافقته لسياق الآية.[3] وعند تفسير قوله تعالى : ﴿**ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين**﴾[4]، قال : حمل مالك الأمر على الندب وحمله غيره على الوجوب وهو الظاهر»[5] وقد حمله على

---

1) البقرة 225.

2) البحر المديد 511، وانظر تفسير القرطبي 99/3.

3) لقد كان ابن عطية أسبق إلى مراعاة سياق الآية، وربط لفظة اللغو بلفظة الكسب، فقال بعد ما ساق مختلف الأقوال في ذلك : «قال أبو محمد وطريقة النظر أن يتأمل لفظة اللغو ولفظة الكسب ويحكم موقعهما في اللغة، فكسب المرء ما قصده نواه، واللغو ما لم يتعمده أو ما حقه لهجنته أن يسقط، فيقوى على هذه الطريقة بعض الأقوال المتقدمة ويضعف بعضها» (المحرر الوجيز 188/2). أما ابن العربي فذكر مختلف الأقوال في ذلك دون ترجيح (أحكام القرآن : 241/1).

4) البقرة 236.

5) البحر المديد : 53/1.

الندب بالإضافة إلى الإمام مالك أبو عبيد والقاضي شريح أما ابن عمر وعلي بن أبي طالب وسعيد ابن جبير وأبو قلابة والزهري وقتادة والضحاك فقد حملوه على الوجوب متمسكين بمقتضى الأمر[1]، وهو المذهب الذي رجحه القرطبي.[2]

ج) قد يضعف المؤلف آراء المالكية ويراها غير موافقة للصواب معللا ذلك، مثاله ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وإذ قتلتم نفسا فادارءتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون**﴾[3]، حيث قال : «واستدلت المالكية بالقصة على التدمية الحمراء، وهي قبول قول القتيل قبل موته بأن فلانا قتله[4]، وفيه نظر، لأن هذا حيي بعد موته فلا يتطرقه الكذب، واستدلت أيضا على حرمان القاتل من الإرث وفيه نظر، لأن هذه شريعة من قبلنا يتطرقه النسخ لكن ثبت في الحديث أنه لا يرث والله أعلم.[5]

---

1) أنظر مجمل أدلة وحجج المالكية في القول بعدم الوجوب في تفسير ابن عطية 226/2 وأحكام القرآن لابن العربي 291/1.

2) تفسير القرطبي 200/3.

3) البقرة 72.

4) استدل مالك في رواية ابن القاسم وابن وهب عنه على صحة القول بالقسامة بقول المقتول : دمي عند فلان بهذا، وقال مالك : هذا مما يبين أن قول الميت : دمي عند فلان مقبول ويقسم عليه، فإن قيل : كان هذا آية ومعجزة على يدي موسى عليه السلام لبني إسرائيل، قلنا : الآية والمعجزة إنما كانت في إحياء الميت، فلما صار حيا كان كلامه كسائر كلام الآدميين كلهم في القبول والرد. وهذا فن دقيق من علم لا يتفطن له إلا مالك» أنظر أحكام القرآن لابن العربي 39/1-40. وقال القرطبي في تفسيره (407/1) بعد أن حكى استدلال مالك :«ومنعه الشافعي وجمهور العلماء، قالوا : وهو الصحيح لأن قول المقتول : دمي عند فلان (أو فلان قتلني خبر يحتمل الصدق والكذب. ولا خلاف أن دم المدعى عليه معصوم ممنوع إباحته إلا بتعيين».

5) البحر المديد 19/1. ووجه استدلال المالكية بالآية على أن القاتل لا يرث هو ما ذكر في قصة القاتل من بني إسرائيل والمقتول الذي أحياه الله بعد أن ضرب ببعض البقرة، وأخبر بقاتله، فقد روي فيها أن القاتل قتل قريبه ليرثه، وأنه منذ ذلك لم يورث قاتل (أنظر تفسير القرطبي 456/1) وليس في الآية ما يدل على ذلك كما قرره ابن عجيبة والرواية ليست مرفوعة، وإنما هي مأثورة عن بعض التابعين، غير أن الحكم بأن القاتل لا يرث قد ورد صريحا في السنة فيما رواه الدارقطني من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : ليس لقاتل من الميراث شيء» والجمهور على ذلك غير أنهم اختلفوا هل يرث القاتل إذا كان =

وانسجاما مع منهجه في «البحر المديد» في عدم الإسهاب في سوق الأحكام الفقهية، نجد المؤلف كثيرا ما يكتفي بإحالة القارئ على كتب الفقه تجنبا للتطويل والإستطراد، مؤكدا من خلال ذلك على أن تفسيره ليس موضوعا لبسط المسائل الفقهية بقدر ما هو بيان وتوجيه للآيات القرآنية بما يعين على تصحيح العقيدة وتهذيب النفس وتحليتها بالفضائل السامية وتخليتها من العيوب والرذائل.

وطريقة المؤلف في الإحالة على كتب الفقه تختلف من موضع لآخر، فهو تارة يشير إلى عناوين الكتب الفقهية مثل : المختصر[1] والرسالة[2] وغيرهما.[3] وقد يذكر بعض ما جاء فيها باختصار شديد، وتارة يحيل على كتب الفقه بشكل عام قائلا على سبيل المثال : «وفي السرقة أحكام مبسوطة في كتب الفقه»[4] وكذا قوله : «وأحكام الإيلاء مقررة في كتب الفقه»[5] والذي يمكن أن نخلص إليه بهذا الصدد هو أن لابن عجيبة منهجين في عرضه لآيات الأحكام :

يعتمد في الأول على منهج عرض الآراء الفقهية المختلفة مع ترجيح الرأي الصحيح ذي الدليل القوي ولو كان يخالف المذهب المالكي مما يكشف لنا عن اجتهاده وعدم تعصبه. أما المنهج الآخر فيعتمد فيه على الإحالة على كتب الفقه بصفة عامة متفاديا الإستطراد في ذكر الأحكام.

= القتل خطأ ؟ فمالك يرى أنه يرث من المال ولا يرث من الدية، والشافعي وأبو حنيفة وغيرهما يرون أن القاتل لا يرث مطلقا. (أنظر : ابن جزي : القوانين الفقهية، طبعة لبنان بدون تاريخ ص 338 باب موانع الميراث).

1) وضع ابن عجيبة حاشية على مختصر خليل لم يتمها. ينظر قسم مؤلفات ابن عجيبة.

2) انظر على سبيل المثال : 54/1-106/1-161/3.

3) قد ينقل المؤلف عن بعض المفسرين أمثال ابن جزي والبيضاوي.

4) البحر المديد : 143/1.

5) نفسه : 51/1.

بيد أن المؤلف في نقله عن المفسرين وغيرهم يبدو شديد الحذر والحيطة من صحة ما ينقله، فهو حريص على الإلتزام بالدقة والتمحيص فيما يسوقه من أقوال وروايات، ولعل أبرز دليل على ذلك ما أورده عند تفسير قوله تعالى : ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءا بما كسبا نكالا من الله...**﴾[1]، حيث قال : «وأما القطع فهل يسقط وهو مذهب الشافعي لظاهر الآية أو لا يسقط وهو مذهب مالك لأن الحدود لا تسقط عنده بالتوبة إلا عن المحارب. (هـ) قاله ابن جزي[2] تبعا لابن عطية[3]، وفيه نظر، فإن مشهور مذهب الشافعي موافق لمالك[4]، ولعله تصحف عنده الشعبي بالشافعي كما نقل الثعلبي عنه، والله أعلم».[5]

---

1) المائدة : 38.

2) التسهيل : 176/1.

3) المحرر الوجيز : 97/5.

4) تفسير القرطبي 165/6.

5) البحر المديد : 143/1.

الفصل الخامس :

آراؤه في بعض علوم القرآن

يتضمن أربعة مباحث :

المبحث الأول : حول النسخ في القرآن الكريم.
المبحث الثاني : مناسبات الآي والسور.
المبحث الثالث : أسباب النزول
المبحث الرابع : الحروف المقطعة

المبحث الأول :

حول النسخ في القرآن الكريم

يعتبر النسخ من العلوم والموضوعات التي يرجع فيها إلى النقل والرواية، وهو من الأهمية بمكان خاصة بالنسبة للمفسر الذي نص العلماء على أنه لا يجوز له أن يتعاطى علم التفسير إذا لم يكن عارفا بعلم الناسخ والمنسوخ. ولذلك حكى الزركشي وتبعه السيوطي قول الأئمة : «لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ. وقد قال علي لقاص : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال :لا، قال : هلكت وأهلكت».[1] وقد نال مبحث «النسخ» من المؤلف اهتماما كبيرا في تفسيره حيث عرض لمختلف مسائله وقضاياه، وأبدى في كل ذلك آراء ومعالجات لها قيمتها ووزنها، كما تعرض لتعريف النسخ ضمن المقدمة السادسة من مقدمات تفسيره للفاتحة[2]، وسنتعرف على موقف ابن عجيبة من مباحث هذا العلم من خلال القضايا التالية :

أولا : يعرف ابن عجيبة النسخ فيقول[3] : «النسخ في اللغة الإزالة والنقل[4] ومعناه في الشريعة رفع الحكم الشرعي بعد تقريره»[5]، ويعرفه في

---

1) البرهان 29/2 والإتقان 59/3.

2) تفسير الفاتحة الكبير 62-64.

3) المصدر السابق ص : 63 ويظهر أنه اعتمد كثيرا على ما ذكره ابن جزي في مقدمة تفسيره التسهيل 10/1-11. وقد نص على ذكر اسمه في نفس الصفحة عندما قال : «وأكثر النسخ وقع في مسالمة الكفار والأعراض عنهم والصبر على أذاهم بالأمر بقتالهم، وقع منه في القرآن مائة آية وأربع عشرة آية ذكرها ابن جزي بأعيانها،وفي بعضها نظر لأنها حكاية عما تقدم قبلنا ليس فيها دليل على النسخ والله تعالى أعلم»

4) ذكر علماء اللغة أن من معاني النسخ أيضا الإبطال، (القاموس المحيط 271/1 ولسان العرب61/3). وانظر تفصيل ذلك في كتاب : النسخ في القرآن الكريم للدكتور مصطفى زيد ط1978/3. دار الوفاء بالمنصورة ص 55-65.

5) هذا تعريف يحتاج إلى زيادة «بدليل شرعي متأخر» ينظر على سبيل المثال كتاب الموافقات 75/3.

موضع آخر بقوله[1] : «النسخ في اللغة يطلق على معنيين : أحدهما التغيير والتحويل، يقال مسخه الله قردا ونسخه، قال الفراء : ومنه نسخ الكتاب، والثاني بمعنى رفع الشيء وإبطاله يقال : نسخت الشمس الظل أي ذهبت به وأبطلته وهو المراد هنا...ومعنى النسخ انتهاء العمل بذلك الحكم ونقل العباد من حكم إلى حكم لمصلحة، فلا يلزم عليه البداء كما قالت اليهود».[2]

وعندما تكلم المؤلف على تعلق علم النسخ بالقرآن الكريم قصر موضوع النسخ على دائرة الأحكام فقال : والنسخ إنما يكون في الأوامر والنواهي دون الأخبار لأنه يكون كذبا».[3]

وذهب ابن عجيبة إلى أن النسخ قد وقع في القرآن على ثلاثة أوجه : الأول : نسخ اللفظ والمعنى كقوله : «لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم».[4]

الثاني : نسخ اللفظ دون المعنى كقوله : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجوهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم.[5]

---

1) البحر المديد 261 عند تفسير قوله تعالى : ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ البقرة : 106.

2) يطلق البداء (بفتح الباء) في اللغة العربية على معنيين : أحدهما : الظهور بعد الخفاء كقوله تعالى : ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ الزمر 48. والثاني : نشأة رأي جديد لم يكن كقوله تعالى : ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾ يوسف 35. والله سبحانه وتعالى منزه عن أن يتصف بالبداء بكلا المعنيين.

وقد نص العلماء على جملة من الفروق بين النسخ والبداء، أنظر الأحكام لابن حزم 446/4.

3) البحر المديد : 26/1.

4) رواه أحمد في مسنده 47/1 بسند صحيح عن عمر قال : قد كنا نقرأ «لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم» ومما يورده العلماء في التمثيل لهذا النوع ما ذكرته عائشة (ض) : «كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يحرمن فنسخهن بخمس معلومات فتوفي رسول الله وهن مما يقرأ من القرآن» تفسير القرطبي 57/2.

5) رواه مالك في الموطأ (كتاب الحدود) عن عمر بن الخطاب (ض) قال: إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم فقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا والذي نفسي بيده لولا أن يقول الناس زاد عمر بن الخطاب في كتاب الله لكتبتها (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) فإنا قد قرأناها، ورواه البخاري ومسلم من طريق كلاهما في كتاب الحدود، صحيح البخاري 179/4 وصحيح مسلم 1317/3.

الثالث : نسخ المعنى دون اللفظ وهو كثير، وقع منه في القرآن على ماعد بعضهم مائتا موضع[1] إلا أنه عد التخصيص والتقييد والإستثناء نسخا وليس كذلك بل بينهما فرق».[2]

ثانيا : يظهر من خلال تفسير ابن عجيبة لآيات النسخ في القرآن الكريم ورده لكثير مما قال العلماء بنسخه أن المؤلف لا يدخل ضمن دائرة المكثرين من دعاوي النسخ، وهو ما يؤكده لنا قوله السالف الذكر عن الوجه الثالث من أوجه النسخ، حيث أن استدراكه على العلماء القائلين بذلك يدل على أنه ينفي وقوع النسخ في كثير من الآيات على اعتبار أن رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه الذي هو تعريف النسخ الجامع المانع يميزه عن كل ما قد يشتبه به من تخصيص وتقييد[3]، وهذا ما سنبينه من خلال المباحث التالية :

1 – رد ابن عجيبة في تفسيره بعض دعاوي النسخ، من ذلك :

أ) في قوله تعالى : ﴿**يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين**﴾[4]، يقول ابن عجيبة : «وهذه النفقة غير الزكاة فلا نسخ في الآية والله أعلم».[5]

---

1) يبدو أنه سقط من النسختين المخطوطتين اللتين أتوفر عليهما زيادة وإثنتا عشرة موضع (212) كما هو مذكور في تفسير ابن جزي وموجود في بعض كتب النسخ القديمة مثل كتاب الناسخ والمنسوخ لمحمد بن حزم ص : 157.

2) تفسير الفاتحة الكبير ص :63.

3) نص العلماء على كثير من الفروق بين النسخ والتخصيص من جهة والنسخ والتقييد من جهة أخرى. تنظر في المستصفى للغزالي 110/1.

4) البقرة : 215.

5) البحر المديد 48/1. وهو ما رجحه ابن الجوزي في كتابه «نواسخ القرآن» تح محمد أشرف الملباري ط 1984/1 ص 191 حيث قال : «روى السدي عن أشياخه أنه يوم نزلت هذه لم تكن زكاة وإنما هي نفقة الرجل على أهله...قلت : من قال بنسخها ادعى أنه وجب عليهم أن ينفقوا فسألوا عن وجوه الإنفاق، وهذا يحتاج إلى نقل، والتحقيق أن الآية عامة في الفرض والتطوع فحكمها ثابت غير منسوخ» وإليه ذهب ابن جزي في التسهيل 781. وراجع : النسخ في القرآن الكريم للدكتور مصطفى زيد 654/2-657.

ب) في قوله تعالى : ﴿**ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا**﴾.[1]

يقول ابن عجيبة : «أي مما ذكر سكرا يعني الخمر[2] سميت بالمصدر ونزلت قبل تحريم الخمر فهي منسوخة بالتحريم وقيل هي على وجه المنة بالمنفعة التي في الخمر، ولا تعرض فيها لتحليل الخمر ولا تحريمه وهذا هو الصحيح، وفي دعوى النسخ نظر لأن النسخ إنما يكون في الأحكام المشروعة المقررة، وهنا ليس كذلك، إنما فيه امتنان واعتبار فقط».[3] وقدفصل الدكتور مصطفى زيد الكلام في دعوى النسخ في الآية وبين مذاهب الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المفسرين في بيان معنى السكر الوارد في الآية، ومما قاله في سياق ما ذهب إليه ابن عجيبة : «أما الخمر – وقد فسر بها في الآية – فلا يعني تفسيره بها أن الآية قد أباحتها لأنها خبر لم يسق للتشريع، وإنما سيق لبيان نعمه عليهم والإمتنان بها».[4]

ج) في قوله تعالى : ﴿**ومن يقتل مومنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما**﴾[5]، يقول ابن عجيبة: «ولعله تعالى استغنى عن ذكر التوبة هنا اكتفاء بذكرها في القرآن حيث قال : «ومن يفعل ذلك يلق آثاما، ثم قال : إلا من تاب، وأما من قال أن تلك منسوخة بهذه فليس بصحيح لأن النسخ لا يكون إلا في الأخبار...والوعيد مشروط بعدم العفو لدلائل منفصلة اقتضت ذلك كما هو مشروط بعدم التوبة أيضا، والحاصل أن الوعد لا يخلف لأنه من باب الإمتنان والوعيد يصح إخلافه بالعفو والغفران...».[6]

---

1) النحل : 67.

2) تفسير السكر بالخمر هو أحد وجهي التفسير الذي قال به ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري وغيرهم.
أما الوجه الآخر فهو تفسيره بالنبيذ.

3) البحر المديد : 135/2.

4) النسخ في القرآن الكريم : 452/1.

5) النساء : 93.

6) البحر المديد : 121/1.

والذي يفهم من كلام ابن عجيبة أن الآية خبر مؤكد، والأخبار لا تقبل النسخ، وبالتالي فدعوى النسخ غير صحيحة[1]، كما أن الخلود الوارد في الآية سواء أفسر بالخلود الحقيقي أم أريد به طول المكث كما ذهب إليه المؤلف فإن وعد الله لا يخلف لأنه من باب الإمتنان، كما أن وعيده يصح إخلافه فيتفضل سبحانه وتعالى على أهل الإيمان به وبرسوله فيعفو عنهم ولا يجازيهم بالخلود في النار.

2 – جزم ابن عجيبة بنسخ بعض الآيات المتفق على نسخها، من ذلك:

أ) ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿**واللاتي ياتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا...إن الله كان توابا رحيما**﴾[2] حيث قال : «كان هذا في أول الإسلام، ثم نسخ بما في سورة النور[3]، من الحدود، ويحتمل أن يراد التوصية بإمساكهن بعد أن يجلدن كي لا يعدن إلى الزنى بسبب الخروج والتعرض للرجال، وهذا الإمساك كان خاصا بالنساء بدليل قوله : ﴿**واللذان ياتيانها منكم – أي الزاني والزانية منكم – فآذوهما**﴾[4]، بالتوبيخ والتقريع...قيل إن هذه الآية سابقة عن الأولى نزولا وكانت عقوبة الزنى بالأذى ثم الحبس ثم الجلد، وقيل الحبس في المساحقات والأذى في اللواط وما في سورة النور في الزناة، والذي يظهر أن الحكم كان في أول الإسلام في الزنى الإمساك للنساء في البيوت

---

1) ممن ناقش دعوى النسخ في الآية ابن الجوزي في (نواسخ القرآن) ص 288-290. حيث ذكر في الآية عند القائلين بإحكامها قولين :

– الأول هو أن الآية خبر مؤكد لا يتبل النسخ وأورد آثارا كثيرة في هذا المعنى والثاني أنها عامة دخلها التخصيص. وراجع كتاب : النسخ في القرآن الكريم ص : 703-704.

2) النساء : 15-16.

3) هو قوله تعالى : ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ (النور :2).

4) النساء : 16.

بعد الأذى والتوبيخ...ثم نسخ ذلك كله بالحدود وهو جلد البكر مائة وتغريبه عاما ورجم المحصن والله تعالى أعلم».[1]

فابن عجيبة قد ذهب هنا مذهب معظم العلماء والمفسرين في أن آيتي سورة النساء في عقوبة الزواني والزناة منسوختان بآية الحد في سورة النور، وذكر ابن الجوزي[2] أنه «لا يختلف العلماء في نسخ هذين الحكمين عن الزناة» وصرح ابن كثير[3] بوقوع الإتفاق على النسخ.

ب) في قوله تعالى : ﴿**ياأيها الذين ءامنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم**﴾[4]، يقول ابن عجيبة بعد تفسيره للآية : «لكنه نسخ بقوله تعالى : ﴿**أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات**﴾[5]، ثم قال : ذلك التقديم للصدقة خير لكم في دينكم وأطهر لنفوسكم من رذيلة البخل، ولأن الصدقة طهرة فإن لم تجدوا ما تتصدقون به فإن الله غفور رحيم في ترخيص المناجاة من غير صدقة، قيل كان ذلك عشر ليال ثم نسخ، وقيل ما كان إلا ساعة من نهار، وعن علي كرم الله وجهه أنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن عشر مسائل فأجابني عنها ثم نسخ الصدقة ».[6]

أ) ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**يأيها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾[1]، حيث قال : «لما نزلت قالوا يا رسول الله من يقوى على هذا وشق عليهم فنزلت ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾[2] فنسختها[3]، وقال مقاتل : معناه اتقوا الله حق تقاته فإن لم تستطيعوا فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، وعن أنس بن مالك قال : لا يتقي الله عبد حَقَّ تقاته حتى يخرس لسانه، وقال : ليست بمنسوخة[4] لأن من جانب ما نهى الله عنه وفعل من الطاعات ما استطاع فقد اتقى الله حق تقاته».

ويأبى ابن عجيبة إلا أن يوجه القولين توجيها إشاريا صوفيا على أساس أن كل وجه من الوجهين له أهله ليبلغ إلى نتيجة مفادها أنه لا نسخ ولا تعارض فيقول في باب الإشارة من تفسير الآية : «فهذه الآية خطاب لأهل الإحسان و«فاتقوا الله ما استطعتم» خطاب لأهل الإسلام والإيمان، أو هذه الآية لأهل التجريد والثانية لأهل الأسباب أو هذه لأهل الباطن والثانية لأهل الظاهر، فلكل آية أهل ومحل فلا نسخ ولا تعارض».[5]

وقد حاول بعض العلماء والمفسرين التوفيق بين الوجهين على نحو قريب مما ذكره ابن عجيبة : فهذا ابن الجوزي يقول في نواسخه : «...عن ابن عباس (ض) قال : لم تنسخ ولكن حق تقاته : أن يجاهدوا في الله حق جهاده ولا تأخذهم في الله لومة لائم ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم، وهذا مذهب طاووس وهو الصحيح، لأن التقوى : هو اجتناب ما نهى الله عنه، ولم ينه عن شيء ولا أمر به إلا وهو داخل تحت

---

1) آل عمران : 102.

2) التغابن : 16.

3) روي نسخ الآية عن عدد من التابعين، أنظر تفسير الطبري 20/4.

4) ذكر هذا القول أيضا عن ابن عباس وطاووس، تفسير الطبري 20/4.

5) البحر المديد : 133/4.

«الطاقة» فالآيتان متوافقتان، والتقدير : اتقوا الله حق تقاته ما استطعتم...».[1]

ب) عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك...**﴾[2]، قال : «يقول الحق جل جلاله لرسوله عليه السلام : وأمرناك أن تحكم بينهم أي بين اليهود بما أنزل الله، قيل هو ناسخ للتخيير المتقدم، وقيل لا، والمعنى أنت مخير فإن أردت أن تحكم بينهم فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم الباطلة التي أرادوا أن يفتنوك بها».[3]

4 – بالنسبة لآية السيف[4] التي نسخت في رأي كثير من العلماء والمفسرين كل آيات الصفح والإعراض عن المشركين وغير ذلك نجد ابن عجيبة يقف من ذلك موقفا وسطا فهو يثبت نسخ كثير منها بآية السيف لكنه لا يتردد في إنكار وقوع النسخ في بعضها رادا بذلك دعوى النسخ بآية السيف. فمن الآيات التي جزم بنسخها بآية السيف ما يلي :

أ) في قوله تعالى : ﴿**ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل...**﴾[5]، قال : «وما أنا عليكم بوكيل أي موكل عليكم فنقهركم على الإيمان وإنما أنا بشير ونذير، وهو منسوخ بآية السيف».[6]

ب) في قوله تعالى : ﴿**واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق...**﴾[7]،

---

1) ابن الجوزي : نواسخ القرآن ص : 244.

2) المائدة : 49.

3) البحر المديد 145/1.

4) هي قوله تعالى : ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم..﴾ الآية 5 من سورة التوبة.

5) يونس : 108.

6) البحر المديد : 71/2.

7) النساء : 90.

قال : «وكان هذا أول الإسلام ثم نسخ بقوله : ﴿**فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم...**﴾ الآية.[1]

ج) في قوله تعالى : ﴿**وأعرض عن المشركين**﴾[2]، قال : «وأعرض عن المشركين ولا تحتفل بأقوالهم ولا تلتفت إلى رأيهم، وهذا إعراض عن عقابهم وقتالهم، وهو منسوخ بآية السيف».[3]

ومن الأمثلة التي رد فيها ابن عجيبة دعوى النسخ بآية السيف ما يلي:

أ) في قوله تعالى : ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء...**﴾.[4] قال : «وقيل لا يجوز المن ولا الفداء لأن الآية منسوخة» بقوله : «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم». فيتعين قتلهم والصحيح أنها محكمة.[5]

ب) في قوله تعالى : ﴿**لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير**﴾[6]، يقول ابن عجيبة : «لا حجة بيننا وبينكم أي لا خصومة لأن الحق قد وضح ولم يبق للمحاجة حاجة ولا للمخاصمة محل سوى المكابرة، الله يجمع بيننا يوم القيامة وإليه المصير

---

1) البحر المديد : 120/1.

2) الحجر 91.

3) البحر المديد : 172/1.

4) محمد : 4.

5) البحر المديد : 434. وهذا الذي رجحه ابن عجيبة هو مذهب ابن عمر ومجاهد وأحمد والشافعي، في حين ذهب ابن جريج والسدي وأبو حنيفة إلى القول بنسخها بآية السيف (تفسير الطبري 27/26) وتعتبر هذه الآية من سورة محمد محل دعوى أخرى تقوم على أساس أن آية السيف تعتبر منسوخة بها، ومبنى هذه الدعوى أن حكم الأسارى كان وجوب قتلهم ثم نسخ بقوله (فإما منا بعد وإما فداء). أنظر : التسهيل لابن جزي 71/2 وكتاب : النسخ في القرآن الكريم 514/2.

6) الشورى : 15.

7) البحر المديد 5/4 ورجح ابن الجوزي في نواسخه ص : 449 أن تكون الآية محكمة، قال : «هو الصحيح» أما ابن كثير في تفسيره 109/4 فيورد قول النسخ عن السدي ثم يرد ذلك بأن هذه مكية وأن آية السيف نزلت بعد الهجرة.

: المرجع، فيظهر هنالك حالنا وحالكم، وهذه محاججة لا متاركة فلا نسخ فيها».[7]

ج) في قوله تعالى : ﴿**وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما**﴾[1]، يقول ابن عجيبة : «قيل نسختها آية القتال وفيه نظر فإن الإغضاء عن السفهاء مستحسن شرعا ومروءة فلا ينسخ».[2]

المبحث الثاني :

مناسبات الآي والسور

المناسبة في اللغة بمعنى المشاكلة والمقاربة، وأصله من النسب أي القرابة، وفلان نسيب فلان أي قريبه[3]، ويراد بعلم المناسبة البحث عن الرابط بين الآيات بعضها ببعض في السورة الواحدة أو المعنى الرابط بين السورة والتي تليها من سور القرآن الكريم. وقد تحدث ابن عجيبة عن هذا العلم في تفسيره الكبير للفاتحة غير أنه ربطه بمسألة ترتيب الآي والسور حيث أكد على أن ترتيب الآيات واتصال بعضها ببعض يعتبر وحيا من الله تعالى، فقد كان عليه السلام إذا نزلت عليه آية يقول : «اجعلوها في مكان كذا من سورة كذا». أما ترتيب السور فقد رجح المؤلف كونه من اجتهاد

---

1) الفرقان : 63.

2) البحر المديد : 85/3 وقد أورد ابن الجوزي هذه الآية ضمن الآيات اللواتي ادعي عليها النسخ فأثبت إحكامها قائلا : قيلت نسخت بآية السيف وهذا باطل لأن اسم الجاهل يعم المشرك وغيره، فإذا خاطبهم مشرك قالوا السداد والصواب في الرد عليه، وحسن المحاورة في الخطاب لا ينافي القتال فلا وجه للنسخ » نواسخ القرآن ص : 415.

3) أنظر القاموس المحيط 132/1 والبرهان في علوم القرآن 35/1.

الصحابة رضوان الله عليهم حيث قدموا الأطول فالأطول، وعزز رأيه بقول السيوطي في إتقانه : «وأما ترتيب السور فهل هو توقيفي أيضا أو باجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم فخلاف، فجمهور العلماء على الثاني منهم مالك والقاضي أبو بكر في أحد قوليه.[1]

وأورد كلام ابن فارس : «جمع القرآن على ضربين : أحدهما تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين فهذا هو الذي تولته الصحابة، وأما الجمع الآخر جمع الآيات في السور فهو توقيفي تولاه النبي ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه، ومما استدل به لذلك اختلاف مصاحف السلف في ترتيب السور...».[2]

لقد مهد ابن عجيبة كلامه عن علم المناسبة بهذا الحديث عن ترتيب الآي والسور، وذلك لارتباط هذا بذاك، ولاختلاف العلماء فيما إذا كان لهذا الترتيب مناسبة أم لا، وهو الإختلاف الذي خرج منه صوفينا بترجيح قول جمهور المحققين من أنه لابد من مناسبة بين كل آية مع أختها وبين كل سورة مع صاحبتها، إذ لا يكمل نظم القرآن وإعجازه إلا بتناسب أجزائه.

وذكر ابن عجيبة أشهر المؤلفات في هذا العلم فاقتصر على كتابين :

أ) البرهان في ترتيب سور القرآن لأبي جعفر بن الزبير[3] (ت 708 هـ).

---

1) الذي يظهر أن المؤلف وإن ذهب مذهب القائلين بأن ترتيب السور من اجتهاد الصحابة إلا أنه يقر بأن كثيرا من السور كان قد علم ترتيبها في حياته ﷺ كالسبع الطوال والحواميم والمفصل، وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده. تفسير ابن عطية 35/1.

2) تفسير الفاتحة الكبير ص : 68. ويقصد ابن عجيبة باختلاف مصاحف السلف اختلاف الصحابة في ترتيب مصاحفهم، فمنهم من كتب السورفي المصحف على تاريخ النزول وقدم المكي على المدني ومنهم من جعل أوله سورة«إقرأ» وهو أول مصحف علي، وقد ذهب إلى نفس الرأي من المفسرين المغاربة ابن عطية في مقدمة تفسيره 34/1 الذي استند إلى قول أبي بكر الباقلاني وكذا ابن جزي في تفسيره 4/1.

3) هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي. كان من أشهر المحدثين والمقرئين، تخرج به العديد من أعيان غرناطة منهم أبو حيان صاحب «البحر المحيط» وابن جزي صاحب «التسهيل». انظر ترجمته في : الديباج المذهب 188/1 والبدر الطالع ط 1948/1 القاهرة 133/1.

ب) نظم الدرر في تناسب الآي والسور لبرهان الدين البقاعي[1] (ت 885 هـ).

وتحدث ابن عجيبة عن آراء العلماء في هذا العلم فاقتصر على إيراد أقوال المؤيدين والقائلين بضرورة الإلمام بهذا الفن، وهكذا ذكر أقوال الفخر الرازي وأبي بكر بن العربي وأبي بكر النيسابوري[2]، كما ذكر قول الإمام العز بن عبد السلام الذي يعتبر متحفظا في ذلك حيث اشترط في حسن ارتباط الكلام «أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه...».[3]

وإذا انتقلنا من حديث ابن عجيبة عن علم المناسبة وأهميته إلى صلب التفسير وجدنا المؤلف يعتني بهذا العلم اعتناءا بالغا ويوليه أهمية قصوى، وقد بلغ مدى الإهتمام والإحتفاء بعلم المناسبات بين الآي والسور في تفسير ابن عجيبة حدا جعله ينص على لطائف منه في كل صفحة من صفحات «البحر المديد»، بل إنه في كثير من الأحيان لا يكاد يغفل ذكر وجه المناسبة بين مجموعة من الآيات يفسرها في آن واحد وبين مجموعة أخرى تعقبها، فتفسير «البحر المديد» يعتبر حافلا بالبحث في لطائف التناسب المعنوي[4]، ولقد كان المؤلف بذلك موفيا بوعده عندما قال مختتما الحديث

---

1) هو إبراهيم بن عمر برهان الدين البقاعي، نسبة إلى البقاع من بلاد سورية، مفسر، مؤرخ، أديب، استقر بالقاهرة مدة من الزمن، وأخذ عن ابن حجر، كما أخذ عنه السيوطي، وقد أثنى عليه الشوكاني في كتابه: البدر الطالع 19/1.

2) هو أبو بكر بن محمد بن زياد النيسابوري الفقيه الشافعي، سكن بغداد وصار إماما للشافعية بالعراق (ت 324)، أنظر شذرات الذهب 302/2.

3) تفسير الفاتحة الكبير ص : 69. وراجع البرهان 37/1 والإتقان 370/1.

4) اهتم ابن عجيبة كذلك بذكر المناسبات التي يمكن أن تربط بين مختلف الحكم العطائية، وذلك أثناء شرحه لها، من أمثلة ذلك قوله : ولما كان الوهم ينشأ عنه الطمع، والطمع ينشأ عنه الذل والعبودية، واليقين ينشأ عنه العز والحرية نبه عليه بقوله : (أنت حر مما أنت عنه آيس وعبد لما أنت فيه طامع)، إيقاظ الهمم 95/1.

عن علم المناسبة في تفسير الفاتحة الكبير : «وسأعتني بهذا الغرض جهدي إن شاء الله».[1]

ويعتبر هذا المنزع الجليل الذي يتميز به تفسير ابن عجيبة واحدا من أهم الأمور التي تحمد للمؤلف خاصة إذا علمنا أنه ومن خلال ما سبق بيانه في الفصول السابقة لا يكاد يهتم بالعلوم والمباحث المتصلة بعلم الظاهر التي أشبعها المفسرون بحثا وتحقيقا إلا بقدر قليل، ولا شك أن المؤلف قد اقتنع بأهمية هذا العلم فيما يخص التأكيد من جهة على وحدة السورة وترابطها وتناسق أجزائها وائتلاف أطرافها. والإفادة منه من جهة أخرى في استلهام أصح التفسيرات وأرجح التأويلات، خاصة فيما تعلق بربط أسباب نزول الآي بقضية التناسق الفني والترتيب المناسب. ولذلك لم يبالغ المفسرون كما يقول د. صبحي الصالح رحمه الله : «حين قدموا أحيانا ذكر المناسبة بين الآيات على معرفة سبب نزولها كلما رأوا هذه المناسبة هي المصححة لنظم الكلام، ولعلهم بلغوا ذروة التحقيق العلمي حين أوجبوا البداءة بذكر سبب النزول حين يكون وجه المناسبة متوقفا على معرفة الأسباب».[2]

وقد أفصح ابن عجيبة من خلال تفسيره عن كثير من وجوه المناسبات وبين أنواعا من مظاهر التناسب بين الآي والسور يمكن إجمالها فيما يلي :

1 – مناسبات ترتيب آياته وائتلافها وارتباط بعضها ببعض وتلاحمها وتناسقها.

2 – مناسبة أوائل السورة لأواخرها.[3]

---

1) تفسير الفاتحة الكبيرص : 70.

2) مباحث في علوم القرآن ط 1977/10. دار العلم للملايين، بيروت ص : 150.

3) أفرد السيوطي هذا النوع بالتأليف في كتابه : «مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع».

3 – مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقت له والموضوع الذي تضمنته.

4 – مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها.

5 – مناسبات ترتيب سوره وحكمة وضع كل سورة منها.[1]

وسأحاول فيما يلي تقديم نماذج وأمثلة توضح مختلف مظاهر التناسب التي تعرض لها المؤلف في تفسيره واستطاع تجليتها وكشف أغوارها للقارئ بكثير من الدقة والبيان، مما يبرز لنا جهد ابن عجيبة التفسيري في رصد ما بين الآيات والسور من المعاني المتوافقة والمناسبات اللطيفة مؤكدا على الترابط القوي بين عناصر النظم القرآني.

1 – اهتم ابن عجيبة بالبحث في لطائف التناسب بين الآيات كثيرا، ويعتبر هذا المظهر من مظاهر التناسب في القرآن الكريم أبرز جانب في «البحر المديد» إذ احتفى به المؤلف كثيرا وأولاه عناية كبيرة. من أمثلة ذلك:

أ) يذكر لنا ابن عجيبة وجه المناسبة بين قوله تعالى : ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون...وأنتم تعلمون**﴾[2]، والآيات التي سبقتها فيقول : «ولما ذكر الحق جل جلاله من تحلى بالإيمان ظاهرا وباطنا ومن تحلى بضده كذلك، ومن أخفى الكفر وأظهر الإيمان دعا الكل إلى توحيده وعبادته فقال : ﴿**ياأيها الناس اعبدوا ربكم...**﴾ الآية[3]، أقول : واضح أن المؤلف يقصد بقوله هذا تعرض الآيات

---

1) ألف فيه ابن الزبير وقد سبق ذكر كتابه، كما ألف فيه السيوطي كتابه «تناسق الدرر في تناسب السور» (دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطاط 1986/1. دار الكتب العلمية ببيروت)، كما ألف فيه من المحدثين الشيخ عبد الله محمد الصديق الغماري رحمه الله، وسمي كتابه : «جواهر البيان في تناسب سور القرآن» ذكر في خاتمته أنه فرغ من تأليفه عام 1385 هـ (ط 1986/2. ببيروت).

2) البقرة : 21-22.

3) البحر المديد : 10/1.

لحال المؤمنين ثم حال الكفار وأخيرا حال المنافقين، وهو ما عبر عنه بوضوح عند تفسيره للآيات التي تناولت أحوال المنافقين قائلا :

«افتتح الحق جل جلاله بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، ثم ثنى بالكافرين الذين محضوا الكفر ظاهرا وباطنا ثم ثلث بالمنافقين الذين ءامنوا بأفواههم ولم تومن قلوبهم وهو أخبث الكفرة لأنهم خلطوا بالكفر استهزاء وخداعا، ولذلك كانوا في الدرك الأسفل من النار».[1]

ب) بعد تفسيره لآية الإفك من سورة النور انتقل إلى تفسير آية الإستئذان فربط بين الآيتين بذكر مناسبة لطيفة فقال باختصار : «ولما كان سبب الإفك هو تهمة الخلوة أمر بالإستئذان فقال : ﴿**يا أيها الذين ءامنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلك خير لكم لعلكم تذكرون...**﴾ الآية.[2] وبعد تفسيره لآية الإستئذان انتقل إلى تفسير الآية التي بعدها فربط بين هاته وتلك بقوله : «ولما كان الإستئذان إنما شرع من أجل النظر أمر بغض البصر فقال : ﴿**قل للمومنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون...**﴾[3].[4]

ج) من لطيف التناسب في القصص القرآني ما ذكره ابن عجيبة من وجه المناسبة بين قصة أهل الكهف وقصة موسى عليه السلام مع سيدنا الخضر حيث قال : «ولما ذكر الحق تعالى قصة أهل الكهف وكان وقع فيها عتاب للرسول عليه الصلاة والسلام حيث لم يستثن بتأخير الوحي بقوله : «ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله» ذكر هنا قصة موسى مع الخضر عليهما الصلاة والسلام وكان سببها عتاب الحق لموسى عليه

---

1) نفسه 9/1 وقارن بنظم الدرر للبقاعي، طبعة مصورة بالقاهرة عن الطبعة الهندية 1969 (144/1).

2) النور: 27.

3) النور : 30.

4) البحر المديد : 63/3 وقارن بنظم الدرر : 248/3.

السلام حيث لم يرد العلم إليه حيث قال له القائل : هل تعلم أحدا أعلم منك فقال : لا فذكر الحق تعالى قصتهما تسلية لنبينا عليه الصلاة والسلام...».[1]

د) من بديع المناسبات التي وظف فيها ابن عجيبة معرفته الصوفية مستندا إلى التقسيم الثلاثي المعروف لدى الصوفية لحقيقة الإسلام : شريعة/طريقة/ حقيقة، ما أورده للربط بين آية النور ومختلف الأحكام الشرعية المذكورة قبلها حيث قال : «ثم إن أنوار الشريعة وهي أحكام المعاملة الظاهرة تهدي إلى أنوار الطريقة وهي أحكام المعاملة الباطنية، وأنوار الطريقة تهدي لأنوار الحقيقة، وأنوار الحقيقة تصير الكون كله نورا كما قال تعالى[2] : ﴿**الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح...**﴾ الآية.[3]

2 – من مظاهر وحدة السور وتناسب أجزائها مناسبة مطلعها لخاتمتها، وقد نص ابن عجيبة على ذلك في بعض السور، وهو قليل جدا، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما يلي :

أ) ما لاحظه في سورة المومنين حيث قال في آخرها : «بدئت السورة الكريمة بتقرير فلاح المومنين وختمت بنفي فلاح الكافرين تحريضا على الإيمان وعلى ما يوجب بقاءه وتنميته من التمسك بما جاء به التنزيل وبما جاء به النبي الجليل ليقع الفوز الجزيل...».[4]

---

1) نفسه : 165/2.

2) النور : 35.

3) البحر المديد : 66/3. وانظر نظم الدرر 272/13.

4) البحر المديد : 553. وقد نص الزمخشري على هذه المناسبة اللطيفة في الكشاف 45/3. ووصف الشيخ عبد الله الصديق الغماري هذا النوع من المناسبة بتناسب التضاد بين المطلع والمقطع. (جواهر البيان ص : 67).

ب) ذكر في آخر سورة الإسراء مناسبة آخر آية منها بمطلع السورة فقال : «وختم السورة بآية العز[1] إشارة إلى أن من أسري بروحه أو بجسده إلى الملأ الأعلى كان عاقبته العز والرفعة في الدارين».[2]

3 – مما اهتم به ابن عجيبة من مظاهر التناسب القرآني بيان مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها، وهو مطرد في تفسيره بشكل لافت للإنتباه. ويذكره غالبا بعد تنصيصه على عدد آي السورة، من ذلك على سبيل المثال:

أ) ما ذكره في أول سورة العنكبوت عند قوله تعالى : ﴿**ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا ءامنا وهم لا يفتنون وقد فتنا الذين من قبلهم...**﴾ الآية حيث قال : «هي كالتعليل لخاتمة ما قبلها[3] من البشارة بالنصر لأنه لا يكون في الغالب إلا بعد الإمتحان».[4]

وكما نص المؤلف على وجه المناسبة بين مطلع سورة العنكبوت وخاتمة سورة القصص في أول «العنكبوت» نص على ذلك أيضا في آخر «القصص» فقال : وفي الآية وعد بالنصر وأن العاقبة الحسنة والخير الجسيم للنبي ﷺ لا يختص بالآخرة بل يكون في الدنيا له ولمتبعيه ولكن بعد الإبتلاء والإمتحان كما في صدر السورة الآتية بعدها، وبهذا يقع التناسب بينهما فإنها كالتعليل لما قبلها.[5]

ب) عند تفسيره لأول سورة الفرقان وهو قوله تعالى : ﴿**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره**

---

1) المقصود بها قوله تعالى : ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا﴾ (الإسراء : 111).

2) البحر المديد : 158/2.

3) هي الآية 88 من سورة القصص.

4) البحر المديد : 125/3 وانظر نظم الدرر 384/14.

5) نفسه : 124/3.

تقديرا﴾[1]، قال : «ومناسبتها لما قبلها ما في خاتمتها (أي خاتمة سورة النور) من تعظيم الرسول عليه السلام[2] وما افتتحت به من تعظيمه أيضا بكونه نذيرا للعالمين، وناسب قوله في هذه : ﴿**الذي له ملك السماوات والأرض**﴾ قوله فيما قبلها : ﴿**ألا إن لله ما في السماوات والأرض**﴾[3]».[4]

4 – أما مناسبة السور فيما بينها وترابط بعضها ببعض فقد أشار ابن عجيبة إلى بعض ذلك بالرغم من أنه انتصر للرأي القائل بأن ترتيب السور ليس توقيفيا، وهكذا ربط بين الأغراض التي سيقت لها السورة والأغراض التي تضمنتها السورة التي قبلها على وجه يكشف الأسرار التي أودعها الله تعالى في كتابه من خلال ترتيب السور، من أمثلة ذلك :

أ) ما ذكره في أول سورة المائدة حيث قال : «وهي تكملة لما تضمنته سورة النساء من الأحكام الستة ولذلك افتتحها بالوصية على الوفاء بها فقال : ﴿**ياأيها الذين ءامنوا أوفوا بالعقود**...﴾ أي بالعهود التي عهدنا إليكم أن تحفظوها، وهي حفظ الأموال وحفظ الأنساب وحفظ الأديان وحفظ الأبدان وحفظ اللسان وحفظ الأيمان، ثم مر بها على الترتيب، فما ذكره هناك مستوفى لم يعد منه هنا إلا أصله، ومابقي هناك في أصل من الأصول الستة كمله هنا.[5]

---

1) الفرقان : 1-2.

2) هو قوله تعالى : ﴿لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا..عذاب أليم﴾ (النور 63).

3) النور : 64.

4) البحر المديد : 74/3 وقارن بنظم الدرر 329/13.

5) نفسه 134/1. ونقل الشيخ عبد الله الصديق الغماري رحمه الله قول الصاوي في حاشيته على الجلالين : «وجه المناسبة بينها (أي المائدة) وبين ما قبلها أنه حيث وعدنا الله بالبيان كراهة وقوع الضلال منا تمم ذلك الوعد بذكر هذه السورة فإن فيها أحكاما لم تكن في غيرها، وقال : من تدبر هذه السورة وجد فيها أحكاما أخرى لم تذكر في غيرها. جواهر البيان ص : 32. وحاشيه الصاوي على الجلالين 150/1.

وقال السيوطي : وأما اعتلاقها (أي المائدة) بسورة النساء فقد ظهر لي فيه وجه بديع جدا وذلك أن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحا وضمنا. فالصريح عقود الأنكحة وعقد الصداق وعقد الحلف في قوله : ﴿**والذين عقدت إيمانكم فآتوهم نصيبهم**﴾ وعقد الإيمان في هذه الآية، وبعد ذلك عقد المعاهدة والأمان في قوله : ﴿**الاالذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق**﴾... فناسب أن يعقب بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود...فكان ذلك غاية في التلاحم والتناسب والإرتباط .(تناسق الدرر في تناسب السور ص : 81).

ب) ربط ابن عجيبة مناسبة ترتيب السور الثلاث : الضحى، الشرح، التين برباط لطيف، وأوجد تناسبا قويا بينها فقال في أول سورة الشرح : هي تتميم لما قبلها في تعديد النعم فهما كالسورة الواحدة، فقوله : «ألم يجدك يتيما فآوى إلى قوله : ورفعنا لك ذكرك كله تعديد نعم عليه فيما مضى تقوية لرجائه وتسلية له عن أذى الكفار، ولذا ختمها بقوله : فإن مع العسر يسرا».[1]

وفي مستهل تفسير سورة التين قال : ومناسبتها أنه لما ذكر ما خص به سيد الخلق ذكر ما خص به سائر الخلق في كونه خلقه في أحسن تقويم».[2]

5 – إذا كان ابن عجيبة لا يشير إلى مصادره فيما ينقله من وجوه المناسبة عندما يقتصر على ذكر وجه واحد فإنه لا يتردد أحيانا في سوق أقوال متعددة ترمى إلى إجلاء مختلف الإحتمالات[3] والتفسيرات الواردة من أجل بيان حكمة الترتيب وعلة التناسق والترابط، وهو في مثل هذه الحالة يشير أحيانا إلى المصادر التي حكت الإختلاف.

أ) في فاتحة سورة السجدة تحدث ابن عجيبة عن مناسبة السورة لما قبلها فقال : ومناسبتها لما قبلها قوله : الله الذي خلق السماوات...إلى آخر الآيات، فإنها كالإستدلال على قيام الساعة التي خوف بها في ختام

---

1) البحر المديد 208/4. وقد تحدث أبو جعفر بن الزبير عن تناسق مضمون السورتين بقوله : «معنى هذه السورة (أي الشرح) من معنى السورة التي قبلها، وحاصل السورتين تعداد نعمه عليه سبحانه» ثم بين علة عدم تنسيق ذكر هذه النعم في سورة واحدة. أنظر : البرهان في ترتيب سور القرآن، تح محمد شعباني، طبع وزارةالأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط 1990 ص : 368.

وذكر السيوطي أن سورة الشرح شديدة الإتصال بسورة الضحى لتناسبهما في الجمل، ولهذا ذهب بعض السلف إلى أنهما سورة واحدة بلا بسملة بينهما. تناسق الدرر ص: 138 وانظر روح المعاني للألوسي 165/30.

2) البحر المديد : 208/4.

3) قد يعبر عن وجه المناسبة في شكل احتمال، فيقول مثلا : «ويحتمل في وجه المناسبة أن يكون...» أنظر مثلا 36/1 عند قوله تعالى : ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا...﴾ الآية.

السورة بعد تقرير الرسالة.[1] وقيل المناسبة هي ما بعد هذه من تبيين الرسالة التي هي مستند ما ذكر قبلها من المعاد ودلائل التوحيد».[2]

ب) قد ينقل المؤلف وجوه المناسبة عن المحشي الفاسي كما في قوله تعالى : ﴿**ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون...**﴾ الآيات[3] حيث قال : «ذكر في الحاشية وجوها من المناسبة فقال : لما استطرد ذكر الفلك ناسب ذكر نوح إثره لقوله : اصنع الفلك وأيضا هو أبو البشر الثاني، فذكره كما ذكر أولا آدم في ذكر خلق الإنسان، وأيضا في ذكر قصته نجاة المومنين وفلاحهم فناسب صدر السورة وهلاك الكافر وهو ضد المومن، كما صرح بذلك في قوله في آخرها أنه لا يفلح الكافرون، وفي النجاة في الفلك مناسبة للنعم المقررة قبل ذكره، هـ».[4]

ج) قد يذكر اختلاف المفسرين في بحث وجوه المناسبة، من ذلك مثلا: ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه**﴾[5]، حيث قال : «اختلف المفسرون في وجه المناسبة في هذه الآية فقال بعضهم : ما تضمنه من الإقتدار على حفظه وإبقائه في قلبه بإخراجه عن كسبه وإمساكه وحفظه، فالقادر على ذلك على إحياء الموتى وجمع عظامها، ونقل الطيبي عن الإمام الفخر[6] أنه تعالى لما أخبر عن الكفار أنهم يحبون العاجلة وذلك قوله : ﴿**بل يريد الإنسان ليفجر إمامه**﴾[7] بين أن العجلة

---

1) جواهر البيان في تناسب سور القرآن ص : 78.

2) البحر المديد : 148/3 وقارن بنظم الدرر 134/17.

3) المومنون : 23.

4) البحر المديد : 49/3 وانظر حاشية الفاسي على الجلالين(مخطوط سابق الذكر)149/1

5) القيامة : 16-19.

6) تفسير الرازي : 223/30.

7) القيامة : 5.

مذمومة ولو فيما هداهم من أمور الدين بقوله : لا تحرك به لسانك، فاعترض به ليؤكد التوبيخ على حب العاجلة بالطريق الأولى (هـ)، وقيل اعترض نزولها في وسط السورة قبل أن تكمل، فوضعت في ذلك المحل كمن كان يسرد كتابا ثم جاء سائل يسأل عن نازلة فيطوي الكتب حتى يجيبه ثم يرجع إلى تمام سرده أنظر الإتقان[1]».[2]

المبحث الثالث :

أسباب النزول.

تعتبر معرفة سبب نزول الآيات أمرا لازما لكل من أقدم على تفسير القرآن الكريم إذ أنه السبيل القويم لفهم الكتاب العزيز. وقد نص ابن عجيبة على اعتبار سبب النزول ضمن العلوم الضرورية للمفسر وذلك ضمن حديثه عن شروط المفسر وآدابه والعلوم التي يحتاج إليها[3]، وقال الواحدي في كتابه أسباب النزول «إنها أي معرفة سبب النزول أوفى ما يجب الوقوف عليها وأولى ما تصرف العناية إليها لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها»[4]، إلا أن عبارة الواحدي فيها شيء من المبالغة إذا كان القصد منها العموم، إذ من المعلوم أن كثيرا

---

1) الإتقان 330/3. وقد أورد المثال نقلا عن الرازي لكن بصيغة مخالفة تماما.

2) البحر المديد 169/4، وقارن بنظم الدرر حيث أورد البقاعي عدة وجوه من المناسبة.

3) تفسير الفاتحة الكبير ص : 60.

4) الواحدي : أسباب النزول ص : 4.

من الآي لا يتوقف تفسيرها على معرفة سبب النزول مادام أنه ليست كل الآيات لها أسباب نزول.

ويعطى لكل ما جاء عن الصحابة في ذكر سبب نزول الآيات حكم المرفوع[1]، يقول الحاكم في كتابه : معرفة علوم الحديث : «إذا أخبر الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا فإنه حديث مسند»[2]، فيتبين بهذا أن بحث موقف ابن عجيبة من أسباب النزول يدلنا أكثر على مدى احتجاجه بالأثر وتركيزه على التفسير بالمأثور في كتابه : البحر المديد.

وقد عني ابن عجيبة بأسباب النزول أيما عناية وتوسع في ذكرها كثيرا إيمانا منه بضرورة اعتمادها كمعين أساسي على فهم الآيات وتفسيرها، وقد يورد سبب النزول في أول تفسيره للآية أو في أثناء ذلك[3]، وقد يورده أحيانا أخرى في آخر التفسير.[4]

وإذا وردت في الآية أسباب نزول متعددة فإن ابن عجيبة يوردها دون ترجيح بينها في الغالب كما عند تفسير قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين ءامنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم**﴾[5]، حيث يقول : «قيل سبب نزول الآية كثرة سؤال الناس له عليه السلام من الأعراب والمنافقين والجهال فكان الرجل يقول للنبي عليه السلام : أين ناقتي وآخر يقول : ماذا ألقى في سفري، ونحو هذا من التعنيت حتى صعد المنبر عليه السلام مغضبا فقال :

---

1) يجب التنبه إلى ما قد يقول فيه الصحابي : نزلت هذه الآية في كذا دون ذكر السبب الذي نزلت الآية عقبه، فقد ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يعطى له حكم المسند بل هو من قبيل ما يقال بالإستدلال والتأويل، لا من جنس النقل لما وقع. (ينظر البرهان للزركشي 311 ومقدمة ابن تيمية ص: 48).

2) معرفة علوم الحديث ص : 62 والإتقان 115/1.

3) كما عند تفسيره لقوله تعالى:﴿والذين يرمون أزواجهم...﴾ الآية البحر المديد:60/3.

4) كما عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاما...﴾ الآية البحر المديد:85/3.

5) المائدة : 101.

لا تسألوني اليوم عن شيء إلا أخبرتكم فقال رجل : اين أنا، فقال في النار. وقام عبد الله بن حذافة وكان يطعن في نسبه فقال من أبي فقال : حذافة وقال آخر من أبي، قال أبوك سالم مولى شيبة فقام عمر بن الخطاب فجثا على ركبتيه فقال رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا، نعوذ بالله من الفتن فنزلت هذه الآية، وقيل سبب نزولها أن رسول الله ﷺ خطب فقال : أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا، فقالوا : يا رسول الله أكل عام، فسكت. فأعادوا فقال لا، لو قلت نعم لوجبت لم تطيقوه، ولو تركتموه لهلكتم فاتركوني ما تركتكم».[1]

وقد يورد عدة أسباب نزول ويرجح بينها[2]، كما في تفسير قوله تعالى : ﴿**ياأيها النبيء لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك**﴾[3]، حيث قال : « في سبب نزول الآية روايتان إحداهما أن رسول الله ﷺ جاء يوما إلى بيت زوجه حفصة فوجدها ذهبت لزيارة أبيها فبعث إلى جاريته مارية فقام معها في البيت، فجاءت حفصة، فقالت : يا رسول الله : أما كان في شأنك أهون مني أتفعل هذا في بيتي وعلى فراشي، فقال لها عليه السلام : أيرضيك أن أحرمها : فقالت نعم، فقال إني قد حرمتها... إلى آخر الرواية، والرواية الثانية أنه عليه السلام كان يدخل على زوجه زينب بنت جحش فتسقيه عسلا... إلى آخر الرواية. فنزلت الآية[4] عتابا له على أن ضيق على نفسه تحريم الجارية أو العسل، والرواية الأولى أشهر عند المفسرين، والثانية أخرجها البخاري في صحيحه، ولهذا قال ابن جرير الطبري في تفسيره بعدها أورد مختلف الروايات في سبب نزول الآية:

---

1) البحر المديد : 154/1. وينظر أسباب النزول للواحدي ص : 120 وتفسير الطبري 51/7-53. وقد أورد البخاري الرواية الأولى في صحيحه، كتاب التفسير 106/6. أما الرواية الثانية فأوردها الإمام أحمد في مسنده.

2) وهو في هذا المثال ترجيح شهرة وليس ترجيح صحة.

3) التحريم : 1.

4) البحر المديد 119/4 ،انظر أسباب النزول للواحدي ص : 247-248.

«والصواب من القول في ذلك أن يقال، كان الذي حرمه النبي ﷺ على نفسه شيئا كان الله قد أحله له، وجائز أن يكون ذلك كان جاريته، وجائز أن يكون كان شرابا من الأشربة، وجائز أن يكون كان غير ذلك، غير أنه أي ذلك كان فإنه كان تحريم شيء كان له حلالا فعاتبه الله على تحريمه على نفسه».[1]

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهو فيها لا يبخسون**﴾[2]، قال : نزلت في أهل الرياء من المومنين الذين يراءون بأعمالهم كما ورد في حديث الغازي والغني المراءين وأنهما أول من تسعر بهم جهنم، ويحتمل أن تكون نزلت في الكفار وهو أليق بقوله : ﴿**أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار...**﴾[3].[4]

ومما قام ابن عجيبة بترجيح بعضه على بعض على مستوى الصحة ما ذكره في تفسير قوله تعالى : ﴿**وما كان لمومن ولا مومنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم**﴾[5]، حيث قال : نزلت في زينب بنت جحش وأخيها عبد الله بن جحش، وكانت زينب بنت أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ، فخطبها عليه السلام لمولاه زيد بن حارثة فلما خطبها ظنت أنه يخطبها لنفسه فرضيت فلما علمت أنه خطبها لزيد كرهت وقالت أنا أم نساء قريش وابنة عمتك، فلم أكن أرضه لنفسي، وكذلك قال أخوها، وكانت بيضاء جميلة، وكان فيها بذاذة فأنزل الله الآية.

وقيل نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أول من هاجر من النساء فوهبت نفسها للنبي ﷺ فقبلها وقال : زوجتها من زيد فسخطت هي وأخوها، وقال إنما أردنا النبي ﷺ فنزلت[6]، والأول أصح.

---

1) تفسير الطبري 102/28 وينظر صحيح البخاري، كتاب التفسير 274/6.

2) هود : 15.

3) نفسه : 16.

4) البحر المديد : 74/2 وانظر تفسير الطبري 109/12.

5) الأحزاب : 36.

6) البحر المديد : 158/3 وتفسير الطبري 9/22.

ويذهب ابن عجيبة كثيرا إلى التنصيص على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فينص على أسباب النزول لكنه يجنح إلى الأخذ بالعموم الذي تدل عليه الآية مسايرا في ذلك الإتجاه الصوفي في الجواز من ظاهر ما تدل عليه الآية إلى ما يمكن أن يستفاد منها على وجه العموم لتعم العبرة وتسود الفائدة، فسبب النزول أمر ثابت والتنصيص عليه لازم، لكن لا يجدر الوقوف عنده نظرا لتجدد الخطاب الإلهي واستمرارية طرق الفهم والإعتبار، بل يجب استخراج المعنى العام الذي يمكن أن ينسحب على أمور وقضايا وفئات من الناس في كل عصر.

ولهذا نجد ابن عجيبة كثيرا ما يوجه معنى الآية التي تكون قد نزلت في شأن معين إلى أمر آخر يرى جواز انسحابه عليه[1]، إمعانا منه في التأكيد على ضرورة استبطان أكثر ما يمكن من المعاني والتوجيهات الممكنة والتي لا يخل في شيء بالمدلول العام للآيات.

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿**والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا...**﴾[2]، ينقل ابن عجيبة قول ابن عطية بأن الجمهور قد ذهبوا إلى أنها نزلت في الذين هاجروا إلى أرض الحبشة لأن الآية مكية، وهجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية، ثم يعقبه بقوله : والمختار العموم، ويكون من جملة الإخبار بما سيقع، أو هم المحبوسون بمكة، المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله ﷺ وهم بلال وصهيب وعمار...أو كل من هاجر لبلده لإقامة دينه لنبوأهم في الدنيا حسنة...».[3]

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي في جنتي**﴾[4]، أورد أسماء من

---

1) ينظر مبحث : «خصائص التفسير الإشاري عند ابن عجيبة ضمن هذا البحث.

2) النحل : 41.

3) البحر المديد : 132/2 وينظر تفسير ابن عطية.

4) الفجر : 28.

نزلت فيهم لكنه اختار الأخذ بعموم الآية وانسحابها على كل نفس مطمئنة، وقال : «قيل نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وقيل في حبيب بن عدي الذي طبه أهل مكة، والمختار أنها عامة في المومنين إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».[1]

وقد ينص ابن عجيبة في هذا السياق على سبب النزول ثم يستخلص منه معنى الآية، كما عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين ءامنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن...**﴾[2] حيث نص على نزولها في شأن كبشة بنت معن التي توفي عنها زوجها أبو قيس بن الأسلت الأنصاري ثم عضلها ابنه من غيرها وضيق عليها لتفتدي منه فشكت ذلك إلى النبي عليه السلام فنزلت الآية، يقول ابن عجيبة[3] : «فمعنى الآية على هذا لا يحل لكم أن تجعلوا النساء يورثن عن الرجال كما يورث المال».[4]

وقد يشير ابن عجيبة إلى معنى الآية أول الأمر ثم يستأنس على صحته بسبب النزول الوارد في الآية، كما في تفسير قوله تعالى : ﴿**وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب...**﴾[5]، حيث قال : «يقول الحق جل جلاله وآتوا أي اعطوا اليتامى أموالهم إذا بلغوا وأنس منهم الرشد، وسماهم يتامى بعد البلوغ اتساعا لقرب عهدهم بالصغر حثا على أن يدفع إليهم أموالهم أوّل بلوغهم قبل أن يزول عنهم هذا الإسم إذا أنس منهم الرشد، ويدل على هذا ما قيل في سبب نزول الآية وهو أن رجلا من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له، فلما بلغ طلب مال أبيه فمنعه فنزلت الآية».[6]

---

1) البحر المديد : 4/203.

2) النساء : 19.

3) البحر المديد : 1/105.

4) وذلك لأنهم كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل وله امرأة كان قريبه من عصبته أحق بها من نفسها من غيره.

5) النساء : 2.

6) البحر المديد : 1/100.

المبحث الرابع :

الحروف المقطعة

شغل المفسرون بأسرار الحروف المقطعة[1] من قديم، وأثرت أقوال مختلفة عن السلف ومن جاء بعدهم حتى إنه لا يكاد يخلو كتاب تفسير من التعرُّض لها ومحاولة ترجيح أقوال على أخرى، وقد ساق الإمام الطبري في تفسيره ما انتهى إلى عصره من أقوال السلف في الحروف المقطعة، وهي نفس الأقوال التي ما انفك يرددها جل المتأخرين من المفسرين وغيرهم، ولا يكادون يخرجون عن تلك الأقوال إلا أن يشبعوها بحثا وتفصيلا وإيضاحا.

ويعتبر الصوفية وأهل الإشارات منهم أكثر الناس تعلقا بمعرفة أسرار تلك الحروف ومحاولة ربطها بمداركهم الصوفية ذات الأبعاد التأويلية، لذلك اعتبر البحث في تأويل فواتح السور من الجوانب الأساسية التي يهتم بها مفسرو الصوفية حتى إن معظمهم يحاولون الوقوف عند بحثها والنظر في مختلف وجوهها ومعانيها ليس فقط عند تفسير (الم) من سورة البقرة، وإنما أيضا لدى افتتاح تفسير كل السور التسع والعشرين التي استهلت بها تلك الرموز. وقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الحروف تعتبر من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه[2]، ولا يجب أن نتكلم فيها ولكن نؤمن بها كما جاءت، وقال الجمهور : بل يجب أن نتكلم فيها ونلتمس الفوائد التي تحتها

---

1) افتتحت بها ست وعشرون سورة مكية وثلاث من السور المدنية المبكرة(البقرة وآل عمران والرعد)، وتعرف أيضا بفواتح السور أو حروف التهجي.

2) من هؤلاء الإمام السيوطي الذي وإن أورد كثيرا من أقوال وتأويلات العلماء إلا أنه وضعها في دائرة المتشابه، حيث بدأ الفصل الخاص بالحروف من نوع المتشابه بقوله : «ومن المتشابه أوائل السور والمختار فيها أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى : (الإتقان 21/3) وقد ذهب أبو حيان نفس المذهب. أنظر البحر المحيط : 35/1.

والمعاني التي تنبثق منها. قال ابن عطية[1] : والصواب ما قال الجمهور، فنفسر هذه الحروف ونلتمس لها التأويل لأننا نجد العرب قد تكلمت بالحروف المقطعة نظما لها ووضعا بدل الكلمات التي الحروف منها».

أما ابن عجيبة فيستشهد بكلام للحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» قسم فيه المتشابه إلى قسمين : منه ما طوي علمه إلا على الخواص كعلم فواتح السور، ومنه ما لم يصل إليه أحد من الرسل فمن دونهم وهو سر القدر لا يستقيم لهم مع العبودية ولو كشف فسدت العبودية...».[2]

وقد نقلت إلينا تأويلات السلف المختلفة لهذه الحروف منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم ومعظمها مأثور عن ابن عباس (ض) الذي يقول مثلا في (الم) : أنا الله أعلم، وفي (المص) أنا الله أفصل، وفي (الر) أنا الله أرى.[3]

وأورد السيوطي في إتقانه جل التأويلات الواردة في هذا الشأن، ويطول بنا الأمر إذا استعرضناها جميعا، غير أنه يمكن الإشارة إلى أبرز تلك التأويلات التي عليها أكثر المفسرين وهي قولهم بأنها دوال على أسماء الله الحسنى أو مفاتيح لها، فالكاف مثلا من الكريم أو الكبير والهاء من الهادي والصاد من الصمد والألف من الله وهكذا. وقيل بأنها أسماء للسور التي افتتحت بها. قال الزمخشري في الكشاف : «وعليه –أي على هذا الوجه– إطباق الأكثر» وقيل هي أصوات للتنبيه «ولعل أقرب ما قالوه في حروف الفواتح إلى طبيعة البيان وقضية الإعجاز هو أن هذه الحروف ذكرت لتدل على أن القرآن مؤلف من حروف هجائهم مفردةأو مركبة ليدل القوم

---

1) المحرر الوجيز : 96/1.

2) البحر المديد : 67/1.

3) الإتقان : 21/3.

الذين نزل القرآن بلغتهم أنه بالحروف التي يعرفونها ويبنون كلامهم منها».[1]

وانتصر ابن كثير لهذا الرأي وقال : «ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الإنتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته وهذا معلوم بالإستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة...» ويضيف ابن كثير أن هذه الحروف «جاءت بيانا لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها...».[2]

أما ابن عجيبة فيقف في تفسير فواتح السور على مستويين من التأويل، فهناك تأويل أهل الظاهر وتأويل أهل الباطن، فبالنسبة للمستوى الأول ينقل صوفينا أبرز الأقوال والآراء الواردة عن علماء السلف وغيرهم، إلا أنه يمكن القول بأنه لا يكاد يتجاوز مجموعة من التأويلات يراها أقرب إلى الصواب مرجحا إياها على غيرها. ويمكن إجمال ذلك فيما يلي :

أ) إنها (أي فواتح السور) رموز رمز الله تعالى بها بينه وبين رسوله ﷺ، وهو ما نص عليه في تأويله لفواتح : البقرة والأعراف وطه والنمل.[3]

ب) إنها أشياء أقسم الله بها لشرفها، وهذا القول يعززه ما أورده ابن جرير الطبري وغيره من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : الم، وطسم وص وأشباهها قسم أقسم الله به وهو من أسماء الله.[4] وقد ذكر ابن عجيبة في تفسيره (الم) من سورة البقرة إلى أن «أقرب ما في الحروف المقطعة أنها أسماء أقسم الله بها لشرفها»[1]، وذكر في تفسيره (الم) من

---

1) د. عائشة عبد الرحمان : الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق. دار المعارف بمصر 1971 ص: 136.

2) تفسير ابن كثير : 68/1.

3) البحر المديد (على التوالي) : 6/1-1/2-11/3-98/3.

4) تفسير الطبري : 134/1 وانظر الإتقان : 24/3.

سورة العنكبوت قوله : يقول الحق جل جلاله الألف لوحدة أسرار الجبروت، واللام لفيضان أنوار الملكوت، والميم لاتصال المادة لعالم الملك، فكأنه تعالى أقسم بوحدة جبروته وأنوار ملكوته واتصال مادته لملكه وخليقته أنه لا يدع دعوة مدع إلا ويختبره ليظهر صدقه أو كذبه».[2]

ج) إنها مختصرة من أسمائه تعالى : فالألف من الله، واللام من اللطيف، والميم من مهيمن أو مجيد، وقد أورد السيوطي في إتقانه أقوالا كثيرة كلها راجعة إلى قول واحد وهو أن كل حرف من الحروف المقطعة مأخوذ من اسم من أسمائه تعالى.

ونص على أن الإكتفاء ببعض الكلمة معهود في العربية.

قال الشاعر[3] قلت لها قفي فقالت قاف (أي وقفت).

وقد نص ابن عجيبة في تفسيره لفاتحة سورة مريم على ذلك فقال : كهيعص : قيل هي مختصرة من أسماء الله تعالى : فالكاف من كاف، والهاء من هاد، والياء من يمين والعين، من عليم أو عزيز، والصاد من صادق.[4]

ونص على ذلك أيضا في سورة طه فقال : «عن ابن عباس أن طه من أسماء الله تعالى»[5].

د) إنها أسماء نبيه ﷺ، فالم مختصرة إما من المصطفى يدل عليه زيادة الصاد في المص أو من المرسل ويدل عليه زيادة الراء في المر، وكهيعص مختصرة من الكافي والهادي والولي والعالم والصادق وطه من طاهر...

---

1) نفسه : 6/1.

2) نفسه 125/3.

3) الرجز للوليد بن المغيرة، أنظر المحرر الوجيز 96/1 وتمامه : لا تحسبني أنا نسينا الإرجاف.

4) البحر المديد : 1/3. ونقل السيوطي هذا القول في إتقانه (22/3) عن الحاكم وغيره من طريق سعيد ابن جبير عن ابن عباس.

5) البحر المديد : 11/3.

وهذا القول نسبه السيوطي في إتقانه[1] إلى ابن عسكر في مبهماته، وقال في طه ويس : «إنهما من أسماء النبي ﷺ، قال الكرماني في غرائبه: ويقويه في يس قراءة (يسن) بفتح النون...».[2]

ويختلف تأويل الفواتح لدى ابن عجيبة من مستوى الظاهر إلى مستوى الباطن، فإذا كان في المستوى الأول لا يكاد يخرج عما هو معروف ومأثور عن العلماء من تأويلات مختلفة تتجاوز العشرين تأويلا كما نص على ذلك بعضهم، فإنه في باب الإشارة من كل ذلك يتجاوز الفهم السائد ليجتهد في إبداء تأويلات إشارية جديدة يربطها في غالب الأحيان بالرسول ﷺ، لذلك يلاحظ أن المؤلف وهو يقدم لنا المعنى الإجمالي للآيات المفتتحة بحروف مقطعة. يستهلها بنداء موجه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام «ويدل على هذا -كما يقول- توجيه الخطاب إليه ﷺ بعد هذه الرموز»[3] وهكذا نجد مثلا :

* الم : أيها المصطفى المقرب، تلك الآيات التي نتلوها عليك هي آيات الكتاب الحكيم.[4]

* حم : يا حميد يا مجيد، فقد مجدناك بإنزال كتابنا وعززناه برسالتنا.[5]

* المر : أيها المرسل العظيم والحبيب المفخم، تلك الآيات التي نتلوها على الناس هي آيات الكتاب المنزل.[6]

---

1) الإتقان : 30/3.

2) نفسه 28/3. وأورد ابن عجيبة في فاتحة (يس) نقلا عن بعض العلماء أنه لا تصح الأسمية في يس لإجماع القراء السبعة على قراءتها ساكنة على أنها حرف هجاء محكية...نعم قد قرئ يسن بضم النون ونصبها خارج السبعة، وعلى ذلك تخرج بأن اللفظ اسم للسورة كأنه قال : اتل ياسين على النصب أو على أنها اسم من أسمائه عليه السلام، وتوجه في قراءة الضم على النداء.(البحر المديد 185/3).

3) البحر المديد : 6/1.

4) نفسه : 141/3 ومثلها في : 148/3 (السجدة).

5) نفسه : 35/4 (الأحقاف).

6) نفسه : 102/2 (الرعد).

* طسم يا أيها الطاهر السيد المجيد تلك آيات الكتاب المبين.[1]

* يس أيها السيد المفخم والمجيد المعظم وحق القرآن المحكم إنك لمن المرسلين.[2]

من جهة أخرى نجد المؤلف في باب الإشارة من التفسير يربط الحروف المقطعة بأحوال الرسول ﷺ الظاهرة والباطنة، فيقول مثلا في طس من سورة النمل : «لعلها مختصرة من اسمه اللطيف والسميع، وقيل إشارة إلى إظهار سر حبيبه»[3]، ويقول في (طسم) من سورة الشعراء : «الإشارة : الطاء تشير إلى طهارة سره عليه السلام، والسين تشير إلى سيادة قدره، والميم تشير إلى مجادة أمره، وهذا بداية الشرف ونهايته».[4]

ويقول في تأويل (حم عسق) : «يقول الحق جل جلاله : حم عسق، يشير والله أعلم بكل حرف إلى وصف يدل على تعظيم قدر حبيبه ﷺ، فالحاء حييناك أي أعطيناك الملك والملكوت، والميم ملكناك، والعين علمناك ما لم تكن تعلم أو عيناك للرسالة، والسين سيدناك، والقاف قويناك».[5]

ويفسر ابن عجيبة فواتح السور المتشابهة تفسيرات مختلفة وتأويلات متعددة وذلك انسجاما مع فكرته في أن كل واحدة منها يرتبط تأويلها بسياق الآيات التي تتلوها، وهو ملحظ دقيق قلما اعتنى به العلماء. إن (الم) مثلا المذكورة في ست سور من سور القرآن لا تنطوي على نفس التأويل حسب ابن عجيبة، ونفس الشيء بالنسبة للحواميم.[6] ويمكن القول بأنه كان لابن عجيبة نفس طويل في دراسة وبحث الحروف المقطعة مع

---

1) البحر المديد : 111/3 (القصص).

2) نفسه : 185/3 (يس).

3) نفسه : 98/3.

4) نفسه : 87/3 (الشعراء) وهو نفس التفسير الذي وظفه في سورة القصص 111/3.

5) نفسه : 2/4 (الشورى).

6) الحواميم السبعة وهي : غافر –فصلت – الشورى – الزخرف – الدخان – الجاثية الأحقاف. وهي متتالية في ترتيب المصحف (40-46) وكلها تبدأ بحرفي (حم) ومعهما في سورة الشورى أحرف عسق.

استقصاء مجمل الأقوال والتأويلات المأثورة عن علماء السلف وكبار الصوفية أمثال جعفر الصادق والقشيري والورتجبي، وهكذا فإن اهتمام المؤلف بهذا العلم جعل من كتابه «البحر المديد» مصدرا مهما في هذا المجال خاصة وأنه لا يقتصر على جمع الأقوال والآراء فحسب وإنما يضيف إلى ذلك اجتهاداته وتفسيراته التي يرى أنها مما يحتمله تأويل تلك الحروف المقطعة إيمانا منه – كما يقول – بأن «معرفة أسرار هذه الحروف لا يقف عليها إلا الصفوة من أكابر الأولياء، وكل واحد يلمح على قدر صفاء شربه»[1] لذلك أمكن العثور على كثير من الإجتهادات في تأويل تلك الرموز إشاريا منها على سبيل المثال قوله في (الم) من البقرة «وعند أهل الإشارة يقول الحق جل جلاله، ألف أفرد سرك إلي انفراد الألف عن سائر الحروف، واللام لين جوارحك لعبادتي، والميم أقم معي بمحو رسومك وصفاتك أزينك بصفاء الأنس والقرب مني، قاله الثعلبي، قلت : والأظهر أنها حروف تشير للعوالم[2] فالألف لوحدة الذات في عالم الجبروت، واللام لظهور أسرارها في عالم الملكوت، والميم لسريان أمدادها في عالم الرحموت...»[3] ومثل هذا التأويل نجده عند القشيري في لطائفه حيث يقول : «يطالب العبد في سره عند مخاطبته بالألف بانفراد القلب إلى الله تعالى، وعند مخاطبته باللام بلين جانبه في مراعاة حقه وعند سماع الميم بموافقة أمره فيما يكلفه».[4]

---

1) البحر المديد : 6/1 (البقرة).

2) يرى ابن عجيبة أن العوالم ثلاثة : ملك وملكوت وجبروت فالملك ما يدرك بالحس والوهم والملكوت ما يدرك بالعلم والفهم والجبروت ما يدرك بالبصيرة والمعرفة.
إيقاظ الهمم 47/2 وانظر تفسيرا آخر في نفس الكتاب 180/2.

3) البحر المديد : 6/1 وانظر أيضا 2/4 (حم عسق) و148/3 (الم السجدة).

4) لطائف الإشارات : 54/1.

ونختم هذا المبحث بكلام مطول لابن عجيبة في تفسير كهيعص حيث يقول : «قيل هي مختصرة من أسماء الله تعالى، فالكاف من كاف، والهاء من هاد، والياء من يمين، والعين من عليم أو عزيز، والصاد من صادق قاله الهروي عن ابن جبير، قال أبو الهيثم، جعل الياء من يمن من قولك يمن الله الإنسان بيمينه يَمنا ويُمنا فهو ميمون ولذا ورد الدعاء بها، فقد ورد عن علي كرم الله وجهه أنه كان يقول : يا كهيعص، أعوذ بك من الذنوب التي توجب النقم، وأعوذ بك من الذنوب التي تغير النعم، وأعوذ بك من الذنوب التي تهتك العصم، وأعوذ بك من الذنوب التي تحبس غيث السماء، وأعوذ بك من الذنوب التي تزيل الأعداء انصرنا على من ظلمنا. (هـ) كان يقول هذه الكلمات بين يدي كل شدة فيحتمل أن يكون توسل بالأسماء المختصرة من هذه الحروف، أو تكون الجملة عنده اسما واحدا من أسماء الله تعالى، وقيل هو اسم الله الأعظم، ويحتمل أن يشير بهذه الرموز إلى معاملته تعالى مع أحبائه، فالكاف كفايته لهم. والهاء هدايته إياهم إلى طريق الوصول إلى حضرته، والياء يمنه وبركاته عليهم وعلى من تعلق بهم، والعين عنايته بهم في سابق علمه، والصاد صدقهم فيما وعدهم به من الإتحاف والإكرام والله تعالى أعلم. وقيل هي مختصرة من أسماء الرسول عليه الصلاة والسلام أي : ياكافي يا هادي يا ميمون يا عين العيون يا صادق المصدوق...».[1]

---

1) البحر المديد : 1/3.

فصل ختامي

القيمة العلمية
لتفسير ابن عجيبة

ليس من الهين إبراز القيمة العلمية لتفسير معين خاصة إذا كان مطولا بحجم تفسير ابن عجيبة، ويزداد ذلك صعوبة عندما يتعلق الأمر بالحكم على تفسيرين متباينين ينضجهما المؤلف في أن واحد : التفسير بالظاهر و التفسير بالإشارة ويضاف إلى ذلك أن تفسير ابن عجيبة لم يحظ بنقد النقاد أو تحليل الباحثين، فهو لم يتداول عبر الأجيال بتلك الصورة التي نعرفها عن جل التفاسير المشهورة، فقد بقي مغمورا لا يكاد يبحث عنه أو ينقل منه منذ قرنين من الزمن.

وإذا كانت قيمة كتاب ما تقاس بشهادات الباحثين و الدارسين، فإن كتاب «البحر المديد» لم يعرف سوى شهادات قليلة منقول بعضها عن بعض لا تعدو أن تكون إشادة بطول نفس المؤلف في تفسير أي القرآن ظاهريا وإشاريا على السواء. لكننا بالمقابل لا نتوفر على أية دراسة أو بحث في تقويم جهد ابن عجيبة في تفسيره، وإن كنا نعثر على بعض المقالات و الإشارات العابرة المتناترة هنا وهناك.

من جهة أخرى فإن إبراز قيمة التفسير الإشاري المضمن في «البحر المديد» يبقى أمرا غير سهل، ذلك أن المؤلف له باع طويل في الفكر الصوفي الشاذلي، بل إنه يعتبر أبرز منظر للطريقة الدرقاوية على امتداد تاريخها منذ أكثر من قرنين من الزمن. لذلك فإن الإشارات الصوفية والتأويلات التفسيرية التي ضمنها المؤلف في تفسيره لا يتأتى فهمها واستيعابها إلا للمتذوق لأسلوب المؤلف وفكره وطريقة تفكيره.

وإنه لمن المؤسف جدا أن يبقى فكر ابن عجيبة الصوفي المبثوث في تضاعيف «البحر المديد» لم يدرس منذ أمد بعيد خاصة وأنه يمثل فكرا معتدلا لا يميل إلى شطحات أصحاب المذاهب الصوفية الفلسفية ولا يكاد يخرج عن نطاق الاهتداء بمعالم الكتاب و السنة، وهذه ميزة قلما تتوفر لدى معظم الذين فسروا القرآن الكريم تفسيرا صوفيا كما سنرى فيما بعد :

وسأحاول فيما يلي إبراز القيمة العلمية لتفسير ابن عجيبة على وجه الإجمال من جهة وعلى وجه التفصيل من جهة أخرى.

أولا : القيمة العلمية لتفسيره على وجه الإجمال

بعد معايشة الكتاب بحثا ودراسة لمدة بضع سنوات يبدو لي أن القيمة العلمية للبحر المديد على وجه الإجمال يمكن تلخيصها فيما يلي :

أ) يعتبر «البحر المديد» التفسير المغربي الوحيد الذي جمع بين التفسير بالظاهر و التفسير بالإشارة يصل إلينا كاملا في نسخ متعددة.

وإذا كان المفسرون المغاربة قد أولعوا بإنضاج حواش وتعليقات على تفاسير السابقين، فإنهم بالمقابل لم يبرعوا كغيرهم من الأندلسيين أو المشارقة في إنتاج تفاسير كاملة تبرز مؤهلاتهم العلمية في مجال التفسير، وإذا كانت هناك بعض التفاسير المغربية الكاملة وهي قليلة جدا، فإن العثور على تفسير صوفي مغربي كامل يبدو أمرا صعبا، فقد ألف كل من أبي الحسن الحرالي (ت 638 هـ)[1] وابن برجان (536 هـ)[2] تفسيرا صوفيا لكن غير تام.

ب) جمع المؤلف في تفسيره عصارة أفكاره الصوفية وآرائه التربوية التي شغل بها مدة من الزمن تخلى خلالها عن طلب العلم الظاهر وتفرغ لمجال التصوف وعلم السلوك معتبرا ذلك ثمرة كل العلوم، وقد جاء تفسيره

---

1) هو علي بن أحمد التجيبي الحرالي، ولد بمراكش، وجال كثيرا في بلدان مختلفة، وشارك في عدة فنون. له تفسير ملأه بحقائق ونتائج فكره، وكان فلسفي التصوف، من تصانيفه «مفتاح الباب المقفل لفهم الكتاب المنزل» جعله قوانين كقوانين أصول الفقه.

تنظر ترجمته في ميزان الاعتدال للذهبي 111/3 وطبقات المفسرين للداودي392/1.

2) هو عبد السلام بن عبد الرحمان بن أبي الرجال أبو الحكم اللخمي الأفريقي ثم الإشبيلي، كان من أهل المعرفة بالقراءات و الحديث، له تآليف منها : تفسير القرآن وشرح الأسماء الحسنى وعابوا عليه الإمعان في علم الحروف حتى استعمله في تفسير القرآن. ترجمته في : لسان الميزان 13/4. وطبقات المفسرين للداودي 306/1.

الذي ألفه في آخر حياته جامعا لكثير من العلوم، والفنون والإشارات والتنبيهات، برع في إنضاجها وتحبيرها غير مقلد أو تابع لأحد من المفسرين السابقين، وهذا ما يمكن ملاحظته بشكل جذري في باب الإشارة من «البحر المديد» الذي عبر فيه المؤلف بحق عن بنات أفكاره ولطيف إشارته بجرأة وشجاعة، وإذا كان باب التفسير بالظاهر لا يخلو من شيء من ذلك، إلا أن الفرق بين الجانبين يكمن في قضايا ومباحث التفسير العادي يكثر تناولها بين مختلف المفسرين، ولذلك أعرض ابن عجيبة عن كثير منها محيلا في كثير من الأحيان على التفاسير الأخرى المشهورة، في حين تتميز مسائل التفسير الإشاري التي عبر عنها بكونها جديدة غير مسبوق إليها.

ج) إذا كان معظم العلماء الذين أقدموا على تفسير القرآن الكريم تفسيرا صوفيا قد تقيدوا بهذا الاتجاه على حساب التفسير بالظاهر، فإن صوفينا قد التزم عكس هؤلاء بتقرير التفسير بالظاهر أولا ثم الانتقال بعد ذلك إلى بيان ما قد تومئ إليه الآيات من إشارات وإيحاءات وعبر ومواعظ بعبارة رقيقة وإشارة دقيقة، فابن عجيبة يصر على ضرورة الجمع بين الظاهر و الباطن في فهم النص، لأن الظاهريمثل الرمز الذي لا يمكن النفاذ إلى المرموز إليه الباطن إلا من خلاله، لذلك يقول في طالعة تفسيره : «وتفسير أهل الباطن لا يذوقه إلا أهل الباطن، لا يفهمه غيرهم، ولا يذوقه سواهم و لا يصح ذكره إلا بعد تقرير الظاهر».[1]

وهذه المزاوجة والمراوحة بين الاتجاهين في التفسير لا نجدها لدى سهل التستري (ت 283 هـ) في تفسيره أو القشيري (ت 465 هـ) في لطائفه أو غيرهما.

---

1) البحر المديد : 1/1.

د) تنبع قيمة التفسير الإشاري في «البحر المديد» من كون صاحبه قد نأى به عن التفسيرات المنحرفة والتأويلات الباطلة والنظريات الواهية، فتفسير ابن عجيبة على مستوى الإشارة تفسير معتدل ليس فيه ما يعارض الشرع أو العقل، بل إنه قد يعارض أحيانا تفسيرا إشاريا لا يؤيده دليل شرعي كرفضه مثلا لتفسير الغزالي في إحيائه للأصنام من قوله تعالى : ﴿**واجنبني وبني أن نعبد الأصنام**﴾[1]، بالذهب و الفضة، حيث رد عليه قائلا: «والظاهر أن يبقى اللفظ على ظاهره في حقه وفي حق بنيه».[2]

لذلك يمكن التمييز بين «البحر المديد» وبين كثير من التفاسير الصوفية التي أسرف أصحابها حين حملوا النص القرآني فوق ما يحتمل وأخضعوه لنصرة مذاهبهم بدلا من أن يخضعوا للنص القرآني، أما ابن عجيبة فقد كان همه أن يجمع في تفسيره بين العبارة والإشارة. ويوفق بين الشريعة والحقيقة في ظلال كلمات الله جل جلاله.

وهنا لا بد من التنبيه إلى أن قضية الظاهر و الباطن قد استغلت من طرف كثير من المنتسبين للتصوف استغلالا سيئا من أجل خدمة آرائهم الهدامة وعقائدهم الباطلة غير أبهين بقدسية النص القرآني، لذلك يقول سعد الدين التفتازاني : «سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها بل لها معان باطلة لا يعرفها إلا المعلم، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية، ثم قال : وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص محمولة على ظواهرها ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان».[3]

---

1) إبراهيم : 35.

2) البحر المديد : 117/2.

3) شرح العقائد النسفية، مطبعة مصطفى الحلبي البابي 1321 ه ص : 142.

هـ) أبان ابن عجيبة من خلال تفسيره عن غايات ومقاصد جليلة تصب جميعها في إطار اكتشاف وإبراز وفهم الأبعاد الروحية والمقاصد الباطنية التي تومئ إليها آيات القرآن الكريم وذلك في سبيل الحث على سلوك طريق التوحيد الخالص وإثارة انتباه السالك الغافل، فالمؤلف يرى أن الهدف من التفسير ليس الاقتصار على بحث قضايا اللغة والنحو والقراءات والمباحث الفقهية والكلامية، وإنما هو بالأساس البحث عما تبطنه الآيات من جانب روحي هائل ينكشف لمن عاش في باطنه بروحه، وهو جانب لازم لخلق حالة من الاتزان في شخصية المسلم بحيث لا تغلب عليها الميول العقلية وحدها ولا تغلب عليها الميول الروحية وحدها، فكل جانب من هذه الجوانب يخدم غايات ومقاصد جليلة، لذلك لا معنى لشجب الناس للفهم الصوفي للقرآن معتدين بجانب واحد من الفهم له، خاصة وأن الصوفية من جانبهم لم يشجبوا فهم الأحكام ولا فهم لغة القرآن وبلاغته، ولكنهم أخذوا بتلك العلوم ففهموها وأتقنوا بحثها، بل إن ابن عجيبة قد لجأ إلى فهم روحي لقواعد النحو والصرف كما فعل في كتابه «اللوائح القدوسية في شرح الأجرومية».

وإذا كانت غايات جل المفسرين تحقيق مسائل الإعراب واللغة والنحو والأحكام الفقهية فان ابن عجيبة قد اتخذ من مقاصد هذا النوع من التفسير وسيلة لا غاية، إذ أنه يرى أن وراء ذلك ما هو أوزن قدرا وأبعد أثرا وهو تذوق القرآن ومعانيه واستشراف أثره الغيبي في القلب والروح.

ثانيا : القيمة العلمية لتفسيره على وجه التفصيل

إذا كانت لتفسير ابن عجيبة قيمة علمية بارزة تتعلق إجمالا بتميزه في القرون المتأخرة عن كثير من التفاسير من حيث قدرة المؤلف على المزاوجة بين التفسير بالظاهر والتفسير بالإشارة. فإن المكونات العلمية

والمنهجية والإضافات التفسيرية الهامة والمعالم الكبرى التي يحتوي عليها الكتاب جديرة بأن تشكل بمجموعها جهدا تفسيريا ضخما له قيمة علمية متميزة.

وسأجمل فيما يلي الحديث عن أبرز تلك المعالم و المضامين الكبرى التي تضمنها البحر المديد و الإشارة إلى تميز شخصية المؤلف العلمية على مستوى مناقشاته للعلماء مع عقد مقارنة موجزة بين تفسير ابن عجيبة وتفسيري القشيري والحرالي.

1 – المضامين والمقاصد الكبرى للكتاب :

جاء تدوين ابن عجيبة لتفسيره خلال سنوات العقد الأخير من عمره تتويجا لحياة علمية حافلة طبعها بطابع التصوف الروحي.وهذا ما جعل المؤلف يضمن كتابه عصارة أفكاره الصوفية وآرائه العلمية في شتى العلوم والمجالات.

بيد أن صوفينا لم يسر في تفسيره على شاكلة بعض المفسرين الذين أبوا إلا أن يجمعوا في تفاسيرهم كل ما تلقفوه من تراث الأقدمين، فهو كما سبق أن رأينا من خلال منهجه في التفسير قد استغنى عن ذكر وتقرير كثير من المباحث المتعلقة ببعض العلوم مما هو مقرر في مصادرها، ولذلك نجد المؤلف كثيرا ما يحيل في مثل تلك المواطن على كتب ومظان علم التفسير التي يرى أنه لا داعي من النقل عنها أو إعادة تقرير مضامينها. ويأتي قصد ابن عجيبة من وراء ذلك منسجما مع نظرته الصوفية للكون والحياة، لذلك فهو يرى أنه يجب التركيز والتأكيد على أهداف التفسير وغاياته ومقاصده التي تصب جميعها في إطار العمل على ترسيخ معالم التربية الروحية وتقويم السلوك وتهذيب النفس وتنمية الروح الإنسانية بالإضافة إلى ما يعين على ذلك من فهم لمعاني الآيات القرآنية وأحكامها.

لقد حاول ابن عجيبة من خلال تفسيره أن يبدو صاحب مشروع إصلاحي وتربوي متكامل يهدف إلى إعادة بث الروح من جديد في النفس الانسانية التي يرى ضرورة علاجها من الأمراض والعلائق والشواغل الحاجبة عن معرفة الحق تعالى. لذلك يمكن اعتبار تفسيره الإشاري تقعيدا لقواعد نظريته الإصلاحية وتقريرا لمعالم فكره الصوفي المتميز، وهو الفكر الذي يعد ثمرة يانعة لقراءة علمية متأنية في كتب كبار الصوفية وأعلامهم ملتزما بطريق التصوف الشاذلي السني لا يحيد عنه. ومن تلك المصادر الرئيسية التي نهل منها واستفاد من مباحثها كتب القشيري والغزالي وأبي الحسن الشاذلي وابن عطاء الله السكندري و الورتجبي وغيرهم. ولعل ما يبرز قيمة فكر ابن عجيبة في هذا المجال استقلاله بالرأي وتميزه في انتقاء الأقوال المختارة و النقول المفيدة من غير جمود أو تقليد مقيت، فهو يكثر من استعمال نظره ورأيه مرجحا ومقارنا ومعللا، لذلك فإنه لا يتردد في رد بعض أقوال كبار العلماء الصوفية إذا رأى فيها جنوحا عن مقتضى الفهم الجاد و النظر السديد.إذن لا غرو أن يكون قارئ «البحر المديد» محتاجا إلى زاد معرفي كبير يخوله القدرة على مجاراة المؤلف فيما يلجه من مسائل العلم والتصوف وغيرها إذ أن كلامه كثيرا ما يستعصي فهمه على غير القلة من الملمين بميدان التصوف ومباحثه.

أما قضايا اللغة و البلاغة و النحو وغيرها فإنها وإن لم تكن مقررة في تفسير ابن عجيبة بقدر وافر من التبسيط والتوسع يفي بجميع الإشكالات والمباحث الضرورية، إلا أن في ذلك القدر الذي يستهل به المؤلف عادة تفسير مجموعة من الآيات كفاية لمن رام الكشف عن لب المسائل وجوهرها، ذلك أن ابن عجيبة يتحاشى التوسع في الاستطرادات. مكتفيا بالمقابل بذكر ما يعين على فهم الآية على ظاهرها من بحث لغوي ونحوي وبلاغي وذكر القراءات القرآنية و الأحكام الفقهية، بإيجاز واختصار شديدين.

وقدعمل ابن عجيبة من جهة أخرى – على التركيز على إبراز كليات التشريع وقضايا إصلاح النفس وتهذيبها مهتما – من خلال ذلك – بالبحث عن المقاصد العليا و الأحكام المثلى التي تهدي إليها معاني الآيات.

وسأقدم فيما يلي بعضا من خصائص ومميزات تفسير ابن عجيبة التي شغلت حيزا من اعتنائه واهتمامه بمختلف قضايا التفسير النظري والتطبيقي ومسائل المنهج، فمن ذلك :

أ) اهتمامه بالمعاني و الأسرار و اللطائف التفسيرية التي تومئ إليها الآيات القرآنية مما لا يدرك كما يقول إلا بالبصيرة النافذة المستنيرة بنور الله الذي يمكن من اقتصاص الآثار للوصول إلى الأحكام و المعاني الباطنة وأصول المسائل و القضايا الجوهرية.

ويرى ابن عجيبة أن بلوغ هذا الهدف هو الغاية المثلى و السامية التي يجب أن يرومها كل من أقدم على تفسير كتاب الله العزيز الذي يأمرنا بالتفكر والتدبر لمعاني الآي، فالمؤلف يذهب إلى أن وراء الفهم غرض التذكر والعظة مما لا يحظى به إلا أصحاب القلوب الصافية والنفوس الزكية. ومن هنا جاء إنكار ابن عجيبة على العلماء والمفسرين الذين لا يتجاوزون في تفسيراتهم للقرآن مستوى البحث عن ألفاظ الكلمات ومعانيها الظاهرة و الوقوف عند أحكامها المعلومة، فهو يأخذ عليهم عدم الكشف عن بواطن ما تحمله الآيات القرآنية واستجلاء مكنوناتها.

ب) قدرته الفائقة على تسخير مختلف العلوم لخدمة مقاصد القرآن وأغراضه هادفا من وراء ذلك إلى بلوغ مستوى جيد في تعميق البحث عن مراد الله تعالى من خلال تفسير الآيات القرآنية والذي لا يتحقق إلا باستيفاء شروط وضوابط تتعلق بالإلمام التام والتوظيف الكامل لكل ما يخدم النص القرآني تاصيلا وفهما وتحليلا.

ج) اهتمامه البالغ بذكر اللطائف التفسيرية والنكات المفيدة التي عبر من خلال كثير منها عن براعته في فهم مقاصد الآي وما تشير إليه من

لطائف وفوائد، مما ينم عن قدرة فائقة على الاستقلالية في الفهم والتحليل، إذ من المعلوم أن معظم اللطائف التفسيرية المتداولة إنما اختص بإنضاجها فئة معدودة من المفسرين الموهوبين كالرازي والبيضاوي وأبي السعود.

د) حضور أفكاره الصوفية باستمرار أثناء التفسير ولو في جانب التفسير بالظاهر، ويحس القارئ أثناء تتبعه لمباحث تفسيره أن المؤلف حريص على جعله (أي القارئ) دائم الارتباط الذهني بمعرفة الله تعالى وسلوك طريق وسبل تلك المعرفة التي هي ثمرة علم التفسير وغاية كل العلوم. وهذه الميزة تعطي لتفسير ابن عجيبة قيمة علمية عملية كبيرة ينفرد بها المؤلف عن كثير من المفسرين السابقين.

هـ) يتوفر ابن عجيبة على قدرة غير عادية ونفس تجديدي طويل عند استنباطه لظواهر الآي، وهو ما يتجلى بوضوح شديد في استهدافه إعادة التفسير منوعا كل مرة تكرر فيها ذكر الاية حرصا منه على تعداد المعاني المختلفة والإيحاءات الإشارية المتنوعة التي تومئ إليها الآيات المكررة سواء تكررت بنفس الألفاظ والصيغ أو تكررت مقاطعها بتحويرات خفيفة، ويكفي التذكير بمحاولته التفسيرية لسورة الفاتحة أربع مرات.[1]

و) قدم لنا تفسير ابن عجيبة خلاصة دقيقة لأهم تفاسير الصوفية منذ القرن الثالث (تفسير سهل التستري) إلى حدود القرن الحادي عشر (حاشية الفاسي على الجلالين)، مقتصرا في ذلك على التفاسير السنية المعتدلة البعيدة عن النظريات الفلسفية المنحرفة، فقد تحاشى المؤلف الرجوع إلى تفسير أبي عبد الرحمان السلمي (ت 428) أو تفسير ابن عربي الحاتمي (ت 638) أو تفسير ابن برجان (536) أو غيرهم.

---

1) وهي تفسير الفاتحة الكبير و المتوسط ثم الصغير بالإضافةإلى تفسير الفاتحة ضمن «البحر المديد».

ز) اهتمامه في تفسيره بشرح وضبط كثير من المصطلحات والألفاظ المرتبطة بمختلف العلوم و الفنون وخاصة منها ما تعلق بالتصوف وعلم السلوك. وللمؤلف كتاب مهم في هذا المجال هو : «معراج التشوف إلى حقائق التصوف»[1] قام فيه بتحديد وضبط أكثر من مائة وأربعين مصطلحا صوفيا عرضها بكثير من الدقة مثبتا حسه المصطلحي و النقدي، وهذا ما طال كثيرا من العلوم الأخرى أيضا مما جعل تفسيره يعتبر ذخيرة يرجع إليها في هذا المجال، أعني المصطلح الشرعي والنقدي و الكلامي والصوفي.

ح) يؤكد ابن عجيبة أثناء حديثه عن العبادات على ضرورة التزام العبد بأدائها بخشوع وتمام مع الحث على التغلغل في بواطنها ومعرفة جواهرها داعيا إلى عدم اعتقاد كونها رسوما ظاهرية يؤديها البدن وحسب، ولكنها ذات مقاصد سامية وأبعاد هادفة.

ففي قوله تعالى : ﴿**وأتموا الحج و العمرة لله**﴾[2]، يقول : «يقول الحق جل جلاله : وأتموا الحج الذي دخلتم فيه والعمرة وجوبا كالصلاة والصوم ويكون ذلك لله لا رياء فيه ولا سمعة، وإنما خص العمرة والحج بالحض على الإخلاص لما يسرع إليهما من الخلل أكثر من غيرهما، فمن أفسدها وجب عليه قضاؤهما.... ثم يقول بعد ذلك : فمن كان مريضا يضعف عزمه أو به أذى بعدم نهوض حاله بحيث لم تسعفه المقادير في مجاهدة نفسه فليشتغل بالنسك الظاهر من صدقة أو صيام أو قراءة أو غير ذلك حتى يمن عليه العليم الحكيم».[3]

---

1) نظرا لأهمية الكتاب وقيمته فقد طبع في أصله العربي كما ترجمه جان لوي ميشون إلى اللغة الفرنسية ونشر بباريس عام 1973.

2) البقرة : 196.

3) البحر المديد 44/1.

ط) بذل الجهد في محاولة الترجيح بين الأقوال وفق وجوه الترجيح التي اعتمدها، وقد لا يبين سبب الترجيح في بعض الأحيان التماسا للاختصار والإيجاز، كما أنه قد يقتصر أحيانا في تعقيباته على ذكر القول الذي يترجح عنده ويسكت عن الآخر، وقد لا يبدي اختياره أو ترجيحه **تأكيدا على أهمية تعدد التفسيرات** والتأويلات للآية الواحدة على اعتبار أن النص القرآني قابل لأن يكون محل مختلف الاجتهادات والتأويلات إذا كانت منسجمة مع قواعد التفسير وشرائطه ولم يكن ابن عجيبة مجرد ناقل للأقوال والآراء، بل كثيرا ما يتعقبها بالنقد والملاحظة موافقا تارة ومخالفا تارة أخرى.

ي) رده لكثير من أقوال المفسرين وبيان بطلانها، وهذا الجانب يبين بوضوح شخصية المؤلف وقيمة كتابه العلمية، وتعدد جهات هذه الردود، فهو يرد على المفسرين أمثال ابن عطية[1] والزمخشري[2] والبيضاوي،[3] كما يرد على بعض أعلام التصوف وأهل اللغة والنحو والمتكلمين وغيرهم. وهو – في كل ذلك –يبدي جرأة كبيرة، وقد يستعمل أحيانا أساليب تجريحية قادحة كما في قوله : «وفي البيضاوي هنا تخليط فلا يغتر به»[4] وقوله : «وإنكار ابن عطية له جمود»[5] وقوله أيضا : «خلافا لجهالة الزمخشري»[6] وقوله كذلك : «وبهذا ترد جهالة الزمخشري».[7]

---

1) البحر المديد 1/109-3/206-4/102.

2) نفسه 3/83-3/147.

3) نفسه : 1/58-1/95-2/83.

4) نفسه : 1/95.

5) البحر المديد : 2/106.

6) نفسه : 1/141.

7) نفسه : 1/167

3) البحر المديد : 1/27.

4) نفسه 2/19.

5) محمد 33.

2 – مناقشاته للعلماء :

أبرز ابن عجيبة من خلال تفسيره استقلال شخصيته العلمية وجدارته بالإنتماء إلى مدرسة كبار المفسرين المجتهدين والمجددين، فهو لم يكن **مقلدا لغيره من العلماء والمفسرين دون بينة، أو تابعا منقادا لهم دون** بصيرة. بل كان يستعرض دائما مختلف الأقوال ويوفيها حقها من البحث

يشدد عليهم في مطالبة الأدب فيجعل الخاطر في حقهم هما وظنا كما قال تعالى : ﴿**حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا**﴾[1]، (فيمن خفف الذال)، وكما قال تعالى في حق يونس عليه السلام : ﴿**فظن أن لن نقدر عليه**﴾[2]، على أحد التفاسير، و الله تعالى أعلم.[3]

3 – مقارنة بين منهج ابن عجيبة في التفسير ومناهج غيره من المفسرين.

تحدثت فيما سبق عن منهج ابن عجيبة في تفسيره متناولا مختلف الجوانب المتصلة بذلك، وشرحت الأسس التي يقوم عليها هذا المنهج. غير أن المنهج التفسيري لأي مفسر إنما يزداد وضوحا وجلاء وبيانا بعقد المقارنة بينه وبين غيره من التفاسير الأخرى، لذلك كان من المناسب في إطار الحديث عن القيمة العلمية لتفسير ابن عجيبة، عقد مقارنة بين منهج ابن عجيبة في تفسيره، ومناهج بعض التفاسير الصوفية التي ظهرت قبله، وقد اخترت لهذا الغرض تفسيرين أحدهما مشرقي و الآخر مغربي. أما الأول فهو تفسير القشيري المطبوع وأما الثاني فهو لأبي الحسن الحرالي المراكشي.[4]

وسأحاول تلمس بعض مظاهر التقارب أو التباعد بين التفاسير الثلاثة انطلاقا من استعراض بعض مجالات المقارنة التي هي جديرة بإعطائنا نظرة تقريبية عن موقع تفسير ابن عجيبة ضمن تيار التفسير الصوفي ومدى قيمته العلمية التي تبرز مميزاته وخصائصه.

---

1) يوسف 110.

2) الأنبياء 87.

3) البحر المديد 90/2.

4) لم يصلنا تفسير الحرالي لكن البقاعي ضمنه في كتابه «نظم الدرر» ونقل عنه من أوله إلى آخره، لذلك فإني قد رجعت إلى كتاب البقاعي الذي احتفظ لنا بتفسيرات الحرالي للآيات القرآنية.

أولا : على مستوى المزاوجة بين التفسير بالظاهر و التفسير بالإشارة يتميز ابن عجيبة باستيفائه البحث في كلا الجانبين إيمانا منه – كما سبق بيانه – بأنه «لا يصح تقرير تفسير أهل الباطن إلا بعد تقرير الظاهر».[1] فابن عجيبة إذن يصر على ضرورة الجمع بين الظاهر و الباطن في فهم النص القرآني، غير أن الثاني أسمى عنده من الأول لأنه محاولة الأخذ المباشر من المعين الذي لا ينضب وهو القرآن الكريم.

أما القشيري في لطائفه فلم يعتمد هذه المزاوجة حيث اكتفى بذكر المعاني الروحية و الإشارية للآيات القرآنية معرضا عن كل جوانب التفسير بالظاهر من لغة ونحو وبلاغة وأحكام فقهية وغيرها. فالقشيري لا يعتمد على أي أساس من التفسير البياني أو الفقهي للآيات القرآنية، ولا يستخدم شيئا من الأدوات ومناهج التفسير التي أجمع عليها المفسرون، فهو يقدم فهما صوفيا للقرآن بناء على إشارات دقيقة وتلويحات رقيقة لاحت له من بواطن الآيات.

أما الحرالي فهو يتناول مواضيع التفسير البياني و الفقهي وغير ذلك، لكن على اعتبار أنها أدوات تساعد على تدبر القرآن وتفهمه، فهو مثلا حين يشرح الكلمات القرآنية ويبين أصل دلالتها ومادة اشتقاقها فإنه يرمي إلى استنباط مفاهيم روحية وإشارات صوفية مؤكدا على جانب كشف المعاني و الأسرار واستخراجها من مختلف أوجه البيان القرآني. ولذلك فإن الحرالي يمزج بين عمليتي التفسير في آن واحد، على عكس ابن عجيبة الذي يميز بين النوعين من التفسير.

ويبدو القشيري و الحرالي شديدي الاختصار في تفسيريهما عكس ابن عجيبة الذي لا يغادر تفسير الآية إلا بعد أن يلم ببيان جميع ما تعلق بها. وقد ترتب على هذا ندرة المصادر المعتمدة في تفسيري القشيري و الحرالي

---

1) البحر المديد 1/1.

على عكس ابن عجيبة. فالمفسران المتقدمان لا يكادان يشيران إلى مصادر معلومة ينقلان منها أو يعززان تفسيريهما بما جاء بها. أما ابن عجيبة فقد اعتمد في تفسيره على جملة وافرة من التفاسير السابقة بالإضافة إلى إبداء فهمه الخاص للآيات و المعاني الخاصة التي يحسها داخليا وتنكشف له باطنيا.

ثانيا : إذا كان الحرالي يورد شيئا من التفسير بالظاهر فإنه يعتبر مقلا في ذلك.فهو وإن كان لا يلغي جوانب التفسير الأخرى التي تعتبر عناصر أساسية لكل تفسير، إلا أن القارئ لتفسيره سرعان ما يلاحظ إقلاله الشديد من ذكر اللغة والنحو والفقه وغير ذلك، فإذا ما تعرض لأسباب النزول مثلا فإنه يعتمد على سبب نزول واحد يختاره معرضا عن غيره من الأسباب. وربما كان غرضه من ذلك السبب هو ما قد تلوح له من خلاله من إشارة أو فهم معنى خاص.لذلك فإن الحرالي قد ربط في تفسيره بين معاني الآيات الظاهرة وأهدافها الروحية البعيدة، حتى إن المتتبع لتفسيره لا يكاد يشعر بالفرق الحاصل بين المعنى الظاهر للنص القرآني و المعنى الإشاري. أما في تفسير ابن عجيبة فالقارئ يمكنه أن يتجه إلى باب التفسير بالظاهر فيطلع على التفسير العادي للآيات القرآنية وكأنه يطالع في أحد التفاسير المعهودة. وإذا رام باب التفسير بالإشارة فإنه لن يجد فيها سوى المعاني الإشارية الروحية.

ويمكن القول في هذا السياق بأن منهج ابن عجيبة في التمييز بين عمليتي التفسير قد جعل من كتابه مجالا خصبا وميسورا لكل من ابتغى نوعا من نوعي التفسير.

ثالثا : تلتقي التفاسير الثلاثة في عدم اهتمامها بتفاصيل الأحكام الفقهية وتفريعاتها الجزئية بقدر ما تهتم باستمداد الأهداف التي تكمن وراء تلك الأحكام قصد تدعيم رأي من الآراء أو عمل من الأعمال،

وبالرغم من أن ابن عجيبة يهتم في بعض الأحيان بذكر بعض الأحكام الفقهية، والخلاف بين أئمة الفقه في الجزئيات والفروع، إلا أنه في سياق ذلك يستطرد في باب الإشارة للحديث عن مرامي الآيات التشريعية داعيا إلى تدبر فلسفة التكاليف الشرعية وتفهم الحكمة الإلهية في التشريع و العبادات.

يفسر القشيري قوله تعالى : ﴿**واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه....**﴾[1]، بقوله : «الغنيمة ما يحصل عليه المومنون من أموال الكفار إذا ظفروا به عند الجهاد والقتال. والجهاد على قسمين : جهاد الظاهر مع الكفار وجهاد الباطن مع النفس والشيطان. وكما أن في الجهاد الأصغر غنيمة عند الظفر ففي الجهاد الأكبر غنيمة وهو أن يملك نفسه التي كانت في يد عدويه : الهوى والشيطان.... وكما أن من جملة الغنيمة سهما لله وللرسول وهو الخمس، فمما هو غنيمة – على لسان الإشارة – سهم خالص لله وهو ما لا يكون للعبد فيه نصيب لا من كرائم العقبى ولا من ثمرات التقريب ولا من خصائص الاقبال، فيكون العبد عند ذلك محررا عن رق كل نصيب خالصا لله بالله يمحو ما سوى الله.[2]

أما ابن عجيبة فيفسر الآية على ظاهرها أولا ذاكرا أقوال أئمة الفقهاء في قسمة الغنائم وكيفيتها ثم ينتقل إلى باب الإشارة فيقول : «واعلموا أنما غنمتم من شيء من العلوم اللدنية والمواهب القدسية والأسرار الربانية بعد مجاهدة العلائق والعوائق حتى صار دين القلب كله لله فلله خمسه فناء وللرسول بقاء.

ولذوي القربى واليتامى و المساكين وابن السبيل تعظيما وآدابا يعني أن العلم بالله يقتضي القيام بهذه الوظائف البقاء في الله بالغنية عما

---

1) الأنفال 41.

1) لطائف الإشارات 626/1.

سواه وشهود الحجاب الأعظم وهو رسول الله والأدب مع عباد الله لتحقق الأدب مع الله والله تعالى أعلم».[1]

رابعا : يلتقي تفسير ابن عجيبة مع تفسير الحرالي في مسألة إيراد مناسبات الآي والسور. فقد رأينا كيف أن ابن عجيبة قد اعتمد كثيرا على هذا الجانب المهم من علوم القرآن نظرا لفائدته في جعل أجزاء الآيات يأخذ بعضها بأعناق بعض. وبينا اعتناء المؤلف بمختلف الأوجه المرتبطة بهذا العلم على أساس أن الآيات القرآنية تشكل سلسلة متصلة الحلقات لا تنفك إحداها عن الأخرى.

واهتم الحرالي من جهته بمناسبات الآيات والسور اهتماما شديدا ورأى أن في علم تناسب الآيات وتناسقها وجها من وجوه الإعجاز القرآني وإذا كان البقاعي قد اعتمد في كتابه «نظم الدرر في تناسب الآي والسور». بشكل رئيسي على تفسير الحرالي الذي وصفه بأنه «عديم النظير»[2] فما ذلك إلا لأن الحرالي قد توقف إلى حد بعيد في إيجاد المناسبات في كثير من الآيات بعضها ببعض وهذا ما يؤكد لنا أهمية الالتفات إلى هذا العلم الجليل في إطار التفسير الإشاري الذي يرمي إلى الفهم الروحي العميق للآيات القرآنية في سياق متكامل تعبر عنه الوحدة الموضوعية للسورة الواحدة. وهي الوحدة المتناسقة التي تتحقق بمعرفة وجوه الترابط والتناسق بين مختلف آي السورة وعلاقة بعضها ببعض. ويرى الحرالي أن لكل آية علاقتين : علاقة تربطها بسابقتها وعلاقة تهيئها بلاحقتها.[3] أما القشيرى فلم يهتم بهذا المجال ولم يوله أدنى اهتمام.

خامسا : اهتم ابن عجيبة بالقراءات القرآنية أيما اهتمام وأولى هذا العلم الجليل اعتناء كبيرا في تفسيره فهو متضلع فيه قد ألف فيه كتابا

---

1) البحر المديد 2/32-33.

2) البقاعي : نظم الدرر 1/2.

3) نفسه 1/168.

مستقلا، ولدى المقارنة بتفسير الحرالي يتبين أن هذا الأخير وإن تعرض لجانب القراءات في كثير من المواطن إلا أنه كان يرمي فقط إلى توجيهها التوجيه الذي يساعد على استيحاء بعض الإشارات و التلويحات، لذلك فهو لا يهتم بذكر جميع القراءات المذكورة في اللفظة القرآنية الواحدة كما أنه لا يهتم بتاتا بإسناد تلك القراءات إلى أصحابها. وهنا نجد الفرق واضحا بين تقرير كل من ابن عجيبة و الحرالي لاختلاف القراءات.

فابن عجيبة كما سبق أن رأينا يسوق مختلف أوجه القراءات القرآنية على الطريقة المعهودة لدى كافة المفسرين مسندا إياها إلى آئمة القراء الذين قرأوا بها، وهو لا يهتم بالمقابل بالمعاني و الإشارات التي قد تلتمس من خلالها.

ففي آية : ﴿**فتلقى آدم من ربه كلمات**﴾[1]، يوجه الحرالي القراءتين بأن في نصب «كلمات» كأنه تلقى الكلمات بما في باطنه، وفي قراءة رفعها، «فتلقته الكلمات بما أقبل بها عليه». ومن القراءتين معا يستنتج معنى عاما أشمل وأعمق من قراءة واحدة : «فكان مستحقا لها، فكانت متلقية له بما جمعت القراءتان من المعنى»[2]، وفي قوله تعالى : ﴿**ولكل وجهة هو موليها**﴾[3]، يوجهها الحرالي فيقول : فيها إشعار باختلاف جبلات أهل الملل وإقامة كل طائفة بما جبلت عليه، ويفهم من قراءة «مولاها» بفتح اللام، إظهار حقيقة ذلك وأن ذلك ليس منهم بل لما أقامهم المولى حيث شاء».[4]

أما ابن عجيبة فيقول : وقرأ ابن عامر مولاها بالبناء للمفعول... وأصله مولي إياها أي مصروفا إليها».[5]

---

1) البقرة 36.

2) نظم الدرر 38/1. وفي معاني القرآن للفراء 28/1 : «والمعنى واحد لأن ما لقيك فقد لقيته وما نالك فقد نلته».

3) البقرة 147.

4) نظم الدرر 103/1.

5) البحر المديد 33/1.

الخاتمة

وبعد : فلقد انتهى هذا البحث إلى تأكيد حقيقتين مهمتين :

الأولى : جدارة ابن عجيبة التامة بالانتماء إلى مدرسة التفسير الصوفي السني الذي يجمع بين التفسير بالظاهر و التفسير بالإشارة مع الالتزام الكامل بالأول و الاعتدال التام في الثاني.

الثانية : استقلال شخصية ابن عجيبة العلمية وتميزها في مجال التفسير، وبخاصة الإشاري منه، حيث اجتهد الشيخ في تجديد النفس الصوفي في تفسير آي القرآن وإبراز إشارات وتلويحات جديدة لم يسبق إليها، كان له فيها قصب السبق من حيث الكشف عنها واستيحاؤها من بواطن الآيات.

كما كشف هذا البحث عن كثير من النتائج و المحصلات و أسفر الجهد المتواضع الذي بذل فيه عن ما يلي :

1 – من خلال دراسة عصر ابن عجيبة، تراءت لنا الصورة السياسية المضطربة التي عرفها المغرب خلال الفترة المدروسة، وتبين أنه كان لذلك انعكاس سلبي على الحركة العلمية و الدينية، حيث كان الصراع بين تيار الفقهاء وتيار الصوفية على أشده، وهو الصراع الذي اكتوى صوفينا من ناره وأثر كثيرا في حياته وفكره، غير أن ذلك لم يمنع من ازدهار الحياة الثقافية بصفة عامة.

2 – بالتعرف على حياة ابن عجيبة وبيئته وقفنا على شخصية علمية فريدة تحدَّت الصعاب وواجهت تحديات منذ مرحلة الطلب إلى حين الوفاة.

لقد كان في حياة ابن عجيبة المليئة بالمشاكل و الشواغل أثرها الإيجابي في صقل شخصيته وتأهيله لتبوؤ مكانة علمية بارزة.

3 – لقد كان في تتبع خيوط محنة ابن عجيبة والحديث عن مذهبه الصوفي ما أبرز لنا مدى إيمان صوفينا بمبادئ التصوف الشاذلي وتأصيله لأسس الطريقة الدرقاوية وفق نظرة شمولية انتظمت خلالها أفكار وآراء صوفية متعددة شكلت في البحث ما اصطلحنا عليه بقضايا التصوف النظري من جهة، وقضايا التصوف العملي من جهة ثانية.

4 – كشف البحث أيضا عن آثار ابن عجيبة المخطوطة والمطبوعة، وساعد الاطلاع وقراءة كل ما وصلني من تراثه على تكوين فكرة شاملة عن فكره ومذهبه الصوفي فضلا عن تحقيق عدم صحة نسبة بعض الكتب إليه واكتشاف كتب أخرى له لم يشر إليها الباحثون.

5 – أثبت البحث من خلال الحديث عن منهج ابن عجيبة في التفسير أن المؤلف قد تناول مجال التفسير بمنهج علمي دقيق ومتكامل يقوم على نظرية علمية قوامها المزاوجة والمراوحة بين التفسير بالظاهر والتفسير بالإشارة، وفي إطار التفسير بالظاهر عمل على الجمع بين المأثور والرأي، فخاض بذلك محيط التفسير والتأويل موظفا رأيه في محاولة فهم المأثور واستيعابه.

6 – برزت شخصية ابن عجيبة – كإمام في التفسير الصوفي – من خلال التزامه بشروط التفسير الإشاري كما بينها العلماء، وقد أوضحت بالتفصيل مدى التزامه بذلك من خلال تقديم نماذج وأمثلة توضح ذلك وتبرز مدى دفاعه عن أصالة التفسير الصوفي المستمد من الكتاب و السنة.

7 – تناول البحث بالتفصيل دراسة أبرز جوانب التفسير بالمأثور من جهة و التفسير بالرأي من جهة أخرى. وسجل البحث على ابن عجيبة إقلاله من ذكر وتقرير كثير من المباحث العلمية المتعلقة بالفقه وأصوله وجوانب البلاغة وغيرها، وقد بينت كيف أنه لا ينتظر من ابن عجيبة الذي كرس جهوده التفسيرية لخدمة أغراض التفسير الإشاري الإلمام والإطناب في

ذكر جوانب اللغة والنحو والفقه وغيرها إيمانا منه بأن كل ذلك مقرر في كتب التفسير المشهورة.

8 – تم إعطاء فكرة مركزة وموجزة عن القيمة العلمية للبحر المديد انطلاقا مما يتضمنه من جوانب متميزة بوأته مكانة بارزة فضلا عما سجله من مناقشات ابن عجيبة للفقهاء والمفسرين. وقدمت بالتالي مقارنة بين البحر المديد وتفسيري القشيري والحرالي، وأبرزت من خلال ذلك تفوق ابن عجيبة في منهجه التفسيري وتميزه على غيره من المفسرين من حيث القدرة على المزاوجة بين عمليتي التفسير بالظاهر وبالإشارة. ولم أتحدث عن أثر «البحر المديد» في المفسرين اللاحقين نظرا إلى انعدام أي أثر لتفسير ابن عجيبة فيمن جاء بعده، وذلك اعتبارا لما لاقاه التفسير الصوفي بالمغرب في القرون المتأخرة من إهمال وعزوف العلماء وحذرهم منه من جهة وقلة اهتمام العلماء المغاربة بالتفسير وعلومه بصفة عامة واشتهارهم بالمقابل بالدراسة الفقهية من جهة أخرى، هذا فضلا عن أن شهرة المؤلف قد ظلت محدودة بالرغم من المكانة التي كان يتبوؤها في المجتمع التطواني.

ومما يمكن استنتاجه من فصول ومباحث هذا البحث بعض ملامح المنهج التفسيري العجيبي التي يمكن تلخيص أهمها فيما يلي :

أ) الموضوعية : فعند تفسيره للآية يقوم ابن عجيبة باستقراء الآيات المتصلة بها قصد استقصاء مختلف جوانب القضية القرآنية المدروسة، وبغية التأكيد على الوحدة الموضوعية للآيات.

ب) الترجيح والتعليل و المقارنة : وهو منهج أساسي لدى ابن عجيبة أكد عليه في مختلف جوانب تفسيره، سواء أثناء استحضاره لمختلف القواعد والضوابط العلمية نحوية كانت أو بلاغية أو صوفية أو غيرها أو أثناء اعتماده على شتى المصادر الرئيسية التي ينقل عنها فيوازن ويرجح ويقارن.

ج) النقل : وهو ما يتجلى في اعتماده على مصادر عدة يقوم باصطفاء أفضلها وأجودها مع اختيار أصح الأخبار و الآثار والأقوال، وقد بينت كيف أن ذلك لم يمنعه من التصدي للإسرائليات المكذوبة التي نقلها بعض المفسرين والأحاديث الموضوعة التي يبين زيفها واختلاقها.

د) الذوق السليم : وهو ما اعتمده بالأساس في باب التفسير الإشاري، حين أبان ابن عجيبة عن مقدرته الفائقة على تذوق أسرار القرآن الكريم واستبطان الإشارات الدقيقة و الإيحاءات الرقيقة التي لا تغض من قيمة التفسير الظاهر للآيات وأهميته، وقد أكدت غير ما مرة في هذا البحث عن تميز ابن عجيبة وانفراده عن كثير من المفسرين بهذا الملمح التفسيري الذي يمكن اعتباره إضافة جوهرية أعطت لتفسيره بعدا جديدا.

وختاما، فقد شاءت إرادة المولى عز وجل أن أهتم بتفسير ابن عجيبة من حيث منهجه وطريقته. ولا أزعم لنفسي الإحاطة بجميع مباحث الدراسة ولا الإلمام بكل ما يقتضيه البحث، لكنني لم أقصر في بحث ودراسة ما أعتقده جديرا بذلك، فإن وفقت في شيء من ذلك فلله الفضل وله الحمد والثناء، وإن قصرت فحسبي أنني حاولت وبذلت وسعي في تقديم ابن عجيبة إلى الباحثين و الدارسين عسى أن يكون هذا التقديم باعثا على دراسة جوانب أخرى من تراثه الغني، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس الفهارس

1 فهرس الآيات القرآنية.
2 فهرس الأحاديث النبوية.
3 فهرس المصادر والمراجع.

أ . فهرس المصادر المخطوطة.
ب. فهرس المصادر العربية المطبوعة.
ج. فهرس المصادر الأجنبية.
د. فهرس المجلات والدوريات العربية والأجنبية.

4 فهرس الموضوعات.

1 - فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	الصفحة
الفاتحة		
رب العالمين	2	350
إياك نعبد وإياك نستعين	5	321
اهدنا الصراط المستقيم	6	188/ج1
غير المغضوب عليهم ولا الضالين	7	372
البقرة		
مثلهم كمثل الذي استوقد نارا	17	329
يا أيها الناس اعبدوا ربكم	21	405
وإن كنتم في ريب مما نزلنا	23	339
وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة	35	275
فتلقى آدم من ربه كلمات	37	127
وإني فضلتكم على العالمين	47	63/ج1
وإذ قال موسى لقومه يا قوم	54	308
بيسما اشتروا به أنفسهم	90	303
واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك	102	226
ما ننسخ من آية أو ننسها	107	109
أم تريدون أن تسألوا رسولكم	108	255/ج1
ومن أظلم ممن منع مساجد الله	114	180/ج1

الآية	رقمها	الصفحة
ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا	115	246
وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه	116	72
قل أتدعون من دون الله ما لا ينفعنا	120	186/ج1
رب اجعل هذا بلدا آمنا	126	443
وإن كانت لكبيرة إلا على الذين	143	258/ج1
الذين آتيناهم الكتاب	146	186/ج1
ولكل وجهة هو موليها	147	449
فاذكروني أذكركم	152	278-274
ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم	158	174
أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى	168	323
إنما يامركم بالسوء والفحشاء	169	30
يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام	183	298
وإذا سألك عبادي عني فإني قريب	186	241
أحل لكم ليلة الصيام الرفث	187	16
وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم	190	37
وأتموا الحج والعمرة لله	196	438
الحج أشهر معلومات	197	365
ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة	201	150
يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم	206	354
فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه	213	186/ج1
يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم	215	394
يسألونك عن الشهر الحرام	217	167
قل فيهما إثم كبير	219	171

الآية	رقمها	الصفحة
ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم	224	142
لا يواخذكم الله باللغو في إيمانكم	225	387
وقال لهم نبيئهم إن آية ملكه	248	144
الله ولي الذين آمنوا يخرجهم	256	60/ج1
أو كالذي مر على قرية	259	262/ج1
وإذ قال إبراهيم رب أرني	260	262/ج1
يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات	267	38
الشيطان يعدكم الفقر	268	30
آل عمران		
زين للناس حب الشهوات من النساء	14	1/200
فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه	25	255
قل إن كنتم تحبون الله	31	43/ج1
أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام	41	20
إن الله اصطفاك وطهرك	42	105
يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله	102	398
وما كان لنبي أن يغل	161	162
إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه	175	73
الذين قالوا إن الله عهد إلينا	183	300
فإن كذبوك فقد كذب رسل	184	356
الذين يذكرون الله قياما وقعودا	191	289/ج1
يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا	200	287

الآية	رقمها	الصفحة
النساء		
وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى	3	137
فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة	3	273
وإن كان رجل يورث كلالة	12	141
واللاتي ياتين الفاحشة من نسائكم	15	396
وليست التوبة للذين يعملون السيئات	18	255
يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا	19	417
وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء	43	384
أفلا يتدبرون القرآن	82	266
ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا	89	371
واقتلوهم حيث وجدتموهم	90	399-371
ومن يقتل مومنا متعمدا فجزاؤه	93	395-254
وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح ...	101	381
فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله	103	274/ج1
إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار	145	107
إلا الذين تابوا وأصلحوا	146	103
فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم	155	252
وكلم الله موسى تكليما	164	62
يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم	171	365
المائدة		
واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام	1	165
اليوم أكملت لكم دينكم	3	273

الآية	رقمها	الصفحة
حرمت عليكم الميتة والدم	3	294
قال رجلان من الذين يخافون	23	177
والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما	38	390-371-367
وأنزلنا إليك الكتاب بالحق	48	213
أن احكم بينهم بما أنزل الله	49	399
يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود	51	60
هل تنقمون منا	59	357
وقالت اليهود يد الله مغلولة	64	307
قل يا أهل الكتاب لستم على شيء	68	281
ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا	83	1/186
فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام	91	181
يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا	95	142
يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء	101	413
وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير	110	77
الأنعام		
ولقد استهزئ برسل من قبلك	10	57
ما فرطنا في الكتاب من شيء	38	23
وإذا جاءك الذين يومنون	54	1/314
ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء الله	80	371-283
قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون	91	265
ولقد جئتمونا فرادى	94	1/160
وما تشاءون إلا أن يشاء الله	112	250-249

الآية	رقمها	الصفحة
الأعراف		
ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها	43	130
إن ربكم الله الذي خلق السماوات	54	244-243
وهو الذي يرسل الرياح نشرا	57	170
وإلى مدين أخاهم شعيبا	85	58
وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى	127	38/ج1
ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم	149	333
وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون	168	374
واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا	175	139
سنستدرجهم من حيث لا يعلمون	182	339
هو الذي خلقكم من نفس واحدة	189	217
الأنفال		
إذ تستغيثون ربكم	9	164
وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق	32	56
واتقوا فتنة لا تصيبن	25	46
واعلموا أنما غنمتم من شيء	41	447
يا أيها النبيء حسبك الله	64	364
يونس		
فقل إنما الغيب لله	20	1/256
والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة	27	254
قل هل من شركائكم من يهدي	35	170

الآية	رقمها	الصفحة
قل بفضل الله ورحمته فبذالك	58	289
وما تكون في شأن وما تتلو	61	297
قل انظروا ماذا في السماوات والأرض	101	1/193
هود		
من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها	15	415
فمن كان على بينة من ربه	17	108
ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا	18	308
قلنا احمل فيها من كان زوجين	40	370
قال لا عاصم اليوم من أمر الله	43	370
وقيل يا أرض ابلعي ماءك	44	340
قال يا نوح إنه ليس من أهلك	46	159
قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة	88	314
وكلا نقص عليك من أنباء الرسل	120	306
يوسف		
وراودته التي هو في بيتها	23	116
إنه ربي أحسن مثواي	23	351
وهمت به وهم بها لولا أن أرى	24	443
إن النفس لأمارة بالسوء	53	1/201
ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم	68	1/250
وفوق كل ذي علم عليم	76	441
فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا	80	368

الآية	رقمها	الصفحة
إنما أشكو بثي وحزني إلى الله	86	306-39
حتى إذا استيأس الرسل	110	444
الرعد		
إن الله لا يغير ما بقوم	11	1/229
وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال	13	352
ولله يسجد من في السماوات	15	324
أنزل من السماء ماء فسالت أودية	17	64
أفلم ييأس الذين آمنوا	31	346
مثل الجنة التي وعد المتقون	35	366
وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار	42	160
إبراهيم		
واذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم	7	1/227
ألم ياتكم نبأ الذين من قبلكم	9	310
وقال الشيطان لما قضي الأمر	22	249
وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها	34	311
وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا	35	443-432
فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله	47	322
الحجر		
ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين	2	132
أفمن يخلق كمن لا يخلق	17	

الآية	رقمها	الصفحة
وأرسلنا الرياح لواقح	22	122
لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون	72	386
وأعرض عن المشركين	91	400
فأذاقهم لباس الجوع والخوف	88	329
النحل		
إن تحرص على هداهم	37	160
والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا	41	416
وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا	43	1/165
وما بكم من نعمة فمن الله	53	1/228
وإن لكم في الأنعام لعبرة	66	136
ومن ثمرات النخيل والأعناب	67	395
والله فضل بعضكم على بعض	70	36
ألم يروا إلى الطير	79	36
ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء	89	23
إنما حرم عليكم الميتة والدم	115	294
واصبر وما صبرك إلا الله	127	226
إن الله مع الذين اتقوا	128	35
الإسراء		
وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا	16	36/ج1
واخفض لهما جناح الذل من الرحمة	24	329
ولا تقف ما ليس لك به علم	36	280

الآية	رقمها	الصفحة
ومن الليل فتهجد به نافلة لك	79	101
وما أوتيتم من العلم إلا قليلا	85	441
قل لئن اجتمعت الإنس والجن	88	338
الكهف		
إذ قاموا فقالوا ربنا	14	1/289
وإذ قلنا للملائكة اسجدوا	50	319
حتى إذا أتيا أهل قرية	77	151
مريم		
فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ..	17	442
ما كان ق أن يتخذ من ولد	35	163
طـه		
الرحمان على العرش استوى	5	243
اخلع نعليك	12	1/146
منها خلقناكم وفيها نعيدكم	55	147
وخشعت الأصوات للرحمان	108	286
وعنت الوجوه للحي القيوم	111	1/306
الأنبياء		
لو كان فيهما آلهة إلا الله	22	22
والشمس والقمر كل في فلك يسبحون	33	22

الآية	رقمها	الصفحة
لو كان هؤلاء آلهة	99	22
الحج		
ومن الناس من يعبد الله على حرف	11	188
وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت	26	190
لن ينال الله لحومها ولا دماؤها	37	45
وما أرسلنا من قبلك من رسول	52	63
وجاهدوا في الله حق جهاده	78	117
المومنون		
ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال	23	411
ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين	31	128
ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر	75	121-120
النور		
وأنكحوا الأيامى منكم	32	133
الله نور السماوات والأرض	35	407-299
لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ..	57	164
أو ما ملكتم مفاتحه	61	102
الفرقان		
تبارك الذي نزل الفرقان على عبده	1	409
إن هذا إفك افتراه	4	338

الآية	رقمها	الصفحة
قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا	18	175
إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا	44	73
وتوكل على الحي الذي لا يموت	58	1/231
تبارك الذي جعل في السماء بروجا	61	216
وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما	63	401
الشعراء		
قال فرعون وما رب العالمين	23	353
قل إني لعملكم من القالين	168	337
وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به	192	382
النمل		
ويوم نحشر من كل أمة	83	307-273
الروم		
فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله	30	1/348
الله الذي خلقكم من ضعف	46	170
لقمان		
ولقد اتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله	12	122
يا بني لا تشرك بالله	13	313-288
ومن يسلم وجهه إلى الله	22	88
ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام	27	362

الآية	رقمها	الصفحة
وما تدري نفس بأي أرض تموت	34	180
سبأ		
اعملوا آل داود	13	1/228
فلما قضينا عليه الموت	14	161
وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ...	28	348
وقال الذين استضعفوا اللذين استكبروا	33	325
يس		
إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا	8	92
وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ...	22	318
تجري لمستقر لها	38	93
ما ينظرون إلا صيحة واحدة	49	253
الصافات		
والله خلقكم وما تعملون	26	250
ص		
كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا	29	267
ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه	34	220
قال يا إبليس ما منعك	75	246

الآية	رقمها	الصفحة
الزمر		
وإن تشكروا يرضه لكم	7	39
إنما يتذكر أولوا الألباب	9	14
غافر		
وما يتذكر إلا من ينيب	13	14
فصلت		
إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا ..	40	278
سنريهم آياتنا في الآفاق	53	18
الشورى		
يكاد السماوات يتفطرن من فوقهن	3	161
ليس كمثله شيء وهو السميع البصير	11	242
لنا أعمالنا ولكم أعمالكم	15	400
من كان يريد حرث الآخرة نزد له	20	326
الزخرف		
واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا	45	189
الدخان		
فارتقب يوم تأتي السماء بدخان	10	121

الآية	رقمها	الصفحة
الجاثية		
وإذا قيل إن وعد الله حق	31	335
الفتح		
وعدكم الله مغانم	20	146
لتومنوا بالله ورسوله وتعزروه	9	184
ق		
تبصرة وذكرى لكل عبد منيب	8	14
النجم		
أفرأيتم اللات والعزى	19	30
وما ينطق عن الهوى	4-3	31
القمر		
وحملناه على ذات ألواح ودسر	13	223
إنا كل شيء خلقناه بقدر	49	182
الرحمان		
مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ	19	292
الحشر		
كمثل الذين من قبلهم قريبا	15	84

الآية	رقمها	الصفحة
الممتحنة		
يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المومنات	10	69
الجمعة		
يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة	9	81
التغابن		
هو الذي خلقكم فمنكم كافر	2	251
التحريم		
يا أيها النبيء لم تحرم ما أحل الله لك	1	414
يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله	8	297-219
القيامة		
لا تحرك به لسانك لتعجل به	17	411
لا أقسم بيوم القيامة	2-1	199
الإنسان		
وحلوا أساور من فضة	21	152
المرسلات		
ألم نخلقكم من ماء مهين	23	291
إنا كذلك نجزي المحسنين	46	291

الآية	رقمها	الصفحة
النبأ		
عم يتساءلون عن النبإ العظيم	1	104
النازعات		
والنازعات غرقا والناشطات نشطا	2-1	115
التكوير		
فأين تذهبون إن هو إلا ذكر للعالمين	27-26	104
الإنفطار		
وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك	19	367
المطففين		
ويل للمطففين	1	103
كلا إن كتاب الفجار لفي سجين	9	105
الإنشقاق		
لتركبن طبقا عن طبق	19	355
الأعلى		
سبح اسم ربك الأعلى	1	350
الفجر		
إذا دكت الأرض دكا	22	97

الآية	رقمها	الصفحة
يا أيتها النفس المطمئنة	28	416
الشمس		
فألهمها فجورها وتقواها	5	199
الليل		
فأما من أعطى واتقى	6	67
الضحى		
وأما بنعمة ربك فحدث	11	228/ج1
الإنشراح		
ورفعنا لك ذكرك	4	66

2 - فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
إذا أراد الله بعبد خيرا	1/391
أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك	1/201
أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك	1/391
أفلا أكون عبدا شكورا	1/288
أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون	196
ألا أخبرك بسورة لم تنزل في التوراة	204
ألا أنبئكم بخير أعمالكم	1ج/275
ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه	131
أنا عند ظن عبدي	278-276
إن الله تعالى لا يحب الذواقين	1/391
إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا	223
إن للقرآن ظاهرا وباطنا	268-265
أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان	1/283
إن لكل شيء سناما	1/306
إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير	1/306
إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية	1/220
بلغوا عني ولو آية	214
التحدث بالنعمة شكر	1/228
تعس عبد الدينار والدرهم	283
تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين عاما	310
اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم	196

الحديث	الصفحة
تناكحوا تكاثروا	133
جاء جيش من الحبشة يزفون	1/228
خير مال المسلم غنم يتبع بها شعب الجبال	281
دع ما يريبك إلى ما لا يريبك	1/223
رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترني	1/283
السابق يدخل الجنة بغير حساب	131
شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي	253
اعملوا فكل ميسر لما خلق له	1/368
افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة	206
كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع	192
كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه	362
اكلفوا من العمل ما تطيقون	1/208
كل عبادي خلقت حنيفا (حديث قدسي)	349
كل مولود إلا يولد على الفطرة	349
لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم	211
لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله	1/274
لتسلكن سنن من قبلكم شبرا بشبر	305
لعن الله الخمر وبائعها	172
لقد جئتكم بها بيضاء نقية	214
لن يدخل أحدكم الجنة عمله	130
اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون	1/257
ما اجتمع قوم يذكرون	1/382
ما بعث الله نبيا إلا وآتاه	58

الحديث	الصفحة
ما بين الناس وبين أن ينظروا إلى ربهم	1/376
ما جلس قوم مجلسا	1/278
ما من مومن إلا وأنا أولى الناس به	140
ما من يوم إلا ولله فيه نعم	1/278
مثل ما بعثني الله به من الهدى	65
مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمن استأجر	207
من أحب فطرتي فليستن بسنتي	134
من حفظ على أمتي أربعين حديثا	1/323
من عرف نفسه فقد عرف ربه	196
من قال حين يصبح ثلاث مرات	204
من قال حين يصبح : فسبحان الله حين تمسون	204
من كان له ما يتزوج به	134
من كذب علي متعمدا	212
من لم يدع قول الزور والعمل به	298
الندم توبة	1/218
نية المومن خير من عمله	1/271
والذي نفسي بيده ليخفف على المومن	133
والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله	220

3 - فهرس المصادر المخطوطة

- أربعون حديثا في الأصول والفروع
والدقائق لابن عجيبة ..... خ.خ.ع بالرباط 2829د
- الإرشاد والتبيان لما أنكره الرؤساء والأعيان
من أهل تطوان للمكودي ..... خ.خ.ع بالرباط 1856د
- أزهار البستان في طبقات الأعيان
لابن عجيبة ..... خ.خ.ح بالرباط 417
- إمداد ذوي الإستعداد
لعبد القادر الكوهن ..... خ.خ.ع بالرباط 103 ج
- الإنالة العلمية والرسالة العلمية
لابن ليون التجيبي ..... خ.خ.ع 1041 د
- الأنوار السنية في الأذكار
النبوية لابن عجيبة ..... خ.خ.ع بتطوان 244.
- الأنوار السنية في شرح
قصيدة الهمزية ..... خ.خ.ع بالرباط 1296 ك
- البحر المديد في تفسير
القرآن المجيد ..... خ.خ.ح بالرباط 3329
- تفسير الفاتحة الكبيرلابن عجيبة ..... مخطوط خاص.
- تفسير الفاتحة المتوسط
لابن عجيبة ..... خ.خ.ح بالرباط 325 11ز
- تفسير الفاتحة المختصر لابن عجيبة ..... خ.خ.ح بالرباط 10091ز
- تفسير الكواشي ..... خ.خ.ح 6954

- تفسير الهلالي السجلماسي ..... خ.خ.ح 5345
- تقييد في الغيبة ومدح العزلة والصمت
لابن عجيبة ..... خ.خ.ع 2841 ك.
- حاشية على الجامع الصغير
لابن عجيبة ..... مخطوط خاص.
- حاشية الفاسي على الجلالين ..... خ.خ.ح 1033.
- رسالة إلى الإخوان للشيخ
العربي الدرقاوي ..... خ.خ.ع بالرباط 1846 د.
- الرسالة الميمونية في توحيد الأجرومية
لعلي بن ميمون الغماري ..... خ.خ.ع بالرباط 1780 د.
- سبحة العقيق لذكر مناقب الشيخ محمد
بن الصديق لأحمد بن الصديق الغماري .... خ.خ.ع بالرباط 1815 د.
- سلك الدرر في ذكر القضاء
والقدر لابن عجيبة ..... خ.خ.ع بالرباط 1148 ك.
- سلوك الطريق الوارية في الشيخ
والزاوية لمحمد بن علي الزبادي ..... خ.خ.ع بالرباط 247 ك.
- شرح البردة لابن عجيبة ..... مخطوط خاص.
- شرح تائية البوزيدي لابن عجيبة ..... مخطوط خاص.
- شرح الحزب الكبير لابن عجيبة ..... خ.خ.ع بتطوان 301 م.
- شرح قصيدة لابن الفارض،
تأليف ابن عجيبة ..... خ.خ.ع بالرباط 2829 د.
- شرح قصيدة هائية للرفاعي
تأليف ابن عجيبة ..... خ.خ.ع بالرباط 1736 د.
- شرح المباحث الأصلية لأحمد زروق ..... خ.خ.ع بالرباط 2284د.
- شرح مقطعات الششتري لابن عجيبة ..... خ.خ.ع بالرباط 1974 د.

- شرح المنفرجة لابن النحوي،
تأليف ابن عجيبة ..... خ.خ.ع بتطوان 457.
- شرح منظومة البوزيدي في طريق
السلوك لابن عجيبة ..... مخطوط خاص.
- شرح نونية الششتري لابن عجيبة ..... خ.خ.ع بالرباط 1736 د.
- عدة المريد الصادق لأحمد زروق ..... مخطوط خاص.
- الفتوحات القدوسية في شرح
الأجرومية لابن عجيبة ..... مخطوط خاص.
- قوانين صوفية للهاشمي بن عجيبة ..... خ.خ.ع بتطوان 244 م.
- كشف النقاب عن سرلب الألباب
لابن عجيبة ..... خ.خ.ع بالرباط 1974 د.
- الكناش لأحمد زروق ..... خ.خ.عبالرباط 1385 ق.
- كنز الأسرار ومعدن الأخيار في مناقب مولاي العربي الدرقاوي وبعض
أصحابه الأخيار لبوزيان المعسكري ..... خ.خ.ع بالرباط 2841 ك.
- اللوائح القدوسية في شرح الوظيفة
الزروقية لابن عجيبة ..... خ.خ.ع بتطوان 301.
- مجموع الأدعية والأذكار الممحقة
للذنوب والأوزار ..... خ.خ.ع بتطوان 274.
- المزايا فيما أحدث بأم الزوايا لمحمد
بن عبد السلام الناصري ..... خ.خ.ع بالرباط 3548 د.
- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء
الله الحسنى لأحمد زروق ..... خ.خ.ع بالرباط 1838 د
- مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه، للصبيان، للسلطان
سيدي محمد ين عبد الله ..... خ.خ.ع بالرباط 795 ك.

- النصح الأنفع للمعتصم بالسنة

من البدع لأحمد زروق ..... خ.خ.ع بالرباط 710 ق.

- نعوت الخمرة الأزلية في حال التجلي

وبعده لابن عجيبة ..... خ.خ.ع بالرباط 1974 د.

فهرس المصادر والمراجع المطبوعة

(أ)

* الإبانة عن معاني القراءات لمكي بن أبي طالب، تح عبد الفتاح شلبي، مطبعة نهضة مصر 1978.
* أبو العباس المرسي لأحمد حسين الدسياوي، دار المعارف بمصر 1965.
* أبو الحسن الشاذلي للدكتور عبد الحليم محمود، بدون تاريخ.
* الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة القاهرة 1967.
* الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم - دار الآفاق الجديدة، بيروت ط 1980/1.
* أحكام القرآن لابن العربي، تح محمد البجاوي، ط 1967/2 القاهرة.
* أحمد زروق والزروقية للدكتور علي فهمي خشيم، مكتبة دار الفكر بليبيا، ط أولى 1975.
* إحياء علوم الدين للغزالي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر 1957.
* آداب الصحبة لابن عرضون، تح د. عمر الجيدي، منشورات عكاظ - الرباط، ط 1987/1.
* أسباب النزول للواحدي، ط 1982/1 - دار الكتب العلمية ببيروت.
* إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين 1918 للدكتور عبد المجيد الصغير، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط 1988/1.
* الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، طبعة أولى 1328, مطبعة السعادة بمصر.
* أصول التفسير وقواعده لخالد العك، دار النفائس، طبعة ثانية 1986.

* إعانة المتوجه المسكين لأحمد زروق، تح علي فهمي خشيم، الدار العربية للكتاب، تونس 1979.
* الأعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق للدكتورة عائشة عبد الرحمان، دار المعارف بالقاهرة 1971.
* إعجاز القرآن للباقلاني، طبعة بيروت 1988.
* الأعلام للمراكشي، المطبعة الجديدة 1358 هـ.
* الأعلام للزركلي، طبعة ثانية 1378.
* إملاء ما من به الرحمان للعكبري، ط 1979/1, دار الكتب العلمية، بيروت.
* الإنصاف في مسائل الخلاف للأنباري، طبعة دار الفكر بيروت بدون تاريخ.
* أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام، مطبعة السعادة بمصر ط 19564.
* إيقاظ الهمم لابن عجيبة، الطبعة الأولى بمصر. ملتزم الطبع عبد الحميد أحمد حنفي.

(ب)

* البداية والنهاية لابن كثير، مصورة عن الطبعة الأولى 1966, مكتبة المعارف، بيروت.
* بدع التفاسير لعبد الله بن الصديق الغماري، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط 19862.
* البرهان في ترتيب سور القرآن لابن الزبير، تح محمد شعباني، طبع وزارة الأوقاف بالرباط 1990.

* البرهان في علوم القرآن للزركشي، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة القاهرة 1958.
* بغية الوعاة للسيوطي، نشر دار المعارف ببيروت، بدون تاريخ.
* بني زروال لمحمد البشير الفاسي الفهري، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط 1962.
* بيان إعجاز القرآن للخطابي، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، طبعة دار المعارف بمصر.

(ت)

* تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين 18 و19 للدكتور محمد الأمين البزاز، منشورات كلية الآداب بالرباط 1992.
* تاريخ التصوف في الإسلام للدكتور قاسم غني، النهضة المصرية بالقاهرة 1972.
* تاريخ تطوان لمحمد داود التطواني، تطوان (1379-1959).
* تاريخ الضعيف، تح أحمد العماري، دار المأثورات الرباط 1986.
* التحبير في التذكير للقشيري، تح د إبراهيم بسيوني، القاهرة 1993.
* التحرير والتنوير للطاهرين عاشور، الدار التونسية للنشر، بدون تاريخ.
* تذكرة الحفاظ، طبعة مصورة لدار التراث العربي ببيروت عن الطبعة الهندية.
* ترتيب تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب لأبي حيان ط 1989/1، بيروت.
* الترجمانة الكبرى للزياني، تح عبد الكريم الفلالي، الدار البيضاء 1967.
* الترغيب والترهيب للمنذري، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، ط أولى 1961، مطبعة السعادة بمصر.

* التسهيل لابن جزي، دار الكتاب العربي ببيروت، ط 1983/4.
* التصوف في عصر النابلسي لعبد القادر أحمد عطا، دار الجيل ببيروت ط19871.
* التعريف للداني، تح الدكتور الراجي الهاشمي، طبع وزارة الأوقاف بالرباط 1982.
* التعريفات للجرجاني، المطبعة الرسمية التونسية 1971.
* تفسير أبي حيان، طبعة ثانية، دار الفكر ببيروت 1983.
* تفسير أبي السعود، طبعة أولى / 1928 المطبعة المصرية.
* تفسير الألوسي، طبع المطبعة المنيرية بمصر.
* تفسير البيضاوي ، طبعة دار صادر ببيروت، دون تاريخ.
* تفسير الزمخشري، طبعة دار الفكر ببيروت.
* تفسير ابن عطية، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط.
* تفسير القرطبي، الطبعة الأولى 1933، مطبعة دار الكتاب المصرية بالقاهرة.
* تفسير ابن كثير، دار إحياء التراث العربي، ببيروت 1969.
* تفسير النصوص لمحمد أديب صالح، المكتب الإسلامي ط 19934.
* التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ط19762.
* التلخيص للقزويني، دار الكتاب العربي بيروت، بدون تاريخ.
* التناسب البياني في القرآن للدكتور أحمد أبو زيد منشورات كلية الآداب بالرباط 1992.
* تناسق الدرر في تناسب الآي والسور للسيوطي، تح عبد القادر أحمد عطا، ط1986/1 بيروت.
* التنوير في إسقاط التدبير لابن عطاء الله، مطبوعات مكتبة عباس شقرون، بدون تاريخ.

* التيسير للداني، تصحيح أوتو برتزل، دار الكتاب العربي ببيروت، ط 1985/3.

(ج)

* جامع البيان في تفسير القرآن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط19542.
* جذوة المقتبس للحميدي، سلسلة تراثنا الأندلسية، القاهرة 1966.
* جواهر البيان في تناسب سور القرآن لأبي الفضل عبد الله بن الصديق، ط 1986/2, عالم الكتب ، بيروت.
* جواهر القرآن ودرره للغزالي، دار الكتب العلمية ببيروت ط 19881.
* الجيش العرمرم لأكنسوس، طبعة فاس الحجرية 1336.

(م)

* الحاوي للفتاوي للسيوطي، طبعة بيروت الثانية 1975.
* الحجة في علل القراءات السبع للفارسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1983.
* الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية لعبد الفتاح عبد الله بركة، بدون تاريخ.
* حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني، مطبعة السعادة بالقاهرة 1933.
* الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية لمحمد الأخضر، ط 1977/1, الدار البيضاء.

(خ)

* خلال جزولة للعلامة المختار السوسي، تطوان 1379.

(د)

* دليل مؤرخ المغرب الأقصى لعبد السلام بن سودة، الطبعة الثالثة 1960، الدار البيضاء.
* دوحة الناشر لابن عسكر، تح محمد حجي، الرباط 1976.
* الديباج المذهب لابن فرحون، الطبعة الأولى 1351، مطبعة المعاهد بمصر.
* ديوان حمدون بن الحاج، تح أحمد العراقي، رسالة د.د.ع مرقونة بكلية آداب فاس.
* ديوان الحوات، تح عبد الحق الحيمر، رسالة د.د.ع مرقونة بكلية آداب فاس.

(ذ)

* ذكريات مشاهير رجال المغرب، للعلامة عبد اق كنون، دار الكتاب اللبناني ببيروت.

(ر)

* الرسالة لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية ببيروت 1986.
* الرسالة للشافعي، طبعة أولى -مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.
* الرسالة للقشيري، تح معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطجي، نشر دار الخير، بيروت، ط 19931.
* رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي، تح عبد الفتاح أبو غدة ط1988/5.
* الرمز الشعري عند الصوفية للدكتور عاطف جودة نصر، دار الأندلس، بيروت، ط 1978/1.

* الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة للحوات، تح عبد العزيز تيلاني.
* الرياضة وأدب النفس للحكيم الترمذي، تح أربري وعلي حسن عبد القادر، القاهرة 1974.

(ز)

* الزاوية للتهامي الوزاني - العرائش، دون تاريخ.
*الزاوية الشرقاوية لأحمد بوكاري، مطبعة النجاح، الدار البيضاء 1989.

(س)

* الإستقصا في أخبار المغرب الأقصى للناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1956.
* سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة لناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ط1399/1.
* سلوة الأنفاس لمحمد بن جعفر الكتاني، الطبعة الثانية 1955.
*سنن الترمذي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، ط 1974/2 دار الفكر - مصر.
* سنن الدارمي بعناية محمد أحمد دهمان، نشر دار إحياء السنة النبوية.
* سنن أبي داود، تصحيح محمد محيي الدين، نشر إحياء السنة النبوية.
* سنن ابن ماجة، نشر بعناية محمد فؤاد عبد الباقي بدار الكتب العربية بالقاهرة عام 1952.
* سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية الإمام السندي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(ش)

* شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد مخلوف، دار الكتاب العربي ببيروت 1949.
* شجرة الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار، تح عبد الكريم عثمان، مطبعة الإستقلال 1384.
* شرح تصلية ابن عربي لابن عجيبة تطوان - ط 1402/1.
* شرح زروق على الحكم، تح عبد الحليم محمود ومحمد بن الشريف، مطبعة الشعب بالقاهرة 1969.
* شرح ابن عباد على الحكم، تح عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ط1970/1 القاهرة.
* شرح الصلاة المشيشية لابن عجيبة مطبعة العرائش ط 1402/1.
* شفاء السائل لتهذيب المسائل لابن خلدون، تح محمد بن تاويت أنقرة 1958.

(ص)

* صحيح البخاري - المكتبة الثقافية ببيروت، بدون تاريخ.
* صحيح مسلم، عني به محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية ط 1955/1.
* صفة الصفوة لابن الجوزي، دار المعرفة، بيروت ط 1985/3.

(ط)

* طبقات ابن السبكي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، طبعة أولى.
* طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمان السلمي، تح نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي بالقاهرة ط1986/3.

* طبقات المفسرين للداودي، نشر دار الكتب العلمية ببيروت، بدون تاريخ.

(ع)

* ابن عطاء اف السكندري وتصوفه لأبي الوفا التفتازاني، مكتبة الأنجلو مصرية 1969.
* عوارف المعارف للسهرودي، طبعة القاهرة 1339.

(غ)

* غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري، نشر برجستر اسر، دار الكتب العلمية ببيروت ط 1982/3.

(ف)

* فتاوي ابن تيمية، طبعة دار المعارف بالرباط 1980.
* فتاوي المهدي الوزاني، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط.
* الفتوحات الإلهية لابن عجيبة بهامش إيقاظ الهمم، الطبعة الأولى بمصر، ملتزم الطبع عبد الحميد أحمد حنفي.
* الفتوحات المكية لابن عربي، طبعة دار صادر - بيروت، بدون تاريخ.
* فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام، تح أحمد الخياطي، طبع وزارة الأوقاف بالرباط 1995.
* فضائل القرآن للنسائي، تح الدكتور فاروق حمادة، طبعة دار الثقافة بالبيضاء 1980.
* الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي للحجوي، المطبعة الجديدة بفاس، بدون تاريخ.
* الفلسفة الصوفية في الإسلام للدكتور عبد القادر محمود ط19661 القاهرة.

* الفهرسة لابن عجيبة، تح عبد الحميد صالح حمدان، نشر دار الغد العربي بالقاهرة 1990.
* فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط 1982/2 - بيروت.
* الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة للشوشاوي، تح الدكتور إدريس عزوزي، طبع وزارة الأوقاف بالرباط1989.

(ق)

* القاموس المحيط للفيروزآبادي، نشر دار العلم للجميع، بيروت، لبنان.
* قصة التفسير للدكتور أحمد الشرباصي، دار الجيل بيروت، ط 1978/2.
* القصر الكبير : أعلام أدبية علمية تاريخية لمحمد بن عبد الرحمان بن خليفة، مطبعة طنجة 1994.
* قواعد التصوف لأحمد زروق ط 1980/3 القاهرة.
* القوانين الفقهية لابن جزي، ط لبنان بدون تاريخ.

(ك)

* كشف الخفا ومزيل الألباس للعلجوني، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط 1351/3.
* كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة، طبعة استانبول 1941.
* الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكي بن أبي طالب، تح محيي الدين رمضان ط 1984/3 - مؤسسة الرسالة بيروت.
* كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي، مؤسسة الرسالة بيروت 1979.

(ل)

* اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي، ط 1975/2 بيروت.
* لسان العرب لابن منظور.
* لسان الميزان لابن حجر، طبعة دائرة المعارف النظامية 1329 - حيدر أباد.
* لطائف الإشارات للقشيري، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط 1981/2.
* لطائف المنن لابن عطاء اڤ، طبعة دار المعارف بمصر 1992.
* اللمع للطوسي، تح عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر 1960.

(م)

* مؤرخو الشرفاء لليفي بروفنسال، تعريب عبد القادر الخلادي، الرباط 1977.
* مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي صالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1977/10.
* مجاز القرآن لأبي عبيدة بن المثنى، تح فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط 1981/2.
* مجموع الرسائل للعربي الدرقاوي - الطبعة الحجرية بفاس.
* المحتسب لابن جني، طبعة القاهرة 1386.
* مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، تح محمد حامد الفقي، بدون تاريخ.
* المدخل لابن الحاج، الطبعة الثانية 1972، دار الكتاب العربي بيروت.
* مسند الإمام أحمد، طبعة دار صادر ببيروت.
* المصاحف لابن أبي داود، نشر آرثر جفري 1936.
* المصادر العربية لتاريخ المغرب للأستاذ محمد المنوني، مطبعة فضالة 1989.

* مظاهر يقظة المغرب الحديث للأستاذ محمد المنوني، مطبعة الأمنية 1973.
* معاني القرآن للزجاج، شرح وتحقيق الدكتور عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت ط 1988/1.
* معاني القرآن للفراء، عالم الكتب، بيروت ط 1980/2.
* معجم مصنفات القرآن الكريم لعلي شواخ إسحاق، منشورات دار الرفاعي، الرياض ط 1983/1.
* معجم المطبوعات العربية والمعربة لإلياس سركيس، القاهرة 1928.
* معجم مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، تح نديم مرعشلي، نشر دار الكتاب العربي بلبنان.
*معراج التشوف إلى حقائق التصوف لابن عجيبة، تطوان 1402.
* معرفة القراء الكبار للذهبي، تح محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة بمصر.
* المعيار المعرب للونشريسي، نشر وزارة الأوقاف بالرباط 1981.
* المغرب عبر التاريخ لإبراهيم حركات، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ط 1984/2.
* مغني اللبيب لابن هشام، طبعة دار الفكر الثانية 1969.
* مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري، نشر مكتبة النهضة المصرية 1389 هـ.
* المقتضب للمبرد، تح محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب بيروت.
* مقدمتان في علوم القرآن، نشر آرثر جفري وعبد اڤ الصاوي ط 2، مطبعة دار الصاوي 1972.
* المقدمة لابن خلدون، ط مصر بدون تاريخ.
* مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، نشر دار الصحابة للتراث بطنطا 1988/1.
* مقدمة ابن الصلاح، منشورات دار الحكمة بدمشق 1972.

* المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء اﷲ الحسنى للغزالي، بيروت 1971.
* الملامتية والصوفية وأهل الفتوة لأبي العلاء عفيفي، القاهرة 1945.
* الملك المصلح سيدي محمد بن عبد اﷲ للدكتور الحسن العبادي، الدار البيضاء 1987.
* الموافقات للشاطبي تح محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني بالقاهرة.
* الموسوعة المغربية لعبد العزيز بنعبد اﷲ، الرباط 1975.
* الموطأ للإمام مالك، طبع مطبعة عيسى البابي الحلبي 1370 هـ.
* الموضوعات لابن الجوزي، تح عبد الرحمان عثمان ط 1968/1 المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
* الميزان للذهبي، تح علي البجاوي، دار إحياء الكتب العربية ط 19631.

(ن)

* النبوغ المغربي في الأدب العربي للأستاذ عبد اﷲ كنون، طبعة بيروت 1961.
* نحو القلوب الصغير للقشيري، تح أحمد علم الدين الجندي، الدار العربية للكتاب بتونس 1977.
* النسخ في القران الكريم للدكتور مصطفى زيد ط/1978، دار الوفاء بالمنصورة.
* نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن الكريم للدكتور السيد أحمد خليل ط 1954/1.
* النشر في القراءات العشر لابن الجزري، تصحيح محمد علي الضباع، مطبعة مصطفى محمد بمصر.
* نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني للقادري، تح محمد حجي وأحمد توفيق - الرباط 1977.

* Michon (J.L) :
– Le marocain Ahmad Ibn Ajiba, Paris 1973.
* Perès (René) :
– La voie et la loi, ed Sindibad Paris 1991.

*Reysoo (Fennek) :
– Pèlerinages au Maroc, Paris 1991.

*Ruiz (Ricardo):
– La Kabila de Angera - Madrid 1908.

*Nicholson (R.A) :
– Studies in Muslim Mysticisme 1921.

*Salmon (g) :
– Confréries et Zaouyes de Tanger, in Archives Marocaines Tome 2 1905.

*Villes et Tribus :
– Tanger et sa zone (Mission scientifique) ed. Ernest Leroux - Paris 1991.

* المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء اﷲ الحسنى للغزالي، بيروت 1971.
* الملامتية والصوفية وأهل الفتوة لأبي العلاء عفيفي، القاهرة 1945.
* الملك المصلح سيدي محمد بن عبد اﷲ للدكتور الحسن العبادي، الدار البيضاء 1987.
* الموافقات للشاطبي تح محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني بالقاهرة.
* الموسوعة المغربية لعبد العزيز بنعبد اﷲ، الرباط 1975.
* الموطأ للإمام مالك، طبع مطبعة عيسى البابي الحلبي 1370 هـ.
* الموضوعات لابن الجوزي، تح عبد الرحمان عثمان ط 1968/1 المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
* الميزان للذهبي، تح علي البجاوي، دار إحياء الكتب العربية ط 19631.

(ن)

* النبوغ المغربي في الأدب العربي للأستاذ عبد اﷲ كنون، طبعة بيروت 1961.
* نحو القلوب الصغير للقشيري، تح أحمد علم الدين الجندي، الدار العربية للكتاب بتونس 1977.
* النسخ في القران الكريم للدكتور مصطفى زيد ط/1978، دار الوفاء بالمنصورة.
* نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن الكريم للدكتور السيد أحمد خليل ط 1954/1.
* النشر في القراءات العشر لابن الجزري، تصحيح محمد علي الضباع، مطبعة مصطفى محمد بمصر.
* نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني للقادري، تح محمد حجي وأحمد توفيق - الرباط 1977.

* نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق للشيخ الألباني، المكتب الإسلامي ط1989/2.
* نظم الدرر في تناسب الآي والسور للبقاعي، طبعة مصورة بالقاهرة عن الطبعة الهندية 1969.
* نفح الطيب للمقري، تح د إحسان عباس، طبعة دار الفكر ببيروت.
* نواسخ القرآن لابن الجوزي، تح محمد أشرف الملباري ط 1984/1.
* نيل الإبتهاج لأحمد بابا، طبعة مصر 1329.

(و)

* الواحدي ومنهجه في التفسير للدكتور جودة محمد محمد المهدي، طبع وزارة الأوقاف بمصر 1978.

(ي)

* اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة لمحمد البشير الأزهري، طبعة القاهرة 1324.

فهرس المراجع باللغة الأجنبية

* Basset (René) :
  - Recherches bibliographiques sur les sources de la Salaouat Al-Anfas. Alger 1905.

* Brockelman (Carl) :
  - Geshichte der Arabischen litteratur (GAL) :
  - Supplément (S).

* Brunnel (R) :
  - Essai sur la confrérie religieuse des Aïssaouas au Maroc -AFR -Orient - Casablanca 1988.
  - Le monachisme errant dans l'Islam : Sidi Heddi et les Heddaoua- Paris 1955.

*S. Delangier Beaurcueil :
  - Les étapes des itinérants vers Dieu - Le Caire 1962.

*Depont et Capolani :
  - Les Confréries religieuses musulmanes . Alger 1987.

* Dermenghem (Emile) :
  - L'éloge du vin - Paris 1931.
  - Le culte des saints dans l'Islam maghrébin, ed: Gallimard - Paris 1945.

*Drague :
  - Esquisse d'histoire religieuse - Paris 1951.

*Gimaret (Daniel) :
  - Les noms divins en Islam, ed du Cerf. Paris 1988.

*Massignon (Louis) :
  - La passion de Hallag 2ème ed. Gallimard 1975.
  - Recueil de textes inédits concernant l'histoire de la mystique musulmane Paris 1929.

* Michon (J.L) :
– Le marocain Ahmad Ibn Ajiba, Paris 1973.
* Perès (René) :
– La voie et la loi, ed Sindibad Paris 1991.

*Reysoo (Fennek) :
– Pèlerinages au Maroc, Paris 1991.

*Ruiz (Ricardo):
– La Kabila de Angera - Madrid 1908.

*Nicholson (R.A) :
– Studies in Muslim Mysticisme 1921.

*Salmon (g) :
– Confréries et Zaouyes de Tanger, in Archives Marocaines Tome 2 1905.

*Villes et Tribus :
– Tanger et sa zone (Mission scientifique) ed. Ernest Leroux - Paris 1991.

فهرس المجلات
والدوريات العربية والأجنبية

أ – العربية

* مجلة «دعوة الحق» إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط
ع271, أكتوبر 1988.
ع 277, دجنبر 1989.
ع 307, يناير - فبراير 1995.
مجلة دار الحديث الحسنية، ع 19823.
مجلة معهد المخطوطات العربية، مج 1 القاهرة 1955.

ب – الأجنبية

ARABICA;

* F. De Jong :
– Materiels relative to the history of the Darqawiy ya order (Tome 26). HESPERIS ;
* J. Herber :
– les Hamadchas et les Dghoughiyyins (Hesperis 1923).
*H.P.J. Renaud :
– Un nouveau document marocain sur la peste de 1799 (Hesperis 1925) R.M.M
*G.Salmon :
– Les derqaouas de Tanger (R. M.M Vol 39 juin 1920)
– E.I² : (Encyclopédie de l'Islam ; 2ème édition).

فهرس الموضوعات

مقدمة 9

القسم الأول :
حياة ابن عجيبة وفكره الصوفي

الفصل الأول : عصر ابن عجيبة 21
المبحث الأول : الحالة السياسية والإجتماعية 22
المبحث الثاني : مدى تأثير الأحداث السياسية والاجتماعية
على كتابات ابن عجيبة 36
المبحث الثالث : الحياة العلمية والثقافية في عهد ابن عجيبة 47
أولا : التربية وإصلاح مناهج التعليم 48
ثانيا: العلوم الشرعية 56
ثالثا : النهضة الأدبية 67
رابعا : العلوم العقلية 70
المبحث الرابع : الحياة الصوفية في عهد ابن عجيبة 73

الفصل الثاني : حياة ابن عجيبة 91
المبحث الأول : البيت العجيبي 93
أولا : نسبه 93
ثانيا : أسرته 96
ثالثا : أولاده 98
المبحث الثاني : مولده ونشأته
أولا : مولده 103

ثانيا:نشأته 106

المبحث الثالث : دراسته 111
شيوخه بتطوان 113
رحلته العلمية إلى فاس 124
المبحث الرابع : سلوكه ومجاهداته 128
المبحث الخامس : مكانته ووفاته 132
مكانته 132
وفاته 134

الفصل الثالث : الطريقة الدرقاوية ومحنة ابن عجيبة 137
المبحث الأول : معالم الطريقة 139
المبحث الثاني : محنة ابن عجيبة 150
أولا : مرحلة الاستعداد والقابلية لولوج الطريق الصوفي ... 150
ثانيا : مرحلة ولوج الطريق الصوفي 153
ثالثا : تجربة ابن عجيبة في خرق العوائد 158
رابعا : انتشار الدعوة العجيبية 164
خامسا : محاكمة ابن عجيبة وأتباعه 169

الفصل الرابع : مذهبه الصوفي 183
المبحث الأول : قضايا التصوف النظري 185
المطلب الأول : أصول المعرفة الصوفية عند ابن عجيبة 185
أولا : حدود المعرفة الصوفية 185
ثانيا : منهج المعرفة الصوفية 190
المطلب الثاني : النفس الإنسانية : عيوبها ومجاهدتها 196
أولا : تعريف النفس 196

ثانيا : مراتب النفس 198
ثالثا : عيوب النفس 201
رابعا : مجاهدة النفس 206
المطلب الثالث : النفس بين المقامات والأحوال 210
المطلب الرابع : الأسماء الحسنى 236
المبحث الثاني : قضايا التصوف العملي 241
المطلب الأول : الصحبة 241
المطلب الثاني : الشيخ 245
المطلب الثالث : مشكلة خرق العوائد وإسقاط التدبير 253
أولا : العوائد و الكرامات بين الحسية والمعنوية 253
ثانيا : مبدأ خرق العوائد 259
ثالثا : إسقاط التدبير 269
المطلب الرابع : الذكر والسماع 273
أولا : الذكر عند ابن عجيبة 273
ثانيا : الذكر بالورد 280
ثالثا :السماع عند ابن عجيبة 281
رابعا : آداب السماع 286
خامسا : حلقات الذكر الصوفي أو «الحضرة» في عصر
ابن عجيبة 291

القسم الثاني :
آثار ابن عجيبة

تمهيد 297
* تسهيل المدخل لتنمية الأعمال بالنية الصالحة 301
* اللوائح القدوسية في شرح الوظيفة الزروقية 304

* تقييد في الغيبة ومدح العزلة و الصمت 307
* الأنوار السنية في شرح قصيدة الهمزية 309
* تأليف في التوحيد والصلاة 312
* شرح الحزب الكبير للشاذلي 313
* شرح المنفرجة 316
* شرح البردة 317
* شرح أسماء الله الحسنى 320
* الأنوار السنية في الأذكار النبوية 321
* أربعون حديثا في الأصول والفروع والدقائق 323
* الدرر المتناثرة في توجيه القراءات المتواترة 325
* أزهار البستان في طبقات الأعيان 325
* حاشية على مختصر خليل 328
* حاشية الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين 328
* شرح تصلية ابن مشيش 329
* إيقاظ الهمم في شرح الحكم 332
* الفتوحات الألهية في المباحث الأصلية 340
* شرح قصيدة هائية للرفاعي 344
* شرح قصيدة لابن الفارض 345
* تفسير الفاتحة (المتوسط) 351
* تفسير الفاتحة (الكبير) 352
* شرح مقطعات الششتري 357
* شرح منظومة البوزيدي في طريق السلوك 359
* سلك الدرر في ذكر القضاء والقدر 361
* نعوت الخمرة الأزلية في حال التجلي وبعده 364

* شرح تصلية ابن عربي 366
* كشف النقاب عن سرلب الألباب 367
* تفسير الفاتحة (المختصر) 368
* شرح نونية الششتري 369
* معراج التشوف إلى حقائق التصوف 372
* شرح تائية البوزيدي 375
* الفهرسة 378
* مجموع الأدعية والأذكار الممحقة للذنوب والأوزار 381
* الفتوحات القدوسية في شرح المقدمة الأجرومية 383
*حاشية على الجامع الصغير للسيوطي 388
* الكشف والبيان في متشابه القرآن 391
* ديوان قصائد وأزجال 392
* التعريف بكتاب «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» 393

فهرس الجزء الثاني

القسم الثالث :
منهج ابن عجيبة في التفسير

مبحث تمهيدي : عملية التفسير عند ابن عجيبة 7

المطلب الأول : حول التفسير والمفسر 8

أولا : حول التفسير والتأويل والإشارة 8

ثانيا : العبارة والإشارة والرمز 15

ثالثا : عدة المفسر 20

المطلب الثاني : البحر المديد بين التفسير بالمأثور و التفسير بالرأي . 25

المطلب الثالث : طريقة ابن عجيبة في تفسيره 34

الباب الأول :مصادر ابن عجيبة في تفسيره 41

المبحث الأول : مصادره من كتب التفسير 44

المبحث الثاني : مصادره من كتب أخرى 91

أولا : مصادره في القراءات القرآنية 91

ثانيا : مصادره من كتب السنة 93

ثالثا : مصادره في الفقه و الأصول 99

رابعا : مصادره من كتب اللغة و النحو 102

خامسا : مصادره من كتب التصوف 107

المبحث الثالث : منهج ابن عجيبة في الاستفادة من مصادره 110

أولا : طرق اقتباسه من هذه المصادر 111

ثانيا : آراؤه فيما ينقله عن هذه المصادر 116

الباب الثاني : منهجه في التفسير بالمأثور وما يتعلق به

الفصل الأول : التفسير بالمأثور عند ابن عجيبة 127

المبحث الأول : تفسير القرآن بالقرآن 127

المبحث الثاني: تفسير القرآن بالحديث النبوي 131

المبحث الثالث : تفسير القرآن بأقوال الصحابة 135

المبحث الرابع : تفسير القرآن بأقوال التابعين 144

الفصل الثاني : منهجه في عرض القراءات القرآنية

والاحتجاج لها في تفسيره 153

المبحث الأول : موقف ابن عجيبة من القراءات المتواترة 156

المبحث الثاني : موقفه من القراءات العشر 173

المبحث الثالث : موقفه من القراءات الشاذة 175

الفصل الثالث : منهجه في رواية الأحاديث النبوية الشريفة 186

أولا : تخريجه للأحاديث 188

ثانيا : تصحيحه للأحاديث وتضعيفها 189

ثالثا : روايته للأحاديث الضعيفة والموضوعة 192

رابعا : أحاديث فضائل السور 200

خامسا : رواية الحديث بالمعنى 205

الفصل الرابع : الإسرائيليات وموقف ابن عجيبة منها 209

الفصل الخامس : المنهج العقدي في تفسير ابن عجيبة 232

المبحث الأول : عرضه لأدلة الربوبية والألوهية 234

المبحث الثاني : موقفة من مباحث علم الكلام 240

المبحث الثالث : رده على الفرق المنحرفة 248

الباب الثالث : منهجه في التفسير بالرأي وما يتعلق به

الفصل الأول : التفسير الإشاري عند ابن عجيبة 260

المبحث الأول : التعريف بالتفسير الإشاري 261

المبحث الثاني : شرعية التفسير الإشاري 266

المبحث الثالث : مدى التزام ابن عجيبة بشروط التفسير الإشاري .. 274

المبحث الرابع : خصائص التفسير الإشاري عند ابن عجيبة 285

الفصل الثاني : الجانب البلاغي في تفسير ابن عجيبة 315

المبحث الأول : في علم المعاني 318

المبحث الثاني : في علم البيان 323

المبحث الثالث : في علم البديع 334

المبحث الرابع : رأيه في إعجاز القرآن 337

الفصل الثالث : الاتجاه اللغوي و النحوي في تفسير ابن عجيبة .. 342

المبحث الأول : الاتجاه اللغوي في تفسير ابن عجيبة 344

المبحث الثاني : الاتجاه النحوي في تفسير ابن عجيبة 358

الفصل الرابع : منهج ابن عجيبة في عرض الأحكام الفقهية 376

الفصل الخامس : آراؤه في بعض علوم القرآن 391

المبحث الأول : حول النسخ في القرآن الكريم 392

المبحث الثاني : في مناسبات الآي والسور 401

المبحث الثالث : أسباب النزول 412

المبحث الرابع : الحروف المقطعة 418

فصل ختامي : القيمة العلمية لتفسير ابن عجيبة 427

الخاتمة 450

الفهارس العامة 455
فهرس الآيات القرآنية 457
فهرس الأحاديث النبوية 475
فهرس المصادر المخطوطة 479
فهرس المصادر و المراجع العربية المطبوعة 483
فهرس المصادر الأجنبية 497
فهرس المجلات و الدوريات العربية و الأجنبية 499
فهرس الموضوعات 501

رقم الإيداع القانوني : 1426 / 2001
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – الرباط

مطبعة فضالة

3، زنقة ابن زيدون المحمدية (المغرب)
الهاتف : 45. 46. 32 (023)
الفاكس : 43. 46. 32 (023)